بسم الله الرحمن الرحيم

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الحاج لخضر- باتنة -

كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية.

قسم: أصول الدين.

نيابة العمادة لما بعد التدرج والبحث العلمي والعلاقات الخارجية

منهج النبي ع في مواجهة التحديات الدعـويـة

مذكرة مقدمة لنيل درجة الماجستير في الدعوة الإسلامية

إعداد الطالب:

عمار دحماني

تحت إشراف:

الأستاذ الدكتور: عبد الحليم بوزيد

لجنة المناقشة:

الاسم واللقب	الرتبة العلمية	مقر العمل	الصفة
أ.د. منصور كافي	أستاذ التعليم العالي	جامعة باتنة	رئيسا
أ.د. عبد الحليم بوزيد	أستاذ التعليم العالي	جامعة باتنة	مقررا
د. رحيمة عيساني	أستاذة محاضرة	جامعة باتنة	عضوا
د. عمار طسطاس	أستاذ محاضر	جامعة الأمير عبد القادر- قسنطينة	عضوا

السنة الجامعية: ١٤٢٩هـ/١٤٣٠هـ

٢٠٠٨م/٢٠٠٩م

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى:

[قُلْ هـذه سبيلي أدعو إلى اللّه على بصيرة أناْ ومن اتبعني وسبحانَ اللّه وما أناْ من المشركين] يوسف/ ١٠٨.

صدق الله العظيم

الإهـداء

أهدي هذا البحث المتواضع:

إلى الوالدين الكريمين – حفظهما الله تعالى-...

إلى أخي الكريم نور الدين- رحمه الله تعالى-...

إلى الإخوة الكرام – حفظهم الله تعالى-...

إلى الزوجة الوفية وأولادي – حفظهم الله تعالى -...

وإلى كل الأساتـذة الذين تعلمت على أيديهم، وأخص بالذكر فضيلة الشيخ: **محمـد الغـزالي** – رحمه الله وأسكنه جنات النعيم -...

شكر وتقدير

استجابة لهدي المصطفى ε الذي يقول:

{ **لا يشكر الله من لا يشكر الناس** }

رواه البخاري في الأدب وصححه الألباني.

أقدم شكري الجزيل لكل من قدم لي يد المساعـدة لإنجاز هذا البحث، وأخص بالذكر أسـتاذنا الفاضل الأستاذ الدكتور: **عبد الحليم بـوزيد،** الذي أشرف على إنجاز هذا البحث، ولم يبخل علي بملاحظاته وتوجيهاته القيمة، وأوجه شكري الخاص لأستاذنا الفاضل الدكتور: **محمد زرمان،** والذي ساهم بدوره في هذا البحث، بنصائحه وتوجيهاته...

كما أشكر كل من ساعدني على إنجاز هذا البحث، سواء بالمراجع أو بالتوجيهات والنصائح...

فجزى الله الجميع بالخير والأجر

المقــدمة

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، وأصلي وأسلم على أفضـل خلقه، وخاتم رسله، سيدنا وحبيبنا، وقدوتنا محمد ε، وعلى آله وصـحبه ψ جميعا، الطيبين الطاهرين، ومن تبعهم واقتفى أثرهم بإحسان إلى يوم الدين.

يقـول الله تعالى: [يا أيها الذين آمنواْ اتقُواْ اللّه حق تقَاتـه ولاَ تموتن إلا وأنتم مسلمونَ] آل عمران/ ١٠٢، وقال أيضا: [وأن هـذَا صراطي مستقيما فَاتبِعوه ولاَ تتبِعواْ السبلَ فَتفَرق بِكُم عـن سبِيله ذَلكُم وصاكُم بِه لَعلكُم تتقُونَ] الأنعام/ ١٥٣.

أما بعد:

فإن الناس كانوا في أول الأمر على الفطرة السليمة، يعبدون الله وحده ولا يشركون به شيئا، فلما اختلفوا وتفرقوا أرسل الله الرسل؛ ليعيدوا الناس إلى جادة الصواب، لقوله تعالى: [كَانَ الناس أُمـةً واحدةً فَبعثَ اللّه النبِيين مبشرِين ومنذرِين وأَنزلَ معهم الْكتاب بِالْحق ليحكُم بين الناسِ فيما اختلَفُواْ فيه] البقرة/٢١٣؛ أي كان الناس أمة واحدة على التوحيد والإيمان، وعبادة الله وحـده، فـاختلفوا فأرسل الله النبيين مبشرين ومنذرين، وقد كان كل رسول يدعو قومه إلى الطريق المستقيم، ويقَـوم الانحراف الحاصل في عصره ومصره، وبالمنهج المناسب. كما أرسل الله الرسل حتى لا يبقى للنـاس حجة يوم القيامة، [رسلاً مبشرِين ومنذرِين لئَلا يكُونَ للناسِ علَى اللّه حجةٌ بعد الرسلِ وكَانَ اللّـه عزِيزا حكيما] النساء/١٦٥. وقد ختم الله الرسالات بالإسلام، والأنبياء بمحمد ε؛ عنـدها كمـل البناء، وحسن وجمل، فعن أبي هريرة τ: أن رسول ε قال: { إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة ؟ قال: فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين }[١].

إن الدارس لتاريخ النبوات، ليجده على شطرين: فالأول استغرقته النبوات، والثاني استغرقه الرسول ε، وتلك ميزة انفرد ا نبيـنا ε عن غيره؛ لأن دعوة الأنبياء كانت محدودةً من حيـث الزمـان، بخلاف دعوة الرسول ε فقد كانت مفتوحة، وحتى منهجه ε كان الأكملَ والأشملَ؛ لكونه جمـع شتات وخلاصة منهج الأنبياء، كما استجمع محاسنهم، فكان لزاما على من يرجو الله واليوم الآخر، أن يتخذه قـدوة في أي مجال من مجالات الحياة يـريد، لقوله تعالى: [لَقَد كَانَ لَكُم في رسولِ الله

---

(١)- الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري: صحيح البخاري، ك: المناقب، باب: خاتم النبيين، رقم: ٣٥٣٥، ص٦٧٩، بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع، الرياض- العربية السعودية، بدون طبعة، بتاريخ: (١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م).

أُسوةٌ حسنةٌ لمن كَانَ يرجو الله والْيوم الْآخر] الأحزاب/٢١.

فالدراسات سواء كانت قديمة أم حديثة، والتي اهتمت بالسيرة النبوية على مدى أربعة عشر قرنـا وما يزيد فعلى أهميتها وفوائد ا، فإ ا لازالت لم تف بالغرض المطلوب، في استخلاص المناهج في شتى جوانبها المختلفة؛ لكون أن المتتبع لسيرة المصطفى ε، ليجدها صورةً مجسدةً ونيرةً، موع مبـادئ الإسلام وأحكامه، وصورةً للمثل الأعلى في كل شأن من شؤون الحياة الفاضلة؛ فيتخذ منها دسـتورا يتمسك به، ومنهجا يسير عليه. إن الرسول ε كان أنموذجا للداعية الناجح، والمعلم الناصـح، والمـربي الفاضل، والقائد العسكري المنتصر، والسياسي المحنك، والأب العطوف، والزوج المسـؤول، والعابـد الزاهد، والمسلم المتواضع؛ ذا الأخلاق العظيمة، والخلال الرفيعة لمن أراد الإقتداء به.

ومذ كُلف النبي ε بحمل رسالـة الإسلام إلى البشرية؛ فإنه لم يتردد لحظة في إعلان دعوتـه، وإعداد الجيل الرسالي الذي يشاركه في حملها والدفاع عنها، امتثالا للأمر الإلهي، في قوله تعـالى: [وأَنذر عشيرتك الْأَقْربِين] الشعراء /٢١٤، وفي قوله: [فَاصدع بِما تؤمر وأَعرِض عنِ الْمشـرِكين] الحجر/٩٤، فكان رد فعل قريش أمام الجهر بالدعوة، أن أدبروا لدعوته وتنكروا لها، معتذرين بـدين الآباء والأجداد، وناصبوا الرسولَ ε وأصحابه ψ العداء، وفُتحت أمام الدعوة تحـديات جسـام، تمثلت في أساليب شتى اعتمدها المشركون؛ للنيل من الإسلام، وإيذاء أتباعه. وأمام هـذه المرحلـة الصعبة، والمواجهـة الكبرى، سنتعرف على المنهج الذي سلكه الرسـول ε في مواجهـة تحـديات الدعوة، وهو موضوع بحثنا- إن شاء الله-، والذي سنسلط الضوء من خلاله، على المنـهج الـذي اعتمده النبي ε في مسيرته الدعوية، وكيف تعامل مع هذه التحديات؟ وما حاجة الدعوة والدعاة في كل عصر ومصر للاستفادة من هذا المنهج ؟

أولا: موضوع البحث. وهو:

*منهج النبي ε في مواجهة التحديات الدعوية *

ثانيا: إشكالية البحث. وتتلخص فيما يلي:

١- ما طبيعة التحديات التي واجهت النبي ε في دعوته ؟

٢- ما طبيعة المنهج الذي اعتمده النبي ε في مواجهة التحديات ؟

٣- وما طبيعة الإستراتيجية التي راعاها النبي ε من خلال اعتماده لهذا المنهج؟ وما المكاسـب التي حققتها الدعوة من وراء ذلك ؟

٤- وما مدى استفادة الدعوة من منهج النبي ε في مواجهة التحديات المعاصرة ؟

٥- وما هي الآثار السلبية التي ترتبت عن مخالفة المنهج النبوي في الدعوة إلى الله ؟

ثالثا: أسباب اختيار هذا الموضوع.

دفعني لاختيار البحث في هذا الموضوع جملة أسباب، أهمها:

١- لقدكان من بين المقاييس التي درسناها في المرحلة النظرية، في قسم الماجستير مقياس:* **منهج النبي** ε في **الدعوة إلى الله** * فالطريقة المتبعة مع محاضرات هذا المقياس والتي كانت تعتمد على استنباط الدروس والعبر، أكثر مما تعتمد على سرد الأحداث والقصص، ولدت في نفسي رغبةً بأن أتناول موضوعا في هذا الإطار، وبنفس الدراسة والتي أعتبرها ذات فائدة، ومشوقة في آن واحد.

٢- أرى أن هذا الموضوع يكسبني أكبر قدر ممكن من الثقافة والمعارف الإسلامية الصحيحة، والتي أراها ضرورية لكل من يسلك طريق العلم، وطريق الدعوة.

٣- إن الدراسات الموجهة للسيرة اليوم، من طرف بعض الباحثين رغم أهميتها؛ إلا أ ا في نظري تبقى قليلة؛ لذلك جاء اختياري للبحث في هذا الموضوع؛ تدعيما للدراسة في هذا الاتجاه.

٤- إن دراسة السيرة النبوية له أهميته الكبيرة في فهم الإسلام، من خلال تصور المسلم للحقيقة الإسلامية المتجسدة في حياته ε في مختلف ا الات؛ كما تعيننا دراسة التحديات على فهم كتاب الله؛ لأن كثيرا من الآيات القرآنية، إنما تفسرها الأحداث التي مرت بالرسول ε أثناء تبليغ دعوته، ونشر رسالته.

رابعا: الدراسات السابقة.

من خلال إطلاعي المتواضع للدراسات التي تناولت هذا الموضوع، وجدت دراسة تناولها الطالب: الطيب برغوث تحت عنوان* **منهج النبي** ε في **حماية الدعوة والمحافظة على منجزا ا خلال الفترة المكية** * والتي نوقشت بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسنطينة؛ لنيل شهادة الماجستير، ثم دراسة للطالب: صالح حداد تحت عنوان* **الحرب النفسية** في **عصر النبوة** *، والتي نوقشت أيضا، بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسنطينة؛ لنيل شهادة الماجستير.

فهذه الدراسة التي تناولتها بالبحث، بعنوان: ***منهج النبي** ε في **مواجهة التحديات الدعوية** * أعتبرها مكملة للدراستين السابقتين، ولو أني أسجل اختلافا بين هذه الدراسة وسابقتيها؛ كون الدراسة التي أشرت إليها أولا تسلط الضوء على كيفية حماية منجزات ومكاسب الدعوة في الفترة المكية فقط، دون أن تتعرض للفترة المدنية، أما الدراسة التي أشرت إليها ثانيا فتتقاطع مع الدراسة التي سأتناولها بالبحث؛ في جانب " **الحرب النفسية** " وهو جانب – على أهميته وفائدته - أراه مخلا

ومقتضبا، وفيه نوع من التقصير في مجال الدراسات التي تهتم بموضوع السيرة النبوية، ولا يفي بالغرض المطلوب؛ لذلك جاءت هذه الدراسة – على تواضعها – في إطار البحوث العلمية الأكاديمية، تكمل النقص الحاصل، وتضيف لبنة أخرى جديدة؛ لإظهار حقيقة دعوة النبي ε، في إنقاذ البشرية من ظلمات الشرك والظلم إلى نور الإيمان، والتوحيد، والعدل، والتسامح؛ والرحمة.

هذا وقد استفدت كثيرا من كتب التاريخ، والسيرة، والدعوة؛ أهمها: البداية والنهاية، لابن كثير، والتاريخ الإسلامي- مواقف وعبر-، للحميدي، والسيرة النبوية- دروس وعبر- للصلابي، والسيرة النبوية، للندوي، والسيرة النبوية الصحيحة، لأكرم ضياء العمري، والسيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، لمحمد أبو شهبة، والسيرة النبوية – دروس وعبر- لمصطفى السباعي، وفقه السيرة، للبوطي، وفقه السيرة النبوية - قراءة سياسية دعوية حركية - لسالم نوري، وفقه السيرة النبوية، لمنير محمد الغضبان، والمنهج الحركي للسيرة النبوية، لمنير الغضبان أيضا، ودراسة في السيرة، لعماد الدين خليل، ودراسات في السيرة، لعلي محمد جماز، والدعوة الإسلامية في عهدها المكي- مناهجها وغاياتها، لرؤوف شلبي، ومنهج النبي ε في الدعوة، لمحمد أمحزون، والدعوة قواعد وأصول، لجمعة أمين، والابتلاء والمحن في الدعوات، لمحمد عبد القادر أبو فارس، وفقه النصر والتمكين، للصلابي، وأولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة، ومن أجل صحوة راشدة، والإيمان والحياة، للقرضاوي، وغيرها في إنجاز هذا البحث.

وقد اعترضتني بعض الصعوبات في إنجاز هذا البحث، ولعل أبرزها، سعة هذا الموضوع في حد ذاته، والذي يتطلب اطلاعا أكبر، ووقتا أطول، وتفرغا أكثر، ويبقى النظام المعتمد في المكتبات الجامعية في إعارة المراجع والكتب، العائق الأكبر، فمع ندرتها وقلة المفيد منها؛ إلا أنني أسافر مسافة طويلة للحصول على ثلاثة مراجع، للبحث والدراسة، وهذا أمر يستدعي النظر. ورغم التزامات الوظيفة، ومسؤولية الأسرة، فقد تحملت مشاق السفر لاقتناء المصادر والمراجع من المكتبات، والمعارض الدولية والوطنية، المنظمة داخل الوطن؛ لإنجاز هذا البحث.

خامسا: منهج البحث.

انطلاقا من أن البحث يهدف إلى دراسة منهج النبي ε في مواجهة التحديات، ومدى إسقاط هذا المنهج على واقع الدعوة والدعاة، فقد استعنت بالمناهج العلمية الآتية:

١- **المنهج التاريخي**: وذلك أثناء الحديث أو الوقوف على الوقائع التاريخية، من قصص وأحداث، مر بها النبي ε في دعوته، وأثناء مواجهته تحدياتها.

٢- **المنهج الوصفي**: عند دراستنا لمختلف التحديات التي واجهة الدعوة، ومنهج النبي ε في التصدي لها، سواء كان ذلك من خلال التوجيهات الربانية أو اجتهاداته الشخصية؛ لاستخلاص العبر والدروس.

٣- **المنهج المقارن**: وذلك لمقارنة واقع الدعوة في عصرنا بواقع الدعوة في عصر النبي ε؛ لاكتشاف الخلل، وتقويم الاعوجاج، وتوحيد الصفوف؛ والقيام بالواجب.

سادسا: خطة البحث.

وقد قمت بتقسيم البحث إلى مقدمة وفصل تمهيدي وثلاثة فصول رئيسية وخاتمة.

ففي **الفصل التمهيدي** تحدثت عن الدعوة وواقع البيئة الجاهلية؛ عقديا وسياسيا واقتصاديا واجتماعيا، كما قمت بتحديد مفاهيم المصطلحات الأساسية للبحث، والمتمثلة في مفهوم الدعوة والمنهج والتحديات.

وتحدثت في **الفصل الأول** من البحث عن تحديات الدعوة في العهد المكي ومنهج مواجهتها، والمتمثلة في تحدي الحرب النفسية وتحدي الأذى الجسدي وتحدي الترغيب والترهيب وتحدي التعنت والتعجيز ثم تحدي المقاطعة والحصار الاقتصادي والاجتماعي.

وفي **الفصل الثاني** تحدثت عن تحديات الدعوة في العهد المدني ومنهج مواجهتها، والمتمثلة في تحدي المشركين وتحدي اليهود وتحدي المنافقين ثم تحدي الفرس والروم.

أما في **الفصل الثالث** فتحدثت عن المعالم العامة التي ميزت منهج النبي ε أثناء مواجهته لتحديات الدعوة، مبينا أركا ا الأساسية ومبرزا جانب التدرج، والصبر، والأهداف الاستراتيجية؛ باعتبارها ا معالم أساسية ميزت منهجه ε في الدعوة إلى الله وفي مواجهة تحديا ا.

وأ يت هذا البحث بخاتمة تضمنت أهم النتائج التي توصلت إليها من هذه الدراسة، وفهارس عامة، للآيات القرآنية، والأحاديث والآثار النبوية، والمصادر والمراجع المعتمدة؛ والموضوعات المتناولة.

سابعا: خطوات منهجية في البحث.

توضيحا للعمل المنجز أذكر هنا الملاحظات التالية:

١- لقد بذلت ما في وسعي، بأن أحقق التوازن بين الفصول الثلاثة المحورية؛ من حيث عدد المباحث، وكذا تحقيق التوازن بين المباحث، من حيث عدد المطالب داخل كل فصل؛ إلا أنني أسجل بعض التفاوت الملحوظ بين المطالب في الفصول الثلاثة زيادة ونقصانا، وكذا تفاوتا في عدد الصفحات؛ ويرجع هذا الأمر إلى ما يقتضيه المقام، وتماشيا مع طبيعة المرحلة التي تمر ا الدعوة،

وحجم التحديات، وتسارع الأحداث، ومراعاة غزارة المادة العلمية في هذا الجانب، مما استدعى وجود فارق في عدد الصفحات بين بعض المباحث وبعض المطالب؛ تماشيا مع الحاجة إلى التوسع والبيان بين مبحث وآخر، أو مطلب وآخر؛ فالقول: بلزوم التوازن الدائم بين الفصول والمباحث والمطالب، أمر يدفعنا إلى الوقوع إما في التطويل الممل أو الاختصار المخل، ويصرفنا عن الاشتغال بما هو مهم ومفيد، وهذا يتنافى مع أهداف البحث العلمي.

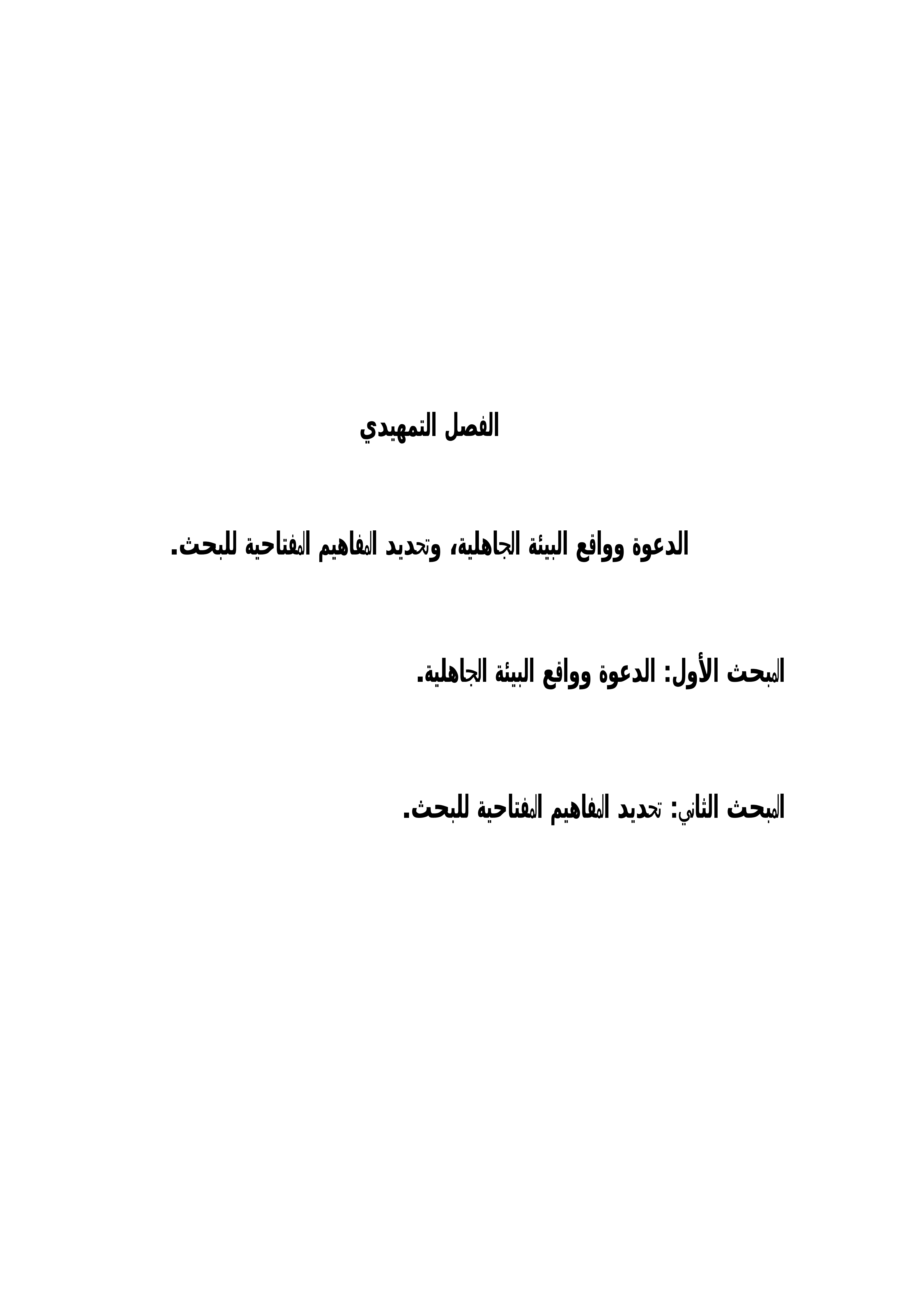
٢- تخريج الآيات القرآنية: لقد جاءت الدراسة ثريةً بالشواهد القرآنية، فلهذا الأمر آثرت تسجيل تخريج الآيات في المتن، ولم أهمش لها؛ حتى لا يغلُب جانب التهميش على جانب المضمون العلمي للرسالة؛ وتفاديا للزيادة في عدد الصفحات.

٣- تخريج الأحاديث: وقد قمت بتخريجها، مع التهميش لها.

٤- التهميش: قمت بكتابة المصدر والمرجع في التهميش عند وروده لأول مرة في البحث، بذكر أولا اسم الكتاب ثم مؤلفه، ثم بقية المعلومات الخاصة به، ثم قمت بإدراجها كاملة بعد ذلك في فهرس المصادر والمراجع.

وفي الأخير أسأل الله أن يرزقنا الإخلاص في القول وفي العمل، وأن يعلمنا ما ينفعنا، وينفعنا بما يعلمنا، ويزيدنا علما، ويأجر كل من ساهم في هذا العمل، بالتوجيه والنصيحة، والإشراف والمناقشة، فإن أصبت ووفقت فذلك من الله، وإن أخطأت فذلك من نفسي ومن الشيطان، وأسأل الله الغفران عن كُلِ خطَئ وتقصيرٍ ورد مني – بغير قصد - في حق سيرة الرسول ε، وأن يجعل ما قدمناه من جهد خالصا لوجهه الكريم.

آمين.

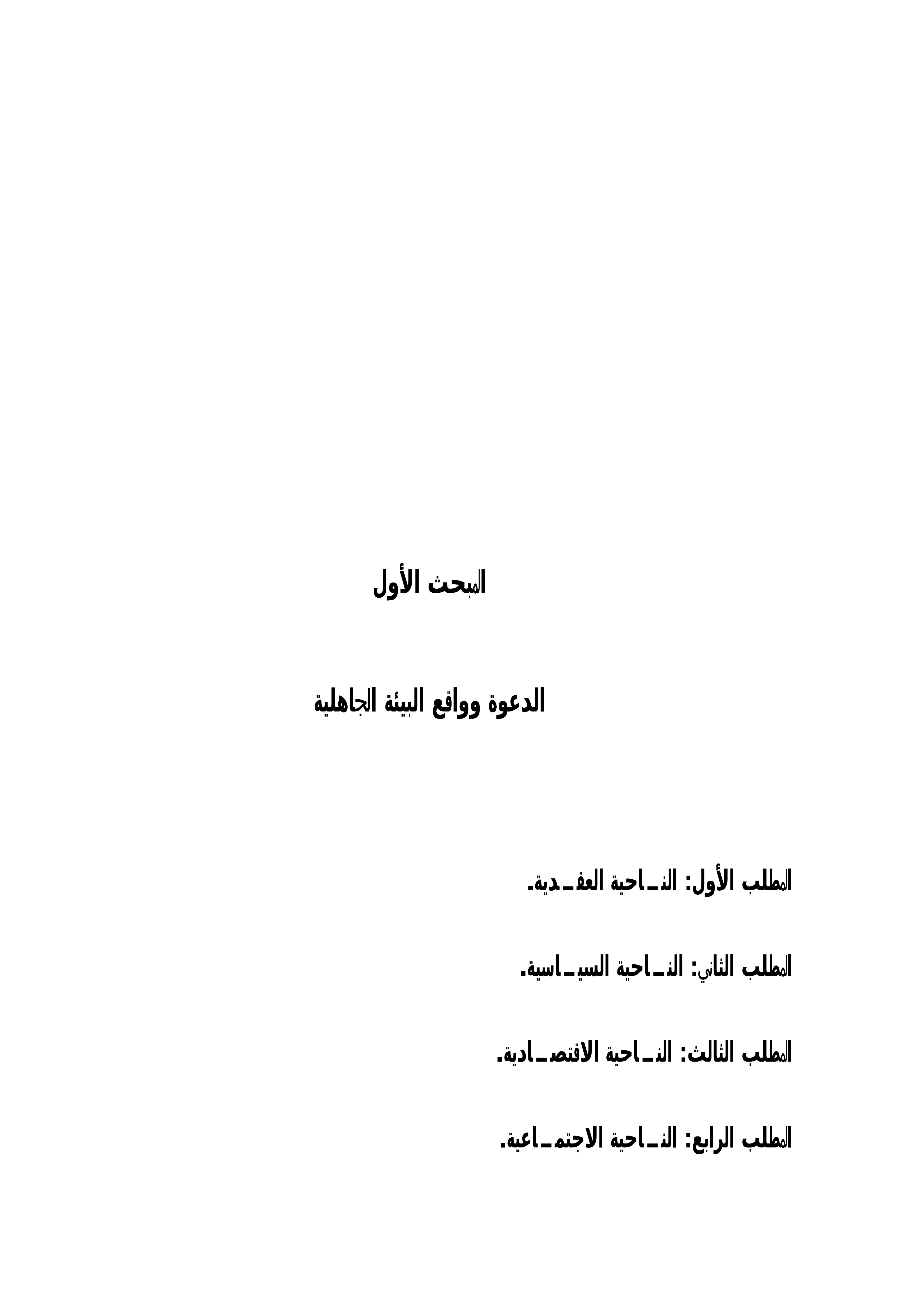


الفصل التمهيدي

الدعوة وواقع البيئة الجاهلية، وتحديد المفاهيم المفتاحية للبحث.

المبحث الأول: الدعوة وواقع البيئة الجاهلية.

المبحث الثاني: تحديد المفاهيم المفتاحية للبحث.



المبحث الأول

الدعوة وواقع البيئة الجاهلية

المطلب الأول: الناحية العقدية.

المطلب الثاني: الناحية السياسية.

المطلب الثالث: الناحية الاقتصادية.

المطلب الرابع: الناحية الاجتماعية.

المبحث الأول

الدعوة وواقع البيئة الجاهلية

تمهيـد.

وقبل التطرق إلى تحديد مفاهيم المصطلحات الأساسية الواردة في عنوان بحثنا،* **منهج الـنبي** ε في **مواجهة التحديات الدعوية** * حري بنا أن نلقي نظرة شاملة، على واقع البيئة الجاهلية، لحياة العرب قبل مجيء الإسلام؛ للوقوف عن مدى حجم التحديات التي واجهة الدعوة، وما المنهج الأسلم الـذي سلكه الرسول ε لمعالجتها، ومداواة الواقع المرير فيها ؟!

لقد ورثت دعوة الإسلام عن الجاهلية، تركة مثقلة بالانحرافات المتنوعة، عكست مستوى الانحطاط الحضاري، لإنسان عـالم ما قبل الإسلام. وقد وصف النـدوي هذه الحـال، بقوله: " كان القرن السادس والسابع الميلادي من أحط أدوار التاريخ بلا خلاف، فكانت الإنسانية متدلية منحدرة منـذ قرون، وما على وجه الأرض قوة تمسك بيدها، وتمنعها من التردي، فقد زاد ـا الأيـام سـرعة في هبوطها، وشدة في إسفافها، وكأن الإنسان في هذا القرن قد نسي خالقه، فنسي نفسه ومصيره، وفقد

رشده، وقوة التمييز بين الخير والشر؛ والحسن والقبيح.."[1]. وكان هذا الانحطاط تعبيرا عن الجاهلية المطبقة، لإنسان ذلك الزمان، في جميع نواحي الحياة:

المطلب الأول: الناحية العقديـة.

"أكدت أغلب الآراء التاريخية، أن العـرب كانوا على عقيدة التوحيد، كما جـاء ا أبو الأنبياء إبراهيم الخليلυ، وبلغها بعده ابنه إسماعيل υ، حتى انتشر فيهم الجهل، وتورطـوا في الوثنية، فصار الشرك الأساس في عقيد م؛ والموجه الرئيس في حيا م. وإن المتسبب الأول في وقوع القوم في شرك الوثنية، زعيمهم آنذاك عمرو بن عامر بن لحي الخـزاعي، الذي جلب لأهل مكة، صنما يدعى هبل، وهو من الأصنام التي كانت العماليق تعبدها في مآب من أرض البلقاء بالشام، وأمر النـاس بعبادتـه وتعظيمه، وحصل ذا العمل انحراف خطير في عقيدة القوم" [2]، بدليل قوله ε: { رأيت عمر بـن عامر الخزاعي، يجر قصبه- أمعاءه- في النار، كان أول من سيب السوائب }[3].

ومع مـرور الزمن تطورت مـظاهر الشرك في سلوكيات الناس، وغدا الانحراف العقدي صورا مضحكة ومخزية، وأمست الأصنام حاجة نفسية وعقدية؛ وضرورة اقتصادية.

قال ابن إسحاق: واتخذ أهل كل دار في دارهم صنما يعبدونه، فإذا أراد الرجل السفر تمسح بـه، فكان ذلك أول مايبدأ به قبل أن يدخل على أهله، فلما بعث الله رسوله ε بالتوحيد، قالت قريش- كما حكى القرآن على لسا م-: [أجعلَ الْآلهةَ إلَها واحدا إن هذَا لَشيءٌ عجاب] ص/٥[4].

روى البخاري في صحيحه، عن أبي رجاء العطاردي قال: (كنا نعبد الحجر، فإذا وجدنا حجـرا آخر هو أخير منه ألقيناه وأخذنا الآخر، فإذا لم نجد حجرا جمعنا جثوة من تراب، ثم جئنـا بالشـاة فحلبناه عليه، ثم طفنا به..)[5].

واتخذت العرب مع الكعبة طواغيت في هيئة بيوت، فكانوا يعظمو ا كتعظيم الكعبة، لهـا سـدنة وحجاب، ويحجون إليها ويطوفون ا، ويدعو ا ويستغيثون ا، وينحرون عندها ويهدو ا مآكلهم ومشار م، وحرثهم وأنعامهم؛ اعترافا بفضل الكعبة وم لتها، فهي عندهم بيت إبراهيم ومسجده[6]،

---

(١)- أبو الحسن علي الحسني الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، دار الشهاب باتنة- الجزائر، ط١، (١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م)، ص٣٦.

(٢)- الطيب برغوث: منهج النبي ε في حماية الدعوة والمحافظة على منجزا ا خلال الفترة المكية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا- أمريكا، ط١، (١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م)، ص (١٦٦ ، ١٦٧).

(٣)- البخاري: كتاب المناقب، باب: قصة خزاعة، رقم: ٣٥٢١، ص٦٧٦.

(٤)- منير محمد الغضبان: فقه السيرة النبوية، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع- المنصورة، ش م م، ط١، (١٤١٧هـ/١٩٩٧م)، ص٣٣.

(٥)- البخاري: كتاب المغازي، باب: وفد بني حنيفة، رقم: ٤٣٧٦، ص٨٢٧.

(٦)- الغضبان : المصدر السابق، ص٣٤.

وقد أشار القرآن إلى زعمهم هذا في قوله تعالى: [وجعلُواْ للّه مما ذَرأَ من الْحرث والأنعامِ نصيبا فَقَالُواْ هذَا للّه بِزعمهم وهذَا لشركَآئنا فَما كَانَ لشركَآئهم فَلاَ يصلُ إِلَى اللّه وما كَانَ للّه فَهو يصلُ إِلَى شركَآئهم ساء ما يحكُمونَ] الأنعام/١٣٦. وفي قوله: [ما جعلَ اللّه من بحيرة ولاَ سآئبة ولاَ وصيلَة ولاَ حامٍ ولَكن الذين كَفَرواْ يفْترونَ علَى اللّه الْكَذب وأَكْثَرهم لاَ يعقلُونَ] المائدة/١٠٣.

وبجانب العقيدة الوثنية الأصلية، ظهرت معتقدات فرعية لها أتباع قليلون، أشار القرآن الكريم إليها، في معرض رده على مقولات أصحابها وإبطال أوهامهم، ومنها:

الدهريون: وهم الذين لا يؤمنون لا بالبعث ولا بالحساب، وأشار القرآن إليهم في قوله تعالى: [وقَالُوا ما هي إِلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكُنا إِلا الدهر وما لَهم بِذَلك من علْمٍ إِنْ هم إِلا يظُنونَ] الجاثية/٢٤.

الجنيون: فكان الواحد منهم إذا نزل واديا، يقول: أعوذ بسيد هذا الوادي، من شر سفهاء قومه. وظهر هذا التوهم في اليمن، ثم في بني حنيفة، حتى انتشر في العرب، وأشار القرآن إليه، في قوله تعالى: [وأَنه كَانَ رِجالٌ من الْإِنسِ يعوذُونَ بِرِجالٍ من الْجِن فَزادوهم رهقًا] الجن/٠٦.

عبدة النار: وتسربت هذه العبادة إلى العرب من الفرس، وكانت محدودة[1].

أما **اليهودية**: فقد دخلت الحجاز تحت ضغط الاضطهاد الروماني، مما نتج عنه استقرار عدد من القبائل اليهودية في يثرب، وخيبر وتيماء، والتي كان لها الأثر الكبير في انتشار اليهودية بين العرب، وأصبح لهم دور يذكر في الأحداث السياسية التي سبقت ظهور الإسلام وبعده، كما أسهمت في محاربة الدعوة، وتهديد كيان الدولة في بداية المرحلة المدنية.

وأما **النصرانية**: فدخلت عن طريق احتلال الحبشة والرومان لبلاد العرب، فاحتلت الحبشة اليمن، وتوغل الدين المسيحي في ربوعها، ودخل فيميون نجران ونجح في استمالة أهلها إلى المسيحية، بعدما أوهمهم بالزهد والصدق. ونشط أبرهة الأشرم فبنى كعبة باليمن، وبذل جهده بأن يحج إليها العرب، ويهدم بيت الله بمكة، فرده الله بالآية الباهرة المشهورة، فهزم جيشه ودحر فيلته؛ وجعل كيده في نحره[2].

وفي خضم ما ذكر من المعتقدات، ظل الأحناف متمسكين بعقيدة التوحيد، رافضين عبادة الأصنام، وما يتعلق بها من ذبح ونحائر، فكان زيد بن عمرو بن نفيل لا يذبح للأنصاب، ولا يأكل

---

(١)- برغوث: منهج النبي ε في حماية الدعوة، ص (١٦٩ ، ١٧٠).

(٢)- صفي الرحمن المباركفوري : الرحيق المختوم، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع- بيروت، ط١، (١٤٢٥- ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٦م)، ص (٢٤ ، ٢٥).

الميتة ولا الدم، وكان قس بن ساعدة الإيادي يدين بشريعة إبراهيم وابنه اسماعيل υ، وكان خطيبـا وحكيما، وعاقلا يمتاز بالنباهة والفضل، ويدعوا إلى التوحيد ونبذ عبادة الأصنام[1].

كما شهد واقع الجاهلية أمراضا عقدية أخرى، كالإستقسام بالأزلام، والتطير من بعض الطيـور والحيوانات، واللجوء إلى الكهنة والعرافين، والاستماع إلى كلام المنجمين، والتقليد الأعمى للآبـاء والأجداد والزعماء[2]، ووصف الله تعالى هذا الجمود العقلي والفكري، في قوله: [بلْ قَالُوا إنا وجدنا آباءنا علَى أُمة وإِنا علَى آثَارِهم مهتدونَ] الزخرف/٢٢.

ورغم ما كان عليه العرب من جاهلية، وانحراف خطير في العقيدة؛ فقد كانوا يعترفون بالتوحيد، كما هو ظاهر في قوله تعالى: [ولَئن سأَلْتهم من خلَق السماوات والْأَرض لَيقُولُن الله] الزمـر/٣٨، وفي قوله: [ولَئن سأَلْتهم من خلَقَهم لَيقُولُن الله فَأَنى يؤفَكُونَ] الزخرف/٨٧، وفي قوله أيضـا: [ولَئن سأَلْتهم من خلَـق السماوات والْأَرض وسخـر الشمس والْقَمر لَيقُـولُن الله فَأَنى يؤفَكُونَ] العنكبوت/٦١. ومع إقرارهم بالصانع، واعترافهم بالوحدانية، فقد كانوا غير منتبهين إلى ما صـارت إليه عقيد م من التناقض[3]؛ فكانوا يتخذون الأصنام وسطاء بينهم وبين الله، ظنا منهم أ ا تشفع لهم عنده، وتقر م إليه؛ دفعا للبلاء، وحماية لهم من الشر، وأكد القرآن اعتقادهم على لسا م، في قولـه تعالى: [ما نعبدهم إِلا ليقَربونا إِلَى الله زلْفَى] الزمر/٠٣، وفي قوله: [ويعبدونَ من دون اللّه مـا لاَ يضرهم ولاَ ينفَعهم ويقُولُونَ هؤلاء شفَعاؤنا عند اللّه] يونس/١٨.

المطلب الثاني: الناحية السياسية.

وفي هذه الناحيـة، كان النظام القبلي هو السائد في الجزيرة العربية، وشمل هذا النظام حتى الممالك المتحضرة؛ كمملكة اليمن في جنوب الجزيرة، ومملكة الحيرة في شمالها الشرقي، ومملكة الغساسـنة في شمالها الغربي، ولم تنصهر ا تمعات القبلية فيها في شعب واحد؛ بل ظلت وحدات متماسكة، تقويها رابطة الدم والنسب[4].

ويعهد أمر تسيير شؤون القبيلة الداخلية والخارجية، إلى شيوخها من كبراء القوم وأصحاب النفوذ فيها، وزعيم القبيلة ترشحـه لهذا المنصب القـيادي شجاعته، ومروءتـه وكرمـه، ويتمتع بحقوق وواجبات:

---

(1)- علي محمد محمد الصلابي : السيرة النبوية، دار الفجر للتراث- القاهرة، ط١، (١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م)، ج١، ص٢٨.

(2)- برغوث: منهج النبي ε في حماية الدعوة، ص (١٧١ ، ١٧٢).

(3)- رؤوف شلبي: الدعوة الإسلامية في عهدها المكي- مناهجها وغايا ا-، دار القلم، الكويت، ط٥، (١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م)، ص (٤٨ ، ٥١).

(4)- الصلابي: السيرة النبوية، ج١، ص٢٩.

فالحقوق أدبية ومادية: فالأدبية؛ فإنه يحضى بالاحترام والتبجيل، والاستجابة لأمره والـ ول عنـد حكمه وقضائه. وأما المادية؛ فإنه يتمتع بنفوذ كبير في القبيلة، قد يرقى به أحيانا إلى مرتبة الملـوك في ممالكهم؛ فسيد القبيلة يأخذ من الغنيمة المرباع والصفايا، والنشيطة والفضول، وقد أجملها الشاعر عبد الله بن عنمة وهو يخاطب بسطام بن قيس في هذا البيت، في قوله:

لك المـرباع مـنا والصـفايا وحكمك والنشيطة والفضـول.

والمرباع: ما يأخذه الرئيس من ربع الغنيمة، والصفايا: ما يختاره ويصطفيه لنفسه مـن الغنيمـة، والنشيطة: ما أصابه في الطريق قبل الوصول إلي بيضة العدو، والفضول: ما بقي من الغنيمة ولا يمكن قسمته على عدد الغزاة[1].

وأما واجباته: فهو في السلم جواد كريم، وفي الحرب يتقدم الصفوف، ويعقد الصلح والمعاهدات، والقوم في القبيلة تبع لرأيـه، لا يتأخرون عنه بحال من الأحوال؛ ولا يناقشونـه في رأيه، فله الحكم والاستبداد بالرأي ما يكون لدكتاتور قوي.

رغم هذا فإن الحرية هي السائدة في القبيلة، فكان العربي يألفها ويعشقها، وينتصر لها ويشيد ـا، ومفاخرها وأيامها؛ كيف لا وقد درج على الجـو الطليق والبيئة الطليقة ؟! كما كان أفراد القبيلـة ينتصرون لبعضهم بعضا دون النظر إلى ميزان الحق والباطل، فصار من مبادئهم: (أنصر أخاك ظالما أو مظلوما). ووصف الشاعر هذه الحال بقوله:

لا يسألـون أخـاهم حين ينـد م في النـائبات عـلى ما قال بـرهانا.

وبلغ الاعتزاز برأي الجماعة، والتبعية للقبيلة إلى حد ذوبان شخصية الفرد في شخصيتها، ويصـف دريد بن الصمة هذا الوضع، بقوله:

وهل أنـا إلا من غـزية إن غـوت غـويت، وإن تـرشد غـزية أرشد.

وكانت تتمتع كل قبيلة باستقلاليتها السياسية عن القبائل الأخرى؛ مما يتيح لها القـرار في عقـد الأحلاف وشن الحروب؛ وأشهر الأحلاف حلف الفضول، وأشهر الحروب حرب الفجار، وحـرب البسوس، وداحس والغبراء، وكانت تحدث أحيانا بين القبائل إغارات، إما بأسباب شخصية؛ أو طلبا للعيش، وكل قبيلة كانت تتوجـس غيلة من الأخرى، من أن تنقَض عليها ليلا أو ـارا، فتسـلب أنعامها وممتلكا ا، وتسبي نساءها وتأخذ ذراريها؛ حتى تدع منازلها خاوية على عروشها[2].

المطلب الثالث: الناحية الإقتصادية.

---

(1)- محمد عبد المنعم خفاجي: الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام، دار الجيل- بيروت، بدون طبعة، (١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م)، ص١٩.

(2)- الصلابي : السيرة النبوية، ج١، ص (٣٠ ، ٣١).

فإذا كانت الجزيرة العربية قد حرمت من نعمتي الزراعة والصناعة، فإن موقعها الإستراتيجي بين أفريقيا وشرق آسيا، أهلها لأن تتبوأ مركزا هاما في التجارة الدولية. فكان لأهل مكة بالخصوص دورا بارزا في النشاط التجاري، وبحكم أنهم أهل الحرم، كانت لهم منزلة خاصة في نفوس العرب؛ فلا يتعرض لهم- دون غيرهم- بأذى، ولا لتجارتهم بسوء، وأشار القرآن إلى هذا الامتنان في قوله تعالى: [أولَم يروا أنا جعلْنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم أَفَبِالْباطلِ يؤمنونَ وبِنِعمة الله يكْفُرونَ] العنكبوت/٦٧، وكانت لقريش رحلتان تجاريتان شهيرتان: رحلة الشتاء إلى اليمن، ورحلة الصيف إلى الشام، يذهب التجار فيها آمنين؛ بينما الناس يتخطفون من حولهم[1]، وقد أشار القرآن إلى هذا في قوله تعالى: [لإِيلَاف قُريشٍ، إِيلَافهم رِحلَةَ الشتاء والصيف، فَلْيعبدوا رب هذَا الْبيت، الذي أَطْعمهم من جوعٍ وآمنهم من خوف] قريش (٠١ ، ٠٤).

ولم تنحسر حرفة التجارة في أيدي الرجال؛ بل هناك من النساء من امتهن التجارة، وبرز نشاطهن في إرسال القوافل التجارية إلى الشام، وكن يتعاملن بالمضاربة، واشتهرت منهن خديجة بنت خويلد، والحنظلية أم أبي جهل[2]، يشير إلى هذا قوله تعالى: [للرجالِ نصيب مما اكْتسبواْ وللنساء نصيب مما اكْتسبن] النساء/٣٢.

وأمست بيوت وأسر مثالا للترف وسعة المال، واشتهر رجال بالثراء والغنى؛ من أمثال: الوليد بن المغيرة، وعبد العزى بن عبد المطلب (أبو لهب)، وأبو أحيحة بن سعيد بن العاص بن أمية، وقد أسهم في قافلة أبي سفيان التجارية بثلاثين ألف دينار؛ دلالة على ثراءه، وكان عبد الله بن جدعان التيمي يشرب في كأس ذهبية[3].

ورغم هذا فإن وباء التعامل بالربا كان منتشرا في العرب عموما، وفي أوساط الأثرياء بشكل خاص، وأصبح سيفا مسلطا للأغنياء على رقاب الفقراء، وعم ضرره وطم، وكثرت مفاسده، وازداد التعامل به أضعافا مضاعفة؛ بدليل انتهاج الإسلام لسياسة التدرج في تحريمه، وتصوير القرآن لفضاعته عندما نهى عنه[4]، في قوله تعالى: [يا أَيها الذين آمنواْ لاَ تأْكُلُواْ الربا أَضعافًا مضاعفَةً واتقُواْ اللّه لَعلكُم تفْلحونَ] آل عمران/١٣٠.

---

(١)- المصدر نفسه، ج١، ص (٣١ ، ٣٢).

(٢)- أبو الحسن علي الحسني الندوي: السيرة النبوية، دار القلم- دمشق، ط٣، (١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م)، ص٨٨.

(٣)- المصدر نفسه، ص٩٠.

(٤)- الصلابي: السيرة النبوية، ج١، ص٣١.

وكان العباس بن عبد المطلب ثريا ويتعامل بالربا، فلما جاء الإسلام كان الرسول ε أول من بدأ به فوضعه، قائلا في حجة الوداع: {.. أن أول ربا يوضع رب عباس بن عبد المطلب.. }[1]. كما كان لرجالات قريش المترفون، أرائك منصوبة وموائد ممدودة، ونواد للشرب يلهون فيهـا ويسـكرون، ومجالس للسمر ولنظم الشعر؛ ومنتجعات في الطائف يلجؤون إليها وقت الحر..[2].

المطلب الرابع: الناحية الاجتماعية.

إن دراستنا الموضوعية لحياة العرب الاجتماعية قبل الإسلام، تمكننا من رصد مظاهر تمتاز بـالقوة والإيجاب، ومظاهر يسودها الاختلال والضعف:

أما المظاهر التي تتعلق بالقوة والإيجاب؛ فعقول العرب كانت تمتاز بالذكاء والفطنة، والقدرة على الحفظ؛ فلم تدخلها لا فلسفات اليونان، ولا أساطير الفرس والرومان، ولا خرافات الشعوب الهندية؛ فكأن عقولهم وقلو م كانت تعد لحمل أعظم رسالة في الوجود؛ وهي دعوة الإسلام الخالدة[3].

وكان الكرم والسخاء خلقا متأصلا في حيا م، فإذا نزل في دار أحدهم ضيفا، ولا يملك إلا فرسـه أو ناقته، إلا بادر إلى نحرها؛ إكراما لضيفه، وكانت هذه الخصلة تدفعهم إلى تحمل الديات الهائلـة، والحملات المدهشة؛ حقنا للدماء، ورغبة في الفخر[4].

وفرضت طبيعتهم القبلية، الشجاعة والمروءة، والنجـدة على نظامهم الاجتماعي، حتى يعيشـوا ويقاوموا عوامل الإخضاع والإنتهاب[5]، فكان الواحد منهم إذا شم رائحة الذل والهـوان، فضـل السيف والسنان، وآثر الحرب العوان، وقدم نفسه قربانا لعزته وكرامته[6]. كما كانوا أهل فروسـية، ورباطة جأش، وقوة بأس. وهذا ما نلحظه في أشعارهم وأمثالهم وقصصهم، وتجلت لنا أروع مظاهره حينما صاروا حماة للإسلام[7].

وكانوا يحبون الصدق والصراحة والوضوح؛ ويأنفون الكذب ويعيبونه، لذلك كانـت شـهاد م باللسان كافية للدخول في الإسلام، والدليل قصة أبي سفيان لما سأله هرقل عن الرسول ε وكانـت العداوة قائمة، فقال: (لولا أن يأثروا علي كذبا لكذبت عليه)[8].

---

(١)- الدارمي: سنن الدارمي، ج٢، ك. البيوع، باب: في الربا الذي كان في الجاهلية، دار الفكر للطباعة والنشر، بدون طبعة وبدون تاريخ، ص٢٤٦.

(٢)- الندوي: السيرة النبوية، ص٩٠.

(٣)- الصلابي: السيرة النبوية، ج١، ص٤٠.

(٤)- برغوث: منهج النبي ε في حماية الدعوة، ص١٧٤.

(٥)- المصدر نفسه، ص١٧٤.

(٦)- المباركفوري: الرحيق المختوم، ص٣٠.

(٧)- برغوث: المصدر السابق، ص١٧٤.

(٨)- الصلابي: السيرة النبوية، ج١، ص٣٤.

واكتسبوا من طبيعة بلادهم الصحراوية الجافة، قليلة الزرع والماء، قدرة عجيبة على تحمل المكاره، والصبر في الشدائد؛ فلم يتأثروا لا بالحر ولا بالبرد، ولا بالجوع ولا بالظمأ، ولا بوعورة الطريـق ولا ببعد المسافة، فلما دخلوا الإسـلام ضربوا أروع الأمثلة في مواجهة التحـديات[1]. وعلمتهم قساوة الطبيعة كيف يخشوشنوا، ويوطنوا أنفسهم[2]؛ فكانوا يعيبون على الرجل الأكول، ويقولون: (البطنة تذهب الفطنة)[3] ، فكانت القناعة خلقهم؛ والرضا باليسير ديد م.

ولعل هذه الأخلاق النبيلة- وإن كان بعضها يؤدي إلى الشر، ويجلب الحوادث المؤلمة- كانت ذات منافع عامة على ا تمع والأمة، كما كانت سببا في اصطفاء أهلها لحمل الرسالة، وتبليـغ الـدعوة؛ وقيادة الأمة إلى فلاح الدنيا والآخرة[٤].

وأما المظاهر التي يسودها الاختلال والضعف، فكثيرة لا يمكن حصرها في هذا الموضع من بحثنا؛ إنما نكتفي بالإشارة إلى بعضها؛ لأخذ صـورة مجملة، على ما آلت إليه الحياة الاجتماعية لعرب ما قبل الإسلام، والتي شكلت بحق التحدي الأكبر، أمام مسؤولية الدعوة في التغيير والإصلاح.

ولم تكـن للمرأة قيمة تذكر في ا تمع الجاهلي؛ فبعض القبائل تعتبر وجـودها نـذير شـؤم، وميلادها يسبب اختيارا صعبا لأبيها بين وأدها أو تركها حية، وأكد القرآن هذه الحال في قوله تعالى: [وإِذَا بشر أَحدهم بِالْأُنثَى ظَل وجهـُه مسودا وهو كَظيم، يتوارى من الْقَـومِ من سوءِ ما بشر بِه أَيمسِكُه علَى هون أَم يدسه في الترابِ أَلاَ ساء ما يحكُمونَ] النحل (٥٨ ، ٥٩)، كما استنكر الله عليهم فعلتهم، ووأدهم الشنيع للبنت، في قوله: [وإِذَا الْموؤودةُ سئلَت، بِأَي ذَنبٍ قُتلَت] التكوير (٠٨ ، ٠٩).

وكانت المرأة تورث كما يورث المتاع، وللابن الأكبر لزوجها من غيرها، الحق بأن يتزوجها بعـد وفاة أبيه، أو يعضلها عن النكاح، حتى حرم الإسلام ذلك، في قوله تعالى: [ولاَ تنكحواْ مـا نكَـح آباؤكُم من النساء إِلا ما قَد سلَف إِنه كَانَ فَاحشةً ومقْتا وساء سبِيلاً] النساء/٢٢. وكان حرمـان النساء والبنات والصبيان من الميراث، عرفا سائدا، حتى أبطله الإسلام[5]، في قوله تعالى: [للرجـالِ نصيب مما ترك الْوالدان والأَقْربونَ وللنساء نصيب مما ترك الْوالدان والأَقْربونَ مما قَل منه أَو كَثُـر نصيبا مفْروضا] النساء/٠٧.

---

(١)- المصدر نفسه، ج١، ص (٤٤ ، ٤٥).

(٢)- برغوث: المصدر السابق، ص١٧٥.

(٣)- الصلابي: السيرة النبوية، ص٤٤.

(٤)- المباركفوري: الرحيق المختوم، ص٣٠.

(٥)- الصلابي: السيرة النبوية، ج١، ص (٣٣ ، ٣٤).

وكانت الفتيات يكرهن على البغاء؛ بغرض التكسب، حتى ى الله تعالى عن هذا في قوله: [ولَا تكْرِهوا فَتياتكُم علَى الْبِغاء إِنْ أَردنَ تحصنا لتبتغوا عرض الْحياة الدنيا] النور/٣٣. وكانت المرأة تكره على الإستبضاع، فيرغمها زوجها على مسافحة غيره، ممن يشتهر عندهم بالشجاعة والشهامة، فإذا تبين حملها أصا ا زوجها إذا شاء، وإنما يفعل ذلك رغبة في الولد(١).

وامتهنت المرأة في الجاهلية بأنكحة فاسدة مختلفة، كنكاح البغايا؛ فيقصد المرأة الداعرون ومن لا أخلاق لهم. ونكاح الخدن؛ وأصحابه يقولون: ما استتر فلا بأس به، وما ظهر فهو لؤم. ونكاح المتعة؛ وهو نكاح مؤقت. ونكاح البدل؛ فيقول الرجل للآخر: أنزل لي عن امرأتك، وأنزل لك عن امرأتي وأزيدك. ونكاح الشغار؛ القائم على التبادل والخالي من الصداق(٢). وكل هذه الأنكحة هدمها الإسلام وأبقى منها سوى نكاح الناس اليوم؛ فكان الرجل يخطب فيه إلى الرجل وليته، فيصدقها ثم ينكحها(٣).

ومن مظالم المرأة في الجاهلية؛ أن الرجل له أن يجمع بين الأختين حتى حرم الله ذلك في قوله: [وأَن تجمعواْ بين الأُختينِ إَلا ما قَد سلَف] النساء/٢٣، وله أن يجمع في عصمته من الزوجات، بلا تقييد ولا تحديد، وله أن يطلق ويرجع متى شاء وكيف يشاء، دون مراعاة لحقوقهن، في العشرة والنفقة والعدل، حتى جاء الإسلام ووضع لهذه المظالم حدودا وضوابط؛ فقيد التزوج بأربع في قوله تعالى: [فَانكحواْ ما طَاب لَكُم من النساء مثْنى وثُلاَثَ ورباع] النساء/٠٣، وضبط الطلاق، في قوله تعالى: [الطلاَق مرتان فَإِمساك بِمعروف أَو تسرِيح بِإِحسان] البقرة/٢٢٩.

ومن مظاهر الاختلال والضعف في الحياة الاجتماعية؛ ذات الآثار السلبية على سلوك الأفراد والجماعات، انتشار تعاطي الخمر، وقد شاعت في حيا م، وغدت من مظاهر كرمهم وفخرهم، ومحل أشعارهم، ولعل سياسة التدرج التي انتهجها الإسلام في تحريمها، تدل على مدى استحكام أمرها في حيا م، وقوة إدما م عليها؛ وصعوبة التخلص منها.

وأمسى القمار أو الميسر من العادات المتأصلة في الواقع الاجتماعي إلى حد التفاخر؛ فكان الرجل يخاطر بماله وأهله، فأيهما ربح صاحبه أخذ ماله وأهله، مما يؤدي هذا التصرف، إلى التباغض والتحاسد؛ والتقاتل والانتقام(٤).

---

(١)- برغوث: منهج النبي ε في حماية الدعوة، ص ١٧٨.

(٢)- الصلابي: المصدر السابق، ج١، ص (٣٦ ، ٣٧).

(٣)- الغضبان: فقه السيرة النبوية، ص٣٩.

(٤)- برغوث: منهج النبي ε في حماية الدعوة، ص١٧٩.

إلى جانب انتشار القيان ومجالس اللهو، والحفلات التي يصاحبها الشراب وهتك الأعراض، ســاد ا تمع الفساد والظلم، وغمط الناس وبطر الحق، وأكل أموال الناس بالباطل، ولا أبلغ وأصدق تصوير لهذه الجاهلية، من تصوير جعفر بن أبي طالب أمام النجاشي، حيث قال: (أيها الملك! كنا قوما أهل جاهلية، نعبد الأصنام ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام ونسيء الجوار، ويأكل القــوي منا الضعيف..)[1].

وما ذكرنا ه آنفا، هو غيض من فيض، مما ورثته الدعوة الإسلامية من أوضاع العرب في عالم مــا قبل الإسلام، عالم فقد الإنسان فيه صلته بالله، ثم بأخيه الإنسان، ولقد أبلغ الأستاذ العقاد- رحمــه الله- وأوجــز، في وصفه للوضعيــة الجــاهلية المــزرية، بقوله: (كان عــالما متداعيا، قد شــارف النهاية..خلاصة ما يقال فيه: إنه عالم فقد العقيدة كما فقد النظام.. وفقد أسباب الطمأنينة في الباطن والظاهر..)[2]. و ذه الوضعية كانت الحاجة ماسة لنبي مرسل ينقذ البشرية، من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام، قال تعالى: [الَر كتاب أنزلْناه إليك لتخرج الناس من الظلُمات إلى النورِ بإذْن ربهــم إلى صراط الْعزيزِ الْحميد] إبراهيم/٠١. فمن أين بدأت الدعــوة عملية الإنقاذ ؟ وما هــو حجــم التحديات التي واجهت الدعوة أثناء هدم الواقع الجاهلي ؟ وما المنهج الأسلم الذي سلكه الرسول ε في إعادة بناء مجتمع جديد ؟

المبحث الثاني

تحديد المفاهيم المفتاحية للبحث

---

(١)- الندوي: السيرة النبوية، ص٩٣.

(٢)- عباس محمود العقاد: عبقرية محمد ، ص١٥، المكتبة العصرية، الرويبة- الجزائر، بدون طبعة وبدون تاريخ، ص١٥.

وقبل الشروع في دراسة موضوع بحثنا، بالإجابة على إشكالياته، وتجنبا للغموض وتحقيقا للفائدة، بالتواصل الأمثل بين القارئ وموضوع البحث، سأحاول تحديد مفاهيم المصطلحات الأساسية الواردة في عنوانه؛ لكونها مفاتيح ذات أهمية في عملية الفهم والإفادة والاستفادة[1]. ويمكن تحديد مفهوم هذه المصطلحات في مطالب ثلاثة:

المطلب الأول: مفهـوم الـدعوة.

المطلب الثاني: مفهـوم المنـهج.

المطلب الثالث: مفهـوم التـحديات.

المطلب الأول: مفهـوم الـدعـوة

أولا: الدعوة في اللغة.

ومما جاء فيها وفي مشتقاتها في المعاجم والقواميس اللغوية:

دعا: يدعو **دعوةٌ** داعٍ (الداعي) مدعو.

---

(1)- برغوث: منهج النبي ε في حماية الدعوة، ص٦٣.

- إلى عقيدته؛ أي بشر بها، ودعا إلى الإسلام؛ أي رغب فيه، وحث على قصده، لقوله ε: { من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه.. }[1].

- الشخص إلى وليمة؛ أي استضافه، ودعوت صديقي إلى العشاء؛ أي استضفته.

ودعا: يدعو **دعاءً** داعٍ (الداعي) مدعو.

- اللهَ؛ سأله حاجته، لقوله تعالى: [وقَالَ ربكُم ادعونِي أَستجِب لَكُم] غافر/٦٠.

- لفلان؛ طلب له الخَير، لقوله تعالى: [لَا يسأَم الْإِنسانُ من دعاء الْخيرِ] فصلت/٤٩. ودعا على فلان؛ أي طلب له الشر.

- فُلانا بفُلان؛ ناداه وصاح به، ودعا المؤذنُ الناس إلى الصلاة؛ ناداهم وصاح م.

ادعى: يدعي **ادعاءً** مدعٍ (المـُدعي) مدعى.

- إلى غير أبيه؛ أي انتسب، لقوله تعالى: [وما جعلَ أَدعياءكُم أَبناءكُم] الأحزاب/٤٠.

داعٍ: الداعي جمع دعاة.

- الداعي إلى الصلاة؛ أي المـُؤذن.

- داعيةٌ جمع دعاة، من يدعو إلى دينٍ أو فكرة[2]. والرسول ε داعية إلى الله، لقوله تعالى: [إِنا أَرسلْناك شاهدا ومبشرا ونذيرا، وداعيا إِلَى الله بِإِذْنِه وسراجا منِيرا] الأحزاب (٤٥ ، ٤٦)؛ أي تبليغ التوحيد وداعيا إلى الأخذ به[3].

- داعي، لقوله تعالى: [يا قَومنا أَجِيبوا داعي الله وآمنوا بِه] الأحقاف/٣١. أي أجيبوا محمد ε وآمنوا بدعوته[4].

- يدعو، لقوله تعالى: [أُولَئك يدعونَ إِلَى النارِ واللّه يدعو إِلَى الْجنة والْمغفرة بِإِذْنِه] البقرة/ ٢٢١، أي فالمشركون يدعون إلى الأعمال الموجبة للنار، والله يدعو إلى عمل أهل الجنة[5].

- أُدع[6]، لقوله تعالى: [ادع إِلى سبِيلِ ربك بِالْحكْمة والْموعظَة الْحسنة وجادلْهم بِالتي هي أَحسن]. النحل/١٢٥. أي أدع إلى دين الله وشرعه، بتلطف ولين، ودون مخاشنة وتعنيف[1].

---

(١)- الإمام أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري: صحيح مسلم المسمى: الجامع الصحيح، كتاب العلم، باب: من سن سنة حسنة أو سيئة، ودعا إلى هدى أو ضلالة، رقم: ٢٦٧٤، المكتبة العصرية، صيدا- بيروت، ط١، (١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م)، ص١٠٠٤.

(٢)- أحمد العايد، وآخرون : المعجم العربي الأساسي، توزيع لاروس، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، دون طبعة ودون تاريخ، ص٤٥٢.

(٣)- أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان، بدون طبعة، ١٩٦٧م، ج١٤، ص٢٠٠،

(٤)- المصدر نفسه، ج١٦، ص٢١٧.

(٥)- المصدر نفسه، ج٣، ص٨٠.

(٦)- محمد فؤاد عبد الباقي : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، (١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م)، ص (٢٥٨

دعايةٌ: ج/ دعايات.

- **دعوةٌ**؛ ومما جاء في كتاب الرسول ε إلى هرقل: { أدعوك بِدعاية الإسلام }[٢]، أي بِدعوته.

- نشر الإسلام، أو شهادةُ أن لا إله إلا الله، لقوله تعالى: [لَهُ دعوةُ الْحق] الرعد/١٤، وفي جوابه ε عن سؤال علي τ يوم خيبر، قائلا: علام أقاتل الناس؟ فقال ε: { علـى رسـلك حـتى تـ ل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، واخبرهم بما يجب عليهم }[٣]، وقوله ε لمعاذ بن جبل τ حينما بعثه إلى اليمن: { إنك تأتي قوما من أهل الكتاب، فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وإني رسول الله.. }[٤].

- الجهر بالدعوة؛ أي إخراجها من السرية إلى العلانية[٥].

.. **ودعـوت** فُلانا؛ أي صحت بِه واستدعيته، **وداعيةُ** اللبن؛ ما يترك في الضرع ليدعـو ما بعده، **ودواعي** الدهر؛ صروفُه..[٦].

ومن خلال الإشتقاقات السابقة لكلمة الدعـوة، وما تضمنته من معاني ومرادفات كثيرة، فقـد جاءت كلها متقاربة في مضمو ا، وتدور حول:

- التبشير والترغيب والحث.
- السؤال والطلب.
- النداء والآذان والصياح.
- الانتساب[٧].
- الطاعة والالتزام.
- الدعاية والجهر.
- التبليغ والنشر.

وقد جاءت النصوص الشرعية من القرآن والسنة، تدل بوضوح على كل هذه المعاني، وتؤكد على المعنى الأساسي والمحوري[١]، الذي تدور حوله دراسة بحثنا: * **منهج النبي** ε في **مواجهة التحـديات**

، ٢٦٠).

(١)- القرطبي: مصدر سابق، ج١٠، ص٢٠٠.

(٢)- البخاري: كتاب بدء الوحي، باب:٦، ص (٢٢ ، ٢٤).

(٣)- البخاري، كتاب الجهاد، باب: دعاء النبي ε إلى الإسلام والنبوة، رقم: ٢٩٤٢، ص٥٦٥.

(٤)- البخاري: كتاب الزكاة، باب: وجوب الزكاة، رقم: ١٣٩٥، ص٢٧٢.

(٥)- أحمد العايد، وآخرون : المعجم العربي الأساسي، ص٤٥٣.

(٦)- نديم مرعشيلي، أسامة مرعشيلي: الصحاح في اللغة والعلوم، دار الحضارة العربية – بيروت، ط١، ١٩٧٤م، ص٤٠٣.

(٧)-برغوث: منهج النبي ε في حماية الدعوة، ص٦٥.

الدعوية *، وتؤكد على أن كلمة الدعوة تعني في المقام الأول، ترغيب الناس في الإسـلام، وحـثهم على اتباعه، ودعو م إلى الالتزام بالشرع؛ ببذل الجهد لاستثمار كل الإمكانيـات، واتبـاع كـل الأساليب الشرعية الممكنة؛ لتوجيه الناس إليه، واجتماع كلمتهم عليه.

ثانيا: الدعوة في **الاصطلاح.**

واستنادا إلى المعاني التي وضعها بين أيدينا التحليل اللغوي لكلمة الدعوة، وتماشيا مـع مقاصـد الدراسة وأهدافها(٢)، فإننا يمكن أن نحدد مفهوم الدعوة، بأ ا:

- الإعلام بالإسلام وتعريف الناس به، ودعو م لتبني تعاليمه وأحكامه، وإعدادهم لمواجهة الباطل، وإخراجهم من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام؛ تحقيقا للسعادة في الدنيا والآخرة.

المطلب الثاني: مفهـوم المنـهج.

أولا: المنهج في **اللغة.**

ومما جاء فيها وفي مشتقا ا في المعاجم والقواميس اللغوية:

المنهج: ج/ منهاج، والمنهج والمنهاج يعني:

- الخطة المرسومة(٣)، لقوله تعالى: [لكُل جعلْنا منكُم شرعةً ومنهاجا] المائدة/٤٨.

- أو الطريقة والأسلوب(٤)، أو الطريق الواضح، لقول المعري:

يسعونَ في المَنهجِ المَسلُوك قد سبقُوا   إلى الذي هو عند الغري مخترع !!(٥).

وعلى هذا الأساس نلاحظ أن المنهج يتمحور حول معنى أساسي وهو: الخطة المرسومة أو الطريقة والأسلوب أو الطريق الواضح البين؛ لتحقيق هدف معين.

ثانيا: المنهج في **الاصطلاح.**

واستنادا إلى المـعاني التي وضعـها بين أيدينا التحـليل اللغوي لكلمة المنهج، وتماشيا مع مقاصد الدراسة وأهدافها، فإننا يمكن أن نحدد المفهوم الاصطلاحي لكلمة المنهج، بأنه:

---

(١)- المصدر نفسه، ص٦٥.

(٢)- المصدر نفسه، ص٦٧.

(٣)- الجيلاني بن الحاج يحي وآخرون: القاموس الجديد للطلاب، معجم مدرسي ألفبائي، المؤسسة الوطنية للكتاب- الجزائر، ط٧، (١٤١١هـ/ ١٩٩١م)، ص١١٥٨.

(٤)- جميل أبو نصري وآخرون: المعجم العربي المصور، دار الراتب الجامعية، بيروت- لبنان، بدون طبعة وبدون تاريخ، ص (٥٢٦ ، ٥٢٧).

(٥)- الجيلاني بن الحاج وآخرون: مصدر سابق، ص١١٥٨.

- مجموعة الأساليب والكيفيات العملية المُنظمة التي كان النبي ε يوظفها في عرض الدعوة على الناس، ويواجه ا تحديات الواقع الجاهلي؛ لصد العدوان عن الإسلام، وإتاحة ا ال أمام الناس للتعرف على مبادئه وتعاليمه، واعتناق دين الله بحرية وقناعة.

المطلب الثالث: مفهوم التحديات.

أولا: التحديات في اللغة.

ومما جاء فيها وفي مشتقا ا في المعاجم والقواميس اللغوية:

التحديات: ومن مشتقا ا: يتحدى، تحد، وتحديا، وتحدى الشخص:

- باراه، وبارزه[1]، وسابقَه وغَالَبه، قال العقاد:

خل عني عزاءَك اليوم إني   أتحدى الشقاءَ بِالكبرياء[2].

وعلى هذا الأساس نلاحظ أن التحديات تتمحور حول معنى أساسي وهو: المباراة والمبارزة، والمسابقة والمغالبة؛ لمواجهة الباطل وإحقاق الحق.

ثانيا: التحديات في الاصطلاح.

واستنادا إلى المعاني التي وضعها بين أيدينا التحليل اللغوي لكلمة التحديات، وتماشيا مع مقاصد الدراسة وأهدافها، فإننا يمكن أن نحدد المفهوم الاصطلاحي لكلمة التحديات، بأ ا:

- مجموعة التراكمات العقدية المنحرفة، والعادات الجاهلية المتأصلة والموروثة، التي تميز الواقع الجاهلي الفكري والاجتماعي، وتقف عقبة أمام عملية نشر الإسلام، وتبليغ دعوته للناس جميعا؛ تحقيقا لعبودية الإنسان لله وحده، وخلافته في الأرض.

فالدراسة انطلاقا من تحديد هذه المفاهيم، فإ ا تتمحور حول منهج النبي ε في مواجهة التحديات التي تعترض الدعوة؛ لإنقاذ الناس من الشرك والظلم، ونقلهم بأساليب ووسائل منظمة إلى رحاب الإيمان، والتوحيد والعدل، " وإقرار منهج الله في الأرض "[3].

(1)- جميل أبو نصري وآخرون: مصدر سابق، ص١٢٤.

(2)- الجيلاني بن الحاج يحي وآخرون: القاموس الجديد للطلاب، ص١٧٤.

(3)- صلاح محمد زكي: الدعوة إلى الله بالحكمة، نموذج الإخوان المسلمين (رسالة ماجستير)، دار التوزيع والنشر الإسلامية، مصر- القاهرة، ط١، (١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م)، ص١٢.

الفصل الأول

تحديات الدعوة في العهد المكي ومنهج مواجهتها

المبحث الأول: تحدي الحرب النفسية.

المبحث الثاني: تحدي الأذى الجســدي.

المبحث الثالث: تحدي الترغيب والترهيب.

المبحث الرابع: تحدي التعنت والتعجيز.

المبحث الخامس: تحدي المقاطعة والحصار الاقتصادي والاجتماعي.

الفصل الأول
تحديات الدعوة في العهد المكي ومنهج مواجهتها

مقدمة.

لما جاء جبريل υ للمرة الثانية[1] أنزل الله على نبيه، قوله تعـالى: [يا أيها الْمدثر، قُـم فَأَنـذر، وربك فَكَبر، وثيابك فَطَهر] المدثر (٠١ ، ٠٤). فتيقن النبي ε أنه نبي هذه الأمـة، فكانـت هـذه الآيات إيذانا بشحذ العزائم، ورفع الهمم، وأمرا جازما بالتبليغ، والدعوة إلى الوحدانية، والإيمان باليوم الآخر، وتطهير النفوس؛ عندها تحرك النبي ε دون تردد في إعلان دعوته، على مسـتوى الأفـراد لا الجماعات معتمدا في بداية دعوته، على دقة التنظيم ، متحريا الدقة المتناهية، والحذر والحيطة في حسن اختيار العينات؛ لاعتقاده أن هؤلاء هم من تقع عليهم مسؤولية أعباء الدعوة، لذلك لابد أن يكونوا من خيار المجتمع وصفوته، اعتدالا، وصدقا، ومروءة؛ ونخوة [2]، " فابتدأ بأهل بيتـه، وأصـدقائه، وأقرب الناس إليه"[3]، متجنبا مواجهـة المشركين، فاستطاع الرسول ε في هذه المرحلة أن يكـونَ القاعـدة الصلبة القائمة على الاصطـفاء، " المنظمة على أسس عقدية، وتعبدية، وخلقيـة رفيعـة المستوى"[4]، إلى أن حان موعد إعلان الدعوة، بنزول قوله تعالى: [وأَنـذر عشـيرتك الْـأَقْربِين، واخفض جناحك لمنِ اتبعك من الْمؤمنِين، فَإِنْ عصوك فَقُلْ إِني برِيءٌ مما تعملُونَ] الشعراء (٢١٤ ، ٢١٦). فجمع ε قبيلته وعشيرتـه، ودعاهم علانية إلى التوحيد، مخاطبـا عقـولهم، و مسـتثيرا اهتمامهم نحو المستقبل، حيث الحياة الخالـدة في النعيم المقيم؛ لمن أجاب واهتدى، والعذاب المهين في الجحيم؛ لمن عصى وخالف[5]، ومبينا لهم مسـؤولية كل إنسان عن نفسه.

---

(١)- فالمرة الأولى هي التي جاءه فيها الملك جبريل υ وهو في غار حرآء، والثانية جاءه بعد فتور الوحي.

(٢)- إبراهيم علي محمد أحمد: في السيرة النبوية " قراءة لجوانب الحذر والحماية "، سلسلة كتاب الأمة، العدد: ٥٤، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدوحة- قطر، ط١، (١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م)، ص٣٥.

(٣)- الصلابي: السيرة النبوية، ج١، ص١١١.

(٤)- المصدر نفسه، ج١، ص٢١٦.

(٥)- عبد العزيز بن عبد الله الحميدي ، التاريخ الإسلامي-مواقف وعبر-، دار الأندلس الخضراء للنشر والتوزيع-جدة-، ط١، (١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م)، ج١، ص٩٩.

عن ابن عباس τ، قال: لما نزلت: [وأنذر عشيرتك الْأَقْرِبين] الشعراء/٢١٤، صعد النبي ε علـى الصفا فجعل ينادي: يا بني فهر، يا بني عدي-لبطون قريش- حتى اجتمعوا، فجعـل الرجـل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش، فقال: { أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم، أ كنتم مصدقي؟ }، قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقا. قال: { فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد }، فقال أبو لهب: تبا لك سائر اليوم أ لهذا جمعتنا ؟ فـ لت: [تبت يدا أبِي لَهبٍ وتب ، ما أغْنى عنه مالُه وما كَسب] المسد (١ ، ٢)[1].

وروى مسلم طـرفا آخر من هذه القصة، عن أبي هريرة τ قال: لما أُنزلت هذه الآية: (وأنذر عشيرتك الْأَقْرِبين) الشعراء/٢١٤، دعا رسول الله ε قريشا، فاجتمعوا، فعم و خص، فقال: { يا بني كعب بن لؤي ! أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني مرة بن كعب ! أنقذوا أنفسكم من النار، يا بـني عبد شمس ! أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد مناف ! أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني هاشـم ! أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد المطلب ! أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة ! أنقذي نفسـك من النار، فإني لا أملك لكم من الله شيئا، غير أن لكم رحما سأبلها ببلالها[2] }[3].

ويخطئ من يعتقد أن رسالة الإسلام في بدايتها كانت خاصة بقريش؛ بل كانت الخطـوة الأولى لتحقيق الرسالة العالمية. لقوله تعالى: (تبارك الذي نزلَ الْفُرقَانَ علَى عبده ليكُونَ للْعالَمين نـذيرا) الفرقان/٠١. وقوله تعالى: (وما أَرسلْناك إلا رحمةً للْعالَمين) الأنبياء/١٠٧. فانتقل ε من مرحلـة دعوة الأقارب من عشيرته ، إلى دعوة كل من يلتقي به من الناس، في الأندية، وا امع، والمحافل؛ وفي مواسم الحج. فكان الرسول ε يدعو الأقوياء والضعفاء، والأغنياء والفقراء؛ وحتى الأحرار والعبيـد، إلى أن نزل قوله تعالى: (فَاصدع بِما تؤمر وأَعرِض عنِ الْمشرِكين) الحجر/ ٩٤ .

فكانت النتيجة الحتمية لهذا الصدع، هي الصد والإعراض، والحرب النفسية، والإيذاء الجسـدي، والترغيب والترهيب، والتعنت والتعجيز، والمقاطعة والحصار الاقتصادي والاجتماعي، وكلها تحديات جسام واجهت الدعوة في مكة، فما المنهج الذي سلكه الرسول ε لمواجهتها، ولتغيير هـذا الواقـع الجاهلي إلى واقع إسلامي بديل عنه ؟ وهذا ما سنحاول دراسته، والإجابة عليه في هذا الفصل - إن شاء الله -.

---

(١)- البخاري: كتاب التفسير، باب: [وأنذر عشيرتك الْأَقْرِبين]، رقم: ٤٧٧٠، ص٩٢٩.

(٢)- ببلالها: أي سأصلها بصلتها التي تليق ا، ومنه: بلوا أرحامكم: أي صلوها.

(٣)- مسلم: ك. الإيمان، باب في قوله تعالى: [وأنذر عشيرتك الْأَقْرِبين]، رقم: ٣٤٨، ص٩٩.

المبحث الأول

تحـدي الحـرب النفسـية

المطلب الأول: الزعم بأن القرآن الكريم أساطير الأولين والرد عليه.

المطلب الثاني: الاتهامات الموجهة للرسول ε والرد عليها.

المطلب الثالث: التحدي بالإتيان بمثل القرآن.

المطلب الرابع: اعترافات خصوم النبي ε بصدقه.

المطلب الخامس: شهادات الخصوم بصدق القرآن الكريم.

المطلب السادس: بلاغة النبي ε تحول الدعاية إلى دعوة.

المطلب السابع: الـدروس والعـبر.

المبحث الأول
تحـدي الحـرب النفسـية

تمهيـد.

عندما جهر النبي ε بدعوته كان رد فعل قريش عنيفا، فأعلنت حربا منظمة تحمل ألوانا شتى مـن الإيذاء، أبرزها الإيذاء المعنوي، فنعت القرآن الكريم بأنه أساطير الأولين، وا ـم الرسـول الكـريم بالجنون والسحر، والشعر والكهانة؛ وبالكذب والافتراء. كما شنت حرب من السخرية والاستهزاء على الصحابة، وهي جملة أباطيل في شكل حرب نفسية، أثارها المشركون تجاه الرسول ε الداعيـة وأصحابه، وأصبحت مكة تعج بأخبار هذا الصراع، والذي تحول لصالح الدعوة؛ لأن تناقل النـاس للأخبار مشافهة كان الوسيلة الإعلامية الوحيدة آنذاك، فكان أن سمع القاص والداني بخبر النبوة، وفي ا الس، والنوادي؛ وفي البيوت[1]. ولم يفسح للرسول ε في هذه الحرب بِالرد؛ خشـية الوقـوع في المهاطرة، وتولى القرآن الكريم هذه المهمة؛ لشراسة المعركة تجاه شبهات وأباطيل المشـركين، والـتي سنوردها فيما يلي:

المطلب الأول: الزعم بأن القرآن الكريم أساطير الأولين والرد عليه.

أولا: محاولة تشويه القرآن.

(1)- الصلابي: مصدر سابق، ج1، ص218.

لما رأى المشركون أن الرسول ε لا يصرفه شيء عن دعوته، حاولوا قمع دعوته؛ بتشويه تعـاليم القرآن، وإثارة الشبهات حولها، فزعموا أن القرآن الكريم أساطير الأولين، محاولين عبثا إلصاقها بـه، وقد كشف الله تعالى زعمهم، وفضح كذ م وافتراءا م، في كثير من الآيات؛ منها:

قوله تعالى: (وإِن يرواْ كُل آية لا يؤمنواْ بِها حتى إِذَا جآؤوك يجادلُونك يقُولُ الذين كَفَرواْ إِنْ هذَآ إِلا أَساطير الأَولين) الأنعام/٢٥، (وإِذَا قيلَ لَهم ماذَا أَنزلَ ربكُم قَالُواْ أَساطير الأَولين) النحل/٢٤.

ثانيا: الصد عن الدعوة بنشر الدعاية الكاذبة.

والأساطـير هي أحاديث ملوك فارس، وأحاديث رستم، وأسفنديار، وتعلمها النضربن الحارث عندما ذهب إلى الحيرة؛ ليشـوه ا القرآن الكريم، وينشر الإيرادات الواهية حول تعاليمه، ويبث الدعايات الكاذبة تجاهـه، وتجاه شخص الرسول ε نفسه، على نحو ما تفعل وسائـل الإعلام في عصرنا، وكان يكثر منها؛ ليصد الناس عن دعـوة الإسلام[1]، وكان النضـر إذا جلس الرسول ε يدعو إلى الله، ويتلو القـرآن؛ خلفـه في مجلسه، فحدثهم بأحاديثه، ثم يقول: والله ما محمد بأحسن حديثا مني، وما أحاديثه إلا أساطير الأولين، اكتتبها كما اكتتبتها[2]. فأنزل الله فيه: (وقَالُوا أَساطير الْأَولين اكْتتبها فَهِي تملَى علَيه بكْرةً وأَصيلًا) الفرقان/٠٥. ونزل فيه أيضا: (إِذَا تتلَى علَيه آياتنا قَالَ أَساطير الْأَولين) القلم/١٥. ونزل فيه: (ويلٌ لكُل أَفاك أَثيمٍ، يسمع آيات الله تتلَى علَيه ثُم يصر مستكْبِرا كَأَن لم يسمعها فَبشره بِعذَابٍ أَليمٍ) الجاثية (٠٧ ، ٠٨).

ثالثا: رد القرآن الكريم على هذه الشبهة الباطلة.

وقد جاء رد القرآن الكريم على زعمهم وادعائهم، في قوله تعالى: (قُلْ أَنزلَه الذي يعلَم السر في السماوات والْأَرضِ إِنه كَانَ غَفُورا رحيما) الفرقان/٠٦. والقرآن النازل من عند الله تعالى، أنزله العليم الذي يعلم حركة الصغيرة والكبيرة في الكون، والعليم الذي يعلم دبيب النملة السوداء على الحجر الصماء في الليلة الضلماء؛ إنه القرآن الذي لا أساطير فيه ولا أباطيل؛ بل هو الحق النازل من الحقΨ، لقوله تعالى: (وبِالْحق أَنزلْناه وبِالْحق نزلَ وما أَرسلْناك إِلا مبشرا ونذيرا) الإسراء/١٠٥.

ومن عجائب التكذيب والعناد، أ م ادعوا أن محمدا ε تعلم القرآن من رجـل أعجمي، كان يجلس إليه ويكلمه[3]، لقوله تعالى: (ولَقَد نعلَم أَنهم يقُولُونَ إِنما يعلمه بشر لسانُ الذي يلْحدونَ إِلَيه أَعجمي وهذَا لسانٌ عربِي مبِين) النحل/١٠٣؛ فكيف يتصور عاقل أن يكون القرآن على ما يمتاز به

---

(١)– محمود المصري أبو عمار: سيرة الرسول ε، المكتبة التوفيقية، بدون طبعة وبدون تاريخ، ص (١٠٢ ، ١٠٣).

(٢)- أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافري: السيرة النبوية، دار الحديث- القاهرة، بدون طبعة، (١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٦م)، ج١، ص٢٤٩.

(٣)- الصلابي: السيرة النبوية، ج١، ص٢٢٤.

من قمة في الأسلوب، والبيان والبلاغة، أن يتعلم من أعجمي، الذي لا يحسن النطق بألفاظ عربية سليمة، إن أمية الرسول الكريم ثابتة في الكتب السابقة، لقوله تعالى: (الذين يتبِعونَ الرسولَ النبِي الْأمي الذي يجِدونه مكْتوبا عندهم في التوراة والإِنجِيلِ) الأعراف/١٠٧؛ بل اقتضت مشيئته Ψ، أن يكون أميا، حتى لا يجد المبطلون والمشككون سبيلا للافتراء؛ بأن القرآن ليس كلام الله بل هو كلام محمد ε نسجه بخياله، وكتبه بخط يده، لقوله تعالى: (وما كُنت تتلُو من قَبله من كتابٍ ولَا تخطه بِيمينِك إِذًا لَارتاب الْمبطلُونَ) العنكبوت/٤٨.

المطلب الثاني: الا امات الموجهة للرسول ε والرد عليها.

ولم تتوقف الحرب النفسية والإعـلامية ضد القرآن الكـريم، بأنه أساطير الأولين؛ بل لم يأل المشركون جهـدا في ا ام الرسول ε، بالكذب والافتراء، وبالجنون والسحر، والشعر والكهانة، فأسسوا عصابة للاستهزاء بالإسـلام، وإيذاء الداخلين فيه،" على نحو ما تفعل الصحافة المعارضة، عندما تنشر عن الخصوم نكتا لاذعة، وصورا مضحكة؛ للحط من مكانتهم عند الجماهير"[(١)]، إشارة إلى شدة حير م، وتخبطهم الشديد، في كيفية مواجهة الرسول ε ودعوته، ولقد كشف لنا القرآن الكريم عن هذا في العديد من الآيات، وتولى الرد عليها؛ ليفضح ادعاءا م، ويكشف عن أباطيلهم. فا م الرسول ε ب:

أولا: الكذب والافتراء.

وأشار القرآن الكريم إلى هذه التهمة، في عدة مواضع، أهمها:

أ- قوله تعالى: (وقَالَ الذين كَفَروا إِنْ هذَا إِلا إِفْك افْتراه وأَعانه علَيه قَوم آخرونَ فَقَد جاؤوا ظُلْما وزورا) الفرقان/٠٤.

أي؛ وقال كفار قريش: ما هذا القرآن إلا كذب اختلقه محمد من تلقاء نفسه، وساعده على هذا قوم من أهل الكتاب، حيث جعلوا العربي يتلق من الأعجمي كلاما عربيا، أعجز بفصاحته جميع فصحاء العرب؛ فكان كلامهم فيه محض الكذب والزور[(٢)].

ب- وقوله تعالى: (وإِذَا تتلَى علَيهم آياتنا بينات قَالُوا ما هذَا إِلا رجلٌ يريد أَن يصدكُم عما كَانَ يعبد آباؤكُم وقَالُوا ما هذَا إِلا إِفْك مفْترى) سبأ/٤٣.

---

(١)- محمد الغزالي: فقه السيرة، مكتبة رحاب- الجزائر، بدون رقم الطبعة، (١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م)، ص١٠٢.

(٢)- محمد علي الصابوني: صفوة التفاسير، دار الضياء – قسنطينة، ط5، (١٤١١هـ/ ١٩٩٠م)، ج٢، ص355.

أي؛ وإذا تليت على هؤلاء المشركين آيات القرآن، واضحات المعاني، بينات الإعجاز، قالوا ما هذا الذي يزعم الرسالة إلا رجل مثلكم، يريد أن يمنعكم عما كان يعبد أسلافكم، من الأوثان والأصنام، وما هذا القرآن إلا كذب مختلق على الله[1].

ج- رد القـرآن على هذه التهمة. وكان رد القرآن على هذه التهمة، بأنه لا منجى للرسول ε من العذاب لو افتري على الله الكذب، وورد هذا في قوله تعالى: (ولَو تقَولَ علَينا بعض الْأَقَاوِيلِ، لَأَخذْنا منه بِالْيمينِ، ثُم لَقَطَعنا منه الْوتين، فَما منكُم من أَحد عنه حاجِزِين) الحاقة (٤٤ ، ٤٧). ومفاد هذا القول من الناحية التقريرية، أن محمدا ε صادق فيما أبلغهم، وأنه لو تقول بعض الأقاويل التي لم يوح ا إليه؛ لأخذه الله فقتله على هذا النحو الذي وصفته الآيات، ولما كان هذا لم يقع؛ فهو لا بد صادق[2].

ثانيا: الجنون والسحر.

وقد كشف القرآن الكريم عن هذه التهم الهازلة، والشتائم السفيهة في:

أ- قوله تعالى: (وقَالُواْ يا أَيها الذي نزلَ علَيه الذكْر إِنك لَمجنونٌ) الحجر/ ٠٦.

ب- وقوله: (وعجِبوا أَن جاءهم منذر منهم وقَالَ الْكَافرونَ هذَا ساحر كَذاب) ص/٠٤.

ثالثا: الشعـر والكهانة.

كما وصف النبي ε بالشاعر، في:

قوله تعالى: (ويقُولُونَ أَئنا لَتارِكُوا آلهتنا لشاعرٍ مجنون) الصافات/٣٦.

ج- الـرد على هذه التهم والشتائم.

ومع أن المعركة قد بلغت ذرو ا وشراستها، فإن القرآن الكريم ظل يرد هذه التهم، في قوله تعالى: (فَذَكِّر فَما أَنت بِنِعمت ربك بِكَاهنٍ ولَا مجنون) الطور/٢٩، وفي قوله أيضا: (إِنه لَقَولُ رسولٍ كَرِيم، وما هو بِقَولِ شاعرٍ قَليلًا ما تؤمنونَ، ولَا بِقَولِ كَاهنٍ قَليلًا ما تذَكَّرونَ، ت ـِيلٌ من رب الْعالَمين ٍ) الحاقة (٤٠ ، ٤٣). فكانت هذه الآيات، إعلانا ربانيا، مدويا ببراءة نبيه من هذه التهم؛ لأن طبيعة أعمال السحرة والكهنة، هي تمزيق الأسر، بدليل قوله تعالى: (فَيتعلمونَ منهما ما يفَرقُونَ بِه بين الْمرءِ وزوجِه وما هم بِضآرين بِه من أَحد إِلا بِإِذْن اللّه ويتعلمونَ ما يضرهم ولاَ ينفَعهم) البقرة/١٠٢، ونشر الفتن، لقوله تعالى: (وما يعلمان من أَحد حتى يقُولاَ إِنما نحن فتنةٌ) البقرة/١٠٢.

---

(١)- المصدر نفسه، ج٢، ص٥٥٩.

(٢)- سيد قطب: في ظلال القرآن، دار الشروق- بيروت. ط١١، دون تاريخ، ج٦، ص٣٦٨٩.

أما طبيعـة رسالة محمد ε فتدعو إلى نبذ الفـتن، كما في قوله تعالى: (ولاَ تنازعواْ فَتفْشلُواْ وتذْهب رِيحكُم واصبِرواْ إِن اللّه مع الصابِرِين) الأنفال/٤٦، وتعزيز وحدة المؤمنين، كما أكد ذلك قوله تعالى: (وإِن هذه أُمتكُم أُمةً واحدةً وأَنا ربكُم فَاتقُون) المؤمنون/٥٢، ويؤكـد هذا المعنى، الحديث الذي روي عن النعمان بن بشير τ قال: قال رسول الله ε: { مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم، مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى }[1].

المطلب الثالث: التحدي بالإتيان بمثل القرآن.

وفي خضم هذه التحديات التي يواجهها الرسـول ε من كفار قريش، باعتراضهم على القرآن الكريم، وادعائهم على أنه كذب وافتراء؛ تحدى القرآن العرب، وبالأخـص كفار قريش،" بصور متعددة، وأساليب متنوعة، ـز كيان العرب هزا، وتجرهم إلى الميدان جرا، في أسلوب ممتع أخاذ، يملك عليهم شعورهم، ويستحوذ على أفئد م، بسحره، وجماله، ورونقه"[2].

١- فتحداهم على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، معلنا عجز الإنس والجن مجتمعين، في قوله تعالى: (قُل لَّئنِ اجتمعت الإِنس والْجِن علَى أَن يأْتواْ بِمثْلِ هذَا الْقُرآنِ لاَ يأْتونَ بِمثْله ولَو كَانَ بعضهم لبِعضٍ ظَهِيرا[3]) الإسراء/٨٨. وتحداهم أن يأتوا بمثل القرآن، الذي جاءهم به محمد ε، وزعموا أنه افتراه وتقوله على الله، في قوله تعالى: (قُلْ فَأْتوا بِكتابٍ من عند الله هو أَهدى منهما أَتبِعه إِن كُنتم صادقين) القصص/٤٩، فعجزوا وولوا الأدبار،مع أ م فرسان الفصاحة، وملوك البيان، وتبين أ م يتبعون أهواءهم، كما أكدت الآية الكريمة.

٢- ثم تحداهم ثانيا على أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات، في قوله تعالى: (أَم يقُولُونَ افْتراه قُلْ فَأْتواْ بِعشرِ سورٍ مثْله مفْتريات وادعواْ منِ استطَعتم من دون اللّه إِن كُنتم صادقين) هود/١٣. فانقطعوا واندحروا، وعجزوا عن الإتيان ذه السور العشر.

٣- ثم تحداهم بأقل من ذلك بكثير، فتحداهم أن يأتوا بسورة واحدة، من أقصر سور القرآن، مقرونا هذا التحدي بالتعجيز الفاضح، حاضرا ومستقبلا، بما يثير حميتهم، ويغريهم بتكلف المعارضة، خاصة بعد قولتهم القبيحة، ودعواهم الكاذبة، والتي كشف عنها القرآن في قي قوله تعالى: (وإِذَا تتلَى علَيهِم آياتنا قَالُواْ قَد سمعنا لَو نشاء لَقُلْنا مثْلَ هذَا إِنْ هذَا إِلا أَساطير الأولين) الأنفال/٣١. وجاءهم هذا التحدي في قوله تعالى: (وإِن كُنتم في ريبٍ مما نزلْنا علَى عبدنا فَأْتواْ بِسورة من مثْله

---

(١)- مسلم: ك. البر والصلة والآداب، باب: تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، رقم: ٦٦، ص٩٧٤.

(٢)- محمد علي الصابوني: التبيان في علوم القرآن، دار البعث، قسنطينة- الجزائر، ط٣، (١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م)، ص٩١.

(٣)- ظهيرا: معينا ونصيرا.

وادعواْ شهداءكُم من دون اللّه إنْ كُنتم صادقين، فَإن لم تفْعلُواْ ولَن تفْعلُواْ فَاتقُواْ النار التي وقُودها الناس والْحجارةُ أُعدت للْكافرين) البقرة (٢٣ ، ٢٤). قال العلامة القرطبي في تفسيره (الجامع لأحكام القرآن)، قوله: (فَإن لم تفْعلُواْ) يعني فيما مضى، (ولَن تفْعلُواْ) أي: لن تطيقوا ذلك فيما يأتي، وفيه إثارة لهممهم، وتحريك لنفوسهم؛ ليكون عجزهم بعد ذلك أبدع، وهذا من الغيوب التي أخبر ا القرآن قبل وقوعا[1].

المطلب الرابع: اعترافات خصوم النبي ε بصدقه.

وعلى عجـز كفار قريش أمام تحـدي القرآن الكريم، بأن يأتوا بمثله؛ فإن المكابرة، والعـناد والجحود، حال دون اعترافهم المعلن، بأن القرآن من عند الله، رغم تصديقهم بقلو م، وفي قرارات أنفسهم، بأنه الحق الم ل من الحق Ψ على الرسـول ε، المشهود له بالصـدق بينهم. إنه - بلا شك- الشيطان الذي يكيد للإنسان أعظم الكيد؛ ليصده عن الحق، وعن طريق الهدى والرشاد. إ ا الحقيقة المتجلية لدى الرسول ε فحازت في نفسه، وعظم جرمها في قلبه، فحزن لموقف قومه؛ الذين أعرضوا وصدوا عن دعوته. " ومن حق كل رجل صـدوق نبيل، أن يأسف، ويألم؛ إذا ألفى نفسه مكذبا مهجورا"[2]، فجاء القرآن فشخص للـرسول ε ما بداخله من أحـزان، وقدم له المواساة، كاشـفا له بواطن المكـذبين، في قـوله عز وجل: (قَد نعلَم إنه لَيحزنك الذي يقُولُونَ فَإنهم لاَ يكذبونك ولَكن الظالمين بِآيات اللّه يجحدونَ) الأنعام/٣٣. ومما يدل على تصديق المشركين لمحمد ε وما جاء به، جملة الاعترافات، والشهادات الصادرة عنهم، وأهمها:

١- فقد شهد المشركون للرسول ε بالصدق، عند إظهار دعوته، فعندما قال النبي ε لقومه: { أرأيتم لو قلت لكم أن خيلا تغير عليكم أكنتم مصدقي؟ } قالوا: نعم، ما جربنا عليك من كذب قط ..[3].

٢- وشهد أمية بن خلف وزوجته بصدقه، حينما أراد أن يكف سعد بن معاذ τ بأن لا يرفع صوتـه على أبي الحكم، لمنعه من الطواف بالبيت، (..فقال أمية لسعد: لا ترفع صوتك على أبي الحكم، فإنه سيد أهل الوادي ..فغضب سعد τ فقال: دعنا عنك، فإني سمعت محمدا يزعم أنه قاتلك،

---

(١)- المصدر نفسه، ص (٩١، ٩٣).

(٢)- الغزالي: فقه السيرة، ص١٠١.

(٣)- أبو نعيم الأصبهاني: دلائل النبوة، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع- بيروت- لبنان ، ط١ (١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م)، ج١، ص١٧٨، رقم: ١١٦. وأخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب: [وأنذر عشيرتك الْأَقْربين]، رقم: ٤٧٧٠، ص٩٢٩ .

قال: إياي، قال: نعم، قال: والله ما يكذب محمد إذا حدث، فرجع إلى امرأته، -فأخبرها الخبر-،.. قالت: فوالله ما يكذب محمد..)[1] ، فقتل مع من قتل من المشركين.

٣- واعترف أبو جهل بصدقه وصدق دعوته، حيث قال للمغيرة بن شعبة: والله إني لأعلم ما يقول حق؛ ولكن بني قصي قالوا: فينا الحجابة، فقلنا: نعم، قالوا: فينا الندوة، قلنا: نعم، قالوا: فينا اللواء، قلنا: نعم، قالوا: فينا السقاية، قلنا: نعم، ثم أطعموا وأطعمنا حتى إذا تحاكت الركب، قالوا: منا نبي! فلا والله لا أفعل[2].

٤- وشهادة هرقل وأبو سفيان له بالصـدق، وذلك كما ورد في الصحيحين، في قصة حوار دار بين هرقل وأبي سفيان، فمن بين ما قال هرقل لأبي سفيان: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فأجابه: لا. ثم عقب هرقل على جواب أبي سفيان قائلا: قد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس، ويكذب على الله[3].

المطلب الخامس: شهادة الخصوم بصدق القرآن الكريم.

برغم الجحود والعناد، والمكابرة التي واجه المشركون ا دعوة الإسـلام؛ فإن الفطرة السليمة التي جبل الله عليها خلقه، لم تمنع من الاعتراف بالحقيقة، وتكشف عن المخبـوء في الصدور؛ وفي ثنايا النفس اللوامة. فجاءت لحظة صحوة الضمير؛ لتراجع المواقف، فتبوح بصدق دعوة الرسول ε وما جاء به؛ إلا أن مانع الحسد، والتنافس، والتنازع عن الجاه والسلطان، والرضوخ لسلطان الشهوات، والاعتصام بحبل المصالح المادية؛ حال دون اتباعهم لدعوة الرسول ε، وتصديقهم بالقرآن. وهذا ما أقر به أكابر الخصوم من قريش،من خلال هذه الاعترافات:

١- فشهد الوليد بن المغيرة بصدقه؛ ذلك أن الوليد عندما سمع القرآن من رسول الله ε فكأنه رق له، فبلغ ذلك أبا جهل.. قال له: فقل فيه قولا يبلغ قومك أنك منكر له، قال: وماذا أقول ؟ " فوالله ما منكم رجل أعرف بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه، ولا بقصيده مني، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئا من هذا، و والله إن لقوله الذي يقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو ولا يعلى، وإنه ليحطم ما تحته .."[4].

---

(1)- المصدر نفسه، ج١، ص (١٧٨ ، ١٧٩). وأخرجه البخاري: ك. المناقب، باب: علامات النبوة، رقم: ٣٦٣٢، ص (٦٩٣، ٦٩٤).

(2)- الصلابي: السيرة النبوية، ج١، ص٢٢٩.

(3)- الندوي: السيرة النبوية، ص (٣٠٣ ، ٣٠٦). وأخرجه البخاري، باب بدء الوحي، رقم: ٧، ص(٢٢ ، ٢٤). ومسلم رقم: ١٧٧٣.

(4)– أبو الفداء الحافظ بن كثير، تحقيق د/ أحمد عبد الوهاب فتيح : البداية والنهاية، دار الحديث- القاهرة، ط٦ (١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م)، ج٣، ص (١٠٩ ، ١١٠).

٢- وشهد أبو جهل، وأبو سفيان، والأخنس بن شريق بصدق القرآن ودعوة الرسول ε؛ فعندما فشل هؤلاء فيما تعاهدوا عليه، من عدم السماع للرســول ε وهو يقرأ القرآن، جاءت لحظة المكاشفة عن الحقيقة، ".. فلما أصبح الأخنس بن شريق، أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته، فقال: أخبرني يا أباحنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال: يا أبا ثعلبة، والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد ا، فقال الأخنس: وأنا والذي حلفت به، ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه في بيته، فقال: يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال: ماذا سمعت ؟! تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب، وكنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك هذه ؟ والله لا نسمع به ولا نصدقه، فقام عنه الأخنس بن شريق"[١].

٣- وكان الحسد والتنافس يمنعان من اتباع الرسول ε، وما جاء به. فهذا أمية بن أبي الصلت، قد حدث عن نبي يقوم في العرب قبل ظهور محمد ε، حتى طمع هو في النبوة، إلا أن الغيرة قد أكلت قلبه حين لم ي ل الوحي عليه، فلم يرض أن يؤمن بمحمد ε مع غلبة الحكمة على شعره، حتى قال ε فيه يوما: { أمية آمن شعره وكفر قلبه }[٢].

وكشف الوليد بن المغيرة عن حسده و غيرته، وشدة غيضه، بقوله: أي ل على محمد، وأُترك أنا كبير قريش وسيدها، ويترك أبو مسعود عمرو بن عمير الثقفي سيد ثقيف، ونحن عظيما القريتين[٣]، وإلى هذا يشير قوله تعالى: (وقَالُوا لَولَا نزلَ هذَا الْقُرآنُ علَى رجلٍ من الْقَريتينِ عظيمٍ، أَهم يقْسِمونَ رحمةَ ربك نحن قَسمنا بينهم معيشتهم في الْحياة الدنيا) الزخرف (٣١ ، ٣٢).

٤- وشهدت امرأة أبي لهب بأن الرسول ε ليس بشاعر؛ (..فقالت لأبي بكر τ يوما: هجانا صاحبك، فقال أبو بكر: والله ما ينطق بالشعر ولا يقوله، قال، قالت: إنك لمصدق..)[٤].

المطلب السادس: بلاغة النبي ε تؤثر في مخاطبيه وتحول الدعاية إلى دعوة.

إن إخلاص الرسول ε في دعوته، أهلّه في أن يؤثر في سامعيه، يئته ووقاره، وأخلاقه قبل كلامه؛ فكسر بذلك حصار الأعداء. فقرر سادة قريش وعلى رأسهم الوليد بن المغيرة أن يشيعوا في الوفود القادمة من مختلف القبائل إلى مكة في موسم الحج، أن محمدا ساحر، يفرق بين المرء وأخيه، وبين المرء

---

(١)- المصدر نفسه، ج٣، ص١١٣.

(٢)- محمد حسين هيكل: حياة محمد ε، المكتبة العصرية، صيدا- بيروت- لبنان، ط١، (١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م)، ص (١٥٢ ، ١٥٣).

(٣)- المصدر نفسه، ص١٥٣.

(٤)- الأصبهاني: دلائل النبوة، ج١، ص (١٩٣ ، ١٩٤)، رقم: ١٤٠.

وأبيه، وبين المرء وزوجه، ويحذرون منه، ومن الإصغاء إلى ما يتلوه على أسماعهم؛ لئلا يسحرهم - حسب زعمهم- فحول الرسـول ε بحنكته وحكمته، الحرب النفسية التي خطط لها، حسب القواعد والأسس المعمول ا في العصر الحديث، من اختيار الزمان، والمكان، والأشخاص إلى وسيلة إعـلامية إيجابية لصالح الدعوة؛ فأثار التشهـير الذي خطط له، فضول القادمين إلى مكة في السماع للرسول ε وما جاء به. فاعتنقوا الإسلام بسبب أخـلاقه العالية، وبفعل كلمته المؤثرة والمعبرة[١]، وأهم هذه النماذج ما يلي:

١- فقد سمع ضماد الأزدي τ ، سفهاء من أهل مكة يقولون: إن محمدا مجنون، وكان يرقي من الريح[٢]، فلقيه، فقال: يا محمد، إني أرقي من هذه الريح، وإن الله يشفي على يدي من شاء، فهل لك[٣]؟ فقال رسول الله ε: { إن الحمد لله نحمده ونستعينه، من يهديه الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هـادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، و أن محمدا عبده ورسوله، أما بعد }. فقال بعد أن طلب منه أن يعيدها عليه ثلاث مرات: لقد سمعت قول الكهنة، وقول السحرة، وقول الشعراء، فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء، فبايع الرسول ε على الإسلام، ثم بايعه على قومه[٤].

٢- وهذا عمرو بن عبسة السلمي τ وكان يعتقد أن الناس في الجاهلية على ضلالة وهم يعبدون الأوثان، فلما سمع بالنبي ε قدم عليه، وكان قومه جرءآء عليه، فلما دخل عليه بمكة، قال، قلت له: ما أنت؟ قال: { أنا نبي }، فقلت: وما نبي؟ قال: { أرسلني الله }، فقلت: وبأي شيء أرسلك؟ قال: { أرسلني بصلة الأرحام، وكسر الأوثان، وأن يوحد الله لا يشرك به شيء }، قلت له: فمن معك على هذا ؟ قال: { حر وعبد }، قال: ومعه يومئذ أبو بكر و بلال ممن آمن به، فقلت: إني متبعك. قال: { إنك لا تستطيع ذلك يومك هذا، ألا ترى حالي و حال الناس؟ ولكن ارجع إلى أهلك، فإذا سمعت بي قد ظهرت فأتني }[٥].

٣- وأبو ذر τ كان منكرا لحال الجاهلية، و يأبى عبادة الأصنام؛ وينكر على من يشرك بالله، ويظهر أنه كان على ج الأحناف، فكان يصلي لله قبل إسلامه بثلاث سنوات، دون أن يخص قبلة بعينها. فلما سمع بالنبي ε قدم إلى مكة، ذهب ليسأل عنه، فأدركه الليل، فاستضافه علي τ ثلاث ليال، فلما استوثق منه أبو ذر τ أخبره عن سبب مجيئه، فأرشده إلى اتباعه، ثم دله عن مكانه، فقابل

---

(١)- الصلابي: السيرة النبوية، ج١، ص (٢٣٩ ، ٢٤١).

(٢)- الريح: الجنون أو مس الجن.

(٣)- فهل لك: أي هل لك رغبة في رقيتي ؟

(٤)- مسلم: كتاب الجمعة، باب: تخفيف الصلاة والخطبة، رقم: ٨٦٨، ص (٣٠٢ ، ٣٠٣).

(٥)- مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب: إسلام عمرو بن عبسة رقم: ٨٣٢، ص (٢٩١، ٢٩٢).

الرسول ε واستمع إلى قوله فأسلم، فقال له النبي ε: { ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمري }. فأبى إلا أن يجهر ا، فخرج حتى أتى المسجد، فنادى بأعلى صوته: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وثار القوم حتى أضجعوه، فأنقذه العباس بن عبد المطلب، بعد أن حذر المشركين من انتقام غفار، والتعرض لتجار م[1].

المطلب السابع: الـدروس والعـبر.

١- إن أسلوب الحرب النفسية لا يزال متواصلا على الإسلام وأهله في عصرنا، فالإسلام اليوم يواجه أعتى حرب دعائية من خصومه؛ فالأجهزة اليهودية والصليبية والشيوعية، تبذل ما في وسعها لتسليط أجهز ا الإعلامية المختلفة؛ لتشويه الإسلام وتصويره كدين يمثل الإرهاب والتخلف [2].

٢- إن الأثر الإيجابي الذي أحدثته الصحوة الإسلامية، في جذب مختلف شرائح ا تمع إلى رحاب الإسـلام، والتمسك بشريعته، دفع الخصوم إلى تحميل الإسلام كل التخلف الحضاري، وصوروا الصحوة بأ ا يقودها أشخاص متطرفون، يحاولون العودة بالأمة إلى القرون الوسطى، حيث التخلف والرق، وتقديمهم كمخربين لكل ما تنتجه الحضارة البشرية المعاصرة[3].

٣- إن مة الرسول ε بالجنون، إنما قصد ا تنفير الناس من سماع دعوته، وقد نجد لها مسوغا عند من يرى أن العقل يقتضي مسايرة واقع الناس، وطلب السلامة في النفس والمال؛ لأن إهدار المال، والتضحية بالنفس وتعريضها للهلاك من أجل المحافظة على المبدأ يعد عندهم ضرب من الجنون. وهكذا في واقعنا نجد حتى المحسوبين على الإسلام، أو من ينتسبون إليه ينظرون إلى دعاة الحق الذين يقاومون الباطل، وهم يتعرضون لضياع أموالهم، وللتشريد، وللسجن، وللقتل أحيانا، على أ م مجانين؛ لأن النظر إلى الدنيا، وحسن تدبير الأموال وجمعها- حسب نظرهم- هو عين العقل، وطريق الصواب[4].

٤- إن سرعة اعتناق ضماد للإسلام، يعد شاهدا على فصاحة النبي ε وقوة بيانه، ونابعا من إخلاصه وإيمانه وحكمته، فكان جاذبا لأصحاب القلوب المتجردة إلى اتباعه. وفيه دلالة على أن الإسلام دين الفطـرة، حيث تستجيب له النفوس المتحـررة من اتباع الهوى، ومن هيمنة الطغاة من الأكابر. لذلك لم يتردد ضماد في الاعتراف من خلال المقدمة التي سمعها من النبي ε من أن هذا

---

(١)- البخاري: كتاب المناقب، باب: باب قصة إسلام أبي ذر الغفاري τ، رقم: ٣٥٢٢، ومسلم: ٢٤٧٤، ص٦٧٦.

(٢)- الغضبان: فقه السيرة النبوية، ص١٠٤.

(٣)- المصدر نفسه، ص (١٠٤ ، ١٠٥).

(٤)- الحميدي: التاريخ الإسلامي، ج١، ص (١٢٩، ١٣٠).

الكلام، لا يشبهه ولا يدانيه، لا كلام الشعراء، ولا كلام الكهان ولا أعمال السحرة، فاعتنق الإسلام مباشرة. ومما يمكن أن يستفيد منه دعاة اليوم، في عدم تأثر الناس في عصرنا للدعوة، قد يرجع هذا إما لعيب في الدعاة، الذين لا يحسنون توصيل دعو م بأسلوب مؤثر؛ وإما لتدني مستوى المدعوين في عدم تذوق كلام الدعاة وفهمه[١].

٥- إن الحرب الإعلامية التي خاضتها قريش ضد دعوة الرسول ε كانت سببا في نشر الإسلام، " فرب ضارة نافعة "، فا ام الرسول بالجنون، حمل ضماد إلى السير إليه، كما كانت سببا في تتبع عمرو بن عبسة السلمي τ أخبار الرسول والسـؤال عنه[٢]، فتحولت هذه الدعاية إلى دعوة، اجتازت حدود مكة إلى أن وصلت قبيلة غفار، وتوجت بإسلام أبي ذر الغفاري τ ، وأسلم بسبب الحرب الإعلامية أيضا، الطفيل بن عمرو الدوسي τ ودعا قومه إلى الإسلام، إلا أنه لقي منهم صدودا وإعراضا[٣]. وما الحملة المسعورة التي قاد ا مؤخرا الصحف الدانمركية خير دليل على هذا، فساهمت بشكل أو بآخر في التعريف بالإسلام عند الذين لا يعرفون عنه شيئا، فتحول التشهير إلى إشهار، فاعتنقه كثير من الناس بعدما درسوه وعرفوا حقيقته، وتشير التقارير إلى تزايد عدد الداخلين الجدد في الإسلام من الدانمركيين، ما بين خمسة وعشرة في الأسبوع الواحد[٤]، وهكذا الأعداء كلما حاولوا أن يكيدوا بمعاولهم لهـدم الإسلام وتشويه مبادئه، جعل الله كيدهم في نحورهم، وسقطت معاولهم على رؤوسهم. وقد أكد الله هذه الحقيقة في قوله تعالى: (ويمكُرونَ ويمكُر اللّه واللّه خير الْماكرِين) الأنفال/٣٠.

٦- ومما ينبغي أن يستفيد منه الدعاة، في طلب النبي ε البيعة من ضماد لقومه، تعليم للداعية بأن يكون مهتما بدعوته، ومدركا لمسؤوليا ا، فيغتنم كل فرصة لصالحها، حيث جعلها النبي ε قرينة الالتزام الشخصي، فلم يكتف الرسول ε بإسلام ضماد؛ بل أخذ منه البيعة على دعوة قومه إلى الإسلام[٥].

٧- إن خلق الحلم من صفات عباد الرحمان، الذين أشاد الله تعالى م في القرآن الكريم، في قوله: (وعباد الرحمنِ الذين يمشونَ علَى الْأَرضِ هونا وإِذَا خاطَبهم الْجاهلُونَ قَالُوا سلَاما) الفرقان/٦٣.

---

(١)- المصدر نفسه، ج١، ص (١٣١، ١٣٢).

(٢)- الصلابي: السيرة النبوية، ج١، ص (٢٤٣، ٢٤٤).

(٣)- المصدر نفسه، ج١، ص (٢٤٦ ، ٢٤٧).

(٤)- جريدة " الشروق اليومي " الجزائرية: مقال: تزايد عدد الدنماركيين الذين يعتنقون الإسلام، نقلا عن صحيفة: " البوليتكن " الدنمركية، العدد: ١٥٧٢، ص٢٢.

(٥)- الحميدي: التاريخ الإسلامي، ج١، ص١٣٢.

فنرى هذا الخلق يطبقه النبي الكريم على أرض الواقع، فعندما عرض ضماد على الرسول الكريم أن يعالجه من مرض الجنون، وهذا موقف يثير الغضب، قابله الرسول ε بحلم وهدوء، مما أثار إعجاب ضـماد واحترامه له[1]، وهذا درس للأمة، وللدعاة خصوصا أن يتحلوا بهذا الخلق، فهو خير سلاح لمواجه أي أسلوب من أساليب الحرب النفسية.

٨- تعد الحرب النفسية من أخطـر أنواع الحروب على الإطـلاق، فهي تشكل أكبر تحد يواجه العقائد والحركات الإصلاحية، والدعوية، والتحررية في العالم كله؛ لكونها تستهدف الأفكار النيرة، والتعاليم الناهضة، حتى لاتصل إلى العقول، وتنشر الفرقة والانقسام، وتبث الفتنة، وتضع العقبات أمام أي تقـدم أو تطـور، وتطعن من الخلف، وتلـجأ إلى التشـويش بنشر الإشاعة، وتشويه الأفكار والمعتقدات، وخلق الأقـاويل واختلاق الأكاذيب، واتباع وسائل الترغيب والترهيب..الخ، مما يجعل هذه الحرب أشد خطورة من الحروب العسكرية[2].

المبحث الثاني

تحـدي الأذى الجسـدي

---

(١)- الصلابي: مصدر سابق، ج١، ص (٢٤٢، ٢٤٣).

(٢)- إبراهيم علي محمد أحمد: في السيرة النبوية " قراءة لجوانب الحذر والحماية ": ص (٦٤ ، ٦٥).

المطـلب الأول: مواجهة الرسول ε للأذى والتعذيب.

المطـلب الثاني: الـدروس والعـبر.

المطـلب الثالث: تحدي عام الحزن وأهل الطائف.

المطـلب الرابع: مواجهة الصحابة ψ للأذى والتعذيب.

المطـلب الخامس: الـدروس والعـبر.

المبحث الثاني

تحدي الأذى الجسدي

تمهيد.

ولما استجاب النبي ε بأن يصدع بما جاءه من الحق، ويظهر دعوته إلى الإسلام، كما أمره الله في قوله: (فَاصدع بِما تؤمر وأعرِض عنِ الْمشرِكين) الحجر/٩٤، وفي قوله تعالى: (وقُلْ إِني أنا النذير

المبين) الحجر/٨٩، "لم يبعد منه قومه، ولم يردوا عليه حتى ذكر آلهتهم وعا ا"[١]، وسفه دين آبائهم وأجدادهم، وأبطل عبادة الأوثان، وبين أ ا أصنام لا تنفع ولا تضر. " فلما فعل ذلك، أعظموه وناكروه، وأجمعوا على خلافه وعداوته"[٢]، ومضى رسول الله ε يدعو قومه إلى اعتناق عقيدة التوحيد، ونبذ عقيدة الشرك، لا يرده عنه شيء، وحدب عليه عمه أبو طالب، وقام دونه يذود عنه ويمنعه. ورغم هذا تعرض الرسول ε وأصحابه، إلى أشد الأذى من زعماء قريش، إنْ "ينظرا م الحادة أو ألسنتهم السليطـة" [٣]، وظل الرسول ε يواجه باطلهم بشخصـية قوية، وشجاعة لا متناهية، ويتحداهم بما عجزوا عن مقاومته، فأسقـط سمعتهم الوهمية، وفضح دجلهم واستخفافهم بعقول الناس، فما كان منهم إلا أن ضاعفوا كيدهم وأذيتهم له ولأصحابه.

المطلب الأول: مواجهة الرسول ε للأذى والتعذيب.

لقد تعرض النبي ε قبل أصحابه إلى شتى ألوان التعذيب، من طرف مشـركي قريش، الذين لم يفتروا يوما عن أذيته، والاعتداء عليه، مذ أظهره الله عليهم بدعوته، ويدل على ما تعـرض له، هذه النماذج المختلفة من الإيذاء:

١- ومما جاء في رواية لابن إسحاق- رحمه الله-: أن الملأ من قريش لما مر م النبي ε طائفا بالبيت غمزوه[٤] ببعض القول، فوقف ثم قال: { أتسمعون يا معشر قريش، أما والذي نفسي بيده، لقد جئتكم بالذبح }، فأخذت القوم كلمته حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع، حتى إذا كان الغد، اجتمعوا في الحجر، فلما رأوه وثبوا إليه وثبة رجل واحد، وأحاطوا به، يقولون: أنت الذي تقول كذا وكذا، لما كان يقول من عيب آلهتهم ودينهم، فيقول رسول الله ε: { نعم، أنا الذي أقول ذلك }، فأخذ رجل منهم بمجمع رداءه حتى قام أبو بكر τ دونه، يشفق عليه وهو يبكي ويقول: أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله ؟ ثم انصرفوا عنه، فإن ذلك أشد ما نالت قريش منه قط[٥].

---

(١)- الندوي: السيرة النبوية، ص١٢٣.

(٢)- المصدر نفسه، ص١٢٣.

(٣)- الحميدي: التاريخ الإسلامي، ج٢، ص٢٩.

(٤)- غمزوه: أي طعنوا فيه بالقول.

(٥)- ابن هشام: السيرة النبوية، ج١، ص٢٠٤. البخاري: ك. فضائل الصحابة، باب: قول النبي ε: { لو كنت متخذا خليلا } ، رقم: ٣٦٧٨، ص٧٠٢. ومسلم، رقم: ٢٣٨٩.

٢- وقد خيب الله أبا جهل- لعنه الله- عندما أقسم أمام الملأ، بأن يطأ على رقبة رسول الله ε وهو قائم يصلي، لكنه انتكـص عـلى عقبيه[1]، فقيل له: مالك؟ فقال: إن بيني وبينه لخنـدقا من نار، وهولا، وأجنحة. فقال رسول الله ε: { لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضوا عضوا }[2].

٣- وقد استجاب الله -عز وجل- لدعوة نبيه، عندما انبعث أشقى قريش- عقبة بن أبي معيط- فعمد إلى فـرث جزور، ودمها وسلاها[3]، فوضعها بين كتفي الرسـول ε وهو ساجد يصلي، فضحك القوم حتى مال بعضهم إلى بعض من الضحك، فأقبلت فاطمة- رضي الله عنها- فألقته عنه، فقال: { اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش }، لأبي جهل بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأبي بن خلف، وعقبة بن أبي معيط. قال عبد الله بن مسعود τ: فلقد رأيتهم في قليب[4] بدر قتلى.

قال أبو إسحاق: ونسيت السابع. وقال يوسف بن إسحاق، عن أبي إسحاق: أميةُ بن خلف. وقال شعبة: أميةُ أو أُبي. والصحيح أمية[5].

٤- وكان أبولهب من أشـد الناس عداوة للنبي ε، وكذلك امرأته أم جميل، فكانت تسعى للإفساد بينه وبين الناس بالنميمة، وتضع الشوك في طريقه، والقذر على بابه، فـ ل فيهما قوله تعالى: (تبت يدا أَبِي لَهبٍ وتب، ما أَغْنى عنه مالُه وما كَسب، سيصلَى نارا ذَات لَهبٍ، وامرأَته حمالَةَ الْحطَبِ، في جِيدها حبلٌ من مسد) المسد (٠١ ، ٠٥). فحينما سمعت ما نزل فيها وفي زوجها من القـرآن، عزمت أن تضرب الرسول ε وكان في يدها فهر من حجارة، فأخذ الله ببصرها عنه، وكانت تنشد:* مذمم أبينا، ودينه قلينا، وأمره عصينا* وكان الرسول ε يفرح؛ لأن المشركين يسبون مذمما، فيقول: { ألا تعجبون كيف يصـرف الله عني شتم قريـش ولعنهم، يشتمون مذمما ويلعنون مذمما، وأنا محمد }[6].

---

(١)- انتكص على عقبيه: رجع يمشي إلى الوراء.

(٢)- ابن كثير: البداية والنهاية، ج٣، ص٩٤ . مسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب:" كلا إن الإنسان ليطغى"، رقم: ٢٧٩٧، ص١٠٥٠.

(٣)- سلاها: والسلا: هو الذي يخرج مع ولد الناقة كالمشيمة لولد المرأة.

(٤)- القليب: البئر المفتوح.

(٥)- البخاري: ك. الجهاد والسير، باب: الدعاء على المشركين بالهزيمة والزلزلة، رقم: ٢٩٣٤، ص٥٦٣. وأخرجه مسلم: ١٧٩٤ باختلاف.

(٦)- البخاري: ك. المناقب، باب: ما جاء في أسماء رسول الله ε: رقم: ٣٥٣٣، ص٦٧٩.

وكان أبو لهب يتبع الرسول الكريم، في الأسواق وا امع، ومواسم الحج ويكذبه[1]، وكان يسفي عليه التراب والرسول ε يدعو الناس، ويقول: { يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا }[2].

٥- ونرى المعجزة الإلهية ترد كيد أبي جهل، فقد عاهد قومه بأن يجلس للرسول ε غدا بحجر، فإذا سجد في صلاته فضخ به رأسه، وليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم، فلما احتمل أبو جهل الحجر ودنا من الرسول ε، رجع منبهتا ممتقعا لونه مرعوبا، قد يبست يداه على حجره حتى قذف الحجر من يده، فسأله رجال من قريش: ما بك يا أبا الحكم؟! فقال: قمت إليه لأفعل ما قلت لكم البارحة، فلما دنوت منه عرض لي دونه فحل من الإبل، والله ما رأيت مثل هامته ولا قصرته[3]، ولا أنيابه، فهم أن يأكلني. قال ابن إسحاق: فذكر لي أن رسول الله ε قال: { ذلك جبريل، ولو دنا منه لأخذه} [4].

٦- ومن شدة ما لقيه الرسول ε ما لقيه من أقبحهم وأسفههم، عقبة بن أبي معيط، فبينما النبي الكريم يصلي في حجر الكعبة، إذ أقبل عقبة بن أبي معيط فوضع ثوبه في عنقه، فخنقه خنقا شديدا، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه، ودفعه عن النبي ε ، وقال: أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم[5].

٧- ومما لقيه النبي ε أيضا من العداوة والإيذاء، ما رواه الطبري وابن إسحاق، أن بعضهم عمد إلى قبضة من التراب، فنثرها على رأسه، وهو يسير في بعض سكك مكة، وعاد إلى بيته والتراب على رأسه، فقامت إليه إحدى بناته تغسل عنه التراب وهي تبكي، ورسول الله ε يقول لها: يا بنية لا تبكي، فإن الله مانع أباك[6].

٨- وقد تعدت قسوة أبي لهب إلى قطع صلة الرحم، وهو ذا العمل يعطي صورة لأرباب الأسر المتهالكين؛ للدفاع عن مصالحهم وسمعتهم، دون النظر إلى طبيعة الحق الذي جاء به الرسول ε، أو إعمال عقل فيه، فأي عمل يمس مصالحه أو يخدش م لته، دفعه ذلك إلى ارتكاب الحماقات، فكان من قسوته، أن كان أبناؤه متزوجين ببناته ε فأمرهم بفراقهن. فقد طلق عتبة و عتيبة رقية وأم كلثوم،

---

(١)- الصلابي: السيرة النبوية، ج١، ص255.

(٢)- ابن كثير: البداية والنهاية، ج٣،ص٩١.

(٣)- قصرته: القصرة أصل العنق.

(٤)- المصدر نفسه، ج٣، ص (٩٢، ٩٣) بتصرف.

(٥)- محمد سعيد رمضان البوطي: فقه السيرة، دار الشهاب للطباعة والنشر، باتنة، بدون طبعة وبدون تاريخ، ص١٠٥. وأخرجه البخاري: ك. فضائل الصحابة، باب: قول النبي ε: { لو كنت متخذا خليلا } ، رقم: ٣٦٧٨، ص٧٠٢. ومسلم، رقم: ٢٣٨٩.

(٦)- المصدر نفسه، ص١٠٥. نقلا عن: تاريخ الطبري (٢/ ٣٤٤) ، وسيرة ابن هشام (١٥٨/١).

ولعل هذا التصـرف، اجتمعت فيه عداوة وبغضاء، زوجته أم جميل بنت حرب، أخت أبي سفيان، والتي كانت سليطة اللسان على الرسول ε؛ بالدس والافتراء[١].

٩- ولقد ختم المشركون أذاهم للـرسول ε، بإعدادهم لمحاولات تستهدف حياته في أواخر المرحلة المكية؛ إلا أن رعاية الله، وحفظه لـه ولدعوته حال دون ذلك. إن كيد الأعداء مهما بلغ ذروته، فلن يستطيع أن يمس قيد أنملة، في مسيرة دعوة، قرر الله تعالى عالمية رسالتها، ومن أبرز الأمثلة على ذلك:

ما روي عن ابن عباس τ ، قال: (أن الملأ من قريش اجتمعوا في الحجر، فتعاهدوا باللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى، لو قد رأينا محمدا، قمنا إليه قيام رجل واحد، فلم نفارقه حتى نقتله، فأقبلت ابنته فاطمة تبكي حتى دخلت على أبيها، فقالت: هؤلاء الملأ من قومك في الحجـر قد تعاهدوا: أن لو قد رأوك قاموا إليك فقتلوك، فليس منهم رجل إلا قد عرف نصيبه من دمك، قال: { يا بنية أدني وضوءا }، فتوضأ ثم دخل عليهم المسجد، فلما رأوه قالوا: هو هذا، هو هذا، فخفضوا أبصارهم، وعقروا[٢] في مجالسهم، فلم يرفعوا إليه أبصارهم، ولم يقم منهم رجل، فأقبل رسول الله ε حتى قام على رؤوسهم، فأخذ قبضة من التراب، فحصبهم بها، وقال: { شاهت الوجوه[٣]}، قال: فما أصابت رجلا منهم حصاة، إلا قتل يوم بدر كافرا)[٤].

المطلب الثاني: الـدروس والعـبر.

إن ما تعـرض له النبي ε من أنواع الأذى، والتنكيل والتعذيب، وهو يدعو إلى إحـقاق الحق وإبطال الباطل، والله عز وجل قادر على أن يعصمه من الأعداء، لفي ذلك دلالات، أهمها:

١- إن صفة الإنسان في الدنيا أنه مكلف، ومن مقتضيات التكليف تحمل المشاق، والدعوة إلى الإسلام من أهم متعلقاته، والتكليف في حد ذاته من مستلزمات العبودية لله تعالى، والتي لا معنى لها إلا به[٥].

٢- إن ما لاقاه الأنبياء من أذى على مـر التاريخ، والدعاة من بعدهم عبر العصور في سبيل نشر الدعوة، وإقامة المجتمع المسلم، يعد سنة إلهية في الكون تقتضيها حكم ثلاث:

---

(١)- محمد الغزالي: فقه السيرة، ص٩٩.

(٢)- أي أصاب الوهن قوائم أرجلهم بسبب الخوف والدهشة.

(٣)- أي قبح منظرها.

(٤)- مسند الإمام أحمد بن حنبل، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، ط٢، (١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م)، رقم: ٣٤٨٥، ج٥، ص٤٤٢.

(٥)- البوطي: فقه السيرة، ص١٠٦.

أ- صفة العبودية لله تعالى، والملازمة للإنسان، لقوله- عز وجل: (وما خلَقْت الْجِن والْإِنس إلا ليعبدون) الذاريات/٥٦.

ب- صفة التكليف المتفرعة عن صفة العبودية لله تعالى، ولتحقيق هذه العبودية يتحمل المسلم المكلف كثيرا من الشدة، والأذى في إقامة شريعة الإسلام في نفسه أولا، ثم في مجتمعه ثانيا، وهكذا كان منهج الرسول ε، بدأ بأهله ثم بعشيرته ثم بعامة الناس، متحملا في سبيل هذه الـدعوة، كل ألوان العداء والأذى؛ والشدة من قومه.

ج- إن أحب العباد إلى الله تعالى أنبـياؤه ورسله، ورغم هذه القربة فقد تعـرضوا للمحن، والابتلاءات من قومهم، والله عز وجل قادر على دفعها؛ إلا أن حكمته شاءت أن تبين لأنبيائه ورسله، والدعاة عبر الزمان وفي كل مكان، وللمؤمنين كافة؛ بأن الابتلاءات هي الميزان الذي يمحص من خلاله الصادق من الكاذب[1]، لقوله تعالى: (ألم ،أحسِب الناس أن يتركُوا أن يقُولُوا آمنا وهم لَا يفْتنونَ، ولَقَد فَتنا الذين من قَبلهم فَلَيعلَمن الله الذين صدقُوا ولَيعلَمن الْكَاذِبِين) العنكبوت (٠١ ، ٠٣)، وقوله: (أَم حسِبتم أَن تدخلُواْ الْجنةَ ولَما يعلَمِ اللّه الذين جاهدواْ منكُم ويعلَم الصابِرِين) آل عمران/١٤٢.

٣- يعلمـنا ε أن ما تعرض له من ألوان الأذى، من دعاة الباطل ومترفي قريش، في سبيل نشر دعوته، وإقامة ا تمع الإسلامي المنشود، لَيعد سنةً إلهية في عباده عبر هذا الطريق، وحتى مع أنبيائه وأصفيائه، فمن البديهي أن يكون مع الدعاة؛ بل أن هذا هو الطريق الطبيعي، لإحقاق الحق وإبطال الباطل، طريق لابد منه؛ لأجل بلوغ هدفه وغايته، أن يتساقط عبره الشهداء، ويبذل لأجله الأنفس قبل الأموال. فالذين يتوهمون أن الأذى والعذاب، والشدائد والصعاب، هي إحدى دلائل اليأس والقنوط من النصر فهم مخطؤون؛ بل هو النصر القريب، لذلك كان الجواب من الله - عز وجل- عكس فهمهم واعتقادهم[2]، في قوله تعالى: (أَم حسِبتم أَن تدخلُواْ الْجنةَ ولَما يأْتكُم مثَلُ الذين خلَواْ من قَبلكُم مستهم الْبأْساء والضراء وزلْزِلُواْ حتى يقُولَ الرسولُ والذين آمنواْ معه متى نصر اللّه أَلا إِن نصر اللّه قَرِيب) البقرة/ ٢١٤.

٤- إذا كان أعداء الدعوة متفرقين، يحاربون الدعوة فرادى، فإن بإمكان الداعية أن يقنِع بعضهم، ويتفادى عداوة الآخرين؛ بينما يجد حرجا وضيقا في دعو م إذا كانوا مجتمعين؛ لأن السيادة تكون للدهماء منهم، والذين تحكمهم العصبية القبلية والمورثات الجاهلية، رغم منافا ا لمنطق العقول

---

(١)- المصدر نفسه، ص١٠٧.

(٢)- المصدر نفسه، ص ١٠٨.

السليمة، ومن ثم يجد الداعية صعوبة في مخاطبة العقول السليمة والمفكرة، والتي تتوق إلى الحق، مما دفع هذه الفئة إلى التسلل خفية؛ لسماع القرآن الكريم، وتحكيم عقولهم فيه، ومن ثم التحرر من الأوهام والخرافات[١].

٥- إن تسلط أرباب الشرك، وحجرهم على فكر الراغبين في السماع للقرآن والدعوة، دفع النبي ε أن يسلك معهم طريق الحزم، وا ا ة أحيانا، وهذا ما يوافق خطابا م المعتمدة على العواطف الثائرة، والحاقدة ابتداء، مما جعله يخرج عن حلمه المعهود. فلما قال لهم: { أما والذي نفسي بيده لقد جئتكم بالذبح }[٢]، استكانوا وخضعـوا لـه[٣]. فكان منهج النبي ε في مواجهة أعداء الدعـوة، يتماشى مع طبيعة تفكيرهم وذهنيا م، فالمنهج يتغير بتغير الحال والمآل.

٦- ضرورة اعتماد منهج الدعوة الفردية في نشر الإسلام أحيانا؛ فهو أدعى للتأمل، والتفكير السليم، بعيدا عن فكر الجماعة المتسلط، والمهيمن عادة على الأفراد، والذي اعتمده الزعماء من قريش، منطلقين من الحماس المتأجج، ومن العواطف الثائرة دون أن يتركوا فرصة لأغلبية الأفراد؛ للتفكير والتدبر، ثم الحكم فيما بعد فيما دعاهم إليه النبي ε[٤]، وقد دل على ذلك قوله تعالى: (قُلْ إنما أَعظُكُم بِواحدة أَن تقُوموا لله مثْنى وفُرادى ثُم تتفَكروا ما بِصاحبِكُم من جِنة إنْ هو إلا نذير لكُم بين يدي عذَابٍ شديد) سبأ/٤٦.

٧- سجلت الأخبار مواقف رائعة؛ لأبي بكر τ أهمها ما يلي:

أ- وقف دون النبي ε ودافع عنه، وحماه بنفسه حتى انصرف عنه الأعداء.

ب- تحمل الأذى الشديد في سبيل الله-عز وجل-، وفي سبيل نشر الدعوة.

ج- استهان بنفسه؛ للدفاع عن الرسول ε في كثير من المواقف،مما يبرز قوة إيمانه، وشجاعته النادرة.

د- شهادة بطل أبطـال الإسلام، وهو علي τ على شجاعته البالغة، وإقدامه على مدافعة المشركين، وإنقاذ النبي ε من بين أيديهم، دون أن يجرؤ أحد على ذلك[٥].

هـ- هذا الموقف السابق، بقدر ما يصـور شجاعة أبي بكر τ وتضحيته، فإنه يصور في ذات

---

(١)- الحميدي: التاريخ الإسلامي، ج٢، ص (٣٦ ، ٣٧).

(٢)- البخاري: ك. فضائل الصحابة، باب: قول النبي ε: { لو كنت متخذا خليلا } ، رقم: ٣٦٧٨، ص٧٠٢. ومسلم، رقم: ٢٣٨٩.

(٣)- الحميدي: مصدر سابق، ج٢، ص٣٧.

(٤)- المصدر نفسه، ج٢، ص٣٨.

(٥)- المصدر نفسه، ج٢، ص (٣٢ ، ٣٣).

الوقت فظاعة المشركين وشد م في إيذاء الرسول ε، والوقوف في وجهه، والتأكيد على عدم التقصير في معاداته، ومحاربة الدعوة.

و- شهادة علي τ والتي أعلنت على الملأ من الناس، إنما أريد ا الرفع من قيمة الصحابةψ في الوقت الذي سعى فيه أعداء الدعوة إلى الحط من قيمتهم، وتعبيرا عن مدى التلاحم بينهم، وقوة رابطة الأخوة التي تجمعهم.

ي- وهذه الشهادة بقدر ما تبرز حق أبي بكر τ، وفضله، فإ ا تبرز موقفا عظيما لعلي τ المشتمل على التواضع الجم، والوفاء الكبير لإخوة له، ضربوا أروع الأمثلة في التضحية، والفداء على الدعوة والجهاد(1).

٨- وفي خروج النبي ε منفردا بعد علمه من ابنته فاطمة-رضي الله عنها- بقعود المشركين له، و ديدهم إياه، يمثل إقداما عظيما منه، وقمة في التضحية، والبذل في سبيل إنجاح الدعوة(2).

٩- في سعي قريش للقضاء على الرسول ε بالقوة، دليل على بلوغهم القمة في التحجر الفكري، وفي المقابل نجد إصرارا من النبي ε على تبليغ دعوته، مهما تكن الحواجز والصعاب والعوائق؛ لأن ما يشغله هو التفكير في الدعوة، وكيف يصل ا إلى قلوب الناس، وما يتعرض له من الإيذاء يعد – في نظره - أمرا ثانويا، فالإهانة المادية، والأذى الجسماني؛ إنما قصد به، إغاضة النفوس، وتحطيم المشاعر المعنوية(3).

١٠- اعتداء عقبة بن أبي معيط على أعظم رجل عرفه التاريخ، وهو يؤدي شعائره الدينية، كان اعتداء مهينا، يدل على تدني مستوى أهل الباطل، في معاملة أهل الحق، وتعبيرا عن قمة عداو م وحقدهم؛ وإفلاسهم في مجال الفكر والحجة البيانية، مما دفعهم لأن يتصرفوا بمقتضى عواطفهم لا بمقتضى عقولهم، فلو حكموا عقولهم لحظة دون الخضوع لعواطفهم؛ لأنكروا عملهم، فأهل الحق لا ي لون أبدا إلى هذا المستوى(4).

١١- على الدعـاة أن يستفيدوا من دور المـرأة، في أمور لا يحسنها الرجـال ولا يدركو ا، مستفيدين من الأعراف الاجتماعية، التي لا تبيح الاعتداء على النساء. وهذا ما قامت به فاطمة – رضي الله عنها- فقد أزالت الأذى عن أبيها، وسبت الملأ من قريش دون أن تتعرض للأذى(5).

---

(1)- المصدر نفسه، ج٢، ص (٣٩ ، ٤٠).

(2)- المصدر نفسه، ج٢، ص٤١.

(3)- المصدر نفسه، ج٢، ص (٤١ ، ٤٢).

(4)- المصدر نفسه، ج٢، ص٤٣.

(5)- المصدر نفسه، ج٢، ص٤٤.

١٢- إن الكفار عندما دعا عليهم النبي ε خافوا دعوته، من أن يـ ل عليهم العقاب في الدنيا فقط؛ لأ م لا يؤمنون بالآخرة، والتي يكون فيها العقاب أشد وأنكى، فهل يتنبه بعض المحسوبين على الإسلام في زماننا، والذين لا يرتدعون ويكفون عن ظلم الناس؛ وهم يعلمون ما قد يـ ل م في الدنيا قبل ما ينتظرهم في الآخرة[1].

١٣- استجابة الله- عز وجل- لدعوة الرسول ε فيمن دعا عليهم بالعقاب والهلاك من كفار قريش، الذين بالغوا في الكفر والطغيان، وتغليظ الأذى، كدعائه على السبعة من أقطاب الباطل، فلقوا هلاكهم في موقعة بدر الكبرى، ودعائه على عتبة بن أبي لهب، بأن يسلط الله عليه كلبا، لقاء كفره، فبعث الله عليه أسدا، ففضخ رأسه[2]، ولم تجد الاحتياطات الأمنية التي اتخذها أبو لهب على ابنه، هذه النماذج وغيرها، تعد مواساة للدعاة، فمهما تعرضوا للأذى في طريقهم، من طرف الذين يكيدون للدعوة، ويمكرون ا وبدعا ا، فإن مكر الله أشد، وانتقامه أعظم[3]. لقوله تعالى: (وإذْ يمكُر بِك الذين كَفَروا ليثْبِتوك أو يقْتلُوك أو يخرِجوك ويمكُرونَ ويمكُر اللّه واللّه خير الْماكرِين) الأنفال/٣٠

١٤- إن الدعاة إلى الحق، مهما صعبت طريقهم، فإن النصر حليفهم. وإن أهل الباطل، مهما ظهر لهم أن الحظ إلى جانبهم، فإن مآلهم الهزيمة، وإن عاقبتهم بشـعة في الدنيا والآخرة. لأن اتباعهم لأهوائهم، وركو م للشهوات، حجب عنهم رؤية الحق، وأن الأذى الذي لحق الرسول ε، قد رفع ذكره في العالمين، وكان قدوة لأتباعه المؤمنين، في الرضا بقضاء الله تعالى وقدره، وفي الصبر على البلاء والمحن. إن أهل الباطل قد يمكن الله تعالى لهم من أهل الحق فترة من الزمن، فيقومون بالبطش والتنكيل، وإسكات أصوا م ومحاربة دعو م؛ لكن ما يلبث أن ينهار بناؤهم، أمام ثبات أهل الحق وتماسكهم، وإخلاصهم لدينهم ودعو م[4]، بدليل قوله تعالى: (لَن يضروكُم إِلا أَذًى وإِن يقَاتلُوكُم يولوكُم الأَدبار ثُم لاَ ينصرونَ) آل عمران/١١١.

١٥- لقد فاجأ الرسول ε قومه بما لم يكن يتوقعونه ويألفونه، لذلك استنكروا دعوته أشد الاستنكار، فصار همهم الوحيد، القضاء عليه وعلى دعوته، فكان هذا ردا تاريخيا على دعاة القومية، الذين يحصرون رسالته في العرب ، وينكرون عالمية دعوته[5].

---

(١)- المصدر نفسه، ج٢، ص٤٤.

(٢)- المصدر نفسه، ج٢، ص (٤٨، ٤٩).

(٣)- المصدر نفسه، ج٢، ص٤٩.

(٤)- المصدر نفسه، ج٢، ص٥٢.

(٥)- مصطفى السباعي: السيرة النبوية- دروس وعبر، دار الزهراء للنشر والتوزيع – الجزائر، ط٢، ١٩٩٣م، ص٥٥.

المطلب الثالث: تحدي عام الحزن وتحدي أهل الطائف.

أولا: تحدي عام الحزن.

لقد حزن الرسـول ε لوفاة عمه أبي طالب، سنده الخارجي الذي كان يدفع عنه أذى القوم، ويمنعه ويحدب عنه، ويقوم دون قومه الذين أجمعوا على خلافه في نشر دعوته، وقد حز في نفس الرسول ε أن يموت عمه على الكفر، وقد قدم ما قدم لصالح الدعوة، وترجاه أن ينطق بالشهادتين؛ ليشهـد له ا يوم القيامة، " قائلا له: { يا عم، قل لا إله إلا الله، كلمة أشهد لك ا عند الله }[1]، فقال أبو طالب: لولا تعيرني ا قريش، يقولون: إنما حمله عليها الجزع، لأقررت ا عينك، فأنزل الله: (إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين) القصص/ ٥٦"[2]، لقد كانت أفكار الجاهلية متأصلة في عقله، فحال ميراث الآباء والأجداد دون تغيير فكره، وفوت حضور زعماء الشرك والوثنية وقت الاحتضار، فرصة إنقاذ نفسه من النار، فشاء القدر أن يموت ذه الخاتمة السيئة، في آخر السنة العاشرة من بعثته ε.

وازداد حزن الرسول ε واشتد ألمه، بوفاة زوجه الوفية: خديجة أم المؤمنين -رضي الله عنها- في السنة نفسها، التي توفي فيها عمه، وكانت نعم الزوجة التي يجب أن يقتدي ا جميع زوجات المؤمنين، فكانت سنده الداخلي، تواسيه في الشدائد والمحن، وتخفف عنه في الأزمات والصعاب.

والراجح عندي والقريب إلى فهمي، أن حزن الرسول εلم يكن لفراق عمه وزوجته؛ بقدر ما كان متعلقا بمصير دعوته؛ لأن الرسول εلم يكن بالذي يخفى عليه، بأن الحياة والموت قضاء وقدر.

ثانيا: تحدي أهل الطائف.

وبعد أن صار النبي ε وحيدا- بغياب عمه وزوجه- في الساحة المكية، ولا ناصر له ولامعين إلا الله تعالى، وفي ظل ما يلقاه من الخلاف والأذى من قومه؛ فإنه لم يتوان ولو للحظة في تبليغ رسالة ربه، فاضطر إلى البحث عن مركز جديد للدعوة، فقرر التوجه إلى الطائف أقرب مكان إلى مكة، لعله يجد من يصغي لدعوته، من أهل ثقيف وينصره.

وتعد الطائف المدينة الثالثة بعد مكة ويثرب من حيث المكانة والحجم آنذاك، فتشرفت بقدوم النبي ε إليها؛ لينشر دعوته بين أهلها[3]. وكان لأغنياء مكة وأثريائها قصـورا ا، مما أدى م جشعهم

---

(1)- البخاري: ك. الجنائز، باب: إذا قال المشرك عند الموت: لا إله إلا الله، رقم: ١٣٦٠، ص٢٦٤.

(2)- الصلابي: السيرة النبوية، ج١، ص٣٥٢.

(3)- الندوي: السيرة النبوية، ص١٤١.

وطمعهم إلى ضمها إليهم، فخافتهم ثقيف فحالفتهم[1]. وأدى هذا الثراء الواسع إلى فساد اجتماعي وأخلاقي؛ فعم الربا، وطم الزنا، وراجت صناعة الخمور والعطور، وفي المقابل توفرت موارد المياه، وخصبت الأرض، وكثرت البساتين، وتوسعت الحقول، فتكونت طبقة من المترفين اشتهرت بالثراء والرخاء، فورثوا الكبر والبطر[2]، وصدق فيهم قول الله تعالى: (وما أَرسلْنا في قَرية من نذيرٍ إلا قَالَ مترفُوها إنا بِما أُرسلْتم بِه كَافرونَ، وقَالُوا نحن أَكْثَر أَموالًا وأَولَادا وما نحن بِمعذَبِين) سبأ (٣٤ ، ٣٥). وأمست الطائف مصيفا للمتنعمين، وظلت كذلك إلى العهد الإسلامي وما بعده، حتى قال فيها الشاعر الأموي عمرو بن أبي ربيعة:

تـشـتو بـمكـة نعـمـة ومـصـيفـها بـالـطائـف.

لذلك كان تحرك النبي ε إلى الطائف تحركا دعويا، وسياسيا، وإستراتيجيا، يهدف إلى إيجاد دولة مسلمة قوية، بإمكانيا ا وكيا ا، الذي يحسب له ألف حساب داخل حلبة الصراع، مما سيفزع قريشا ويهدد أمنها، ومصالحها الإقتصادية؛ ويؤدي إلى تطويقها وعزلها[3].

ولما وصل النبي ε الطائف، قصد مركز السلطة وموضع القرار السياسي فيها، و الذي كان ينحسر في أيدي بني مالك و الأحـلاف؛ لأسبقيتهما في الاستيطان، وكانت لهما الرئاسة الدينية، والزعامة السياسية، والعلاقات الخارجية؛ والدور الاقتصادي[4]. فعمد الرسول ε إلى سادة ثقيف وأشرفهم، فدعاهم إلى الإسلام ونصرته، والقيام معه على من خالفه من قومه. فواجهته ثقيف بما لم يكن يتوقعه، فكان الصـد والإعراض بدل النصرة والتأييد، وبلغت السفاهـة م، أن أغروا به سفهاءهم، وعبيدهم وصبيا م، يسبونه ويصيحون به، فرشقوه بالحجارة، فدميت قدماه الشريفتان، وفي هذه الحالة من الأسى والحزن، والآلام النفسية والجسمانية، رفع الرسول ε يديه إلى الله متضرعا وشاكيا إليه؛ ضعف قوته وقلة حيلته، طالبا رضاه وعفوه.

وانتهت هذه الرحلة بإسـلام فتى نصراني، شاءت إرادة الله أن يحظى بالنور الإلهي، الذي احتجب عن سادة ثقيف[5]، وإسلام نفر من الجن، ودخل الرسـول ε مكة تحت جوار المطعم بن عدي[6]،

---

(١)- الصلابي: مصدر سابق، ج١، ص355.

(٢)- الندوي: مصدر سابق، ص (١٤١ ، ١٤٣).

(٣)- الصلابي: السيرة النبوية، ج١، ص355.

(٤)- المصدر نفسه، ج١، ص355.

(٥)- الحميدي: التاريخ الإسلامي، ج٣، ص (٢٢، ٢٤).

(٦)- موفق سالم نوري: فقه السيرة النبوية " قراءة سياسية دعوية حركية "، دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق- بيروت، ط١، (١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م)، ص (١١٩ ، ١٢٠).

وعاد النبي ε إلى مكة، وقومه أشد ما كانوا عليه من خلاف، وعداء، وسخرية؛ واستهزاء[1].

ثالثا: الـدروس والعـبر.

١- لقد اهتم الرسول ε أثناء خروجه إلى الطائف بكثير من جوانب الحيطة والحذر، ويظهر ذلك فيما يلي:

أ- فقد خرج الرسول ε سيرا على الأقدام متجنبا الخروج راكبا، وكان هذا تصرفا حكيما؛ درءا لأي شكوك أو شبهة، توحي بخروجه من مكة؛ مما يعرضه للمنع من طرف قريش.

ب- واختيار الرسول ε للطائف، كان اختيارا مبنيا على اعتبارات أمنية هامة؛ لقر ا من مكة، مما يجعل الوصول إليها سهـلا وقليل المخاطر، ولوجود خؤولـة له فيها، وقر ا من ديار بني سعد، أخواله من الرضاعة؛ مما يضمن له جانبا من الحماية حسب ما تقتضيه أعراف الجاهلية.

ج- وفي اختيار الرسول ε لزيد مرافقا له في رحلته، فيه جوانب أمنية؛ فإن رآه المشركون فإ م لا يثيرون أي اهتمام حوله، بحكم قوة صلته بالرسول ε فهو آنذاك ابنه بالتبني؛ وكان يعرف فيه الإخلاص، والأمانة، والصدق، والوفاء، وقد صـدق الواقع ذلك، فكان لا يفشي لـه سرا، وكان يفتديه بنفسه، فقد شج رأسه، وهو يقوم دونه، ويذود عنه.

د- ومع ما لقيه الرسول ε من أهل ثقيف من رد قبيح، واستهزاء وسخرية، فقد تحمله ولم يغضب أو يثور لما أصابه؛ بل طالبهم أن يكتموا عنه، وهذا غاية في الحذر والحيطة؛ لأن قريشا إذا علمت ذا الاتصال، فستشد الخناق والأذى عليه، وتحرص على رصد تحركاته مستقبلا، مما يسبب عائقا له ولدعوته.

ذ- ولما عاد الرسول ε إلى مكة لم يدخلها؛ بل ذهب إلى غار حراء ومكث فيه، ويعد هذا تصرفا أمنيا تقتضيه الظروف، وتمليه الضرورة؛ لعلم الرسول ε بأن قريشا عرفت خروجه إلى الطائف، وبقائه فيها مدة عشرة أيام[2].

٢- وفي خروجه إلى الطائف، رغم ما أصابه من فقد العم الحامي للدعـوة، والزوجة المؤمنة المخلصة؛ لدليل على تصميمه الجازم على الاستمرار في تبليغ دعوته، وعدم يأسه من استجابة الناس له، عاقدا العزم على البحث عن مكان جديد، تجد فيه الدعوة متنفسا، فتقوى وتنتشر[3].

---

(١)- الندوي: السيرة النبوية، ص١٤٦.

(٢)- إبراهيم على محمد أحمد: في السيرة النبوية " قراءة لجوانب الحذر والحماية "، ص (١٠٩ ، ١١١).

(٣)- السباعي: السيرة النبوية، ص٦٤.

٣- إن إغراء سادة ثقيف سفهاءهم وصبيا م، برمي الرسول ε بالحجارة؛ لدليل على أن طبيعة الشر واحدة أينما كانت، وهي الاعتـماد على السفهاء في إيذاء دعاة الخير[١]، وما تعـرض له ε من الأذى البدني، من سيل الدماء من قدميه، وهو يطارد حتى احتمى ببستان كان لعتبة وشيبة ابني ربيعة، وهما من زعماء المشركين؛ يعطينا أكبر مثل لما يتحمله الداعية في سبيل الله من أذى واضطهاد، فدل هذا البلاء على علو مكانته عند ربه، لحديث سعد بن أبي وقاص τ، قال: قلت: يا رسول الله، أي الناس أشد بلاء؟ قال: { الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، فيبتلى الرجل على حسب دينه: فإن كان في دينه صلبا اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقةٌ ابتُلي فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة }[٢] ، فكان بحق مثالا في الثبات والصبر، والقدوة العليا للأمة في مواجهة التحديات التي تعترض طريقها في الدعوة إلى الله[٣].

٤- لقد بذل زيد بن حارثة τ جهدا كبيرا، أثناء مرافقة الرسول ε وحمايته، فهذه المواقف وغيرها من الطبيعي أن تكون له ا مكانة في قلبه، فصار هو وابنه أسامة ψ من أحب الناس إليه[٤].

٥- لقد كانت ردود الزعماء الثلاثة من ثقيف، ردودا قاسية، مما يدل على قسوة قلوب الكفار، واعتزازهم بما يعتقدون من الباطل، وتكبرهم عن سماع الحق، وإغلاق فكرهم عن النظر فيما يدعو إليه الآخرون بعقل رشيد، وفكر سديد، وعلى ما يتصفون به من الإسفاف في القول في تعاملهم مع دعاة الحق، ومبالغتهم في التحدي؛ سعيا منهم للنيل من عزيمة الدعاة، وتحطيم معنويا م[٥].

٦- ما يجب الإشادة والتنويه به، أن هذه القبيلة التي كانت متصلبة في الكفر حتى تأخر إسلامها بعد فتح مكة، صارت بعد ذلك من أشد القبائل التزاما بالإسلام والدفاع عنه، فثبت قومها على إسلامهم، وفي ولائهم لدولته يوم الردة، وأمدوا الجهاد الإسلامي بقادة وجنود أكفاء، ولعل تصلبهم في التمسك بعقيد م الباطلة في الجاهلية، تحول إلى تصلب في التمسك بعقيدة الإسلام، بعد أن هداهم الله[٦]. وهذا ما يصدقه واقع الدعوة عبر التاريخ، وحتى في زمننا المـعاصر، فكم من أناس زاغت م السبل في ظلمات الانحراف، فبدل أن كانوا معاول هدم وعداء للدعوة، صاروا بفضل الهداية معاول بناء، وخدمٍ للدعوة؛ ومن حما ا.

---

(١)- المصدر نفسه، ص٦٥.

(٢)- مختصر سنن الترمذي، ك. الزهد، باب: ما جاء في الصبر على البلاء، اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق- بيروت، ط٢، (١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م)، رقم: ٢٤٠٠، ص٣٤٥.

(٣)- الحميدي:التاريخ الإسلامي، ج٣، ص١٨.

(٤)- المصدر نفسه، ج٣، ص١٨.

(٥)- المصدر نفسه، ج٣، ص (١٨ ، ١٩).

(٦)- المصدر نفسه، ج٣، ص١٩.

٧- وفي دعاءه المشهور الذي دعا به، دليل على أنه كان شديد الحزن على واقع أمته، واقع خلفه وراء ظهره في الطائف، وواقع أليم ينتظره وهو قادم إلى مكة، وفي هذا تعليم للدعاة إذا ضاقت م الدنيا جراء الشدائد والمكائد، أن يلجؤوا إلى الله تعالى متضرعين له، فمنه وحـده تستمد القوة والنصرة والرضا(١).وكان دعاؤه ε تأكيدا على مدى صدقه وإخلاصه في دعوته، فرغم ما كان يواجهه من الصعاب والتحديات، فكان لا يهمه إلا رضا الله تعالى وحده(٢). وهذا ما عبر عنه في دعاءه: {.. إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي.. }(٣)، فهو مشفق على نفسه من غضب ربه، من أن يكون قد قصر في أمر من أمور الدعوة، فكان سببا في صد الناس عنه، وأذيتهم له، فإن كان الأذى في غير هذا فهو لا يبالي(٤). فهو ذا يعلم الدعاة، بأن الخوف كل الخوف من سخط الله تعالى وغضبه(٥).

٨- وفي تسميته ε قبل الأكل، تطبيق منه لسنة من سنن الإسلام، وكان من بركتها إسلام الغلام عداس النصراني، وفيه تميز للمسلمين عن غيرهم، مما يلفت أنظارهم إلى فهم الإسلام ثم الانجذاب إليه، وتعليم للدعاة بأفضلية إظهار تطبيق تكاليف الإسلام في ا تمعات الوثنية على الاستخفاء ا؛ حتى لا يؤدي ذلك إلى انحسار الإسلام، وإضعاف شخصية المسلمين(٦).

٩- رغم ما واجهه النبي ε من قسـوة، وأذى في هذه الرحلة؛ إلا أنه عثر على رجل يحفـظ له حق النبوة، ويعظمه ويقدره، وفي ذلك مواساة له، وباعثا على الشعور بعدم خلو البلاد ممن يقدرون دعاة الحق، ويحفظون لهم كرامتهم(٧).

١٠- إن يقين عداس بنبوة الرسول ε كان قويا، فكان يعتقد أنه سينتصر على أعداءه، ولا يقف له أحد، ودليل ذلك موقفه من سيديه: عتبة وشيبة ابني ربيعة، فلما أرادا الخروج إلى بدر وأمراه بالخروج معهما، قال لهما: قتال ذلك الرجل الذي رأيت في حائطكما تريدان ؟! * فوالله ما تقوم له الجبال *، فقالا: ويحك يا عداس، قد سحرك بلسانه، وخرج سيداه فما رجعا؛ بل قتلا وسحبا مع من سحب من قتلى الكفار إلى قليب بدر. إن شفافية التفكير، وعمق الإدراك، حولت عداس الغلام

---

(١)- المصدر نفسه، ج٣، ص٢٠.

(٢)- السباعي: السيرة النبوية، ص٦٥.

(٣)- المباركفوري: الرحيق المختوم، ص٩٠.

(٤)- الحميدي: التاريخ الإسلامي، ج٣، ص (٢١ ، ٢٢).

(٥)- السباعي: مصدر سابق، ص٦٥.

(٦)- الحميدي: مصدر سابق، ج٣، ص (٢٣ ، ٢٤).

(٧)- المصدر نفسه، ج٣، ص٢٤.

المحتقر عندهما، فصار أعلم منهما بالله تعالى، وسننه في خلقه؛ وأدرى بعوامل انتصار الأمم وعوامل اندحارها[١].

١١- وما جاء في خبر نفر من الجن الذين سمعوا القرآن فآمنوا، وأجابوا إلى ما سمعوا، وهذا درس لذوي القلوب القاسية من الإنس، الذين يسمعون مرارا وتكرارا كلام الله تعالى، ولا يتأثرون به، بينما سمعه الجن مرة واحدة فأسلموا[٢].

١٢- لقد خرج الرسول ε إلى الطائف في رحلته الدعوية، ماشيا على قدميه، ذهابا وإيابا، وهذه مشقة كبيرة، فكيف إذا اجتمع مع هذه المشقة سوء المقابلة، والتعرض للأذى؟! لاشك أنه يعلمنا ما ينبغي أن يتمتع به الداعية، من قوة في التضحية، وطول النفس في الصبر. ويؤكد هذا، جوابه على سؤال عائشة ψ حينما سألته: هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ فكان جوابه ε: {.. وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة..} [٣]، فإصابته يوم أحد كانت أشد من الناحية الجسمية، إلا أن إصابته في الطائف كانت أشد من الناحية النفسية، وهذه أشد من سابقتها[٤].

١٣- وقوله ε: { فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب }[5]، يدل يدل على أن الرسول ε كان مستغرقا في التفكير في قضية كبرى تخص الدعوة، وما آلت إليه، ومستقبلها، والتحديات التي واجهتها وحالت دون انتشارها، والتي ستواجهها. فكان يعيش القضية بكل مشاعره وأحاسيسه. فهو يقدم درسا للدعاة خاصة وللمسلمين عامة، بأن يجعلوا من دينهم قضية أساسية، مرتبطة بحيا م وآخر م، ويعملون لها بكل ما يملكون وما يستطيعون[٦].

١٤- الرسول ε يعلمنا صفتا الرحمة والحلم، فرغم ما لقيه من معاملة قاسية من أهل الطائف، فإنه فضل أن لا يقبل عرض ملك الجبال بأن يطبق عليهم الأخشبين، بل تمنى أن يخرج من أصلا م، من يعبد الله ولا يشرك به شيئا، وقد استجاب الله- عز وجل- لدعائه، فأسلم قليل منهم قبل الفتح، وأسلم بقيتهم بعد الفتح[٧].

١٥- إن الأفق البعيد الذي حمله الرسول ε في هداية قومـه، يدل على مدى اهتمامه بدعوته،

---

(١)- المصدر نفسه، ج٣، ص (٢٤ ، ٢٥).

(٢)– المصدر نفسه، ج٣، ص٢٧.

(٣)- البخاري: ك. بدء الخلق، باب: إذا قال أحدكم: آمين. رقم: ٣٢٣١، ص٦٢٠.

(٤)- الحميدي: مصدر سابق، ج٣، ص٢٩.

(٥)- البخاري: ك. بدء الخلق، باب: إذا قال أحدكم: آمين. رقم: ٣٢٣١. ص٦٢٠.

(٦)- الحميدي: مصدر سابق، ج٣، ص (٢٩ ، ٣٠).

(٧)- المصدر نفسه، ج٣، ص (٣٠ ، ٣١).

حتى أصبح هذا الأمل يفوق إحساسه بالرغبة في الانتقام من أعداءه(١).

١٦- ونرى الرسول ε يدخل مكة كما يدخل البشر العاديين، ويحتاط لنفسه بطلب الجوار، رغم أن الله تعالى منى عليه بالعصمة والحماية؛ إلا أنه يقوم بالتصرفات المطلوبة التي يقوم ا أي مسلم، أو داعية في مثل هذه المواقف، من الأخذ بالأسباب الممكنة للوصول إلى النتائج المطلوبة، ثم يترك ما فوق طاقته وقدرته إلى الله تعالى؛ تعليما للدعاة في الإقتداء به(٢).

١٧- وفي دخوله ε في جوار المطعم بن عدي وهو من المشركين، لا يتنافى مع التوكل على الله تعالى، بل قام بذلك تفاديا لأي صدام بينه وبين الكفار، في وقت لم يأذن الله تعالى له بالقتال، وفي إقرار الرسول ε لحسان بن ثابت في الثناء على المطعم، وثناءه هو عليه، إلى حد أنه أبدى استعداده لأن يتنازل عن الأسرى لو كان المطعم حيا؛ فيه تعليم للدعاة وللأمة، أن من الأخلاق الاعتراف لأهل الفضل حتى ولو كانوا غير مسلمين. ومن جهة أخرى تشجيعا لعقلاء الكفار على مناصرة المسلمين، وحمايتهم والدفاع عنهم؛ إحقاقا للحق، وإبطالا للباطل(٣).

١٨- جواز الاستعانة بغير المسلمين من المعتدلين في نظر م إلى الإسلام؛ لحماية الدعوة وتثبيتها، ما لم يضر ذلك ا، في غياب القوة من المسلمين، فإن وجدت وجب على المسلمين حماية دعو م(٤).

دعو م(٤).

المطلب الرابع: مواجهة الصحابة ψ للأذى والتعذيب.

إن النبي ε لماله من المكانة الخاصة عند الله باعتباره نبيا ورسولا، ومع قدرة الله بحفظه له وحمايته؛ فقد تعرض -كما أشرنا سابقا- إلى شتى الاعتداءات المعنوية والجسدية؛ فكيف بأتباعه ψ ؟! فقد قرر المشركون أن لا يدخروا جهدا في محاربتهم وإيذائهم، والتعرض لهم بألوان التنكيل والإيلام، وانفجرت مكة بمشاعر الغضب، مذ جهر الرسول ε بدعوته، وجاهر قومه بضلال ما ورثوه عن آبائهم، وبقيت قريش عشرة أعوام تعد المسلمين عصاة ثائرين، فزلزلت الأرض من تحت أقدامهم، واستبيحت في الحرم الآمن دماؤهم، وأموالهم وأعراضهم؛ وانقلبت الحرب إلى قتل وتنكيل، وتعذيب للمستضعفـين من المؤمنين. فمن لا عصبية له تدافع عنه، يجـد نفسه معرضا للقتل، ولا يعصمه من

---

(١)- المصدر نفسه، ج٣، ص٣١.
(٢)- المصدر نفسه، ج٣، ص٣٣.
(٣)- المصدر نفسه، ج٣، ص٣٤.
(٤)- المصدر نفسه، ج٣، ص (٣٤ ، ٣٥).

الهوان عاصم، فهو في صراع بين الموت أو الكفر[١]. وهذا غيض من فيض من نماذج الإيذاء؛ لتكون عزاء وسلوى للدعاة عبر طريقهم، اقتداء وتثبيتا لهم، في زمن- ليس بالخفي على كل مسلم- يشهد تحالف الأعداء على الإسلام وتكالبهم عليه:

١- فأبوا بكر τ وهو من أشراف المسلمين، لم يسلم من الأذى والابتلاء، فضرب في المسجد الحرام بالنعال، حتى ما يعرف وجهه من أنفه، وحمل إلى بيته في ثوبه وهو ما بين الحياة والموت[٢].

وبعد أن استنفذت قريش كل الطرق، وكل ما تملك من قوة وحيلة، ومكر في محاربة الدعوة وإطفاء نورها؛ تحولت خيبتها وفشلها إلى نقمة على المستضعفين،" فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين يحبسو م، ويعذبو م بالضرب والجوع والعطش تارة، وبرمضاء مكة إذا اشتد حرها تارة أخرى"[٣].

فعن عبد الله بن مسعــود τ قال: (أول من أظهر إسلامه سبعة: رسول الله ε ، وأبو بكر، وعمار بن ياسر، وأمه سمية، وصهيب، وبلال، والمقداد، فأما رسول الله ε فمنعه الله بعمه أبي طالب، وأما أبو بكر فمنعه الله بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون، وألبسوهم أدراع الحديد، وصهروهم[٤] في الشمس، فما منهم أحد إلا وقد واتاهم[5] على ما أرادوا إلا بلالا، فإنه هانت[٦] عليه نفسه في الله، وهان علي قومه، فأخذوه، فأعطوه الولدان، فجعلوا يطوفون به في شعاب مكة، وهو يقول: أحد أحد)[٧].

٢- وتحولت محنة المستضعفين بسبب اعتناقهم الإسلام إلى منحة، بتحررهم من العبودية والرق، فقد حاز أبو بكر τ الفضل، والمنة والأجر؛ بمساهمته في عتق رقاب الكثير منهم:

أ- وبينما كان يتعرض بلال بن رباح للعذاب والتنكيل، مر به أبو بكر τ وأمية بن خلف يعذبه، فعرض عليه أن يقايضه بغلام آخر، فقبل أمية المقايضة، فأخذه فأعتقه[٨].

ب- وقام قبل أن يهاجر إلى المدينة، بعتق ست رقاب بلال سابعهم، وهم: عامر بن فهيرة شهــد

---

(١)- الغزالي: فقه السيرة، ص (١٠١ ، ١٠٢).

(٢)- ابن كثير: البداية والنهاية، ج٣، ص٨١.

(٣)- ابن هشام: السيرة النبوية، ج١، ص٢٢٣.

(٤)- صهروهم: عذبوهم.

(٥)– واتاهم: وافقهم.

(٦)- هانت : صغرت وحقرت في سبيل الله.

(٧)- ابن ماجة: باب: اتباع سنة رسول الله ε، رقم: ١٥٠، ص٤٢.

(٨)- ابن هشام: مصدر سابق، ج١، ص ٢٢٤. والقصة ذكرها ابن إسحاق في القصة المنسوبة لورقة بن نوفل.

بدرا وأحدا، فاستشهد يوم بئر معونة، وأم عبيس وزنيرة[1]، وأصيب بصرها حين أعتقها، فقالت قريش: ما أذهب بصـرها إلا اللات والعزى، فقالت: كذبوا وبيت الله ما تضر اللات والعزى وما تنفعان، فرد الله إليها بصرها[2].

ج- كما اعتق أبو بكر τ النهدية وابنتها، وكانتا لامرأة من بني عبد الدار، وأعتق جارية لبني مؤمل دخلت الإسلام، وكان عمر بن الخطاب يعذ ا لتترك الإسلام- وهو يومئذ مشرك- ويضر ا، ثم إن أبا قحافة قال لأبي بكر τ : يا بني، إني أراك تعتق رقابا ضعافا، فلو أنك إذا فعلت ما فعلت أعتقت رجالا جلدا يمنعونك ويقومون دونك؟ فقال أبو بكر τ : يا أبت إني إنما أريد ما أريد، يعني الله عز وجل، ف ل فيه وفيما قال له أبوه[3]، قوله تعالى: (فَأَما من أَعطَى واتقَى) إلى قوله تعالى: (ولَسوف يرضى). الليل (٠٥ ، ٢١).

٣- وحتى أن قريشا انطلاقا من مكرها للإسلام وعدم تراجعها عن محاربته، كانت تحسن إدارة أساليبها في محاربة الداخلين في الإسلام، حسب طبيعة كل شخص وعمله، فكان أبو جهل- لعنه الله- " إذا سمع بالرجل قد أسلم، له شرف ومنعة، أنبه وأخزاه، وقال: تركت دين أبيك، وهو خير منك، لنسفهن حلمك، ولنفيلن رأيك[4]، ولنضعن شرفك؛ وإن كان تاجرا قال: والله لنكسـدن تجارتك، ولنهلكن مالك؛ وإن كان ضعيفا ضربه وأغرى به "[5].

وقد بلغ التنكيل درجته القسوة بالمستضعفين من المسلمين، فكانوا يتعرضون للضرب المبرح، والتجويع والعطش، وبلغ العذاب ذروته حتى أصبح الواحد، منهم ما يقدر أن يستوي جالسا، من شدة ما نزل به من الفتنة، ليعطيهم ما سألوه، حتى يقولون له: " آللات والعزى إلهك من دون الله ؟ فيقول: نعم، حتى إن الجعل ليمر م، فيقولون له: أهذا الجعل إلهك من دون الله؟ فيقول: نعم، افتداء منهم مما يبلغون من جهده "[6].

٤- ولم يكن التعذيب مقتصرا على أفراد المستضعفين من المؤمنين؛ بل تعرضت أسر للتعذيب والإيذاء. فضربت أسرة آل ياسر مثلا في التضحية والصبر، والثبات على الإيمان، فكان مواليهم من

---

(١)- أم عبيس: كانت فتاة لبني تيم بن مرة، وكنيت بابنها عبيس بن كريز. أما زنيرة الرومية فقيل: أ ا كانت مولاة لبني مخزوم، وهما من السباقتين إلى الإسلام.

(٢)- المصدر نفسه، ج١، ص٢٢٤.

(٣)- المصدر نفسه، ج١، ص (٢٢٤ ، ٢٢٥).

(٤)– ولنفيلن رأيك: أي لنقبحنه ونخطئنه.

(٥)– المصدر نفسه، ج١، ص٢٢٥.

(٦)– المصدر نفسه، ج١، ص (٢٢٥ ، ٢٢٦) .

بني مخزوم يخرجو م إلى الرمضاء بمكة، فإذا حميت الظهيرة يعذبو م ا، فهلك ياسر تحت التعذيب، وأغلظت سمية القول لأبي جهل فطعنها بحربة في موضع العفة، فكانت أول شهيدة في الإسلام. ماذا عسى النبي ε أن يفعـل لآل ياسر، وقد كانوا بحـق رموزا للتضحية والفداء، وقدوة للأجيال المتلاحقة، فلم يكونوا عبيدا ليعتقهم، أو لديه القوة ليمنعهم من الأذى؛ ما كان ليملك إلا أن يزف لهم البشرى بالمغفرة والجنة، { صبرا آل ياسر، فإن موعدكم الجنة }[١].

فاستشهد آل ياسر تحت التعـذيب، ولم يبـق إلا عمار بن ياسر τ دون منعة أو حمية، تقيه شر الأذى والعذاب، فكان المشركون لا يتركونه، حتى أكرهوه على ذكر آلهتهم بخير، فلما أتى النبي ε قال: { ما وراءك؟ }، قال: شر يا رسول الله. والله ما تركت حتى نلت منك وذكرت آلهتهم بخير، قال: { فكيف تجد قلبك؟ } قال: مطمئن بالإيمان. قال: { فإن عادوا فعد }[٢]. ف ل القرآن يشهد بصدق إيمانه، في قوله تعالى: (من كَفَر بِاللّه من بعد إيمانِه إلا من أُكْرِه وقَلْبه مطْمئن بِالإِيمان ولَكن من شرح بِالْكُفْرِ صدرا فَعلَيهم غَضب من اللّه ولَهم عذَاب عظيم) النحل/١٠٦.

٥- وتعرض سعد بن أبي وقاص τ للمساومة، والفتنة من طرف أمه، فإما أن يكفر بدينه، فيحافظ على سلامة أمه أقرب الناس وأحبهم إليه، وإما أن يعتصم بدينه مقابل هلاكها، ويعير بقتلها؛ إلا أن سعدا τ قد آثر حب الله ودينه على حب أمه، وثبت على عقيدته أمام هذه المحنة[٣]، ف لت فيه : (وإِن جاهداك على أَن تشرِك بِي ما لَيس لَك بِه علْم فَلَا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفًا واتبِع سبِيلَ من أَناب إِلَي ثُم إِلَي مرجِعكُم فَأُنبئُكُم بِما كُنتم تعملُونَ) لقمان/١٥.

٦- وتحمل مصعب بن عمير τ كل مصاعب الحياة؛ ثباتا على دينه، وتمسكا بعقيدته، فقد آثر نعيم الآخرة عن رفاهية الدنيا، فاشتهرت أسرته بالترف، والثراء والغنى؛ وكان مميزا بين أقرانه بحسن المظهر، وبحكم ثراء أمـه وترفها بالمال، كان يأكل أشهى المأكولات، ويتناول ألذ المشروبات، فلما سمع بالرسول ε ودعوته، صدقه وآمن به، وكان يختلف إليه سرا في دار الأرقم بن أبي الأرقم، فشاهده عثمان بن طلحة يصلي فأخطر أمه وقومه، فحبسوه حتى خرج مع إخوانه المؤمنين إلى الحبشة في الهجرة الأولى؛ فرارا من الاضطهاد، وخوفا من الفتنة في دينه، وقد جهد[٤] في الإسـلام جهدا شديدا، حتى صار جلده يتطاير، ورغم ما لاقاه من بلاء ومحنة، وشظف العيش، وجفاء من قومه،

---

(١)– الصلابي: السيرة النبوية، ج١، ص (٢٦٤ ، ٢٦٥). ابن هشام: السيرة النبوية، ج١، ص٢٢٥.

(٢)– محمود المصري: سيرة الرسول ε ، ص١١٦.

(٣)– الحميدي: التاريخ الإسلامي، ج٢، ص٥٦.

(٤)- جهد: أصبح هزيلا.

ومن أمه أقرب الناس إليه؛ إلا أن إيمانه صقل قلبه، فتعمق يقينه، فصار داعية ناجحا، ومجاهدا مخلصا إلى أن أنعم الله عليه بالشهادة يوم أحد[1].

٧- ولقي خباب بن الأرت τ حظه من العذاب، فكان المشركون يفتنونه عن دينه، فيأخذون شعر رأسه فيجذبونه بشدة، وبعنقه فيلوونه بعنف، ويضجع على فحام ملتهبة، وتوضع السخرة الجسيمة فوقه فيعجز عن القيام ا. كما حولوا مادة الحديد التي كان يتخذها حرفة لصناعة السيوف، إلى قيود يطوقون ا جسده وأطرافه، بعد صهرها في النار فتستعر وتتوهج[2].

ودفعته شدة الألم وقوة التعذيب، بأن يقف شاكيا بين يدي الرسول ε درجة ما يعانيه، فكان جوابه ε مواساة له بما حدث لإخوا م في العقيدة[3]، فقال: { كان الرجل فيمن قبلكم يحـفر له في الأرض، فيجعل فيه، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق باثنتين، وما يصده ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب، وما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون }[4]، فبين بأن بعد الضيق يكون الفرج، وبعد الشدة يكون النصر، وأن هذا هو الطريق الطبيعي لدعوة الأنبياء فلما العجلة إذن؟!

٨- وعبد الله بن مسعود τ لم تمنعه نحافته من إظهار شجاعته في الجهـر بالقرآن، أمام مرأى ومسمع المشركين من قريش، حيث أتي "... المقام في الضحى، وقريش في أنديتها، حتى قام عند المقام ثم قرأ: (بِسمِ اللّه الرحمنِ الرحيمِ) رافعا ا صوته، (الرحمن، علم الْقُرآنَ..) الرحمان (٠١ ،٠٢)"، فلما قرع ا أسماعهم، "...قاموا إليه فجعلوا يضربونه في وجهه، وجعل يقرأ حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ، ثم انصرف إلى أصحابه وقد أثـروا في وجهـه، فقالوا له هذا الذي خشينا عليك! فقال: ما كان أعداء الله أهون علي منهم الآن، ولئن شئتم لأغدينهم بمثلها غدا! قالوا: لا، حسبك قد أسمعتهم ما يكرهون "[5]، فكان أول من جهر بالقرآن بعد الرسول ε .

٩- شهامة عثمان بن مظعون τ : ولما أسلم عثمان بن مظعون τ ، ناصب له قومه * بنو جمح * العداء فآذوه، وكان أمية بن خلف أكثر إيذاء له، فعاتبه بعد خروجه إلى الحبشة قائلا:

أ أخرجتـني من بطـن مكة آثـما * وأسـكنتني في صـرح بـيضاء نقدع .

---

(١)- الصلابي: السيرة النبوية، ج١، ص (٢٦٧ ، ٢٦٩).

(٢)- محمود المصري: سيرة الرسول ε، ص١١٧.

(٣)- الحميدي: التاريخ الإسلامي، ج٢، ص٦٣.

(٤)- البخاري: ك. المناقب، باب: علامات النبوة في الإسلام، رقم: ٣٦١٢، ص٦٩٠.

(٥)- ابن هشام: السيرة النبوية، ج١، ص٢٢١.

تـريش نـبالا لا يـواتيك ريـشها * وتبـري نـبالا ريـشها لك أجـمع .

وحـاربت أقـوامـا كرامـا أعـزة * وأهـلكت أقـوامـا م كنت تفزع .

ستعـلم إن نـابـتك يـوما ملـمة * وأسـلمك الأوبـاش ما كانت تصنع .

ثم ما لبث أن عاد مع المسلمين في المرة الأولى من الحبشة، ودخل مكة بجوار من الوليد بن المغيرة، ولما رأى ما يصيب إخوانه من البلاء، وما هو فيه من العافية، أنكر ذلك على نفسه، وهو تحت جوار مشرك، فطلب من الوليد بن المغيرة أن يرد عليه جواره علانية، ففعل مفضلا جوار الله تعالى، ثم انصرف إلى مجلس من مجالس قريش، وفيهم الشاعر* لبيد بن ربيعة * ينشدهم قائلا: * ألا كل شيء ما خلا الله باطل * فقال عثمان: صدقت. ثم قال مرة أخرى: * وكل نعيم لا محالة زائل * فقال عثمان: كذبت. (فنعيم الجنة لا يزول). فقام إليه أحد سفهائهم، فلطمه في عينه فاخضرت. فقال له الوليد: يا ابن أخي، إن عينك لغنية عما أصا ا، ولقد كنت في ذمة منيعة، فقال عثمان: والله إن عيني الصحيحة لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها في الله، ورفض جواره مرة أخرى قائلا: وإني لفي جوار من أعز منك وأقدر[1].

المطلب الخامس: الـدروس والعـبر.

١- قوة إيمان أبي بكر τ وشجاعته، دفعته إلى الجهر بالإسلام، وإشهاره في وجوه الكفار، رغم الأذى الكبير الذي لحقه من المشركين، والذي بلغ به إلى حد الهلاك[2].

٢- لقد ضرب لنا الصحابة ψ أروع الأمثلة في الثبات على الإيمان، رغم صنوف العذاب التي أذاقوها؛ فكان بلال بن رباح τ جديرا بأن يتوج ذا المثل في التضحية، فلم يلن أمام هول التحديات، فهانت عليه نفسه، فصبر وثبت، فازداد غيظهم وحقدهم عليه؛ بسبب قوة صبره وإيمانه، فتحداهم بكلمة التوحيد يعلنها صارخة، أحد..أحد[3].

٣- قال الله تعالى: (فَإِن مع الْعسرِ يسرا، إِن مع الْعسرِ يسرا) الشرح (٠٥ ، ٠٦). إن مما ينبغي أن يعلمه الدعاة ويتعلموه من محنة الصحابة ψ ، أن بعد المحنة تأتي المنحة، وبعد الضيق يأتي الفرج. فصبر بلال τ وجلده على العذاب، خلصه من أسر العبودية، وعاش مع رسول الله ε بقية حياته ملازما له، ومات راضيا عنه مبشرا إياه بالجنة، قائلا: {.. فإني سمعت دف نعليك بين يدي في الجنة

---

(١)– الصلابي: السيرة النبوية، ج١، ص (٢٧٣ ، ٢٧٥).

(٢)– المصدر نفسه، ج١، ص٢٥٨.

(٣)– المصدر نفسه، ج١، ص٢٦٢.

}[١]، وعاش مقامه رفيعا عند الصحابة ψ فهذا عمر بن الخطاب τ يقول: { أبو بكر سيدنا، وأعتق سيدنا }، يعني بلال[٢].

٤-كان منهج الصديق τ في فك رقاب المستضعفين، يدخل ضمن خطة تبنتها القيادة الإسلامية في إطار مقاومة التعذيب ومناهضته، وتحرير العبيد، وبذلك يكون الإسلام أول من يؤسس لهذا المبدأ ، ويدافع عنه، كحق من حقوق الإنسان[٣].

٥- وفي قصة عتق الجـاريتين، النهدية وابنتها- وكانتا لامرأة من بني عبد الدار- وقفة نتعلم من خلالها كيف أسس الإسلام، مبدأ المساواة بين الصديق والجاريتين، فخاطبتاه خطاب الند للند، لا خطاب المسود للسيد، وتقبل الصديق τ على مكانته، وشرفه في الجاهلية والإسلام منهما ذلك، ثم كيف صقل الإسلام خلقهما، وأبتا إلا أن تفرغا من الطعام وترداه إليها، دون أن تتركاه يذهب عبر أدراج الرياح، فتعلمتا من الإسلام العقيدة والأخلاق[٤].

٦- إن شخصية مثل أبي بكر الصديق τ تعد من الشخصيات النادرة، والتي كانت بحق الأنموذج الفريد الذي تحتاجه الأمة، في كل عصر ومصر، فعلمنا من خلال سلوكه ومعاملاته، بأنه واهب الحريات، وقدوة في مكارم الأخلاق، رحيم على الضعفاء والأرقاء.

٧- إن المشركين في مكة، كانوا يستغربون من فعل أبي بكر τ، ببذل ماله في تحرير العبيد، بينما هم عنده إخوانه في الدين والعقيدة، فالواحد منهم لا يرجح كفته جميع من يحسبون أنفسهم بأ م سادة مكة، فعلى مثل هؤلاء بنيت دولة التوحيد، وصنعت حضارة الإسلام الرائدة[٥]، وبجهادهم تحررت شعوب من العبودية، وسقطت أقطاب الكفر، من القياصرة والأكاسرة.

٨- إن صنيع أبي بكر τ يعلمنا كيف كان يقدر قيمة كل فرد مسلم، ويعطينا دروسا في أهمية التكافل بين أفراد ا تمع المسلم، فلا يستهين المسلم بأخيه، مهما كانت ثقافته ومستواه المادي؛ لأن البشر الذين كانوا في الجاهلية عبيدا، أصبحوا بعد عتق أبي بكر τ لهم، أصحاب عقيدة وفكرة، يناقشون ا، وينافحون عنها؛ ويجاهدون في سبيلها، وفي هذا تتجلى عظمة هذا الدين. إن أمتنا أحوج ما تكون عليه اليوم، بأن تتعلم من مدرسة النبوة، ومن أبي بكر τ الذي هو من أبرز

---

(١)– البخاري: ك. فضائل الصحابة، باب: مناقب بلال بن رباح، مولى أبي بكر- رضي الله عنهما-، رقم: ١١٤٩، ص٧١٥.

(٢)– البخاري: ك. فضائل الصحابة، باب: مناقب بلال بن رباح، مولى أبي بكر- رضي الله عنهما-، رقم: ٣٧٥٤، ص٧١٥.

(٣)– الصلابي، مصدر سابق، ج١، ص٢٦٢.

(٤)- المصدر نفسه، ج١، ص٢٦٣.

(٥)- المصدر نفسه، ج١، ص٢٦٣.

أساتذ ا- القيم النادرة، والمثل الرفيعة، والمشاعر السامية؛ ليتم التلاحم والتعايش، والتعاضد بين أبناء الأمة، في زمن يتعرضون فيه للإبادة الشاملة من طرف أعدائهم المتربصين م في كل زمان ومكان(١).

٩- وفي الحوار الذي دار بين أبي بكر τ وأبيه(٢)، ندرك الفرق بين نظرة أهـل الجاهلية، ونظرة أهل الإسلام، في وجوه إنفاق المال وبذل المعروف، فالوالد يشير على ابنه بأن يصنع المعروف فيمن ينفعونه في مستقبل حياته، وهذا مبلغ علمه، فهو لا يؤمن بالآخرة، فحسب نظرته يرى أن بذل المال في ضعاف النفوس من ضعف الرأي، وضآلة التفكير. فيجيبه أبو بكر τ بقوله: (.. يا أبتي، إنما أريد ما أريد..)، أي في الحياة الآخرة، أجرا وثوابا، وفوزا بأعلى درجات الجنة. ومما ينبغي الاستفادة به من هذا الحوار، أن ثمة من المسلمين في عصرنا، من يبذل ماله لمصلحة دنيوية، ولا يريد وجه الله ولا الدار الآخرة، وإن كان هؤلاء يختلفون عن أهل الجاهلية، بكو م مسلمين ولهم أعمال صالحة(٣).

١٠- وما أصاب آل ياسر، يعد أنموذجا جديدا، من التضحية والصبر، وفيه تقديم لمصلحة الدعوة، على المصلحة الذاتية. وفي قوله ε: { صبرا آل ياسر، موعدكم الجنة }(٤). تحديد للهدف العالي الذي يجب أن يسـعى له كل مسلم، فالرسـول εلم يعد أصحابه، بقصور الدنيا ولا بنعيمها، ولا بالمناصب العالية وملذا ا، مع ما كان يعلمه بوحي من الله تعالى من إظهار دينه، وانتصار أتباعه في المستقبل، فليس هذا هو الهدف؛ إنما الهدف الأسمى هو الذي أثنى الله به على الصحابة ψ في قوله: (يبتغونَ فَضلًا من الله ورِضوانا) الفتح/٢٩. فما وعد به آل ياسر هو الجنة، وهي المراد والمعبر عنها في الآية الكريمة ب* الفضل *(٥).

١١- إن الإسلام يشد المسلمين إلى الآخرة، فتهون عليهم أنفسهم، و ون عليهم الحياة الدنيا؛ فينتصرون على أعدائهم. والمنطق الطبيعي أن يفدي كل واحد منهم إخوانه ليسبقهم بنفسه إلى الهدف السامي وهو الجنة. أما أعداء الإسلام، فإن أهدافهم دنيوية، والوصول إليها يستدعي التنافس على البقاء، والمنطق الطبيعي، أن يدرأ كل واحد منهم الخطر عن نفسه بالحماية بغيره؛ ليركن إلى الفانية(٦).

---

(١)– المصدر نفسه، ج١، ص٢٦٤.

(٢)– ونشير إلى أن والد أبي بكر τ قد أسلم يوم الفتح.

(٣)– الحميدي ، التاريخ الإسلامي، ج٢، ص (٦٠ ، ٦١).

(٤)- ابن هشام: السيرة النبوية، ج١، ص٢٢٥.

(٥)– الحميدي: مصدر سابق، ج٢، ص (٦٣ ، ٦٤).

(٦)– المصدر نفسه، ج٢، ص (٦٤ ، ٦٥).

١٢- إن الكفار يقفون في مواجهة المسلمين بكل الوسائل، فهم بحكم كفرهم لا يتورعون عن مأثم، ولا يخشون عقوبة على أعمالهم السيئة، فيبيحون لأنفسهم الكذب والتزوير، وتضليل الرأي العام بأقوال مختلفة، قاصدين ا إضعاف معنويا م، وتشويه سمعتهم، وإسقاط مكانتهم في ا تمع، وهذا ما كان يعد به أبو جهل كل من اعتنق الإسلام، فإن كان تاجرا شوه سمعته التجارية، وإن كان ضعيفا ضربه وأغرى به[1].

١٣- إن المسلمين قد لا يملكون في مواجهة حرب الكفار إلا الصبر والثبات، والزهد في الدنيا، وانتظار الفرج من الله، فإذا تحقق هذا فيهم، تحقق لهم النصر، ومكن الله لهم في الأرض[2]. لقوله تعالى: (وعد الله الذين آمنوا منكُم وعملُوا الصالحات لَيستخلفَنهم في الْأَرضِ كَما استخلَف الذين من قَبلهم ولَيمكنن لَهم دينهم الذي ارتضى لَهم ولَيبدلَنهم من بعد خوفهم أَمنا يعبدونني لَا يشرِكُونَ بِي شيئًا ومن كَفَر بعد ذَلك فَأُولَئك هم الْفَاسقُونَ) النور/٥٥.

١٤- وفي موقف عمار بن ياسر τ وما صـدر منه بسبب الإكـراه، رخصة من الله للذين يتعرضون للبلاء الشديد، فمن ثبت وراغم الكفار فهو أفضل، ومن أخذ بالرخصة كما فعل عمار بن ياسر τ فلا إثم عليه ما دام قلبه مطمئنا بالإيمان، لقوله تعالى: (من كَفَر بِاللّه من بعد إيمانه إِلا من أُكْرِه وقَلْبه مطْمئن بِالإِيمان ولَكن من شرح بِالْكُفْرِ صدرا فَعلَيهم غَضب من اللّه ولَهم عذَاب عظيم) النحل/١٠٦. وحتى لا يقع في المحظور الذي أشارت إليه آخر الآية، كان سؤاله ε: { كيف تجد قلبك؟ }، دلالة على أهمية صيانة الفكر، من أن يتطرق إليه شيء من الشبهات التي يثيرها الكفار، ودلالة على أن أعداء الإسلام قد يستطيعون أن يثخنوا في أجساد المسلمين، فيدفعو م إلى قول ما لا يعتقدون؛ لكنهم لا يستطيعون أبدا أن يهيمنوا على عقولهم وأفكارهم[3].

١٥- وفي قصـة سعد بن أبي وقاص τ مع أمه، بيان لحقيقة الولاء، بأن يكون لله ولرسوله ولدينه، ويجب أن يكون مقدما على القبيلة، والعشيرة؛ وحتى على القرابة القريبة، رغم هذا القرآن أمر بعدم قطع صلة الرحم بين الأبناء والآباء، حتى وإن كانا الوالدين مشركين، فسماحة الإسلام تقتضي دوام الإحسان لهما، والبر ما؛ لمكانة الوالدين في الإسلام[4].

---

(١)– المصدر نفسه، ج٢، ص (٦٥ ، ٦٦).

(٢)– المصدر نفسه، ج٢، ص (٦٥ ، ٦٦).

(٣)– المصدر نفسه، ج٢، ص٧٥.

(٤)– الصلابي: السيرة النبوية، ج١، ص٢٦٧.

١٦- وفي قصة مصعب بن عمير τ أنموذجا عن تربية الإسلام؛ لطبقة المترفين الشباب، أبناء الطبقات الغنية، وأبناء القصور والمال، والجاه والأناقة، وكيف وقف بعد إسلامه قويا، لا يضعف ولا يتكاسل، ولا يتخاذل ولا يستسلم لشهوات نفسه، فكان مطمئنا راضيا رغم تقلبه في المحن، فمن محنة الفقر إلى محنة فقد الوجاهة والمكانة، إلى محنة الأهل والأقارب والعشيرة، ثم محنة الجوع والتعذيب، ثم محنة الغربة؛ لكنه خرج من كل هذه المحن المتراكمة منتصرا بدينه وإيمانه[١].

١٧- إن جواب النبي ε على طلب الخباب بن الأرت τ : (ألا تستنصر لنا، ألا تدعو الله لنا ؟) [٢]، ولما فيه من قوة، وتأثير وعتاب؛ إلا أنه أراد به أن يبين لهم حقيقة أساسية ملازمة لطبيعة الدعوة، التي هي امتداد لدعوة الرسل والأنبياء، بأن تكون عرضة للمحن والشدائد، حتى إذا يئسوا جاءهم نصر الله عز وجل، فلما العجلة إذن؟! إن الأمور مرهونة بأوقا ا وأسبا ا، وقبل النصر يكون البلاء، وبعده تكون العاقبة الحسنة[٣]، لقوله تعالى: (حتى إِذَا استيأس الرسلُ وظَنواْ أَنهم قَد كُذبواْ جاءهم نصرنا فَنجي من نشاء ولاَ يرد بأْسنا عنِ الْقَومِ الْمجرِمين) يوسف/١١٠.

١٨- ما تعـرض له عبد الله بن مسعود τ يعد مـثالا لشـدة الإرهاب، الذي كان يواجهـه المستضعفون في مكة، و مدى حب الصحابة ψ لنبيهم، وقوة شجاعتهم في إظهار الحق، مع علمهم بعدم وجود عشائر تحميهم؛ وتخلصهم من الأذى[٤].لقد أصبح عبد الله بن مسعود τ من أعيان علماء الصحابة ψ، ومن الذين دخلوا ركب الإيمان، والصبر والثبات، فاستحقوا المدح والثناء من الله، فنحافة جسمه لم تمنعه من أن يقرع بالقرآن الأسماع المقفلة، والقلوب المغلفة[٥].

١٩- ومن شهامة عثمان بن مظعون τ نتعلم علاقة الأخوة التي يجب أن تربط المؤمنين فيما بينهم، والمبنية على الحب في الله Ψ ، فلم يؤثر لنفسه أن ينعم بالأمان تحت جوار الوليد بن المغيرة، الذي كان يتصدر زعماء الشرك في تعذيب المسلمين، فأبى إلا أن يرد جواره؛ ليعيش نفس حال إخوانه. إنه يعلمنا وحدة الشعور بين المؤمنين، والتي لموها من معين الإسلام ومنابعه الصافية، ورضي بالإصابة في عينه، وتمنى أن تصاب الأخرى في سبيل الله؛ رجاء الأجر والثواب[٦]. فلما مات عثمان بن مظعون τ ، رأت امرأة في المنام أن لـه عينا تجري، فجاءت رسـول الله ε فأخبرته، فقال: {

---

(١)- المصدر نفسه، ج١، ص (٢٦٨ ، ٢٦٩).

(٢)- البخاري: ك. المناقب، باب: علامات النبوة في الإسلام، رقم: ٣٦١٢، ص٦٩٠.

(٣)- الصلابي: مصدر سابق، ج١، ص٢٧٠.

(٤)- الحميدي: التاريخ الإسلامي، ج٢، ص٤٤.

(٥)- الصلابي: مصدر سابق، ج١، ص (٢٧١ ، ٢٧٣).

(٦)- المصدر نفسه، ج١، ص٢٧5.

ذلك عمله }[1].

هذا غيض من فيض مما تعرض له الكثير من الصحابة ψ من ألوان شتى من التنكيل والتعذيب؛ لفتنتهم في دينهم، رجالا ونساء، وشبابا وفتيانا، فصـبروا وثبتوا على الحق، فنالوا جميعا إحـدى الحسنيين، وسجل التاريخ صمودهم بأحرف من ذهب؛ فكانوا قدوة للأجيال المتلاحقة، عبر الزمان وفي كل مكان.

المبحث الثالث

تحـدي الترغـيب والترهـيب

المطلب الأول: تحـدي الترغيب.

المطلب الثاني: تحـدي الترهيب.

المطلب الثالث: حقائق من منهجه للإبراز والمنافشة.

(١)- البخاري: ك. التعبير، باب: رؤيا النساء، رقم: ٧٠٠٤، ص١٣٣٩.

المطلب الرابع: الـدروس والعـبر.

المبحث الثالث
تحدي الترغيب والترهيب

تمهيـد.

مذ جهر الرسولε بدعوة الإسلام، والمشركون لا يألون جهدا في محاربته، وإيذاء الداخلين فيه، فلم تفتر عزيمتهم، ولم تلن إرادتهم في سلوك أساليب شتى، ووسائل متعددة؛ للنيل منه ومن أصحابه؛ لصده عن دعوته والوقوف دون انتشارها بين الناس. فجربوا الاستهزاء والسخرية، فلما لم ينجحوا، جربوا التنكيل والتعذيب، فلما فشلوا ورأوا أن المسلمين يزدادون كل يوم " إيمانا ويقينا "[1]، وصبرا وثباتا؛ جنحوا إلى أسلوب آخر، يجمع بين الترغيب والترهيب[2]، وهذا يعد تحديا لا يقل خطورة عن سابقيه لضرب الدعوة، وتشويه سمعتها، وصد الناس عنها.

المطلب الأول: تحـدي الترغيب.

---

(١)- محمود المصري: سيرة الرسول ε، ص١٣٠.

(٢)- محمد الغزالي: فقه السيرة، ص١٠٧.

الكثير من الدعاة في عصرنا يغفلون خطورة أسلوب الترغيب، ويستهينون في التعاطي مع أعداء الدعوة من خلاله، فيسقطون في فخ المساومة والتنازل، ظنا منهم أن هذا يصب في مصلحة الدعوة، فيتنازلون على القليل في نظرهم، ومع مرور الزمن، نجد أعداء الدعوة ينجحون في استمالة الكثير منهم؛ بإغراقهم في المغريات المختلفة، فيفتتن قادة الدعوة ورجالها، ويجدون أنفسهم قد تنازلوا عن الكثير، الذي يخدم مصلحة الدعوة، إلى أن يأتي التخلي عنها ائيا. إن مناهج الدعوة مهما تنوعت تحت أي ظرف من الظروف، أو سبب من الأسباب، يبقى الدعاة في حاجة ماسة إلى أن ينهلوا من منهج المعصوم ε، فيتعهدوه بالدراسة، ويغرفون من منابعه، ويشربون من معينه. إن الرسول ε قد وقف أمام مغريات قريش وعروضها الدنيوية، فرفضها ابتداء، وأبى أن يساوم الدعوة بالمال، أو الجاه والسلطان؛ أو النساء.

أولا: الرسول ε يرفض إغراءات قريش ويتمسك بالدعوة.

لما رأت قريش أن عدد الداخلين في الإسلام يزداد يوما بعد يوم، حارت ووقفت مندهشة، ورأت أن آلة التعذيب والتنكيل لم تفلح في صد القادمين إلى الإسلام، والمرتمين في أحضانه، المقبلين عليه بشغف ولهف، وازداد اندهاشها، وعظم كر ا بإسلام حمزة بن عبد المطلب τ أحد سادة مكة وأبطالها، فاقترح عتبة بن ربيعة على سادة قريش، أن يعـرض على الرسول ε أمورا لعله يقبل ببعضها، فنعطيه أيها شاء؛ فَيَكُف بذلك عن دعوته، فقبلت قريش مقترحه، فقام عتبة إلى الرسول ε فجلس إليه يكلمه، قائلا: (..يا ابن أخي، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت تريد به شرفا سودناك علينا، حتى لا نقطع أمرا دونك، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك، طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه، أو كما قال له..)[1] ، وفي رواية لابن كثير: (.. وإن كان إنما بك الباه[2]، فاختر أي نساء قريش شئت فلن وجك عشرا. فقال رسول الله ε: { فرغت؟ } قال: نعم. فقال رسول الله ε: (بِسمِ اللّه الرحمنِ الرحيمِ، حم، تـ ِيلٌ من الرحمنِ الرحيمِ)، إلى أن بلغ: (فَإِنْ أعرضوا فَقُلْ أَنذَرتكُم صاعقَةً مثْلَ صاعقَة عاد وثَمود)، فصلت (٠١ ، ١٣)[3]. قال ابن إسحاق: (.. فلما جلس إليهم، قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني قد سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط،

---

(١)- ابن هشام: السيرة النبوية، ج١، ص٢٠٦، رواه ابن إسحاق.

(٢)- الباه : النكاح.

(٣)- ابن كثير: البداية والنهاية، ج٣، ص١١١.

والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهـر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به، قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم)[1].

فلما فشلت قريش في محاولتها الأولى، لم تقطع الأمل بأن تجرب ثانية، فأقبل على الرسول ε وفد، فيهم: الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن عبد المطلب، وأمية بن خلف، وعرضوا عليه المال حتى يكون أغناهم، ويزوجوه من الأبكار عشرا، مقابل ترك شتم آلهتهم، وتسفيه عقولهم، فلما رفض عرضهم، أشاروا عليه بعرض آخر، تعبد آلهتنا يوما، ونعبد إلهك يوما، حتى يظهر لنا أي الآلهة أحسن فنتبعه، فرفض الرسولε هذا العرض أيضا، ثم نزل قوله تعالى: (قُلْ يا أيها الْكَافرونَ، لَا أَعبد ما تعبدونَ، ولَا أَنتم عابِدونَ ما أَعبد، ولَا أَنا عابِد ما عبدتم، ولَا أَنتم عابِدونَ ما أَعبد، لَكُم دينكُم ولي دينِ) الكافرون (٠١ ، ٠٦). إلا أن قريشا لم تيأس من أسلو ا، فكررت المحاولة مرة ثالثة، فأرسلت: عبد الله بن أبي أمية، والوليد بن المغيرة، ومكرز بن حفص، وعمرو بن عبد الله بن أبي قيس، والعاص بن عامر؛ فعرضوا عليه الزعامة والمال، أو المداواة إن كان الذي يأتيه رئيا من الجن، فقال لهم رسول الله ε: { ما بي ما تقولون، ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولا، وأنزل علي كتابا، وأمرني أن أكون بشيرا ونذيرا، فبلغتكم رسالات ربي، ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوا علي، أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم }[2].

ثانيا: الإغراءات وأثرها في واقع الدعاة.

إن قريشا قد عرضت على الرسول ε المال والنساء، والجاه والسلطان؛ فماذا أبقت من مغريات الحياة ؟!

١ - المـال.

فحب المال غريزة جبلية في الإنسان، لقوله تعالى: (وتحبونَ الْمالَ حبا جما) الفجر/٢٠، أي كثيرا وفاحشا[3]، وتكالبا على المال[4]، وبخلهم بإنفاقه. وانطلاقا من غريزة حب المال، رأت قريش

---

(١)- الحميدي: التاريخ الإسلامي، ج١، ص (١٥٣ ، ١٥٥).

(٢)- سالم نوري: فقه السيرة النبوية، ص (٩٧ ، ٩٨).

(٣)- العماد أبو الفداء إسماعيل بن كثير: تفسير القرآن العظيم، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان- بدون رقم الطبعة وبدون تاريخ، ج٤، ص٦٦٥.

(٤)- الصلابي: صفوة التفاسير، ج٣، ص٥٥٨.

أن وسيلة الاستهزاء والتعذيب، قد أ كتها وأجهد ا، فراحت تستعمل أسلوب الإغراء بالمال، علها تنجح ذا السلاح فتوقف عجلة الدعـوة؛ إلا أن النبي ε صمد في وجه هذا التحدي رافضا عروضهم ومساوما م. فكم من الدعاة قد سقط تحت بريق المال، إغراء به، أو خوفا من ذهابه؛ ليكفوا عن دعو م، قال تعالى: (زين للناسِ حب الشهوات من النساء والْبنِين والْقَناطيرِ الْمقَنطَرة من الذهبِ والْفضة والْخيلِ الْمسومة والأنعامِ والْحرث ذَلك متاع الْحياة الدنيا واللّه عنده حسن الْمآبِ) آل عمران/١٤. فعرضت الآلاف المؤلفة من الأموال؛ ليتوقف الدعاة عن دعو م. فليكن الداعية على حذر؛ لئلا يقع في هذا المنحر، فتلبيس إبليس لا ينتهي، حيث يزين للداعية اللين مع الخصوم الذين لا يحكمـون بالشرع؛ حفاظا على لقمة العيش، أو الوظيفة، أو مصدر الربح (أو البزنسة)، والأدهى والأمر؛ أن يتخذ الداعية الدعوة طريقا؛ لتحقيق هذا الهدف[١].

٢- الجـاه (السلطان أو الملك).

وهذا بدوره لا يقل إغراء عن الأول؛ بل إن المال وسيلة أساسية، لتحقيق الجاه والسلطان، وأي جاه يعرض على الرسول ε أكبر من أن ينصبوه ملكا عليهم ؟! فتعقد له الألوية، فلا يقطعون أمرا دونه[٢].

وإنما كان المال محبوبا؛ لأنه يحصل به غالب الشهـوات[٣]. وللحصول على الجاه والسلطان، أو المنصب يضطر صاحبه أن يسلك الطرق الملتوية وغير المشروعة؛ تحقيقا لمآربه ووصولا لأهدافه. فكم من دولة سقطت من أجله، كما حدث في الدولة الأموية، والدولة العباسية؛ وما حدث في الأندلس. وكم باع ضعاف النفوس من كوادر الدعوة وقاد ا دعو م، بمنصب **وزير** أو **مدير**، ونحوه، وأخطر ما في هذه العروض، أ ا تبرز للداعية في أثواب زاهية؛ فيخيل له انطلاقا من وظيفته، أو من وزارته، أو من رياسته سوف يخدم الإسـلام بالدعوة إليه، أو يدفع الخطر عنه، فإذا به صار عبدا لوظيفته، ولوزارته، ولرياسته؛ بل يرضي بالحكم بغير الشرع، ويقر بالفساد والانحراف؛ فيخسر دنياه ويزيد دينه، ويصدق فيه: ابتلينا بالضراء فصبرنا، وابتلينا بالسراء فلم نصبر[٤]، وحتى لا يقع الداعية الرباني في شرك الشيطان، - الذي يـزين المناصب، ويجري في عروقه حبها مكرا وخديعة- عليه أن يتخذ الرسـول ε قدوة له في حياته، دون أن ينسى الهدف الذي عاش له ولأجله، لقوله تعالى: (قُلْ إن

---

(١)- الغضبان: فقه السيرة النبوية، ص١١٤.

(٢)- المصدر نفسه، ص ١١٤.

(٣)- الصلابي: مصدر سابق، ج١، ص١٨٩.

(٤)- الغضبان: مصدر سابق، ص (١١٤ ، ١١٥).

صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين) الأنعام (١٦٢ ، ١٦٣).

٣- النساء.

وبدأ الله عز وجل بهن،- في الآية التي أشرنا إليها سابقا- فعدهن على رأس الشهوات التي زينت للناس؛ لأن الفتنة بهن أشد، والتلذذ بهن أكثر، وثبت أن النبي ε قال عنهن: { ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء }[١]. فلا فتنة أعظم من فتنتهن على الرجال، وهذا العرض في الأساس داخل في عرض تمليك المال، فعندما تجمع للرسول ε الأموال الطائلة، يكون باستطاعته التزوج من النساء ما يريد[٢]، عندها-في نظر قريش- ينشغل بإشباع رغباته، ويلهى بتلبية نزواته، ويتفرغ لملذات حياته، مقابل ترك دعوته التي أرقت مضاجعهم، وسبت آلهتهم، وأبطلت دين آبائهم وأجدادهم، وسفهت أحلامهم؛ وهددت تجاراتهم وأموالهم.

إن سلاح النساء هو الأجدر في نظر قريش، والأنجع في حل لغز هذه المعضلة، بعد أن عجزت فنون السخرية والاستهزاء، وفنون التعذيب والتنكيل. إن الدعاة قد يصادفون في طريق دعوتهم هذا التحدي، فيفتتنون بالنساء؛ فالداعية قد يبتلى إما بزوجة تثبط همته عن الدعوة والجهاد، أو تسلط عليه إحدى الفاجـرات؛ فتهيئ له أجواء البـغي، والإثم والفساد؛ ليسقط فيها بعد حين. إنها لفتنة عظيمة، وإنها بحق الحالقة، لا أقول تحلق الشعـر؛ ولكن تحلق الدين. وما أحوج الدعاة حاضرا ومستقبلا، أن يتخذوا من منهج المعصوم ε سراجا يضيء طريق دعوتهم، فالأمة أحوج ما تكون عليه اليوم قبل غيرها لمنهج النبوة، في زمن ازداد فيه تكالب الأعداء وأعوانهم، على الدعوة وأهلها. إن طبيعة الشـر واحدة في كل عصر ومصر، فها هي قريش تعرض على الرسول ε أن يختار من النساء عشرا، أجملهن وأحسنهن، إن كان عاجزا عن الزواج بأكثر من واحدة. إن سلاح المرأة على الدعوة أخطر وأفتك من سلاح السيف، وسلاح تكنولوجيا العصر، فعلى ضعفها فهي تستمد قوتها من إغرائها، وعلى نقص تفكيرها فهي تملك القـدرة على سلب صاحب العقل الحصيف؛ لتورده موارد التهلكة[٣]، ويؤكد هذا قولهε: {..ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذي لب منكن }[٤]، فلا ملجأ ولا مخرج للدعاة من هذا التحدي إلا بالإقتداء بسيد الخلق، وعلى الدعاة أن يتذكروا دائما

---

(١)- البخاري: ك. النكاح، باب: ما يتقى من شؤم المرأة، رقم: ٥٠٩٦، ص١٠١٠.

(٢)- الحميدي: التاريخ الإسلامي، ج١، ص١٦٩.

(٣)- الغضبان: فقه السيرة النبوية، ص١١٥.

(٤)- مسلم: ك. الإيمان، باب: نقصان الإيمان بنقص الطاعات، وبيان إطلاق لفظ الكفر على غير الكافر بالله، ككفر النعمة..، رقم: ١٣٢، ص٥١.

قول سيدنا يوسف υ، من خـلال قوله عز وجل: (قَالَ رب السجن أحب إلَي مما يدعونِني إلَيه وإلا تصرِف عني كَيدهن أصب إلَيهن وأكُن من الْجاهلين، فَاستجاب لَه ربه فَصرف عنه كَيدهن إنه هو السميع الْعليم) يوسف (٣٣ ، ٣٤).

ثالثا: أنموذجا للحسم والصمود.

لقد جاء الحسم الرباني ينهى رسول الله ε أن يتعرض للمساومة من طرف قريش، كما درجوا عليه في تجار م، وفرق بين العقيدة والتجارة؛ فصاحب العقيدة لا يمكن له أن يتخلى عن كل صغيرة أو كبيرة فيها، فكلاهما واحد، فالعقيدة حقيقة واحدة متكاملة الأجزاء، ولا يمكن للإسلام أن يلتقي مع الجاهلية في منتصف الطريق في كل زمان ومكان. إ ا حقيقة لا تقام عليها قنطرة، ولا تقبل قسمة ولا صلة[1]، ودليل ذلك قوله تعالى: (فَلَا تطعِ الْمكَذبِين، ودوا لَو تدهن فَيدهنونَ) القلم (٠٨ ، ٠٩). هكذا يفعل أصحاب السلطان يستدرجون أصحاب الدعوات، فإذا سلموا في الجزء، فقدوا هيبتهم وحصانتهم، وعرف المتسلطـون من أعداء الدعوة أن استمرار المساومـة وارتفاع السعر، ينتهيان-بلا ريب- إلى تسليم الصفقة كلها !![2] ومن ثم تفنن أعداء الدعوة في استمالة الدعاة، وربما ساقوهم مستقبلا ليتحولوا إلى محاربين للدعوة لا خادمين لها.

لا بد أن يعلم المشتغلون في حقل الدعوة، أن التسليم في جانب ولو ضئيل من جوانب الـدعوة؛ خدمة لها-حسب نظرهم- ومراعاة لمصالحها، هو في الحقيقة هزيمة روحية، ناتجة من الاعتماد على أصحاب السلطان، بدل الاعتماد على الله-عز وجل- وحده.

ولذلك جاء الفصل الإلهي يوصي رسوله ε بالصبر، وعدم طاعة الملأ من قريش وما يعرضون عليه، قال تعالى: (فَاصبِر لحكْمِ ربك ولَا تطع منهم آثما أَو كَفُورا) الإنسان/٢٤. وقد نزلت هذه الآية في عتبة بن ربيعة و الوليد بن المغيرة، حيث أتيا رسول الله ε يعرضان عليه الأموال والتزويج، على أن يترك ذكر النبوة[3]. فحبائل الشيطان التي يفتتن ا الناس بما في ذلك الدعاة، ويسقط بسببها الزعماء والرؤساء؛ بل تزول ا دول وأمم،لم تحرك في الرسول ε قيد أنملة، فذلك إنما هو الثبات الذي يعصم به الله عز وجل أنبياءه، لقوله تعالى: (وإِن كَادواْ لَيفْتنونك عنِ الذي أَوحينا إِلَيك لتفْترِي علَينا غَيره وإِذًا لاتخذُوك خليلاً، ولَولاَ أَن ثَبتناك لَقَد كدت تركَن إِلَيهم شيئًا قَليلاً، إِذاً لَّأذَقْناك ضعف الْحياة

---

(١)- سيد قطب: في ظلال القرآن، ج٦، ص (٣٦٥٨ ، ٣٦٥٩).

(٢)- ورد هذا في إحدى المحاضرات حول: " منهج النبي ε في الدعوة إلى الله " ل/ د حسين شرفة .

(٣)- القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج١٩، ص١٤٩. قال مقاتل: الذي عرض التزويج عتبة بن ربيعة، قال: إن بناتي من أجمل نساء قـريش ، فأنـا أزوجك ابنتي من غير مهر وارجع عن هذا الأمر. وقال الوليد: إن كنت صنعت ما صنعت لأجل المال فأنا أعطيك من المال حتى ترضى وارجع عن هذا الأمر. ف لت الآية.

وضعف الممات ثُم لاَ تجِد لَك علَينا نصيرا) الإسراء (٧٣ ، ٧٥). إن الاستجابة لإغراءات خصوم الدعوة، هو في الحقيقة ركون وميل إليهم، وطريق إلى العاقبة السيئة، لقوله تعالى: (ولاَ تركَنواْ إِلَى الذين ظَلَمواْ فَتمسكُم النار وما لَكُم من دون اللّه من أَولياء ثُم لاَ تنصرونَ) هود/١١٣.

المطلب الثاني: تحـدي الترهيب.

لما أرسلت قريش وفدها إلى محمد ε تعرض عليه إغراءا ا؛ رجاء التخلي عن دعوته، أو التنازل عن جزء منها، فبالموازاة مع ذلك، أرسلت إلى عمه أبى طالب؛ تحذره مغبة التأييد والمساندة. إنه سلاح ذو حدين-ترغيب وترهيب-، مما يدل على إصرار القوم في كبح جماح الدعوة، ويعبر عن الحالة النفسية الشديدة من القلق، والاضطراب والتخبط، الناجمة عن الفشل الذريع، في محاولة خنق الدعوة الجديدة، ووأدها في مهدها.

أولا: الرسول ε يرفض ديدات قريش ويتمسك بالدعوة.

فأما وفد قريش، فقد جاء إلى أبي طالب شاكيا ومهددا، (... إن ابن أخيك قد سب آلهتنا، وعاب ديننا، وسفه أحلامنا، وضلل آباءنا، فإما أن تكفه عنا، وإما أن تخلي بيننا وبينه...)[١] ، وقد أفلح أبو طالب في مخاطبتهم، فوجه لهم كلاما رفيقا، وردهم ردا جميلا، فانصرفوا عنه. ولم يتوقف الرسول ε في الدعوة إلى الإسلام حتى تباعد الرجال، وتضاغنوا، وأكثرت قريش ذكر رسول الله ε بينها، فتذمروا عليه[٢]، ثم توجهـوا إلي أبي طالب مرة أخرى، فصعدوا في لغة التهديد والوعيد؛ فإما أن يكف الرسول ε عن سب آلهتهم، أو تكون المنازلة بينهما حتى يهلك أحد الفريقين، فعظم على أبي طالب فراق قومه وعداو م، ولم يطب نفسا بإسلام الرسول ε ولا خذلانه.

وذكر أن أبا طالب لما سمع مقالة قريش، بعث إلى الرسول ε فقال له: (يا ابن أخي إن قومك قد جاؤوني، فقالوا لي: كذا وكذا- للذي قالوا له- فأبق علي وعلى نفسك، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق. فظن رسول الله ε أنه قد بدا لعمه فيه بداء[٣]، وأنه خاذله ومسلمه، وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه.فقـال له: { يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله، أو أهلك فيه، ما تركته }، ثم استعبر رسول اللهε فبكى، ثم قام، فلما

---

(١)- محمد بن محمد بن محمد سيد الناس اليعمري: السيرة النبوية " عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير "، مكتبة دار التراث- المدينة المنورة، ودار ابن كثير، دمشق- بيروت، ط١، (١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م)، ص١٨٨.

(٢)- فتذمروا عليه: حث بعضهم بعضا على حربه وعداوته ومقاطعته.

(٣)- بداء: نشأ له فيه رأي.

ولى ناداه أبو طالب، فقال له: أقبل يا ابن أخي، فأقبل عليه، فقال: اذهب يا ابن أخي، فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشيء أبدا)[1].

وحديث عقيل بن أبي طالب τ وفيه أن النبي ε حلق ببصره إلى السماء فقال: { فما أنا بأقدر على أن أدع ذلك منكم على أن تستشعلوا منها شعلة }، فقال أبو طالب: والله ما كذبت ابن أخي قط فارجعوا[2].

ثانيا: التهديدات وأثرها في واقع الدعاة.

إن الداعية قد يقع تحت طائلة التهـديد والإرهاب، من طرف خصوم الدعوة وأعدائها، آملين الحصول على تنازلات تخدم مصالحهم، ومآر م الدنيوية؛ مما يلحق ضررا بالدعوة ويرهن مستقبلها، فالرسول ε كان مستفيدا من حماية عمه أبي طالب له، فرفض تقديم أيـة تنازلات للمشركين؛ لقاء توفير الحماية له معلنا استعداده للخروج منها، وتعريض نفسه للتهلكة دون أن يرجع عن دعوته قيد شعرة[3]؛ لأنه على يقين بأن الله عز وجل ناصر الحق، وزاهق الباطل.

والرسل الكرام الذين ساروا على درب الدعوة، قد تعرضوا لمثل هذه التهديدات، يقول الله تعالى: (وقَالَ الذين كَفَرواْ لرسلهم لَنخرِجنكُم من أَرضنآ أَو لَتعودن في ملتنا فَأَوحى إِلَيهم ربهم لَنهلكَن الظالمين، ولَنسكننكُم الأَرض من بعدهم ذَلك لمن خاف مقَامي وخاف وعيد) إبراهيم (١٣ ، ١٤). فهذا ما توعدت به الأمم الكافرة رسلهم من الإخراج من أرضهم، والنفي من بين أظهرهم. وهدد القوم شعيبا ومن آمن به، في قوله تعالى: (لَنخرِجنك يا شعيب والذين آمنواْ معك من قَريتنا أَو لَتعودن في ملتنا) الأعراف/٨٨، كما هدد القوم لوطا أيضا، في قوله تعالى: (أَخرِجوا آلَ لُوط من قَريتكُم إِنهم أُناس يتطَهرونَ) النمل/٥٦، كما كشف الله تعالى عن ديدات مشركي قريش للرسول ε في قوله تعالى: (وإِن كَادواْ لَيستفزونك من الأَرضِ ليخرِجوك منها وإِذًا لا يلْبثُونَ خلافَك إِلا قَليلاً) الإسراء/ ٧٦. وقال: (وإِذْ يمكُر بِك الذين كَفَرواْ ليثْبِتوك أَو يقْتلُوك أَو يخرِجوك ويمكُرونَ ويمكُر اللّه واللّه خير الْماكرِين) الأنفال/ ٣٠. وهكذا على مر التاريخ، تحقق وعد الله تعالى بالنصر والتمكين، للمضطهدين الصابرين، دعاة الحق ، كنتيجة حتمية، لسنة الصراع بين أهل الحق، وأهل الباطل. وبسبب خروجـه ε من مكة قصـرا، جعل الله له أعـوانا وجندا، وأنصارا يجاهدون في سبيل الله، فحقق على أيديهم النصر تلو النصر، وفتح م مكة التي أخرجته، ودخل الناس في دين الله

---

(١)- المصدر نفسه، ص١٨٩.

(٢)- الحميدي: التاريخ الإسلامي، ج٢، ص١٢.

(٣)- سالم نوري: فقه السيرة النبوية، ص١١١.

أفواجا؛ فكان لهم التمكين: (وَلَقَد كَتَبنا في الزبورِ من بعد الذكْرِ أن الْأَرض يرِثُها عبادي الصالحونَ) الأنبياء/١٠٥.

وكما أسلفنا سابقا، فقد تعرض الصحابة ψ في بداية الدعوة؛ للمساومة في دينهم، تحت ضغط التهديد. فهذا سعد بن أبي وقاص τ هدد من طرف أمه أقرب الناس إليه. وهدد خالد بن سعيد بن العاص τ من طرف أبيه بقطع الرزق بعدما أوذي في دينه وعذب[1].

وحتى الدعاة في عصرنا، لا يستغربون إذا ما تعرضوا في طريق دعو م إلى المساومة والتهديد، فهذا ما درج عليه الأنبياء في نِزالهم مع دعاة الباطل، فقد يكون التهديد بالسجن، أو الفصل من المنصب، أو تجميد الأموال، أو مصادرة الممتلكات، وحتى الحركات الإسلامية التي تتخذ من الإسلام منهجا كانت عرضة للابتزاز والتهديد؛ بل هناك دول وحكومات تقع تحت ضغط التهديد؛ بسبب مواقفها المخالفـة لإيديولوجيات القوى المعاديـة للإسلام والمسلمين، فإما أن تكون تابعة لها وإلا هددت بالمقاطعة الإقتصادية، أو العزلة السياسية.

ثالثا: أنموذجا آخر للحسم والثبات.

إن إصرار مشركي قريش على تمسكهم بكفرهم، وعنادهم الشديد في الصد عن الدعوة والإعراض عنها، ألجأهم إلى أن يبتكروا-مكرا ودهاء- وسائل جديدة بالغة التأثير في أبي طالب؛ ليرفع حمايته عن الرسول ε، فذكروه بشرف الآباء والأجداد وهو من المقتنعين به، وذكروه بقدسية الآلهة وهو ممن يعظمو ا، وهددوه بالحرب بينهم وبينه وهو من يكره ذلك، وتلطفوا معه وأثنوا عليه، فذكروا شرفه وم لته؛ ليستجيب لشكايتهم، عندها وقع أبوا طالب في دهشة من أمره؛ فإما أن يظهر العداوة لقومه، أو يسلم الرسول ε لهم ويخذله !!

وفي المقابل كان موقف الرسول ε صعبا ومحرجا، بين أن يوقع عمه الذي ناصره وحماه في هذا المأزق؛ وبين الأصعب والمستحيل الذي لا يتصور العقل حدوثه، كأن يتنازل عن دعوته، فيجنب ديدات الكفار لعمه، ويعظم أصنامهم، ويركن لميراث الآباء والأجداد!

ولما تعلق الأمر بالدعوة ومصيرها، كان قرار الرسول ε حازما وحاسما، فحين دعاه عمه للتنازل عن دعوته؛ ليبقي عليه وعلى نفسه، بين لعمه أن هذا مستحيل، كاستحالة إنزال الشمس والقمر، ووضعهما في يديه[2].

---

(١)- قد تعرضنا لهذا بشيء من التفصيل في مطلب: مواجهة الصحابة ψ للأذى والتعذيب .

(٢)- الحميدي: مصدر سابق، ج٢، ص (١٣ ، ١٤).

فهذا حال خصوم الدعوة وأعدائها، عملة واحدة دائما، يحاولون الصد عن سبيل الله؛ إما بصد الناس عن اتباع حملة الحق ودعاته؛ أو صد الدعاة عن تبليغ دعو م، ونشر دينهم بكل الوسائل؛ بالإغراء والإغواء، أو بالتشهير والتشويه، أو بالإيذاء والتهديد، وصدق رسول الله ε في الحديث الذي روته عائشة رضي الله عنها، لمعاوية: { من التمس رضاء الله بسخط الناس، كفاه الله مؤنة الناس، ومن التمس رضاء الناس بسخط الله، وكله الله إلى الناس }[1]. وأجاب الإمام الشافعي-رحمه الله- حين سئل: أيما أفضل للرجل؛ أن يمكن أو يبتلى؟ فقال: (لا يمكن حتى يبتلى)[2]. فجاء قرار الرسول ε تعبيرا عن صلابته بالتمسك بدينه، ودعوة الناس إليه مهما تكن الظروف والعقبات، حتى ولو تطلب الأمر تقديم نفسه فداء لدعوته، فكان قدوة للدعاة من بعده في الثبات على المبدأ، وعدم التنازل، الذي يستهدف تحوير العقيدة أو تشويهها[3].

إن الاستجابة لمطالب المدعوين ومقترحا م، باسم المرونة واليســر، لا تغير الأعراف والعادات الإسلامية فقط؛ بل تطال تحوير النظام الإسلامي برمته حتى يساير الأوضاع الشاذة. فماذا يقول الداعية أمام ما يقال:* أن الإسلام دين لا علاقة له بالدولة * أو * شعائر لا علاقة لها بالشرائع* أو * أخلاق لا علاقة لها بالسياسة *، إن الإسلام كل متكامل، عقيدة وشريعة، ودين ودولة؛ بل هو السعادة في الدنيا والآخرة لمن أرادها، وسعى لها سعيها. فهذه المقترحات إن لم تتعهد بالدراسة لأثارها البعيــدة؛ ستجعل من الدين نفسه ألعوبة لا منهج له، ولا تصــور رباني خاص به[4]، لذلك أرشد الله رسوله ε، بقوله: (فَلذَلك فَادع واستقم كَما أُمرت ولَا تتبع أَهواءهم وقُلْ آمنت بِما أَنزلَ الله من كتابٍ وأُمرت لأَعدلَ بينكُم الله ربنا وربكُم لَنا أَعمالُنا ولَكُم أَعمالُكُم لَا حجةَ بيننا وبينكُم الله يجمع بيننا وإِلَيه الْمصير) الشورى/١٥. إن الثبات على الدعوة والاعتصام بمبادئها، تمكين لأمة الإسلام، وانتصار لدعا ا، لقوله تعالى: (وإِن جندنا لَهم الْغالبونَ) الصافات/ ١٧٣.

المطلب الثالث: حقائق من منهجه ε للإبراز والمناقشة.

وأثناء بحثنا في ثنايا هذا الموضوع، ارتأينا أن نبرز حقائق من منهجه ε لصلتها بواقع الدعوة، من خلال مناقشة هذين الإشكالين:

---

(١)- الترمذي: ك. الزهد، باب: طلب رضاء الله تعالى ولو سخط الناس، رقم: ٢٤١٦، ص٣٤٨.

(٢)- جمعة أمين عبد العزيز : الدعوة قواعد وأصول، جمعة أمين عبد العزيز، دار الصديقية للنشر، حسين داي، ط٢، بدون تاريخ، ص٨٤.

(٣)- الحميدي: التاريخ الإسلامي، ج٢، ص١٤.

(٤)- جمعة أمين: مصدر سابق، ص ٨٤.

الإشكال الأول: هل موقف الرسول ε في رفضه عروض الملك والسيادة، يتنافى مع قبول سيدنا يوسف υ العمل مع ملك مصر؟

الجواب: ويمكن مناقشة هذه العلاقة من عدة جوانب أساسية وهي:

١- إن لكل نبي أو رسول شريعته الخاصة به، لقوله تعالى: (لِكُلٍّ جعلْنا منكُم شرعةً ومنهاجا) المائدة/٤٨. ومن هنا أجمع العلماء، على أن شرع من كان قبلنا من الأنبياء والرسل إذا خالف ما جاء في شريعة الإسلام فهو منسوخ ا، وأما ما جاء في الكتب السابقة ولم يخالف ما في شريعتنا فوقع فيه الخلاف. إلا أن الجمهور يرون: أنه ليس شرعا لنا إلا إذا جاء في سياق المدح والثناء، وقد نص على هذا العلماء منهم: الإمام النووي، والخطيب الشربيني، والإمام الغزالي، وابن قدامة وابن العربي. لقوله تعالى: (تلْك أُمةٌ قَد خلَت لَها ما كَسبت ولَكُم ما كَسبتم ولاَ تسأَلُونَ عما كَانوا يعملُونَ) البقرة/١٣٤. وهذا الفهم لا يتعارض مع قوله تعالى: (فَبِهداهم اقْتده) الأنعام/ ٩٠؛ لأنه خاص بأصول التوحيد ولا يراد به فروع الشرع[١].

٢- إن الرسول ε كان نبيا ورسولا، مكلفا بتبليغ الرسالة، بخلاف سيدنا يوسف υ فكان نبيا غير مكلف بالتبليغ، ومع هذا لم يعمل بشريعة ملك مصر، وقد بين القرآن هذا: (ما كَانَ ليأْخذَ أَخاه في دينِ الْملك إِلا أَن يشاء اللّه) يوسف/٧٦. وشريعة الإسلام كانت نظام حياة يجب العمل به، وما كان يراد من إغراءات المشركين وعروضهم؛ إلا التخلي عن العمل ا. ومن ثم فإن أي عمل مع الكافر، سواء كان في بلاد الإسلام أو خارجه واشتمل على مخالفة أحكام الشريعة، سيترتب عليه معصية عظيمة، على المسلم أن يتجنبها قدر الاستطاعة[٢].

٣- إن عمل يوسف υ كان في بلد الملك، ولم يكن في بلده، فلا يجوز القياس عليه فيما يتعلق بأحوال المسلمين في بلادهم، إنما يجوز القياس عليه والاستشهاد به على النحو الآتي:

هل يجوز للمسلم قبول الأعمال، وتولي الولايات العامة في البلدان غير المسلمة ؟ فعلى هذا النحو فقط، يمكن الاستئناس بقصة يوسف υ والقياس عليها[٣].

الإشكال الثاني: لماذا لم يقبل الرسول ε ما عرضته قريش من السيادة والملك، ويسخر ذلك في خدمة الدعوة، فينشر تعاليم الإسلام، ويطبق شرائعه ؟

الجواب: ويمكن مناقشة هذه الإشكالية من عدة جوانب أساسية وهي:

---

(١)- سالم نوري: فقه السيرة النبوية، ص (١٠٤ ، ١٠٥).

(٢)- المصدر نفسه، ص ١٠٥.

(٣)- المصدر نفسه، ص ١٠٥.

١- إن منهج النبي ε في بلوغ الغايات، منهج إلهي رباني، لا يحتمل الخطأ؛ لذلك كانت الدولة الإسلامية وسيلة لتطبيق مبادئ الإسلام وأحكامه، وليست هدفا في حد ذاته، وبما أن الغاية نبيلة ربانية سامية، فيجب أن تكون وسائلها نظيفة شريفة[١].

٢- ولا يمكن لهذا المنهج الرباني أن يكون عقليا وضعيا، يحتمل الخطأ والصواب؛ لأن الوقوع في الخطأ قد يسبب للدعوة نتائج وخيمة[٢]، فالإسلام لا يبرر الوسيلة لتحقيق الغاية، كما في المبدأ الميكيافيلي. فلا يمكن للرسول ε أن يقبل الملك أو السلطان، ويتخذ منه وسيلة للحكم بالحديد والنار؛ أو ينشر أفكاره بالقوة والإكراه، هذا لو سلمنا أن قريشا ترضى أن يستخدم الرسول ε ما تنازلت له من السيادة في خدمة دعوته، وتطبيق شريعته، وهذا أمر مستحيل!.

٣- لقد كان المنهج المتبع في المفاوضات، خاليا من أساليب الكذب، والمخادعة والتضليل، منهج لا يعرف المناورة، ويتماشى مع الفكرة التي جاء ا الإسلام، في سموها وارتفاعها، وقد سار الرسول ε وفق هذا المنهج في دعوته، حتى بلغ غايته في تأسيس دولة الإسلام[٣].

٤- ولعل من أسباب الرفض، أن الرسول ε في هذه المرحلة بالذات، لم ينته من إعداد الكوادر والقيادات التي تدير دواليب الدولة؛ إ ا القيادات المؤمنة التي أفنى الرسول ε حياته وجهده، لتربيتها على العقيدة، وتمتاز بالخيرية التي تأهلها للقيام برسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتكون مجتمع العقيدة الذي ينشده الإسلام، لقوله تعالى: (كُنتم خير أُمة أُخرجت للناسِ تأمرونَ بِالْمعروف وتنهونَ عنِ الْمنكرِ) آل عمران/ ١١٠. ويؤكد هذا المعنى، قوله تعالى: (ولْتكُن منكُم أُمةٌ يدعونَ إِلَى الْخيرِ ويأمرونَ بِالْمعروف وينهونَ عنِ الْمنكرِ وأُولَئك هم الْمفْلحونَ) آل عمران/ ١٠٤.

إن دولة الإسلام التي بنت أركا ا في المـدينة، في الحقيقة إنما أقيمت في مكة مصنع الرجـال، فبسواعدهم استطاعت دولة الإسلام، أن تحقق أهدافها المنشودة؛ برؤية ا تمع الصالح، الذي يجسد خلافة الله على الأرض، وهذا لا يمكن أن يتم، إلا بفضل الله وعـونه، ثم بفضل المؤمنين المخلصين لدينهم، ولدعو م.

المطلب الرابع: الـدروس والعـبر.

١- لقد كان الرسول ε صاحب رسالة حقيقية، فلم يكن دعيا ولا متوهما، ولو كان كذلك لكان صاحب دنيا، يبحث فيها عما يشبع نزواته، ورغباته من جاه، أو سلطان أو نساء. فهو يعطينا الآن

---

(١)- المصدر نفسه، ص ١٠٦.

(٢)- المصدر نفسه، ص ١٠٦.

(٣)- المصدر نفسه، ص ١٠٦.

دليلا واضحا على حقيقة نبوته وما بعث به، فكان في كل مرة يجابه العـروض المغرية بالرفض الشديد؛ ويظهر لنا ذلك من جوابه لعتبة بن ربيعة، حين قرأ عليه سورة فصلت والتي كشفت عن حقائق الربوبية والألوهية، وتناولت مسائل أساسية في الدعوة التي جاء ا[1].

٢- إن عتبة بن ربيعة، قد سخره الله للرد على بعض المستشرقين، أمثال: كريمر و فان فلوتن، الذين يدعون أن ما جاء به محمد ε غايته، الوصول إلى الملك والسيادة، وهاهو يرد إغراءات قريش؛ ليفند مقولتهم، ويؤكد في المقابل بأنه صاحب دعوة ورسالة، ومنهج رباني، جاء ليخرج به الناس، من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام[2].

٣- ومما يؤكد نبل رسالة الرسول ε وسمو هدفها، أنه عندما حقق النجاح في دعوته، صنع مجتمعا حقيقيا قائما على المبادئ الإسلامية، مما تمخض عنه قيام دولة الإسلام والتي كان على رأسها، رغم ذلك لم يتخذها وسيلة للتنعم في حياته، كما جـرت العادة لدى الرؤساء والملوك، - وكان بإمكانه ذلك- غير أنه آثر الحياة البسيطة عن رفاهية العيش، ونعومة الحياة، مربيا أصحابـه على الزهد، مؤثرين عيش الآخرة عن الفانية. ودليل ذلك، ما روي عن عائشة رضي الله عنها، قالت: ((لقد توفي النبي ε وما في رفي من شيء يأكله ذو كبد، إلا شطر شعير في رف لي، فأكلت منه حتى طال علي، فَكلْته فَفَنِي))[3] ، وعن أنس τ قال: ((لم يأكل النبي ε على خـوان حتى مات، وما أكل خبزا مرققا حتى مات))[4]. وكانت تمر على بيت النبي ε أوقات طويلة ولا توقد فيه نار لطعـام، مكتفيا بالماء والتمـر، ولم تكن له رياش ناعمة، وكان أثر الحصير يظهر على جنبه؛ وكان الصحابة يستشعرون ألمه ولكنه راض به. ولما طلبت نساؤه نفقة أوسع، حتى لا يظهرن أقل شأنا من غيرهن، أطرق النبي ε ولم يجب، حتى نزل قوله تعالى: (يا أيها النبِي قُل لأزواجِك إِن كُنتن تردنَ الْحياةَ الدنيا وزِينتها فَتعالَين أُمتعكُن وأُسرحكُن سراحا جميلًا، وإِن كُنتن تردنَ الله ورسولَه والدار الْآخرةَ فَإِن الله أَعد للْمحسِنات منكُن أَجرا عظيما) الأحزاب (٢٨ ، ٢٩)، فتلا النبي ε عليهن هذه الآيات، وخيرهن في أمرهن، فاخترن العيش معه على ما هو عليه[5].

٤- وما يجب أن نشير إليه في هذا الموضوع، التفريق بين سعيه ε لإقامة دولة الإسلام، وبين قولنا: إنه لم يكن يطلب السيادة والملك، فالنبي ε سعى جاهدا لإقامة الدولة؛ ليرى ضمنها الحياة

---

(١)- المصدر نفسه، ص١٠٣.

(٢)- المصدر نفسه، ص١٠٣.

(٣)- البخاري: كتاب الرقاق، باب: فضل الفقر، رقم: ٦٤٥١، ص١٢٣٨.

(٤)- البخاري: كتاب الرقاق، باب: فضل الفقر، رقم: ٦٤٥٠، ص١٢٣٨.

(٥)- البوطي: فقه السيرة، ص ١١٤.

الإسلامية، في إطار تطبيق أحكام الشريعة، دون النظر إلى أهمية أن يكون هو الرئيس، أو الأجدر بأن يمسك زمام الحكم قبل غيره، وهذا لا يضعف من قولنا: من أنه ε لم يكن يطلب ملكا، أو جاها، أو سلطانا[١].

٥- إن قول الرسول ε: { الحرب خدعة }[٢]، فذلك محصور في ساحات الحرب، حيث يتعرض المقاتلون إلى خطـر الموت، ومستقبل الدعـوة إلى الأذى، فأجيزت المخادعة هنا للضرورة بخلاف المعارك السياسية، أو الإعلامية، أو الإقتصادية، والتي تـدار عبر المفاوضات، أو الحوارات، فمنهج الإسـلام؛ أن يتحرى المسلم الصدق، وعلى هذا الأساس يكون التفريق بين الحكمة والمخادعة؛ فالحكمة وضع الأشياء في نصا ا الصحيح، وهذا ما انتهجه الرسول ε في دعوته، أما المخادعة فتعني الكذب والتضليل؛ لتحقيق الأهداف. إن الرسول ε لم يخدع أحدا من خصومه ولم ينخدع له، وعبر عن هذا المعنى، سيدنا عمر بن الخطاب τ بقوله: ((لست بالخب، ولا الخب يخدعني))، إذن فنجاح الدعوة أن يلتزم الدعاة جانب الصدق في عملهم الدعـوي[٣].

٦- إن الرسول ε لم يتخذ ذريعة* تغليب المصلحـة * في الرد على مفاوضيه، وفي مناقشة عروضهم، ولو كان كذلك لظهـر له، أنه من المصلحة قبول عـروض قريش؛ خدمة للدعوة ونجاة لأصحابه من ويلات التعذيب؛ لكن سيترتب على هذا مفسدة كبيرة، تؤدي إلى مهادنة أهل الشرك، ومداهنة أهل الكفر. فالمصالح في نظر الشرع ليست احتمالية ولا تقديرية؛ بل شرعية صريحة، وللوصول إليها يجب اتباع المناهج الشـرعية، فجميع الأفكار والسياسات، والمصالح والغايات، والوسائل والأساليب، لا بد أن توزن بميزان الشرع؛ تحقيقا للنجاح ولو بعد حين[٤].

٧- فيما يتعلق بالمفاوضات، فقد التزم النبي ε، في حواره مع خصومه، بالقواعد الآتية:

١- الإصغاء إلى المحاور حتى يفرغ من كلامه، دون مقاطعة[٥].

٢- عدم الدخول في معركة جانبية، حول أفضليته على أبيه وجده، ولو فعل ذلك لما أمكنه أن يسمع عتبة شيئا مما يريد[٦]؛ بغرض هدايته، كما أن عتبة كان يريد إضلاله[٧].

---

(١)- سالم نوري: فقه السيرة النبوية، ص ١٠٤.

(٢)- البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب: الحرب خدعة، رقم: ٣٠٣٠، ص٥٧٩. وأخرجه مسلم: ١٧٣٩.

(٣)- سالم نوري: مصدر سابق، ص (١٠٦ ، ١٠٧).

(٤)- المصدر نفسه، ص١٠٧.

(٥)- المصدر نفسه، ص١٠٧.

(٦)- الصلابي: السيرة النبوية، ج١، ص٢٨٧.

(٧)- الحميدي: التاريخ الإسلامي، ج١، ص١٥٦.

٣- لم يدخل في معركة جانبية، حول ما عرض عليه من مغريات، واتصف بالحلم، فلم يغضب من الا امات الموجهة إليه، مفضلا الوصول إلى الهدف الأبعد؛ وهو أن يدخل عتبة الإسلام[١].

٤- وجوابه ε على محاوره بلغ القمة في الأدب، فأظهر احترامه للآخر، بغض النظر عما يمثله من أفكار مخالفة، وكان من أدبه الجم، أن قال: { أفرغت يا أبا لوليد؟ }، فقال: نعم[٢].

٥- ولما كان الخصم كافرا، وليس ثمة نقاطا مشتركة تجمعه مع الرسول ε، كان الجواب واضحا وصريحا، وحاسما دون مساومة ولا مداهنة، وكانت المفاصلة واضحة وصريحة[٣].

٦- ومما يدل على أن جواب الرسول ε كان حاسما، وحكيما في آن واحد؛ اختياره للآيات الكريمة، والتي تناولت قضايا رئيسية أهمها: بأن القـرآن ت يل من الله، وبيان موقف الكافرين وإعراضهم، وبيان مهمة الرسولε وبشريته، وأن الله واحد، وهو خالق السماوات والأرض، وبيان تكذيب الأمم السابقة وما أصا ا، وإنذار قريش بصاعقة مثل صاعقة عاد وثمود[٤].

٧- إن تأثر عتبة بن ربيعة من موقف النبي ε كان واضحا، لدرجة أن أصحابه أقسموا على ذلك قبل أن يخبرهم، فأكدوا على أنه جاء بغير الوجه الذي ذهب به، وبعدما كان يدعو للقضاء على الدعوة، صار يدعو قريشا بأن يتركوا محمدا ε وما جاء به[٥].

٨- تعلم الصحابة ψ من الرسول ε درسا تربويا، وهو الثبات على المبدأ، والتمسك بالعقيدة رغم المغريات، وفي هذا درس للدعاة بأن يضعوا مغريات الدنيا جانبا، ويتمسكوا بمبادئ الدعوة ولا يتنازلون عنها[٦].

٩- ويعلمنا الرسول ε صفة الحلم ورحابة الصدر، فكان عتبة بن ربيعة في بداية حديثه، يوجه السباب للرسول ε كقوله عنه: * إن في قريش ساحرا، أو كاهنا * ، * ما رأينا سخلة أشأم على قومك منك *؛ إلا أن الرسول ε أعرض عن هذا وغض الطرف عنه؛ بل أجابه بأدب جم، قائلا: { أفرغت يا أبا الوليد؟ }، فقال: نعم[٧].

---

(١)- الصلابي: مصدر سابق، ج١، ص٢٨٧.

(٢)- سالم نوري: فقه السيرة النبوية: ص ١٠٧.

(٣)- المصدر نفسه، ص ١٠٧.

(٤)- الصلابي: السيرة النبوية، ج١، ص٢٨٧.

(٥)- المصدر نفسه، ج١، ص٢٨٨.

(٦)- المصدر نفسه، ج١ ،ص٢٨٨.

(٧)- المصدر نفسه، ج١، ص٢٨٨.

٨- كان بإمكان النبي ε أن يثني على آباءه وأجداده، بما فيهم من صفات الخير دون أن يفضلهم على نفسه، لكن هذا يتيح الفرصة لإلزامه على اتباع دينهم، فاستبعد النبي ε هذا الأمر؛ سدا للذريعة، وامتناعه عن الإجابة، ليس اعترافا بالعجز كما قد يظن البعض؛ وإنما يعني أن السؤال لا يستحق الإجابة[١].

٩- إن التوجيه الحكيم للدعاة، الذين يبتلون بالحوار مع الكفار، ومع أشباههم ممن ينتسبون إلى الإسلام، والذين يحاربون دعوته ودعاته؛ أن يتجاوزوا في إجابا م على بعض الأمور الجانبية التي تؤثر على حوارهم معهم، وعلى مستقبل دعو م، بما تقتضيه الحكمة، ويتطلبه الموقف[٢].

١٠- ودرس آخر للدعاة، بأن لا يشغلوا أنفسهم بأحاديث المفاضلة بين قادة الدعوة، وما يخوضه بعض قصار النظر، حول تتبع أخطاء الدعاة، وتشويه سمعتهم، مما يتسبب في توسيع دائرة الخلاف بين القادة، وينعكس سلبا على الأتباع، فيصرف الأمر عن القضايا الأساسية التي ينبغي أن ينشغل ا الدعاة، والتي تعود بالفائدة على الأمة[٣].

١١- انطلاقا من أن عتبة بن ربيعة، قد واجهه النبي ε بالصمت، فيعد هذا هزيمة له أمام الملأ من قريش، ونصرا للرسول ε، وكان الجواب بتلاوة آيات من القرآن الكريم، الأثر الحاسم في إ اء الحوار لصالح الإسلام، ولما كان عتبة بن ربيعة يتصف بالحلم والحكمة، كان الرسول ε يأمل في دخوله إلى الإسلام. وكان الرسول ε مثالا؛ للقدرة الفائقة في التأثير على السامعين، فكان يتلو الآيات، بكل مشاعره وأحاسيسه، وهو يستحضر عظمة الله. فالدعـاة إذا ما أرادوا التأثـير على السامعين، عليهم أن يحسنوا اختيار النصوص تماشيا مع الحال، ويتخذون من الرسول ε قدوة في عرضها؛ بقلوب خاشعة، وبألسنة بليغة[٤].

١٢- إن سورة * الكافرون *، قد بينت بأن طريق الحق واحد، لا عوج فيه، إنه طريق العبادة الخالصة لله وحده. وقد نزلت السورة معلنة؛ المفاصلة الحاسمة، بين عبادة وعبادة، ومنهج ومنهج، وأكدت توكيدا جازما، بأنه لا لقاء بين الحق والباطل، ولا اجتماع بين النور والظلام؛ وجاءت ردا حاسما على زعماء المشركين؛ بأن لا مساومة، ولا مشا ة، ولا حلول وسط، فالجاهلية جاهلية، والإسلام إسلام في كل زمان ومكان؛ فالفرق شاسع، والبون كبير.

---

(١)- الحميدي: التاريخ الإسلامي، ج١، ص١٥٧.

(٢)- المصدر نفسه، ج١، ص١٥٧.

(٣)- المصدر نفسه، ج١، ص١٥٧.

(٤)- المصدر نفسه، ج١، ص (١٥٨ ، ١٥٩).

وقد أكدت آية أخرى، ما جاء في سورة * الكافرون * من إعلان البراء من الكفر وأهله، في قوله تعالى: (وإن كَذبوك فَقُل لي عملي ولَكُم عملُكُم أنتم بريئُونَ مما أعملُ وأناْ برِيءٌ مما تعملُونَ) يونس/٤١[1].

١٣- قد يسخر الله من يرد على أعداء الدعوة، أناسا منصفين من بني جلد م، يظهرون الحق ويدافعون عنه. فلما أظهر المستشرقون فريتهم على الرسول ε، زاعمين أنه قام بدعوته ابتغاء الشهرة، والجاه والسلطان، تصد لهم * كارليل * ورد فريتهم وزعمهم، ووصفهم بأ م الكاذبون، فأضاف قائلا: " أي فائدة لهذا الرجل في جميع بلاد العرب، وفي تاج كسرى، وفي صولجان قيصر، وفي جميع ما في الأرض من تيجان وصولجانات؟! أم في مشيخة مكة؟ أم في ملك كسرى منجاة ومضفرة؟! كلا.." ثم يضيف قائلا: ".. قلت: لقد عرضوا عليه المال والملك، فأبى وقال، قولته المشهورة: { والله يا عم، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر، ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه }[2].

١٤- وكانت قولة الرسول ε المشهورة والتي رد ا على سادة قريش، دليلا على صدقه في دعوته، وحرصه الشديد على هداية الناس. فالداعية بإمكانه أن يستفيد من هذا الموقف، ويجعل منه قدوة له في دعوته، فيصمم على الاستمرار فيها، مهما كاد له المبطلون، ويصبح كل ما يواجهه من متاعب في سبيل الحق، يهون أمام ما يشعر به من راحة ضمير، وطمأنينة قلب، فما ينتظره من رضا الله تعالى وجنته، أفضل وأعز من مناصب الدنيا؛ وجاهها وأموالها[3].

١٥- كانت دموع النبي ε الغالية تعبيرا منه على خطورة الموقف، وصعوبة الخيار بين الأمرين؛ فالإيقاع بعمه في الحرج أمام قومه أهون عليه بكثير من التنازل عن دعوته، فلا مقارنة بين الأمرين: فأحدهما صعب، والآخر مستحيل، وكان الاستعبار تعبيرا عن الأسى، والأسف لصاحب المعروف[4].

١٦- لقد أحبط الرسول ε مناورة قريش، بعرضها للإغراء والتهديد، مقابل التخلي عن العقيدة، فقد علمنا الرسول ε بأن القضية هي قضية حكم الإسلام، قبل أن تكون قضية حكم المسلمين، فلا حكم لذواتنا وأشخاصنا، ولا حكم للجاه والسلطة والنفوذ؛ إنما الحكم لهذا الدين، وأن يكون هذا الدين كله لله، لقوله تعالى: (وقَاتلُوهم حتى لاَ تكُونَ فتنةٌ ويكُونَ الدين كُله للّه) الأنفال/٣٩.

---

(١)- الصلابي: مصدر سابق، ج١، ص٢٩٠.

(٢)- أحمد محمد جمال: مفتريات على الإسلام، مكتبة رحاب- الجزائر، ط٥، (١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م)، ص٢٣٠. ابن هشام: السيرة النبوية، ج١، ص١٨٦.

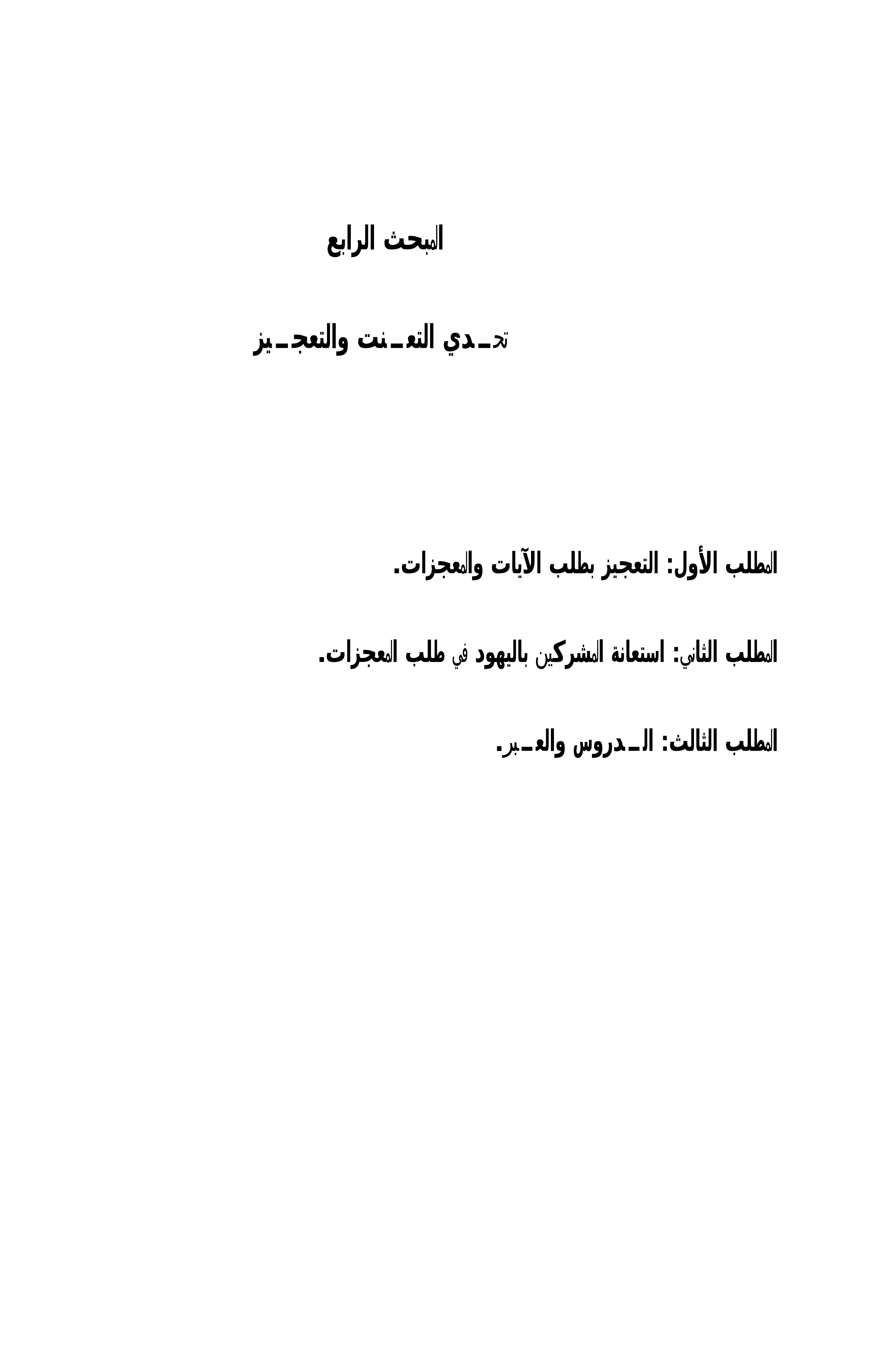
(٣)- السباعي: السيرة النبوية، ص (٥٦ ، ٥٧).

(٤)- الحميدي: التاريخ الإسلامي، ج٢، ص (١٤ ، ١٥).

وهكذا فشلت أضخم المفاوضات، والتي حشد لها أضخم الإمكانات، ورفض الرسول ε كل الحلول المطروحة؛ لإعادة الائتلاف الوطني في مكة، وبين أن الائتلاف على حساب العقيدة مرفوض، وعلى حساب الإسلام مرفوض، ووحدة تحت راية غير الراية الإسلامية مرفوضة أيضا، ويبقى علينا أن نصبر حتى يحكم الله بيننا وبين عدونا وهو أحكم الحاكمين[1].

---

(1)- منير الغضبان: المنهج الحركي للسيرة النبوية، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع- ج م ع- المنصورة، ط15، (1427هـ/ 2006م)، ص (78 ، 79).



المبحث الرابع

تحـدي التعـنت والتعجـيز

المطلب الأول: التعجيز بطلب الآيات والمعجزات.

المطلب الثاني: استعانة المشركين باليهود في طلب المعجزات.

المطلب الثالث: الـدروس والعـبر.

المبحث الرابع

تحـدي التعـنت والتعجـيز

تمهـيد.

إن ما عرض على الرسول ε من الإغراءات الدنيوية، " ليسيل لها لعاب ذوي الأطماع المادية، والمصالح الشخصية، وعروض تركع أمامها النفوس الشرهة في طلب الدنيا؛ لنيل نواصي الحياة "[1]، إلا أن النبي ε قد جابه هذا السيل من المعروضات، بإجابة صريحة، وببيان بلغ القمة في الوضوح؛ مما جعل أعناق سادة قريش مشرئبة، تتلهف الإجابة بشوق، حتى نزلت إجابته ε عليهم حاسمة قاطعة: { ما بي ما تقولون، ما جئتكم بما جئتكم به، أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم؛ ولكن الله بعثني إليكم رسولا، وأنزل علي كتابا، وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا، فبلغتكم رسالة ربي، ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به، فهو حظكم من الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم }[2]، فكانت كلمة نابعة، من صفاء نفسه، ونقاء دعوته، فأفحمت كل ناعق ومفتر، من خصوم الإسلام من المستشرقين في كل عصر، وفندت ادعاءهم؛ من أن ما جاء به ε غايته الحصول على متع الدنيا وشهوا ا، كما كانت كلمته إعلانا رسميا بفشل أسلوب الإغراءات.

إلا أن دعاة الباطل درجت عاد م، بأن لا يستسلموا بسهولة أمام دعاة الحق، فكلما أخفقت لهم وسيلة في محاربة دعوة الحق؛ إلا وابتكروا وسيلة أخرى؛ للمصارعة وال ال. وهكذا يستمر الصراع حتى ينتصر الحق انتصاره النهائي، ويلفظ الباطل أنفاسه الأخيرة. واندفع المشركون يطلبون من النبي ε، أن يريهم الآيات والمعجزات؛ تعنتا وعنادا، لا رغبة في الهدى والرشاد[3]، لقوله تعالى: (وَأَقْسموأْ بِاللّه جهد أَيمانِهِم لَئن جاءتهم آيةٌ ليؤمنن بِها قُلْ إنما الآيات عند اللّه وما يشعركُم أَنها إِذَا جاءت

---

(1)- نعمان المكي: السيرة النبوية- محمد ε - مطبعة دحلب، حسين داي- الجزائر، بدون طبعة وبدون تاريخ، الجزء الأول، ج١، ص ٤٣.

(2)- ابن كثير: البداية والنهاية، ج٣، ص١٠٠.

(3)- محمود المصري: سيرة الرسول ε، ص ١٠٤.

لاَ يؤمنونَ) الأنعام/١٠٩. وقد طلبت قريش من الرسول ε، أن يخرق عليهم نظام الكون؛ بهدف إفحامه، والقضاء على دعوته.

المطلب الأول: التعجيز بطلب الآيات والمعجزات.

لقد انهال المشركون على الرسول ε بوابل من الأسئلة التعجيزية والعنادية، والتي تدل على سفاهتهم وجهلهم بالحقائق، وهذه الأسئلة إنما أريد بها قلب الحقائق، وخرق القوانين الطبيعية، والسنن الكونية، التي طبع الله بها كونه[1]، وجاءت تدل بوضوح على مدى عجز المشركين، وفشلهم الذريع، في محاربة دعوة الرسول ε، وهذه المطالب هي:

١- أن يفجر لهم من الأرض ينبوعا: أي يجري لهم الماء، عيونا جارية[2]، ويفجر فيها أنهارا كأنهار الشام والعراق[3].

٢- أو تكون له جنة من نخيل وأعناب، يتفجر الأنهار خلالها تفجيرا.

٣- أو يسقط السماء كسفا: أي قطعا كما سيكون يوم القيامة.

٤- أو يأتي بالله والملائكة قبيلا.

٥- أو يكون له بيت من زخرف: أي من ذهب.

٦- أو يرقى في السماء: أي يتخذ سلما فيصعد عليه في السماء.

٧- أو ينزل من السماء كتابا نقرؤه، أي مكتوب فيه إلى كل واحد صحيفة، هذا كتاب من الله لفلان ابن فلان، تصبح موضوعة عند رأسه[4].

٨- أو أن يدعو لهم فَيسير لهم الجبال التي ضيقَت عليهم، ويبسط لهم البلاد.

٩- ويبعث لهم من مضى من آبائهم من الموتى، وليكن قصي بن كـلاب، فإنه كان - حسب زعمهم- شيخ صدق، ليسألوه: أحق أم باطل ما جاء به[5].

*** الـرد:**

ورغم حرص النبي ε على إيمان قومه، إلا أن تربيته النبوية، وأدبه الرباني، جعله يرفض طلب هذه المعجزات، فكانت إجابته ε: { ما بهذا بعثت إليكم، إنما جئتكم من الله بما بعثني به، وقد بلغتكم ما

---

(١)- نعمان المكي: السيرة النبوية، ج١، ص ٤٣.

(٢)- الصلابي: السيرة النبوية، ج١، ص٢٩٥.

(٣)- الحميدي: التاريخ الإسلامي، ج١، ص١٦٢.

(٤)- الصلابي: مرجع سابق، ج١، ص٢٩٥.

(٥)- الحميدي: مرجع سابق، ج١، ص١٦٢.

أرسلت به إليكم، فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي، أصبر لأمر الله تعالى حتى يحكم الله بيني وبينكم }[1].

لقد تولى القرآن الرد على تعنت المشركين، ولم يفسح للرسول ε بالرد؛ لأن هذا يعد عين المهاطرة، ولما صارت المعركة شرسة، كان رد الله تعالى واضحا وحاسما، في قوله عز وجل: (وَقَالُواْ لَن نؤمن لَك حتى تفْجر لَنا من الأَرضِ ينبوعا، أَو تكُونَ لَك جنةٌ من نخيلٍ وعنبٍ فَتفَجر الأَنهار خلالَها تفْجِيرا، أَو تسقطَ السماء كَما زعمت علَينا كسفًا أَو تأْتي بِاللّه والْملآئكَة قَبِيلاً، أَو يكُونَ لَك بيت من زخرف أَو ترقَى في السماء ولَن نؤمن لرقيك حتى تنزلَ علَينا كتابا نقْرؤه قُلْ سبحانَ ربي هلْ كُنت إَلا بشرا رسولاً، وما منع الناس أَن يؤمنواْ إِذْ جاءهم الْهدى إِلا أَن قَالُواْ أَبعثَ اللّه بشرا رسولاً، قُل لو كَانَ في الأَرضِ ملآئكَةٌ يمشونَ مطْمئنين لَنزلْنا علَيهم من السماء ملَكًا رسولاً، قُلْ كَفَى بِاللّه شهيدا بينِي وبينكُم إِنه كَانَ بِعباده خبِيرا بصيرا) الإسراء (٩٠ ، ٩٦).

كما ذكر الله تعالى تعنتات المشركين والرد عليها، في قوله تعالى: (ولَو أَن قُرآنا سيرت بِه الْجِبالُ أَو قُطعت بِه الأَرض أَو كُلم بِه الْموتى بل للّه الأَمر جميعا أَفَلَم ييأَسِ الذين آمنواْ أَن لو يشاء اللّه لَهدى الناس جميعا ولاَ يزالُ الذين كَفَرواْ تصيبهم بِما صنعواْ قَارِعةٌ أَو تحل قَرِيبا من دارِهم حتى يأْتي وعد اللّه إِن اللّه لاَ يخلف الْميعاد) الرعد/ ٣١.

كما رد الله تعالى أيضا على بعض المطالب التعجيزية لقريش، في قوله تعالى: (ولَو نزلْنا علَيك كتابا في قرطَاسٍ فَلَمسوه بِأَيديهم لَقَالَ الذين كَفَرواْ إِنْ هذَا إِلا سحر مبِين، وقَالُواْ لَولا أُنزِلَ علَيه ملَك ولَو أَنزلْنا ملَكًا لَّقُضي الأَمر ثُم لاَ ينظَرونَ، ولَو جعلْناه ملَكًا لجعلْناه رجلاً ولَلَبسنا علَيهم ما يلْبِسونَ، ولَقَد استهزِىءَ بِرسلٍ من قَبلك فَحاق بِالذين سخرواْ منهم ما كَانواْ بِه يستهزِؤونَ، قُلْ سيرواْ في الأَرضِ ثُم انظُرواْ كَيف كَانَ عاقبةُ الْمكَذِّبِين)الأنعام (٠٧ ، ١١).

أولا: قوة العناد تطلب المزيد من المعجزات.

إن المشركين لم تفتر عزيمتهم، رغم ما أصا م من الفشل الذريع في استمالة الرسول ε إليهم، " ومحاولة إفحامه، وإظهاره بمظهر العاجز عن تحقيق مطالبهم"[2]؛ بل راح يدفعهم عنادهم إلى طلب المزيد من المعجزات، " فقالوا: فإذا لم تفعل هذا لنا فخذ لنفسك، فسل ربك أن يبعث معك ملكا يصدقك بما تقول، ويراجعنا عنك، وسله فليجعل لك جنانا وقصورا، وكنوزا من ذهب وفضة يغنيك

---

(١)- المصدر نفسه، ج١، ص١٦٢.

(٢)- المصدر نفسه، ج١، ص١٧٦.

ا عما نراك تبتغي، فإنك تقوم في الأسواق كما نقوم، وتلتمس المعاش كما نلتمسه، حتى نعرف فضلك وم لتك من ربك، إن كنت رسولا كما تزعم "[١].

*** الـرد:**

فكان جواب رسول الله ε، حيث قال لهم: { ما أنا بفاعل، وما أنا بالذي يسأل ربه هذا، وما بعثت إليكم ذا، ولكن بعثني بشيرا ونذيرا- أو كما قال- فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه أصبر حتى يحكم الله بيني وبينكم }[٢].

وزادوا في عنادهم وتعجيزهم، " فقالوا: يا محمد، أفما علم ربك أنا سنجلس معك، ونسألك عما سألناك عنه، ونطلب منك ما نطلب، فيتقدم إليك فيعلمك ما تراجعنا به، ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنا، إذا لم نقبل منك ما جئتنا به! "[٣]. ثم ادعوا أن الرسول ε إنما يعلمه رجل باليمامة اسمه الرحمن، فقالوا: وإنا والله لا نؤمن بالرحمن أبدا. ولا نتركك وما بلغت منا حتى لكك أو لكنا. ثم قال قائلهم: نحن نعبد الملائكة وهي بنات الله. وقال قائلهم: لن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلا.

" فلما قالوا ذلك لرسول الله ε قام عنهم. وقام معه عبد الله بن أمية بن المغيرة وهو ابن عمته- فهو لعاتكة بنت عبد المطلب- فقال له: عـرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم، ثم سألوك لأنفسهم أمورا ليعرفوا م لتك عند الله كما تقول، ويصدقوك ويتبعوك، فلم تفعل، ثم سألوك أن تعجل لهم بعض ما تخوفهم به من العذاب فلم تفعل. فوالله لا أومن بك أبدا حتى تتخذ إلى السماء سلما، ثم ترقى فيها وأنا أنظر إليك حتى تأتيها، ثم تأتي معك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول، وأيم الله لو فعلت هذا ما ظننت أني أصدقك، ثم انصرف عن رسول الله ε، وانصرف رسول الله ε؛ حزينا آسفا لما فاته، مما كان يطمع به من قومه حين دعوه، ولما رأى من مباعد م إياه "[٤].

*** الـرد:**

وقد جاء الرد من الله تعالى، يؤكد عما كشف عنه عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة، من أن الرسول ε حتى ولو استجاب لطلب المعجزات، وأراه إياها، ما كان يظن أنه سيصدقه، قال الله تعالى: (ولَو

---

(١)– الغضبان: فقه السيرة النبوية، ص١١٧.

(٢)- ابن هشام: السيرة النبوية، ج١، ص٢٠٨.

(٣)– الغضبان: مصدر سابق، ص١١٧.

(٤)– المصدر نفسه، ص (١١٧ ، ١١٨).

أننا نزلْنا إِلَيهم الْملآئكَةَ وكَلمهم الْموتى وحشرنا علَيهم كُلَّ شيءٍ قُبلاً ما كَانواْ ليؤمنواْ إِلا أَن يشاء اللّه ولَكن أَكْثَرهم يجهلُونَ) الأنعام/ ١١١.

ثانيا: قريش تطلب أن يجعل الصفا ذهبا.

ولم تتوقف قريش عن طلب المزيد من المعجزات، فراحت تسأل الرسول ε أن يحول لهم الصفا ذهبا؛ مزيدا في التعنت والعناد.

فعن ابن عباس-رضي الله عنهما- قال: قالت قـريش للنـبي ε أدع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهبا ونؤمن بك، قال: { وتفعلون؟ } قالوا: نعم، قال: فدعا، فأتاه جبريل، فقال: إن ربك عز وجل يقرأ عليك السلام، ويقول: إن شئت أصبح لهم الصفا ذهبا، فمن كفر بعد ذلك منهم عذبته عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين، وإن شئت فتحت لهم أبواب التوبة والرحمة. فقال: بل باب التوبة والرحمة. فأنزل الله تعالى: (وما منعنا أَن نرسلَ بِالآيات إِلا أَن كَذَّب بِها الأَولُونَ وآتينا ثَمود الناقَةَ مبصرةً فَظَلَمواْ بِها وما نرسلُ بِالآيات إِلا تخوِيفًا) الإسراء/٥٩[1].

ثالثا: معجزة انشقاق القمر.

وقد سألوا الرسول ε أيضا، أن يريهم آية، فأراهم آية انشقاق القمر[2]. فعن أنس بن مالك τ قال: سأل أهل مكة أن يريهم آية، فأراهم انشقاق القمر[3].

وعن عبد الله بن مسعود τ قال: انشق القمر على عهد رسول الله ε فرقتين: فرقة فوق الجبل، وفرقة دونه، فقال رسول الله ε: { اشهدوا }[4].

وهكذا طبيعة الكفر قد جبلت على العناد دائما، فكان بإمكا م أن يكتفوا بمعجزة القرآن الكريم، الذي تحداهم في مواضع عديدة أن يأتوا بمثله، فثبت العجز للمشركين، والإعجاز للقرآن الكريم، فكان بإمكا م أن يؤمنوا بالله الواحد الأحد، وهاهو النبي ε يريهم آية تبصرها أعينهم ا ردة؛ إلا أن عنادهم في كل مرة يحجب بصير م على الإيمان والتصديق.

المطلب الثاني: استعانة مشركي مكة باليهود في طلب المعجزات.

كان لليهود دورا كبيرا في محاولة إطفاء نور الله، والقضاء على دعوة الإسلام، وعلى حياة الرسول ε نفسه؛ لذلك كان التقارب بين مشركي قريش ومع اليهود، ينسجم مع أهدافهم؛ للقضاء على

---

(١)- ابرهيم العلى: صحيح السيرة النبوية، دار النفائس للنشر والتوزيع- الأردن، ط٧، (١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م)، ص٨٩.

(٢)- المصدر نفسه، ص٨٩.

(٣)- البخاري: كتاب التفسير، باب: (وانشق الْقَمر، وإِن يروا آيةً يعرِضوا) القمر (٠١ ، ٠٢). رقم: ٤٨٦٧، ص٩٥٦. ومسلم في باب: صفات المنافقين، رقم: ٢٨٠٢.

(٤)- البخاري: كتاب التفسير، باب: (وانشق الْقَمر، وإِن يروا آيةً يعرِضوا) القمر (٠١ ، ٠٢). رقم: ٤٨٦٤،ب ومسلم: ٢٨٠٠.

دعوة الإسلام، فقام اليهود بتزويد الوفد المكي ببعض الأسئلة محاولة منهم لتعجيز النبي ε وإبطال دعوته.

وكانت قريش، قد بعثت النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة، ووصفا لهم أمره، وبعض قوله، فقالوا: سلوه عن ثلاث نأمركم ن، فإن أخبركم ن فهو نبي مرسل، وإن لم يفعل فالرجل متقول، فقرروا فيه رأيكم، سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم؟ وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغار ا، ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الروح، ما هي؟ فسألوا الرسول ε عما أمرهم اليهود به. فقال لهم: سأخبركم غدا بما سألتم عنه، ولم يستثن[1]، فانصرفوا عنه، فمكث رسول الله ε خمس عشرة ليلة لا يأتيه الوحي، حتى أرجف أهل مكة، وقالوا: وعدنا محمد غدا واليوم خمس عشرة قد أصبحنا فيها لا يخبرنا بشيء مما سألناه عنه، فحزن رسول الله ε مكث الوحي عنه، وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة، ثم جاءه جبريل υ من الله عز وجل، بسورة أصحاب الكهف فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم، في قوله تعالى: (وما نتنزلُ إلا بِأمرِ ربك لَه ما بين أَيدينا وما خلْفَنا وما بين ذَلك وما كَانَ ربك نسِيا) مريم/٦٤، وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية، والرجل الطواف، والروح[2].

وهكذا أشارت سورة الكهف إلى الإجابة عن هذه الأسئلة، كما أشارت إلى أن كهفا من عناية الله سوف يأوي المستضعفين من المسلمين من أصحاب رسول الله ε، كما آوى الكهف الفتية المؤمنين الفارين بدينهم، وهروبا من الفتنة في دينهم[3].

المطلب الثالث: الـدروس والعـبر.

١- ما تعـرض له النـبي ε من مطالب تعجيزية، قد يتعرض له الدعاة في كل عصر ومصر من طرف قيادات خصوم الدعوة، فنجد مثلا قيادات الفكر المادي العلماني، أو الفكر الشيوعي يرفضون فكرة الإيمان باليوم الآخر؛ بدعوى عدم مشاهد م حياة بعد الموت، ويرفضون فكرة الإيمان بالله؛ لأ م لا يرونه، كما يرفضون فكرة الإسلام كله؛ لأنه غيبي لا يخضع للتجربة، كما يرفضون فكرة الدين كله؛ لأنه مخدر للشعوب، ويدرسون تاريخ العالم كله، على أن الدين مرتبط بالظلم البشري، فلن يحرر واقعهم، ولن يحقق لهم سعاد م؛ لكونه يحرم شهوا م بلا مقابل. هذه المفاهيم العقائدية التي تطرح من طرف أصحاب الفكر المادي العلماني في وجه الدعاة إلى الله، يجب أن لا تثني من عزائمهم

---

(١)- ولم يستثن: أي لم يقل إن شاء الله.

(٢)- ابن هشام: السيرة النبوية، ج١، ص (٢١٠ ، ٢١٦).

(٣)- الصلابي: السيرة النبوية، ج١، ص (٢٩٨ ، ٣٠٥).

في الصبر على المناظرة، والاستمرار في الحوار، والتركيز على أن القضية التي هي محور الافتراق بين الفريقين، هي قضية إيمان وكفر[1].

٢- إن أعداء الدعوة عندما ينجلي الحق واضحا أمام أعينهم، يدفعهم عنادهم إلى سلوك طريق آخر؛ للهروب من الحق، فلا يتورعون في تشويه الدعاة، وإلصاق التهم الكاذبة م، من أ م يتلقون أفكارهم من أعدائهم، وهذا ما ا م به الملأ من قريش رسول الله ε، فقد قالوا: ولقد علمنا أن الذي يعلمك هذا، رجل باليمامة اسمه الرحمان، والله لا نؤمن بالرحمان أبدا، وهم يعلمون مدى كذ م في هذا الإدعاء؛ لأن الرسول ε يرونه دائما بين أيديهم، ليل ار، ويعرفون مدخله ومخرجه[2].

٣- إن الأعداء أيضا، حينما يوجهون التهم للدعاة بالعمالة، أو التبعية الفكرية لغيرهم، هم في الحقيقة أعلم الناس بكذب ادعائهم ودعواهم، فنراهم يتخذون من هذه التهم ذريعة لإعلان الحرب على الدعاة، كما أعلنت الحرب على الرسول ε حسب قولهم:* والله لنقاتلنك حتى لكك أو لكنا *، وظل الرسول ε صامدا ولم يستجب لمطالبهم التعجيزية[3].

٤- إن رفض الرسول ε لطلب المعجزات، لا يعني أن القرآن الكريم هو الوحيد الذي يمثلها، وإنما الرفض جاء بسبب إدراك أن طلبهم لم يكن على سبيل الراغب حقا في التثبت من الأمر؛ بل جاء كفرا وعنادا، ولو علم الله ورسوله أن فيهم خيرا؛ لأجيبوا إلى ما طلبوا؛ إلا أ ا (لَا تعمى الْأبصار ولَكن تعمى الْقُلُوب التي في الصدورِ) الحج/ ٤٦، فلم يعودوا يرون الحق حقا، والباطل باطلا، حتى وإن جاء م المعجزات، فسيظهرون قولا آخر، وربما رموه بالسحر، أو بشيء آخر[4]، وصدق قول الحق Ψ: (ولَو فَتحنا علَيهم بابا من السماء فَظَلُواْ فيه يعرجونَ، لَقَالُواْ إِنما سكرت أبصارنا بلْ نحن قَوم مسحورونَ) الحجر (١٤ ، ١٥).

٥- إن خصوم الدعوة يحرصون على إحراج الدعاة، بمحاولة إظهارهم أمام الناس، بأ م متزمتون متعصبون، ويريدون أن يحشروا الإسلام في كل قضية، كعلاقة الإسلام بالسياسة، كما قد يتلقون ما أخرى، قد يكون لها الأثر البالغ لدى الرأي العام؛ بتصويرهم على أ م يعارضون التفاهم أو الإجماع الوطني، ويصرون على تفردهم بالحكم؛ والهدف إضعاف نفوس الدعاة أمام هذه الا امات،

---

(١)- الغضبان: المنهج الحركي للسيرة النبوية، ص (٧٧ ، ٧٨).

(٢)- المصدر نفسه، ص ٧٨.

(٣)- المصدر نفسه، ص ٧٨.

(٤)- سالم نوري: فقه السيرة النبوية، ص١٠٨.

كما يوجد في صفوفهم من يطالب قيادات الحركة الإسلامية، بالليونة في المواقف، والتساهل مع الخصوم، ولا تظهر بالوجه المتعصب[1].

٦- لقد أراد الله-عز وجل- لهذا الدين، أن يكون الإيمان به، لا عن طريق المعجزات؛ بل عن طريق هذا القرآن المعجز، وبما يدعو إليه، عن طريق الحوار والإقناع الذي يملكه المسلمون في كل زمان ومكان، على اعتبار أن هذا الدين هو خاتمة الأديان، وأنه موجه للبشرية قاطبة. إن معجزة هذا الدين ستتحقق، يوم يحكُم في الأرض، بأناس قد تربوا عليه، وعاشـوا له، وماتوا في سبيله، يومـها سيتم التحول العجيب في حياة الناس؛ (ويخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة)، وهذا ما أشار إليه الصحابي الجليل ربعي بن عامر τ[2].

---

(١)- الغضبان: مصدر سابق، ص ٧٨.

(٢)- الغضبان: فقه السيرة النبوية، ص (١١٨ ، ١١٩).

المبحث الخامس

تحدي المقاطعة والحصار الاقتصادي والاجتماعي

المطلب الأول: بنود ميثاق الظلم والعدوان.

المطلب الثاني: ثلاث سنوات من الحصار والمقاطعة.

المطلب الثالث: نقض الصحيفة وتحطيم الحصار والمقاطعة.

المطلب الرابع: الـدروس والعـبر.

المبحث الخامس
تحدي المقاطعة والحصار الاقتصادي والاجتماعي

تمهـيد.

لقد تلاحقت الأحـداث، وتتابعت على رؤوس المشركين، خلال أربعة أسابيع؛ ففي هذه المدة القصيرة، تم- بحمد الله تعالى- إسلام حمزة بن عبد المطلب، وإسلام عمر بن الخطاب، كما أن النجاشي منع من لجأ إليه من المهاجرين الفارين، من العذاب والتنكيل، وأنزلهم مـ لا آمنا في الحبشة، ورفض الرسول ε مساومة الكفار؛ فعزم المشركون على الإقدام على قتل الرسول ε ، واجتمع

أمرهم على القضاء عليه، وكان من أثر ذلك، أن تواثق بنو المطلب وبنو هاشم، على حياطة محمد ε ومنعه، وأكد العم أبو طالب، على حماية ابن أخيه، فأمر بني عبد المطلب، بالقيام بذلك داخل شعبهم المسماة * شعب أبي طالب * ودخل معهم في هذه الحماية، بقية بني هاشم وبني المطلب، فاجتمعوا على ذلك مسلمهم وكافرهم، فمنهم من قام بذلك حمية، ومنهم من قام بذلك إيمانا ويقينا، فحار المشركون حيرة شديدة، فلو قاموا بقتل الرسول ε لأدى ذلك إلى حتفهم وهلاكهم؛ بل إلى استئصالهم عن بكرة أبيهم، فتحولوا إلى ظلم آخر دون القتل، ولكن أشد عداوة ومكرا؛ إنه ظلم المقاطعة والحصار الاقتصادي والاجتماعي[1].

المطلب الأول: بنود ميثاق الظلم والعدوان.

لما رأت قريش أن الرسول ε أصبح في منعة من قومه، وأن أمره صار يعلو، والأحداث أصبحت تتزايد؛ أجمعوا على أن يتعاقدوا على بني هشام، وبني المطلب، وبني عبد مناف، فاجتمعوا في حيف بني كنانة من وادي المحصب، وعزموا على أن تكون المقاطعة شاملة لجميع المستويات، بما فيها المعاملات الاجتماعية، كالزواج ونحوه؛ فكتبوا بمكرهم صحيفة، تحوي عهودا ومواثيق، فتحالفوا : أن لا يناكحوهم، ولا يبايعوهم، ولا يجالسوهم، ولا يخالطوهم، ولا يدخلوا بيو م، ولا يكلموهم؛ وأن لا يقبلوا من بني هاشم صلحا أبدا، ولا تأخذهم م رأفة ولا رحمة، ولا هوادة حتى يسلموا رسول الله ε للقتل. وقال ابن القيم: يقال: كتبها منصور بن عكرمة بن عامر بن هشام، وقيل: النضر بن الحارث، والصحيح: أنه بغيض بن عامر بن هاشم، فدعا عليه رسول الله ε فشلت يده[2].

وتم هذا الميـثاق الظـالم، وعلقت الصحيفة من طرف زبانية قريش في جوف الكعبة، فانحاز بنو هاشم، وبنو المطلب- مؤمنهم وكافرهم- إلا أبا لهب[3]، وانعزل القوم في شعب أبي طالب، وهم نحو المائتين، فيهم أربعون رجلا؛ منهم: أبو طالب، والعباس، وعقيل بن أبي طالب، وغيرهم، وكان ذلك في أول محرم من السنة السابعة للبعثة، وحوصر القوم في شعب[4] أبي طالب[5].

المطلب الثاني: ثلاث سنوات من الحصار والمقاطعة.

---

(١)- المباركفوري: الرحيق المختوم، ص٧٧ .

(٢)- أبو عبد الله شمس الدين ابن القيم الجوزية: فقه السيرة، جمع وإعداد، عماد زكي البارودي، المكتبة التوفيقية، بدون طبعة وبدون تاريخ، ص١٠١.

(٣)- المباركفوري: مصدر سابق، ص٧٧.

(٤)- والشعب: المقصود ا الحي؛ لأن مكة كانت مقسمة إلى شعاب أي أحياء، فكل واحد منها عبارة عن وحدة اجتماعية، خاصة في تكوينها العشائري، ويرجح أن شعب أبي طالب كان محاطا بسور يميزه من غيره من شعاب مكة.

(٥)- سالم نوري: فقه السيرة النبوية، ص١٠١.

لقد فرض المتطرفون من المشركين رأيهم، وضيق الحصار على المؤمنين في شعب أبي طالب واشتد، " وقطعت عنهم الميرة والمادة "[1]، و " بلغ م الجهد أقصاه "[2]، فَقطعوا عنهم الأسواق؛ فكان المشركون لا يتركون طعاما، ولا بيعا يدخل مكة؛ إلا بادروهم إليه فاشتروه، يريدون بذلك أن يدركوا سفك دم رسول الله ε [3]، وبلغ الجوع فيهم مبلغه، فكان الصحابة ψ إذا وصلت العير إلى مكة، فيقصد أحدهم السوق؛ ليشتري طعاما لأولاده، قام أبو لهب يحرض التجار، فيقول لهم: غالوا على أصحاب محمد؛ حتى لا يدركوا معكم شيئا، ويطمئنهم بضمان الخسارة التي تلحقهم، فيزيد التجار في ثمن السلعة أضعافا،" فيرجع أحدهم إلى أطفاله وهم يتضاغون جوعا، وليس في يده شيء يطعمهم به، ويغدوا التجار على أبي لهب، فيربحهم فيما اشتروا من الطعام واللباس، حتى جهد المؤمنون ومن معهم جوعا وعريا"[4].

وبلغ الحرمان بالمؤمنين مبلغا عظيما، حتى دفعهم إلى أكل ما لا يؤكل، فبلغوا بذلك القمة في الصبر، ومحص الله إيما م ذا الاختبار؛ فاستحقوا النجاح والفوز في الدارين، بل هناك من اشتد م وضع الحصار، فدفعهم إلى أكل الجلود. روى يونس عن سعد بن أبي وقاص τ قال: ((خرجت ذات ليلة لأبول فسمعت قعقعة تحت البول، فإذا قطعة من جلد بعير يابسة، فأخذ ا وغسلتها ثم أحرقتها ورضضتها، وسففتها بالماء، فقويت ا ثلاثا))[5]. وازداد الحصار قسوة، وتألم الصحابة ψ من الجوع، ألما شديـ ـدا، فهذا أحد الصحابة ψ، يروي جانبا من معاناة الحصار، فيقول: لقد جعت حتى إني وطئت ذات ليلة على شيء رطب، فوضعته في فمي وبلعته، وما أدري ما هو إلى الآن[6].

وقد تعرض مرة أبو جهل إلى حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد، ومعه غلام، وكان يحمل قمحا إلى عمته، خديجة بنت خويلد ψ زوج رسول الله ε، فتعلق به ليمنعه، فتدخل بينهما أبو البختري بن هشام بن الحارث بن أسد، ومكنه من حمل القمح إلى عمته[7].

وحرص العم أبو طالب على حماية ابن أخيه محمد ε- رغم شركه- من أن تمتد إليه يد القتل، فقد آثره على حياة أبناءه. فكان أبو طالب إذا أخذ الناس مضاجعهم، أمر رسول الله ε أن يأتي فراشه؛

---

(١)- المباركفوري: مصدر سابق، ص٧٧.

(٢)- محمد الغزالي: فقه السيرة، ص١١٨.

(٣)- الحميدي: التاريخ الإسلامي، ج٢، ص١٧٦.

(٤)- محمد الغزالي: مصدر سابق، ص١١٨.

(٥)- المصدر نفسه، ص١١٩.

(٦)- سالم نوري: فقه السيرة النبوية، ص١٠١.

(٧)- الحميدي: التاريخ الإسلامي، ج٢، ص١٧٦.

حتى يراه من أراد به مكرا أو غائلة، فإذا نام الناس أخذ أحد بنيه، أو اخوته، أو بني عمه، فاضطجع على فراش رسول الله ε، وأمره أن يأتي بعض فُرشهم فينام عليها[1].

ورغم هذه الصعاب، فإن الرسول ε لم يتوقف، ولم يضعف عن تبليغ دعوته، فكان يتحين المواسم، فيخرج إلى الناس يعرض عليهم الإسلام، ويدعوهم إليه؛ إلا أن أبا لهب كان يتعقبه؛ ليحول بينه وبين ما يريد[2].

المطلب الثالث: نقض الصحيفة وتحطيم الحصار والمقاطعة.

مرت ثلاث سنوات كاملة، والمحاصرون من بني هاشم، وبني عبد المطلب، وبني عبد مناف الذين تحالفوا مع أبي طالب، ومعهم الرسـول ε في جهد، وبلاء شديدين، يعانون الشدة والفاقة؛ في المشرب والمأكل والملبس، إلى أن حدث نقض الصحيفة، والتي تمثل ميثاق الظلم، وكان ذلك في محرم سنة عشر من النبوة، على اعتبار أن قريـشا كان فيها بين راض بهذا الميثاق، وكـاره له، فسعى في نقضها من كان كارها لها.

فقام إليها نفر من قريش، كرهوا هذا التعاقد الظالم، وعافته نفوسهم؛ فتصرفوا وفق ما تمليه عليهم مروءتهم، وضمائرهم الحية. وكان الذي تولى الانقلاب الداخلي لنقض الصحيفة، **هشام بن عمرو الهاشمي** حيث قصد **زهير بن أبي أمية المخزومي** وأمه عاتكة بنت عبد المطلب، ثم ذهب إلى **المطعم بن عدي**، واتصل **بأبي البختري بن هشام**، و **زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد؛** فاتعدوا خطم الحجون ليلا بأعلى مكة، فاجتمعوا هناك، وأجمعوا أمرهم، وتعاقدوا على القيام في الصحيفة حتى ينقضوها، وقال زهير: أنا أبدؤكم فأكون أول من يتكلم، فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم، وغدا زهير بن أبي أمية عليه حلة، فطاف بالبيت سبعا، ثم أقبل على الناس فقال: أنأكل الطعام، ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى لا يبتاعون، ولا يبتاع منهم، والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة، فكان أبو جهل في ناحية المسجد، فقال: كذبت والله لا تشق؛ عندها قام الأربعة الآخرون فتكلموا كلمة رجل واحد، فصدقوا صاحبهم وكذبوا أبي جهل، فقال له أحدهم: أنت والله أكذب ما رضينا كتابتها حين كتبت. فقال أبو جهل: هذا أمر قضى بليل. فقام المطعم بن عدي ليشق الصحيفة، فوجد الأرضة قد أكلتها إلا **باسمك اللهم**. وكان الرسول ε قد أخبر أبا طالب بمصيرها، ومزقت الصحيفة، وبطل ما فيها من بنود ظالمة جائرة[3].

---

(1)- الغضبان: فقه السيرة النبوية، ص (١٢١ ، ١٢٢).

(2)- سالم نوري: فقه السيرة النبوية ، ص١٠٢.

(3)- الصلابي: السيرة النبوية، ج١، ص (٣٠٧ ، ٣٠٨)، الندوي: السيرة النبوية، ص١٣٩.

وبعد أن تم نقض الصحيفـة، خرج الرسـول ε، ومعه المحاصرون من الشعب، بعدما رأى المشركون آية عظيمة من آيات نبوته؛ إلا أ م أعرضوا عنها، وازدادوا كفرا إلى كفرهم، كما أخبر عنهم الله تعالى، في قوله: (وإن يروا آيةً يعرضوا ويقُولُوا سحر مستمر) القمر/٢٠[1].

ثم أنشأ أبو طالب قصيدته في شأن صحيفتهم، ومادحا القوم الذين تبرؤوا منها، وبادروا إلى نقض ما فيها من عهد، قائلا:

ولما رأيت القوم لا ود فيهم ... وقد قطعوا كل العرى والوسائل.
وقد صارحونا بالعداوة والأذى ... وقد طاوعوا أمر العدو المزايل.
وقد حالفوا قوما علينا أظنة ... يعضون غيظا خلفنا بالأنامل.
صبرت لهم نفسي بسمراء سمحة ... وأبيض غضب من تراث المقاول.
وأحضرت عند البيت رهطي وإخوتي ... وأمسكت من أثوابه بالوصائل[2].

ثم يقسم بالأيمان المغلظة، بالله وبالبيت، بأنه لن يتخلى عن رسول الله ε، ولن يسلمه، ولن يتركه، حتى يهلك دونه، فقال:

كذبتم وبيت الله نترك مكة ... ونظعن إلا أمركم في بلابل.
كذبتم وبيت الله نبذي محمدا ... ولما نطاعن دونه ونناضل.
ونسلمه حتى نصرع حوله ... ونذهل عن أبنائنا والحلائل.
وينهض قوم بالحديد إليكم ... نهوض الروايا تحت ذات الصلاصل[3].

ولما عجزت قريش على محاربة الدعوة بهذه الأساليب، وصلت إلى ضرورة التصفية الجسدية، وهذه التحديات التي كانت تواجه النبي ε لم تكن منتظمة في الإيذاء، أسلوبا بعد أسلوب، رغم اختلافها - كما أسلفنا دراستها-؛ بل كانت قريش، تزاوج أحيانا بين الأساليب في وقت واحد، لذلك لم يكن قتل الرسول ε هو آخر الأساليب.

إن مكر كفار قريش، وإن كان آل إلى هـذا الحد؛ فإن مكر الله Ψ، كان أشد وأقوى في دفع كيدهم، وفي حفظ نبيه ε من أن تمتد إليه يد بسوء، وقد كشف الله عز وجل عن ذلك، بقوله: (وإِذْ يمكُر بِك الذين كَفَرواْ ليثْبِتوك أَو يقْتلُوك أَو يخرجوك ويمكُرونَ ويمكُر اللّه واللّه خير الْماكرِين) الأنفال/ ٣٠.

---

(1)- المباركفوري: الرحيق المختوم، ص٧٩.

(2)- ابن كثير: البداية والنهاية، ج٣، ص (١٠٢ ، ١٠٣).

(3)- المصدر نفسه، ج٣، ص (١٠٣ ، ١٠٤).

المطلب الرابع: الـدروس والعـبر.

١- إن المتأمل في بنود هذه الاتفاقية، وما تمخض عنها من حصار اقتصادي ومقاطعة اجتماعية، ليتأكد بأ ا وضعت بعد مداولات، ومشاورات ومناقشات، شارك في صياغة بنودها أشخاص يمتازون بمدى حقدهم، وعزمهم الجازم على محاربة الدعوة وأهلها [١]، من خلال أسلوب خطير وغريب، لا ينال قائد الدعوة بعينه؛ بل يطال كل فرد فيها، وهو أسلوب يتكافأ مع القوة التي وصلت إليها الدعوة، في محاولة يائسة للإجهاز عليها أوإفنائها[٢].

٢- نصت بنود الوثيقة على * عدم الزواج بين الطرفين *، لما لهذا الجانب من أهمية في تقوية الروابط الاجتماعية؛ لأن الزواج يؤدي إلى التآخي والتآلف، والتراحم والتواصل، وإذا تم هذا فسيؤدي إلى فشل الحصار، فنصت الوثيقة على ضرورة قطع العلاقات الاجتماعية. كما منعت بنود الوثيقة أي نوع آخر من الاتصال، * كالدخول للبيوت * حتى لا يبصر الإنسان ما أصاب أهله من الجوع، والعري والمرض؛ بسبب إسلامهم، فتتحرك العواطف والجوانب الإنسانية لديه؛ فيجد نفسه مندفعا، باتجاه رفع الظلم والمعاناة عن أهله وعشيرته[٣].

٣- ومن بنـود الوثيقة: * عدم مجالستهم ومخالطتهم وكلامهم *؛ لأن هذا يؤدي إلى النقاش، وتبادل الآراء ، والمسلمون يملكون ابتداء من الحق والأدلة، ما يمكنهم من إقناع أهل الصحيفة بخطء ما هم عليه، وما تتضمنه من جور وظلم؛ فكان هذا البند؛ سدا لأي ذريعة إلى نقضها. وجاء في الوثيقة: * ولا تقبلوا منهم صلحا، ولا تؤخذ م رأفة *، ويريدون به تسليم رسول الله ε للقتل، ولا يقبلون بدونه، ويضع قيودا حتى على العواطف، فلا رأفة ولا رحمة تجاه المؤمنين، فالرحمة والرأفة، قد تقودان إلى فك الحصار[٤].

٤- إن البيع والشراء يعد عصب الحياة الإقتصادية، وعلى أساسه يتم تبادل المنافع، وتلبية الحاجات الضرورية، وبانعدامه تصبح الحياة الإقتصادية مهـددة، وبنهي كفار قريش عن البيع والشراء من المسلمين؛ إنما أريد ذا تجويعهم، وهذا ما حدث فعلا، حيث اضطر بعضهم إلى أكل ورق الشجر والجلود؛ والقصد توهين قواهم، وفتنتهم في دينهم[5]. ويثبت لنا الواقع لما لهذا النوع من السلاح من أثر في محاربة الدعوة وأهلها، فقد يتعرض الدعاة إلى حرما م من أبسط حقوق حيا م، كطردهم من

---

(١)- الصلابي: السيرة النبوية، ج١، ص٣٠٩.

(٢)- الغضبان: فقه السيرة النبوية، ص١٢٣.

(٣)- الصلابي: مصدر سابق، ج١، ص (٣٠٩ ، ٣١٠).

(٤)- المصدر نفسه، ج١، ص٣١٠.

(٥)- المصدر نفسه، ج١، ص٣٠٩.

وظائفهم؛ ليموتوا جوعا، أو تجميد أموالهم وأرصد م، والحكم بالسجن على من تتحرك دوافعه الإنسانية نحو عائلا م المنكوبة، واعتباره مجرما مثلهم، ومصادرة ممتلكا م، وحرمـا م حتى من حق الهجرة ، باحتجاز وثائق سفرهم، ومن تمكن من المغادرة، يبذلون قصارى جهدهم لدى حلفائهم؛ لإخراجهم من دولهم، وتسليمهم لهم؛ لإفنائهم وإباد م عن بكرة أبيهم[1]، كل ذلك بسبب أفكارهم الداعية إلى الحق، (يريدونَ أن يطْفِؤوا نور اللّه بِأَفْواهِهم ويأبى اللّه إلا أن يتم نوره ولَو كَرِه الْكَافرونَ) التوبة/٣٢. ولا يقتصر الأمر على الأفراد، فقد تستهدف حركات للتفكيك والإبادة؛ بسبب انتهاجها للإسـلام، وبسبب هذا المنهج أيضا، قد تتعرض حكومات ودول لسلاح الحصار والمقاطعة الاقتصادية.

٥- فالغطاء الاجتماعي، المتمثل في تضامن بني هاشم، وبني المطلب، وبني عبد مناف، مؤمنهم وكافرهم؛ إنما كان موجها في الحقيقة، لحماية الرسول ε لا لحماية دعوته، ومع ذلك فقد أسهم في خدمة الدعوة؛ بحماية قائدها الرسول ε، فمنعت عنه خطط المشركين، لاغتياله وتصفيته، ولما كان استمرار حياة الرسول ε ضروريا، ولازما لنجاح الدعوة،كان الموقف العشائري من أهم أسباب صمـود المسلمين، وانتصار دعو م[2]، مصداقا لقوله ε: { .. وإن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر }[3]. ومن هذا يمكن للداعية أن يستفيد من قوانين خصوم الإسلام فيما يخدم الدعوة، ما لم يترتب على ذلك إضـرارا ا، وأن يكون مبنيا على فتوى صحيحة، وأن يتخـذ الـداعية من هذه الحماية؛ وسيلة للرد على مكائد الأعداء وعدوا م[4].

٦- إن أبا طالب حينما كان عاجزا عن محاربة مشركي قريش بحد السيف، فقد استطاع بقصيدته أن يخوض حربا إعلامية وسياسية، فقد زلزلت القصيدة أوضاع مكة، وحركت العصبية عند أقارب بني هاشم وبني المطلب، فاجتمعوا سرا ودعوا إلى نقض الصحيفة؛ وقد خططوا لذلك ونجحوا. وهذا دليل على أن الجانب الإعلامي له دور كبير في خدمة الدعوة ونصر ا، وفي ظاهرة أبي لهب، قد يجد الدعاة من أقرب الحلفاء من يبالغ في إيذائهم، وحر م أكثر من الخصوم الألداء الأشداء[5].

٧- لقد محصت المقاطعة درجة إيمان المؤمنين، وشدة تعلقهم بالإسلام دينهم الجديد؛ فبصمودهم أعطوا دروسا في الصبر والثبات رغم الشدائد والمحن، فالمسلمون رجالا ونساء تحملوا الجوع، وصبروا

---

(١)- الغضبان: مصدر سابق، ص (١٢٣ ، ١٢٤).

(٢)- سالم نوري: فقه السيرة النبوية، ص (١١١ ، ١١٢).

(٣)- البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب: إن الله يؤيد الدين بالرجل الفاجر، رقم: ٣٠٦٢، ص٥٨٦.

(٤)- الصلابي: السيرة النبوية، ج١، ص (٣١٠ ، ٣١١).

(٥)- المصدر نفسه، ج١، ص (٣١١ ، ٣١٢).

عليه دون أن يقدموا أدنى تنازل في شأن الدعوة، وحتى الأطفال كانوا يتضورون جوعا ولم يفكر أهلهم يوما بأن يستخدموهم كعنصر ضغط على الرسول ε؛ لدفعه إلى مهادنة المشركين، ولما رأوا إخوا م في العشيرة يتحملون ما يتحملون وهم ليسوا على دينهم، ولكن بسبب عصبية ربطتهم م، أدركوا أ م يجب أن يكونوا أشد منهم تحملا؛ لأ م ينافحون ويكافحون من أجل قضية أعظم من عصبية الدم؛ إ ا قضية عادلة فيها محبة لله ولرسوله ولدينه[1].

٨- إن ظروف الحصار الصعبة، لم تمنع الرسول ε من متابعة دعوته، فكان يعرض الإسلام على العرب الوافدين إلى مكة، مستغلا مواسم الحج غير آبه بعراقيل أبي لهب، ومحاولة تعطيله عن ذلك[2]، و ذا العمل أعطي الرسول ε للدعاة درسا؛ بأن لا يجعلوا من الصعوبات والشدائد التي تواجههم، ذريعة في التخلي عن واجب نشر الدعوة، وتبليغ رسالة الإسلام.

٩- ما تلقاه المؤمنون في هذه المرحلة، كان تدريبا عمليا على الصبر، وضبط النفس، فقد التزم المحاصرون، طيلة سنوات الحصار والمقاطعة، بتعليمات الرسول ε؛ فلا يواجهون العدو، وأن يضبطوا أعصا م، ولا يشعلون فتيل معركة؛ أو يكونون وقودها، فكان الامتثال التام من أبطال الأرض أمثال: حمزة بن عبد المطلب، وأبي بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان ، وعلي بن أبي طالب، وسعد بن أبي وقاس، وغيرهم ψ جميعا، فصـبروا على الأذى، وتحملوا الحقـد و الظلم؛ فسمعوا وأطاعوا. وأثبتت هذه التجربة، صلابة الصف بين المؤمنين، وعلى مدى التزامهم بأوامر القيادة؛ فلم يكن أسهل أمامهم من اغتيال أبي جهل، أو إشعال معركة غير مدروسة لا يعلم مداها إلا الله؛ إلا أ م امتنعوا عن كل هذا؛ طاعة وامتثالا[3].

١٠- إن أصحاب المصالح والمنافع لا تؤثر فيهم الحجج الدامغة، والبراهين الساطعة، والمعجزات الخارقة؛ لأ م يصرفون عقولهم، ويغلقون قلو م عن التدبر، ويصمون آذا م عن سماع الحق. فلقد أخبرهم أبو طالب بما أخبر به الرسول ε بما حدث للصحيفة، من أكل الأرضة لها وبقاء اسم الله فقط * باسمك اللهم *، ورأوا ذلك بأم أعينهم، فما آمن منهم أحد؛ إنه الهوى الذي يغشي عن الحق، ويصم الآذان عن سماعه[4].

---

(١)- سالم نوري: فقه السيرة النبوية، ص (١١٢ ، ١١٣).

(٢)- المصدر نفسه، ص١١٢.

(٣)- الصلابي: مصدر سابق، ج١، ص٣١٢.

(٤)- المصدر نفسه، ج١، ص ٣١٣.

١١- لقد كان الحصار عاملا قويا من عوامل انتشار الإسلام، وشكل صدا إيجابيا لصالح الدعوة، عكس ما خطـط له زعماء الشرك تماما؛ حيث شاع الحديث بين العرب بشأن الدين الجديد، وأهله الصابرين المحتسبين، الذين لم يثنهم الحصـار عن التخلي عن دينهم وعقيد م، فأقبل الناس على الإسلام، ودخلوا في دين الله أفواجا، و ذه المحنة كسب الإسلام أنصارا جددا، فالاضطهاد لا يقتل الدعوات؛ بل يزيد جذورها عمقا، وفروعها امتدادا[١].

١٢- كان من نتائج الحصار الاقتصادي والاجتماعي، أثر في الفقه الإسلامي؛ حيث أن سهم ذوي القربى من الخمس يعطى لبني هاشم، وبني المطلب؛ لأن بني المطلب آزروا بني هاشم في الجاهلية، وفي أول الإسلام؛ فمسلمهم طاعة لله ورسوله، وكافرهم حميةً للعشيرة، وأنفة؛ وطاعةً لأبي طالب، لقوله تعالى: (واعلَمواْ أنما غَنِمتم من شيءٍ فَأن للّه خمسه وللرسولِ ولذي الْقُربى والْيتامى والْمساكينِ وابنِ السبِيلِ إِن كُنتم آمنتم بِاللّه وما أَنزلْنا علَى عبدنا يوم الْفُرقَان يوم الْتقَى الْجمعان واللّه علَى كُل شيءٍ قَدير) الأنفال/٤١، وجاء في الحديث، قوله ε: { إ م لم يفارقونا في جاهلية ولا إسلام } ، وذهب جمهور العلماء أ م بنو هاشم وبنو المطلب[٢].

---

(١)- سالم نوري: مصدر سابق، ص١١٢. محمد الغزالي: فقه السيرة، ص١٢١.

(٢)- ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج٢، ص٤١٣. الصلابي: السيرة النبوية، ج١، ص٣١٤.

الفصل الثاني

تحديات الدعوة في العهد المدني ومنهج مواجهتها

المبحث الأول: تحـدي المشـركين.

المبحث الثاني: تحـدي اليهـود.

المبحث الثالث: تحـدي المنافقـين.

المبحث الرابع: تحـدي الفـرس والـروم.

الفصل الثاني
تحديات الدعوة في العهد المدني ومنهج مواجهتها

مقدمة.

لما أصبح ذكر الرسول ε على ألسنة أهل يثرب، ترامت أخبار هجرته وصحبه إلى المدينة، فكان أهلها يمدون أبصارهم كل صباح إلى الأفق البعيد؛ يبصرون مجيئه بلهفة، وجوانحهم تسري ترقبا وقلقا، ورجاء وشغفا لموعد اللقاء[١]. ودخل النبي ε المدينة على ناقته، والصديق ردفه، وبنو النجار حوله؛ يرهبون بسيوفهم أعداء الله ورسوله، فقامت المدينة برجالها، وشبانها وشيبها، ونسائها وصبيانها؛ بواجب استقبال القادم الكريم، وملؤوا عيونهم من الذي أصبح ذكره على كل لسان، وأنصاره في كل بيت[٢]، فكان بحق يوما مشهودا في تاريخ الدنيا، ففرح المسلمون بمقدمه فرحا شديدا، واستقبلوه استقبالا حافلا[٣]. وسارع ε في وضع الركائز الأساسية للدولة الإسلامية الفتية، حسب أهميتها وأولويتها؛ وضرورتها الملحة، منطلقا من إخلاصه لله رب العالمين؛ فأنشأ المسجد الجامع، المنطلق الأول لبناء الدولة ومركز قيادتها، وأشرف بنفسه على المؤاخاة بين المسلمين مهاجرين وأنصارا، منفذا التآخي المباشر بينهما[٤]، حيث قال ε: [تآخوا في الله أخوين أخوين][٥] ، ثم أسس الصحيفة التي أعطت للدولة الجديدة أبعادا دستورية، مشكلة الهيكل العام في بنائها[٦]، كما ضمن حقوق الطرفين اليهودي والإسلامي، في معاهدة حسن الجوار بينه وبين القبائل اليهودية المجاورة.

ورغم هذه الركائز الأساسية التي انبنت عليها دولة الإسلام؛ إلا أنها بقيت تواجه تحديات كبرى، ومخاطر محدقة، ولعل أبرزها: تحدي المشركين؛ وخاصة كفار قريش الأعداء التقليديين الذين يشكلون القوة الإقليمية الكبرى لتهديد المسلمين. وتحدي اليهود؛ من بني قينقاع وبني النضير، وبني قريظة وخيبر؛ وتبوك وفدك. وتحدي المنافقين وصعوبة التعامل معهم؛ بحكم شخصيتهم، وازدواجية معاييرهم، لقوله تعالى: (وإذَا لَقُوا الذين آمنوا قَالُوا آمنا وإذَا خلَوا إلَى شياطِينِهم قَالُوا إنا معكُم إنما نحن مستهزِئُونَ) البقرة/١٤. ثم تحدي الروم والفرس، اللذين كانا يعتبران أن الخطر يكمن في

---

(١)- محمد الغزالي: فقه السيرة، ص١٦٩.

(٢)- محمد بن محمد أبو شهبة: السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، دار القلم- دمشق، ط٥، (١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م)، ج٢، ص٢٤.

(٣)- علي محمد جماز: دراسات في السيرة النبوية، دار القلم- الكويت، ط١، (١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م)، ص٤٧.

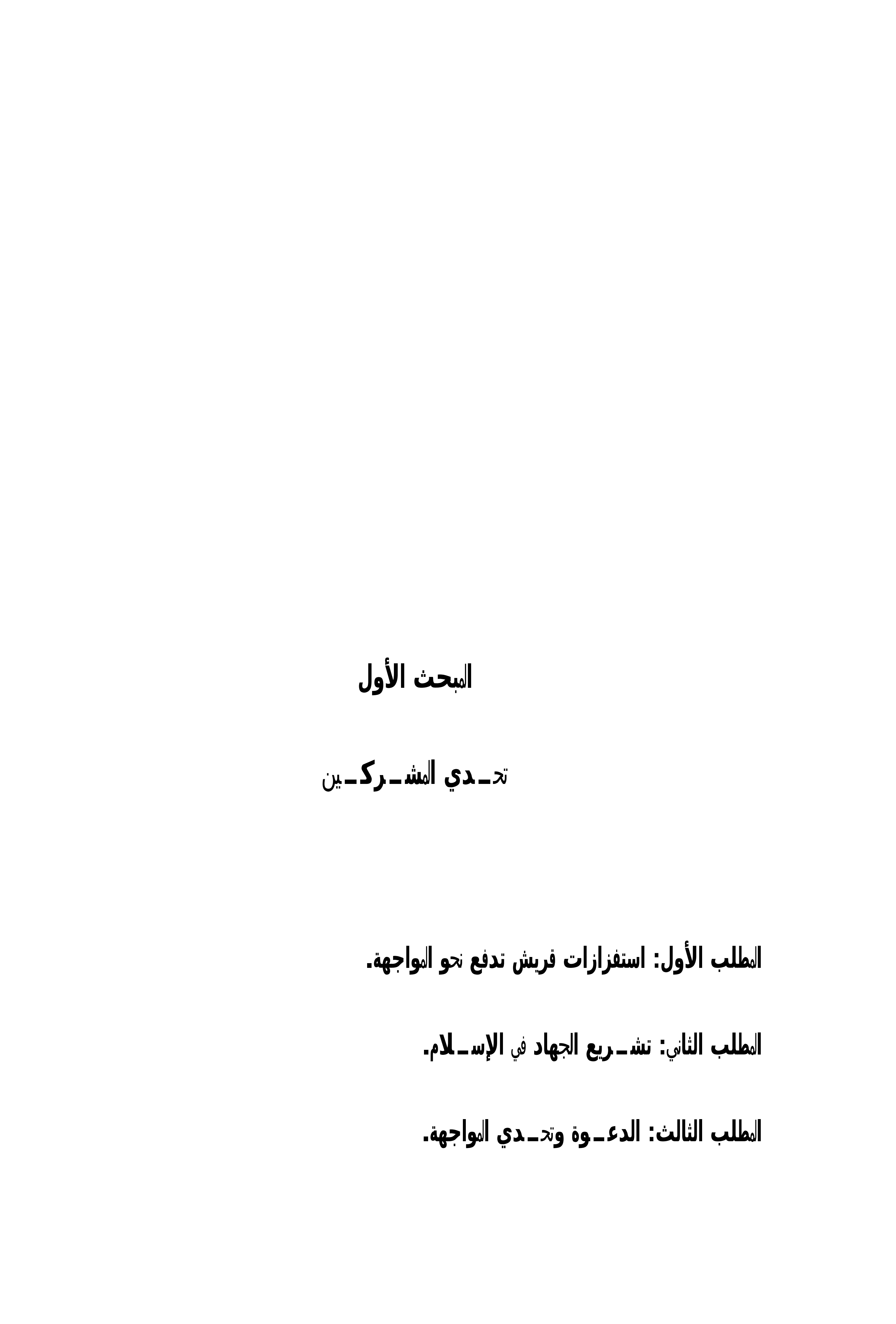
(٤)- الغضبان: فقه السيرة النبوية، ص٢٣٦.

(٥)- ابن هشام: السيرة النبوية، ج٢، ص٣٧١.

(٦)- سالم نوري، فقه السيرة النبوية، ص٢٠١.

صاحب هذا الدين الجديد[1]. فكيف كان منهج النبي ε في التعامل مع هذه التحـديات البـارزة والخطيرة التي واجهت الدعوة في هذه المرحلة ؟ وهذا ما سنتناوله بالدراسة والبحث - إن شاء الله - في هذا الفصل.

(1)- أحمد عيساوي ، دراسات وأبحاث في تاريخ الدعوة والدعاة : ص١١٦.



المبحث الأول

تحـدي المشـركـين

المطلب الأول: استفزازات قريش تدفع نحو المواجهة.

المطلب الثاني: تشـريع الجهاد في الإسـلام.

المطلب الثالث: الدعـوة وتحـدي المواجهة.

المطلب الرابع: الـدروس والعـبر.

المبحث الأول
تحـدي المشـركـين

تمهـيد.

درجت قريش – بحكم التعصب الأعمى لشركها ووثنيتها – تحارب الإسلام ودعوته، فأوذي النبي ε وأصحابه، إيذاء شديدا، ومكث المسلمون ثلاثة عشر عاما بمكة صابرين محتسبين، استجابة لأمـر ربـهم: (واصبِر وما صبرك إلا بِالله ولا تحزنْ علَيهم ولا تك في ضيقٍ مما يمكُرونَ) النحـل/١٢٧، ولقوله تعالى: (ولَمن صبر وغَفَر إن ذَلك لَمن عزمِ الْأمورِ) الشورى/٤٣، وامتثالا لوصـايا نبـيهم ثبت المسلمون على هذه الحال وصبروا، وازدادوا عددا وعدة[1]. وقويت شوكتهم بطيب مقامهم في المدينة، وتوجت تضحيا تهم بإنشاء دولتهم، فازداد غيض المشركين، ودأبت قريش تلاحق المسـلمين، وتسعى لإباد تهم، والقضاء على كيا نهم، وأمسى الشرك يشكل تحديا بارزا – بجانب تحـدي اليهـود والمنافقين – في وجه الدعوة الإسلامية، وصار القتال مشروعا؛ للدفاع عن العقيدة، وحماية الدعوة.

المطلب الأول: استفزازات قريش تدفع نحو المواجهة.

(١)- أ بو شهبة: السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، ج٢، ص (٧٣ ، ٧٤).

حرص الرسول ε أن تكون دعوته قائمة على نشر الخير، وتثبيت السلم والأمن، ومحاربة الفسـاد والفتنة والفرقة. فلم يرغب الرسول ε يوما في الانتقام من خصومه؛ بل دعا إلى الحلـم والصـبر في مواجهة اعتداءات المشركين في مكة. وظهرت عبقرية محمد ε في حكمته، فلم تراق قطرة دم أثنـاء إقامة دولته، ولم يرسم لنفسه منهجا للاعتـداء، ولا فرض دعوته بالإكراه حتى بعد نجاحه في بنـاء دولته، ودعا إلى الرفق وبين فوائده، وحارب العنف وبين مضاره، فعن عائشة- رضي الله عنها- أن النبي ε قال: { إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه }[1].

ولم يكن الرسول ε من بدأ المعركة مع قريش، حين هاجم قوافلها المارة بالمدينة؛ بسبب السـلب والظلم، والنفي والإخراج بغير حق، خلافا لما ذهب إليه ابن هشام وغيره في سيرته. فالسبب الأقوى هو ما رواه أبو داود في سننه، أن قريشا كتبوا إلى عبد الله بن أبي- بصفته زعيم المدينة- يهددونـه بمقاتلة المقاتلة، ويتوعدونه باستباحة النساء، إن لم يقاتلوا محمدا أو يخرجونه[2]. ولم يقتصر تهـديد قريش على أهل يثرب وزعيمها؛ بل طال المهاجرين جميعا، فأرسلت إليهم تهددهم بالإبادة؛ وتعدهم بالاستئصال في عقر ديارهم[3].

وليس غريبا على قريش أن تتبنى المنهج الاستئصال في مواجهتها مع الإسلام وأتباعه، فقد قـررت بالأمس القريب اغتيال الرسول ε في أيام الهجرة، ومنعت عددا من الصحابة حينما رأتهم يتسللون في جنح الظلام مهاجرين إلى المدينة، وسعت إلى استعادة بعضهم بالقوة إلى مكة. والصورة ذاتها نراهـا تتأكد في واقعنا المعاصر في اجتثاث جذور الدعاة و استئصالهم، وملاحقتهم في كل مكان، وحـين نفهم أعداء الدعوة على هذا النحو وبهذا المنطق، نكون على بصيرة منهم ومن مخططاتهم[4].

وتأكدت مكائد قريش لدى الرسول ε، وإرادتها على الشر، فكان يبيت ساهرا، وفي حراسة دائمة من أصحابه، حتى نزل قوله تعالى: (والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدي القَـوم الكـافرين) المائدة/٦٧، عندئذ أمر أصحابه بالانصراف، قائلا: { يا أيها الناس انصرفوا، فقد عصمني الله }[5].

---

(١)- أبو زكرياء يحي بن شرف النووي: رياض الصالحين، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع- القاهرة- ط٥ (١٤٢٨هـ ـ/ ٢٠٠٧م)، ص١٨٨. ورواه مسلم، باب الحلم والأناة والرفق، رقم:٦٣٥.

(٢)- الغضبان: المنهج الحركي للسيرة النبوية، ص١٥٩.

(٣)- المباركفوري: الرحيق المختوم، ص١٤٠.

(٤)- الغضبان: مصدر سابق، ص١٦٠.

(٥)- الترمذي: ك. تفسير القرآن، من سورة المائدة، رقم: ٣٠٤٩، ص٤٥٤.

وحتى الصحابة ψ لم يكونوا في منأى من هذا الخطر المحدق م، فلما قدموا إلى المدينـة وآو ـم الأنصار، رمتهم العرب عن قوس واحدة، فكانوا يبيتون بالسلاح حتى يصبحون، فهم دوما في حذر دائم؛ ويحتاطون من أي خطر داهم[1].

وأمست هذه الاستفزازات والتهديدات، مبررا كافيا على عداوة قريش للإسلام، وإظهار تآمرهـا على الرسول ε وأصحابه، مما يوجب إعداد العدة، ورسم الخطة؛ لرد العدوان، وصـد الاعتـداء؛ وحماية الدعوة.

المطلب الثاني: تشريع الجهاد في الإسلام.

ولما كانت ديدات قريش، واستفزازا ا الدائمة، تؤكد على عداو ا للإسلام ومحاربته، شرع الله الجهاد للمسلمين؛ دفاعا عن النفس، وعن حرية العقيدة، وتمكين الناس من اعتناقها بحرية واطمئنان، وحماية للدولة الوليدة من الاعتداء عليها[2].

والحقيقة أن الجهاد لم يشـرع في مكة؛ لأن الدعوة لا تزال في بدايتها، والمسلمون قلة، فالحكمـة تقتضي الصبر على الأذى، وتقوية إيما م بالعبادة، ومجاهدة النفس، لقوله تعالى: [أَلم تر إِلى الَّـذين قيلَ لَهم كُفوا أَيديكُم وأَقيموا الصلاةَ وآتوا الزكَاةَ] النساء/٧٧، وتكثير سواد الأمة، على أساس قوله تعالى: [ادع إِلى سبِيلِ ربك بِالْحكْمة والْموعظَة الحَسنة وجادلْهم بِالتي هي أَحسن إن ربـك هـو أَعلَم بِمن ضل عن سبِيله وهو أَعلَم بِالْمهتدين] النحل/١٢٥.

وبعد الهجرة إلى المدينة، ومآزرة الأنصار لدعوة الإسلام، صار للمسلمين شوكة، وأرض ودولـة ذات سيادة؛ أذن الله لهم بالجهاد[3]، في قوله تعالى: [أُذنَ للذين يقَاتلُونَ بِأَنهم ظُلموا وإن الله علَـى نصرهم لَقَدير] الحج/٣٩ ، واعتمد التشريع الإسلامي سياسة التدرج في الإذن بالجهـاد، ومراحلـه المتدرجة، يدل تتابعها أن الإسلام لا يبادر بالحرب، ولا يقرها اعتداء .

قال ابن القيم- رحمه الله-مؤكدا على هذه المراحل: " كان الجهاد محرما، ثم مأذونا به، ثم مـأمورا به لمن بدأهم بالقتال، ثم مأمورا به لجميع المشركين "[4].

وحين صار الجهاد الوسيلة الوحيدة لحماية العقيدة، ونشر شريعة التوحيد والعدل، والحق والخـير، وتأمين الدعوة، رغب الله ورسوله فيه[1]، ففي القرآن الكريم، يقول الله تعالى: [يا أَيها الَّذين آمنـوا

---

(١)- محمود المصري: سيرة الرسول ε، ص٢٣٢ . المباركفوري: الرحيق المختوم، ص١٤٠.

(٢)- علي مرحوم: من مدرسة النبوة، دار البعث للطباعة والنشر، قسنطينة- الجزائر، ط١، (١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م)، ص (٢٦٩ ، ٢٧٠).

(٣)- أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة، مكتبة العبيكان- الرياض، ط١، (١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م)، ج٢، ص٣٣٧.

(٤)- ابن القيم: فقه السيرة، ص١٢٥.

هلْ أدلكُم علَى تجارة تنجِيكُم من عذَابٍ أَليمٍ، تؤمنونَ بِالله ورسوله وتجاهدونَ في سـبِيلِ اللـه بِأَموالكُم وأَنفُسِكُم ذَلكُم خير لكُم إن كُنتم تعلَمونَ] الصف (١٠ ، ١١). أما في السـنة النبويـة، فالأحاديث كثيرة ترغب في الجهاد، منها ما رواه أبو هريرة τ أن رسول الله ε قال: [مثل ا اهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم الدائم، الذي لا يفتر من صلاة ولا صيام حتى يرجع }[٢].

وهكذا فالحرب في الإسلام حرب دفاعية، لا يعتدي المسلمون فيها على أحـد، ولا يقـاتلون إلا مكرهين ومضطرين، يحدوهم أثناء خوضها تحقيق هدفين هما:

١- حماية حرية نشر الدعوة، لا نشرها بالقوة، لقوله تعالى: [لا إِكْراه في الدينِ قَد تبين الرشـد من الغي] البقرة/٢٥٦؛ لأن الإسلام لو انتشر بالقوة؛ لزال سلطانه من القلوب، بزوال سلطان دولته، بعد أن ضعف أهله، وغُلبوا على أمرهم.

٢- توطيد أركان السلام، بأن يكون للأمة جيش قوي، يحترم العدو من خلاله إراد ا، ويهـاب قو ا، فلا يراوده الاعتداء عليها، فيسود الأمن والسلام[٣]، لقوله تعالى: [وأَعدوا لَهم ما استطَعتم من قُوة ومن رباط الْخَيلِ ترهبونَ بِه عدو الله وعدوكُم وآخرِين من دونِهِم لا تعلَمونهم الله يعلَمهم] الأنفال/٦٠.

وأصبح الجهاد ذا المعنى؛ مدرسـة عظيمة في تزكية النفس، دفعت الصحابة ψ أن يخلصوا فيـه لر م، ويبذلوا أنفسهم وأموالهم؛ دفاعا عن دينهم وعقيـد م، وأن تظل كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى[٤].

المطلب الثالث: الدعوة وتحـدي المواجهة.

ولما ازدهرت الدعوة في المدينة، بقوة عددها وعددها، أصبحت في مواجهة مع القوى المختلفة، من مشركي مكة والمدينة، وما حولها من الأعراب من جهة، ومع اليهود والمنافقين من جهة ثانية، وشكل هذا المثلث عـداء كبيرا، وتحديا بارزا؛ للدولة وكيا ا، وللدعوة ومستقبلها، وسنسـلط الضـوء في دراستنا، على أهم المحطات الساخنة- في تحدي المشركين- للصـراع بين الإيمان والكفر، وبين الحق والباطل، عبر مرحلتين أساسيتين هما:

أولا: مرحلة الكفاح للدفاع عن الدعوة وحمايتها.

---

(١)- أبو شهبة: السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، ج٢، ص (٨٤ ، ٨٥).

(٢- مالك بن أنس: الموطأ، ك.الجهاد، باب: الترغيب في الجهاد، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت،ط١، (١٤٢١هـ/٢٠٠٠م)، رقم: ٩٧٣،ص٢٥١.

(٣)- محمود شيت خطاب: الرسول القائد، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت- لبنان، ط٦، (١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م)، ص (٤٠ ، ٤٢).

(٤)- الصلابي: السيرة النبوية، ج١، ص (٥٨٥ ، ٥٨٧).

وفور إعلان قريش حربها على الإسلام والمسلمين، صار من الطبيعي أن تتعامل دولة المدينـة مـع الشرك بزعامة قريش، حسب ما تقتضيه حالة الحرب، فاتجه نشاط الرسـول ε بحكمتـه القياديـة، وحنكته السياسية؛ نحو توطيد أركان الدولة، وترسيخ مكانتها، وإبراز هيبتـها. وبـدأ الرسـول ε بإرسال السرايا، و الخروج في الغزوات[1]؛ " بغرض نشر الإسلام والتعريف بقواعده ومبادئه، وإقراء الناس القرآن، وتوسيع رقعة الأمة أو تأمينها خارج حدودها "[2]، وبلغت السرايا التي بعثها ٣٨ سرية، والغزوات التي خرج فيها ٢٧ غزوة، على مدار عشر سنوات، خلال الفترة المدنية.

١- **السرايا والغزوات التي سبقت بدر الكبرى وفوائدها:**

أمام تصميم قريش على المواجهة المسلحة، رأى الرسول ε أن أقوى وسيلة للدفاع هي الهجـوم، حيث جهز ثمان عمليات هجومية ما بين سرية وغزوة بادرها قريشا، فاعترض قوافلها عدا واحـدة كانت ردا على هجوم قام به *كرز بن جابر الفهري*، وكان قادتها جميعا من المهاجرين؛ على أساس أن العهد الذي كان مع الأنصار آنذاك، هو حماية الرسول ε في المدينة[3].

*** فوائدها:** حققت هذه السرايا والغزوات فوائد عديدة، أهمها:

١- تعرف المسلمون على الطرق المحيطة بالمدينة، والمؤدية إلى مكة، وعلى القبائل المتواجدة بها[4]، فتمكنوا من مـوادعة بعضها والتحالف معها[5]؛ للسيطرة على الطرق التجارية والحيوية، مما يـدفع قريشا إلى مراجعة نفسها، فتعود إلى التفكير في التفاهم والاتفاق[6]، بدل المكابرة والعناد.

٢- إشعار كافة قوى الشرك، بأن المسلمين صاروا أقوياء، يستطيعون الدفاع عن أنفسهم وعـن عقيدتهم، وبأن تكون لهم كامل الحرية في نشر دعوتهم[7].

٣- تخويف اليهود المقيمين بالمدينة، وتحذيرهم من عاقبة الكيد والاعتداء على الإسـلام وأهلـه، وخاصة بعد أن رأوا أمر الرسول ε يستقر، ولواء الإسلام يسمـو ويرتفع، وإشعارهم بأن المسلمين أصبحوا بما لديهم من قوة، يمكنهم إخماد أي فتنة تصـدر عنهم، والقضاء على أسبابها؛ واجتثـاث أصولها[8].

---

(١)- المصدر نفسه، ج١، ص (٥٩٩ ، ٦٠٠).

(٢)- حسين مؤنس: دراسات في السيرة النبوية، ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائر، بدون طبعة وبدون تاريخ، ص١٢٣.

(٣)- الغضبان: المنهج الحركي للسيرة النبوية، ص ١٧٠.

(٤)- عماد الدين خليل: دراسة في السيرة، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع- بيروت، ط١٠، (١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م)، ص١٧٤.

(٥)- خطاب: الرسول القائد، ص٩٣.

(٦)- محمد حسين هيكل: حياة محمد ε، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت- لبنان، ط١، (١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م)، ص٢٠٧.

(٧)- خليل: دراسة في السيرة، ص (١٧٤ ، ١٧٥).

(٨)- هيكل: مرجع سابق، ص (٢٠٨ ، ٢٠٩).

٤- سببت سيطرة المسلمين على الطـرق التجارية والحيوية، مزيدا من الضغـوط الاقتصـادية، والنفسية والعسكرية على المشركين في مكة، والذين لم يترددوا يوما في اضطهاد المسـلمين، و ـب ممتلكا م[١]؛ فصارت مصـالحهم وتجار م في مهب الريح، وأمست رحلة الشتاء والصيف وخيمـة العواقب[٢]، وقوافلهم غير آمنة بين مكة والشام، فسبب هذا الوضع حصارا اقتصاديا حقيقيا[٣].

٥- يعد الرسول ε -من خلال السرايا والغزوات – أول من ابتكر أسلوب الرسـائل المكتومـة؛ حفاظا على المعلومة، وحرمان العدو من أية معلومات تفيد تحركات المسلمين في الزمـان والمكـان، ويعد الكتمان من العوامل الأساسية المؤدية إلى المباغتة التي هي من أهم مبادئ الحرب[٤]. وكان الأمر الأمر لعبد الله بن جحش τ بأن لا يفتح الرسالة إلا بعد مسيرة يومين، يعد تدريبا "علـى السـرية، والطاعة، والانضباط"[٥]. وهذه العناصر من أساليب العمل العسكري الدقيق والمنظم، فالهدف الأقرب الأقرب يعرفه الجنود وقيادا م؛ أما الهدف الأبعد فمن اختصاص المُخطط، أو القائد الأول[٦].

٦- كانت – الغزوات والسرايا- تدريبا عمليا لشباب الدعوة على الحرب، بعد أن كُفت أيديهم عنها مدة ثلاثة عشر عاما في الفترة المكية، وأصبحوا أمام المشركين يشـكلون قـوة مرهوبـة ذات شوكة، يحسب لها حسا ا، قبل التفكير في مواجهتها[٧].

٧- التخطيط أوكَلَ قيادة السرايا للمهاجرين دون الأنصار؛ لإشعارهم بقضيتهم وخطورة دورهم، وأن يفهم المهاجرون بأن المدينة ليست موطنا بديلا عن مكة؛ بل تعد عونا لهم في استرداد مكة أرض التوحيد، وقد أُخرجوا منها بغير حق، وأ م المعنيون قبل غيرهم بتحريرها من الشرك والوثنية[٨].

٨- في هذه الغزوات والسرايا قدم الرسول ε نفسه فداء للدعوة؛ فخرج على رأسها، كما قـدم أقرب الناس إليه، وأحبهم لـه. فكان على رأس السرية الأولى عبيدة بن الحارث (ابن عمه)، وعلى رأس السرية الثانية حمزة بن المطلب (عمه)، وعلى رأس السرية الثالثة سعد بن أبي وقاص (خاله)، وعلى رأس السـرية الرابعة عبد الله بن جحش (ابن عمته) ψجميعا. وقـاد الرسـول ε بنفسـه الغزوات الأربع، وتم كل هذا قبل غزوة بدر الكبرى؛ وفي هذا درس للدعاة، بأن الدعوة لن تنتصـر؛

---

(١)- سالم نوري: فقه السيرة النبوية، ص٢١٧.

(٢)- الغضبان: المنهج الحركي للسيرة النبوية، ص١٧٠.

(٣)- خطاب: الرسول القائد، ص٩٤.

(٤)- خليل: دراسة في السيرة، ص١٧٥.

(٥)- الغضبان: فقه السيرة النبوية، ص٢٦٧.

(٦)- المصدر نفسه، ص (٢٦٦ ، ٢٦٧).

(٧)- الغضبان: المنهج الحركي للسيرة النبوية، ص١٧٠.

(٨)- الغضبان: مصدر سابق، ص٢٦٦.

إلا إذا كان وقودها الأول من أقارم وذويهم؛ ومن أحب الناس إليهم، وأن يكون الدعاة النمـاذج الحية في الاستشهاد، بدل الاقتصار على الوعظ والإرشاد[1].

٢- الانتصار الحاسم في بدر الكبرى.

كانت غزوة بدر الكبرى معركة حاسمة، تقرر من خلالها مصير الأمة، ومستقبل الدعوة الإسلامية، وعليها توقف المصير المعنوي للإنسانية جمعاء. فما حدث من فتوحات وانتصارات، وما قام من دول وحكومات، مدين للانتصار الحاسم في بدر. إنه الانتصار الذي فرق بين الإيمان والكفر، وفرق بـين الوحدانية والوثنية؛ فكان بحق يوم الفرقان[2]، لقوله تعالى: [وما أنزلْنا علَى عبدنا يوم الفُرقَان يـوم التقَى الجَمعان والله علَى كُل شيءٍ قَدير] الأنفال/٤١. وعلى درب السرايا والغـزوات، خـرج الرسول ε وأصحابه؛ يعترضون عير قريش، وكانت تحمل ثروة كبيرة، وأموالا طائلة؛ بلغت خمسين ألف دينار، يحرسها أربعين رجلا. وكان المشركون قد سلبوا أموال المسـلمين المهـاجرين، ظلمـا وعدوانا، مما أعطى المسلمين مبررا لاستعادا. وبحكم حالة الحرب القائمة بينهما، فإن نجاح العمليـة يسهم في ضعف قوة المشركين، ويهز سلطان قريش، ويزلزل كيانها؛ فتفقد هيبتها[3].

وكان عدد المسلمين ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا، وفرسان وسبعون بعيرا، تحمل الماء والزاد، ويتعقبها المشاة دون تفرقة بين قائد وجندي؛ وتابع ومتبوع[4].

وعندما سمع أبو سفيان بخروج المسلمين، غير مسار القافلة، فلما نجا وسلمت العير، همت قـريش بالرجوع، فأبى أبو جهل إلا القتال، وكان تعدادهم: تسعمائة وخمسون مقاتلا، معهم مائـة فـرس، وسبعمائة جمل؛ ومعهم المغنيات ينشدن أشعار الحماسة، وذم المسلمين، وزين لهم الشيطان أعمالهم، وأغواهم بأحلام النصر؛ فكانت عاقبتهم خسارة وهلاكا[5]. قال تعالى: [وإذْ زين لَهـم الشـيطَانُ أَعمالَهم وقَالَ لا غَالب لَكُم اليوم من الناسِ وإني جار لكُم فَلَما تراءَت الفئَتان نكَص علَـى عقبيـه وقَالَ إني برِيءٌ منكُم إني أَرى ما لا ترونَ إني أَخاف الله والله شديد العقَابِ] الأنفال/٤٨.

ولم يكن النبي ε يطلب الحرب لأجل الحرب؛ إلا أنه كان نعم القائد البصير إذا لزمته، ودعته إليها المصلحة والضرورة، فبجوار رسالته العظمى- مصدر الإلهام والهداية- تظهر عبقريته العسـكرية، في

---

(١)- المصدر نفسه، ص٢٦٦.

(٢)- الندوي: السيرة النبوية، ص٢١٣.

(٣)- سالم نوري: فقه السيرة النبوية، ص٢٢٧.

(٤)- الندوي: مصدر سابق، ص٢١٧.

(٥)- ايتين دينيه: محمد رسول الله، منشورات المكتبة العصرية، صيدا- بيروت، بدون طبعة وبدون تاريخ، ص (١٥٥ ، ١٥٦).

قيادته للجيش، وترسيم خطـطه[1]. فكان حريصا على معرفة جيش عدوه، وجمع المعلومات عـن عدده وعدده؛ والوقوف على أهدافه. ومارس الرسول ε مبدأ الكتمان وأسلوب التورية في الحـرب، حينما سأل الشيخ الذي لقيه في بدر عن محمد وجيشه، وعن قريش وجيشها، وتورية الرسول ε في إجابته على سؤاله: ممن أنتما ؟ قائلا: { نحن من ماء }[2]. وهو جواب يقتضيه المقـام، ويـراد بـه كتمان أخبار جيش المسلمين عن الأعداء. وأمر بقطع الأجراس من أعناق الإبل يوم بدر، وكتم خبر الجهة التي يقصدها عندما عزم الخروج إلى بدر، قائلا: {..إن لنا طلبة، فمن كان ظهـره حاضـرا فليركب معنا..}[3] ؛ حرصا منه على كتمان وجهته؛ مما يدل على استمرار التربية الأمنية في المنهاج النبوي منذ الفترة المكية، ونراها تنمو وتتطور مع بناء الدولة في الفترة المدنية[4].

ولما بلغ الرسول ε الروحاء، وصله خبر قريش ومسيرها، فتغير الأمر لدى المسلمين، فبدل الظفـر بالعير (غير ذات الشوكة)، أراد الله لهم النفير (ذات الشوكة)، وكانت استشارة النبي ε لأصـحابه، بمثابة اختبار لإيما م، وصلابة عقيد م، وتبين استعدادهم للجهاد؛ لإحقاق الحق، وإبطال الباطل[5]، لقوله تعالى: [وإذْ يعدكُم الله إحدى الطائفَتينِ أنها لَكُم وتودونَ أن غَير ذَات الشوكَة تكُونُ لَكُـم ويريد الله أن يحق الحَق بِكَلماته ويقْطَع دابِر الكَافرِين، ليحق الحَق ويبطلَ الباطلَ ولَوكَرِه المُجرِمونَ] الأنفال (٠٧ ، ٠٨).

وفي ساحة المعركة مارس الرسول ε مبدأ الشورى عمليا، وأنه على جلالة قدره، وبعـد نظـره، وشرف رسالته؛ لم يتحرج بالأخذ بمشورة الحباب بن المنذر τ في اختيار المكان الملائم للجـيش[6]. وأخذ برأي سعـد بن معاذ τ بأن يبنى له ε عريشا وراء صفوف المسلمين، يكون مقـرا لقيادتـه، ويأمن فيه شر العدو، فإن أعزهم الله كان ما أحب، وإلا جلس على ركائبه، ولحق بمن في المدينـة، وهم أشـد الناس حبا له؛ يفـدونه بنفسه، وينصرون دعوته[7]. وهكذا كسب الرسـول ε القائد بتواضعه وحكمته، قلوب أصحابه، فقدموا أنفسهم وضحوا بأرواحهم؛ فداء له ولدعوته، قال تعالى:

---

(١)- العقاد: عبقرية محمد ε، ص٣٧.

(٢)- ابن هشام: السيرة النبوية، ج٢، ص٤٥٩.

(٣)- مسلم: ك. الإمارة، باب: ثبوت الجنة للشهيد، رقم: ١٩٠١، ص٧٣٦.

(٤)- الصلابي: السيرة النبوية، ج٢، ص (١١ ، ١٣).

(٥)- أبو شهبة: السيرة النبوية، ج٢، ص١٢٩.

(٦)- المصدر نفسه، ج٢، ص١٣٤.

(٧)- السباعي: السيرة النبوية، ص٩٢.

[فَبِما رحمة من الله لنت لَهم ولَو كُنت فَظاً غَليظَ القَلْبِ لانفَضوا من حولك فَاعف عنهم واستغفر لَهم وشاوِرهم في الأَمرِ فَإِذَا عزمت فَتوكلْ علَى الله إن الله يحب المُتوكلين] آل عمران/ ١٥٩.

وفي ليلة المواجهة الحاسمة، هيأ الله المؤمنين للمجا ة، فأنزل عليهم النعاس والمطـ ـر، فكان رحمـ ـة عليهم، فربط على قلو م، وثبت أقدامهم، وفي المقابل كان هذا وبالا على المشركين، فأعاقهم مـ ـن التقدم[١]، قال تعالى: [إِذْ يغشيكُم النعاس أَمنةً منه وينزلُ علَيكُم من السماءِ ماءً ليطَهركُم بِه ويذْهب عنكُم رِجز الشيطَان وليربِطَ علَى قُلُوبِكُم ويثَبت بِه الأَقْدام] الأنفال/١١.

وفي صباح يوم الجمعة ١٧ رمضان من السنة الثانية للهجرة، أقبلت قريش بجيشها، وتقابل الفريقان، ووضع الرسول ε نظاما جديدا للقتال، لم تعهده العـ ـرب من قبل؛ إنه نظام الصفوف علـ ـى هيئـ ـة صفوف الصلاة؛ فكانت الأولى لأصحاب الرماح، ثم رماة النبال، ثم أصحاب السـ ـيوف[٢]، عمـ ـلا بقوله تعالى: [إِن الله يحب الَّذين يقَاتلُونَ في سبِيله صفاً كَأَنهم بنيانٌ مرصوص] الصف/٠٤.

ولما التقى الجمعان بدأ الرسول ε يحرض المؤمنين على القتال، ويبشرهم بالجنة، قائلا: { قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض }[٣]، ويبشرهم بقتل صناديد المشركين، قائلا: { والذي نفس محمد محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا، مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة }[٤]، ولمـ ـا أصدر الرسول ε الأمر بالقتال عاد إلى عريشه، وكان أبو بكر يرافقه، وسعـ ـد بن معـ ـاذ يحرسـ ـه متوشحا سيفه. ثم لجأ الرسول ε إلى ربه؛ يدعوه ويناجيه، متذللا ومتضرعا؛ يناشده النصر، قائلا: { اللهم! إنك إن تشأ، لا تعبد في الأرض }[٥]. فقال له أبـ ـو بكر: حسبك الله. ثم خرج النبي ε وهو وهو يردد قول الله تعالى: [سيهزم الجَمع ويولونَ الدبر] القمر/٤٥. وازداد حماس الصحابة في ساحة المعـ ـركة، واشتد القتال، وأمد الله المؤمنين ا اهدين بالملائكـ ـة، فثبتـ ـوا في القتـ ـال، وأرعـ ـب الله المشركين، ودحرهم في الميدان. وثبت التأييد بالملائكة[٦]، في قوله تعالى: [إِذْ يـ ـوحي ربـ ـك إِلَـ ـى المَلائكَة أَني معكُم فَثَبتوا الَّذين آمنوا سأُلْقي في قُلُوبِ الَّذين كَفَروا الرعب فَاضرِبوا فَوق الأَعنـ ـاقِ واضرِبوا منهم كُل بنان] الأنفال/١٢. وفي قوله تعالى: [إِذْ تستغيثُونَ ربكُم فَاستجاب لَكُـ ـم أَنـ ـي

---

(١)- الندوي: السيرة النبوية، ص٢١٨.

(٢)- سالم نوري: فقه السيرة النبوية، ص٢٣٢.

(٣)- مسلم: ك. الإمارة، باب: ثبوت الجنة للشهيد، رقم: ١٩٠١، ص٧٣٦.

(٤)- ابن هشام: السيرة النبوية، ج٢، ص٤٦٧.

(٥)- مسلم: ك. الجهاد والسير، باب: استحباب الدعاء بالنصر عند لقاء العدو، رقم: ٤٥٤٦، ص٦٧١.

(٦)- سالم نوري: فقه السيرة النبوية، ص (٢٣٣ ، ٢٣٥).

ممدكُم بِألْف من المَلائكة مردفين، وما جعلَه الله إلا بشرى ولتطْمئن بِه قُلُوبكُم وما النصر إلا مـن عند الله إن الله عزِيز حكيم] الأنفال (٠٩ ، ١٠).

وفي اللحظة الحرجة، والساعـة الحاسمة، التي تجلت فيها الثقة والاضطراب، والسكينة والافتقـار؛ تحددت مكانة الأمة، وقيمتها في هذا العالم، وتحدد الثغر الذي ترابط عليه؛ وهـو الـدعوة إلى الله، وإخلاص الدين والعبادة له[1].

وهكذا أيد الله رسوله وأصحابه بالنصر المبين، فمنحهم أكتاف المشركين؛ فقتلوا منهم سـبعين، وأسـروا سبعين، واستشهد من المسلمـين أربعة عشر رجلا[2]. وقسم الرسول ε الغنـائم علـى المسلمين على السواء، واستوصى بالأسرى خيرا، وقبل فداءهم من قريش، بين الألف والأربعة آلاف درهم، وعفى عن الفقراء منهم[3].

وقريبا من المدينة، لقيه المسلمون الذين لم يكتب لهم الخروج معه إلى القتال يهنئونه، ثم دخل المدينة مؤيدا منصورا، قد هابه الأعداء في المدينة وحولها، فاعتنق الإسلام كثير من الناس رغبة ورهبة، وأسلم ابن أبي بن سلول نفاقا[4]، وكتب الله تعالى للمسلمين نصرا حاسما مؤزرا؛ أشعرهم بالفخر والاعتزاز، والاعتزاز، فكانت معركة بدر الكبرى حاسمة فاصلة، ظل التاريخ يروي تفاصيلها للأجيال جيلا بعد جيل.

٣- غزوة أحد وتمييز الصفوف وتمحيص النفوس.

أفرز الانتصار الحاسم في بدر، تحديا جديدا للدعوة، فشكلت عداوة قريش، وكيد اليهود، وتآمـر القبائل ا اورة، تحالفا معاديا للإسلام وأهله؛ لما كانت تعتقده هذه القوى الثلاث في انتصار بـدر؛ ديدا لكيا ا، وذهابا لمصالحها، لقوله تعالى: [إن الّذين كَفَروا ينفقُونَ أَموالَهم ليصدوا عن سـبِيلِ الله فَسينفقُونها ثُم تكُونُ علَيهم حسرةً ثُم يغلَبونَ والذين كَفَروا إِلَى جهنم يحشرونَ] الأنفال/٣٦.
وكان الرسول ε واعيا لتحركات قريش، وفطنا لاتصالا ا المريبة باليهود، وبالقبائـل القريبـة مـن المدينة، فأحكم السيطرة على الطرق التجارية الهامة لقريش، وفرض عليها حصارا اقتصاديا، وهـاجم قبائل بني سليم وغطفان في عقر دارهم بعد أن رصد تحركا م، وحاصر يهود بني قينقاع بعد أن أبدوا

---

(١)- الندوي: السيرة النبوية، ص٢٢٠.

(٢)- ابن القيم: فقه السيرة، ص (١٤٣ ، ١٤٩).

(٣)- خليل: دراسة في السيرة، ص١٨٤.

(٤)- ابن القيم: مصدر سابق، ص١٤٨.

تطاولهم، وتشكيكهم واستهـزاءهم؛ وأحبط ذا مخططات قريش في إرهاق المسـلمين للاسـتعداد للمعركة[1].

وباتت قريش عرضة للخطر، أمام مضايقة المسلمين لتجار ا، ودفعتها الرغبة الملحة في الانتقـام، باتجاه الإعداد العملي للحملة الجديدة على المسلمين؛ أملا في استعادة ماء الوجه، ومحوا لعار الهزيمة في بدر. فأتمت استعدادا ا العسكرية في شوال من السنة الثالثة للهجرة[2]. فحشدت ثلاثة آلاف مقاتل، معهم الحلفاء والعبيد، والنساء للتشجيع ورفع المعنويات[3]، في جيش بلغت نفقاته خمسين ألف دينار ذهبا[4].

وأحسن الرسول ε اختيار الحباب بن المنذر τ، ليرصد له أخبار جيش المشركين، وأوصاه بـأن لا يخبره بين أحد من المسلمين إلا أن يرى قلة؛ حرصا منه على معرفة جيش المشركين وقوته، فيأخـذ الاستعدادات الكاملة، ويضع الخطط المناسبة، ويحافظ في آن واحد على معنويات ا اهدين وحماسهم. ووفق الحباب بن المنذر τ في مهمته، فنجح في اختراق الجيش ، وأظهر خبرة حربية عالية في رصـد عددهم وعددهم بما يوافق الإحصائيات الحقيقية أو يقار ا. وكان من موقفه ε بعد أن أُخـبر بـأمر العدو، أن احتسب أمره إلى الله وتوكل عليه، قائلا: { حسبنا الله ونعم الوكيل اللهم بك أجول وبك أصول }، وعلى درب هذا المنهج انتصر الرسول ε والمؤمنون من بعده على أعدائهم[5].

وشدد الرسول ε الحراسة على المدينة، واستشار أصحابه بعد أن عرض عليهم أن يضلوا بالمدينـة ويتحصنون ا، فإن هاجمهم المشـركون، قاتلوهم على أبواب الأزقة، وفي الشـوارع والحـارات، وشاركهم الأطفال والنساء من فوق البيوت، وكان على هذا الرأي رأس المنافقين بن أبي بن سلول؛ إلا أن الكثير من الصحابة وخاصة الشباب منهم، ومن فا م يوم بدر، أظهروا حماسهم، وألحوا على الخروج، وبدا رأيهم سائدا في أوساط المسلمين[6].

وحتى لا يطـول النقاش، وحفاظا على وحدة الصف، وتلبية لرغبة الشباب وكبار الصـحابة في الجهاد والاستشهاد، دخل النبي ε بيته، وارتدى درعـه، وحمل سلاحه؛ غير أن الذين ألحـوا عليـه بالخروج، ندموا على موقفهم، وأظهروا له مراجعة موقفهم، فأجا م قائلا: { ما ينبغي لنبي إذا لبس

---

(١)- عبد العزيز كامل: دروس من غزوة أحد، دار المعارف- القاهرة، ط٣، (١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م)، ص (٥٠ ، ٥٦).
(٢)- سالم نوري: فقه السيرة النبوية، ص٢٥٠.
(٣)- خطاب: الرسول القائد، ص١٧٢.
(٤)- الصلابي: السيرة النبوية، ج٢، ص١١٦.
(٥)- الحميدي: التاريخ الإسلامي، ج٥، ص (٦٦ ، ٦٧).
(٦)- سيد قطب: فقه الدعوة "موضوعات في الدعوة والحركة "، مؤسسة الرسالة – بيروت– ط١(١٣٩٠هـ/١٩٧٠م)، ص١١٤.

لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه }[1]، ولما عزم الرسول ε على الخروج، رأى جماعـة من اليهود يريدون الخروج مع ابن أبي بن سلول، فرفض مشاركتهم، قائلا: { مروهم فليرجعوا فإنا لا نستعين بالمشركين على المشركين }[2]. وخرج الرسول ε في ألف من أصحابه، فلما قطعوا شوطا بين المدينة وأحد، انخذل ابن سلول بثلث الجيش؛ متذرعا بقولـه: أطـاعهم وعصـاني[3]. وكـان الانسحاب تنقية لصف المؤمنين، وتمييزا لهم، وتمحيصا لنفوسهم، فلا يبقى من يرجف فيهم، ويخـذل بينهم، كما بين هذا القرآن في قوله تعالى: [ما كَانَ الله ليذَر المُؤمنِين علَى ما أَنتم علَيه حتى يميـز الخَبِيثَ من الطيبِ] آل عمران/١٧٩. وفي قوله تعالى: [وما أَصابكُم يوم التقَى الجَمعان فَبِإِذْن اللـه وليعلَم المُؤمنِين، وليعلَم الَّذين نافَقُوا وقيلَ لَهم تعالَوا قَاتلُوا في سبِيلِ الله أَوِ ادفَعوا قَالُوا لَو نعلَم قتالاً لاتبعناكُم هم للْكُفْرِ يومئذ أَقْرب منهم للإِيمان يقُولُونَ بأَفْواههم ما لَيس في قُلُوبِهم والله أَعلَم بِمـا يكْتمونَ] آل عمران (١٦٦، ١٦٧). وحاول عبد الله بن حرام τ إقناع المنـافقين بـالعودة فـأبوا وذكروا ما حكته الآية الكريمة السابقة، فأجا م قائلا:" أبعدكم الله أعداء الله فسـيغني الله عـنكم نبيه"[4].

وأبعد النبي ε صغار السن من المعركة، عدا رافع بن خديج τ لحسن رمايته، وسمرة بن جنـدب τ لقوته. وفي ساحة المعركة تعبأ الرسول ε بجيشه للقتال وهم في سبعمائة رجل، جاعلا ظهره للجبـل ووجهه للمشركين، وصف جيشه، ووضع على كل فرقة منه قائدا، واختار خمسين من الرماة، بقيادة عبد الله بن جبير τ جعلهم فوق جبل* عينين * مقابل جبل أحد؛ حماية لظهر المسلمين من التفـاف المشركين حولهم، وشدد عليهم بلزوم أماكنهم[5]، قائلا: { إن رأيتمونا تخطفنا الطير، فـلا تبرحـوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا هزمنا القوم وأوطأناهم، فلا تبرحوا حتى أرسل إلـيكم }[6].

واندفع المؤمنون لقتال المشركين بإخلاص وصدق، فأنزل الله عليهم نصره، وصدقهم وعده؛ فولى المشركون الأدبار، وانغمس المسلمون يجمعون الغنائم، وساقت الرماة لحظـة من الضعف البشـري، فنسوا أوامر الرسول ε وغادروا مواقعهم، رغم تذكير قائدهم لهم، بعهد الرسول ε عليهم؛ وتركـوا

---

(١)- ابن القيم الجوزية: زاد الميعاد في هدي خير العباد، دار الكتاب العربي، بيروت- لبنان، بدون طبعة وبدون تاريخ، ج٢، ص٩٢.
(٢)- السباعي: السيرة النبوية، ص (٩٥ ، ٩٦).
(٣)- الندوي: السيرة النبوية، ص٢٣٢.
(٤)- العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ج٢، ص (٣٨١ ، ٣٨٢).
(٥)- الندوي: السيرة النبوية، ص٢٣٢.
(٦)- البخاري: ك. الجهاد والسير، باب: ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب، وعقوبة من عصى إمامه، رقم: ٣٠٣٩، ص٥٨١.

الثغر الذي كانوا يدافعون عنه. واستغل خالد بن الوليد هذه الفرصة، فانقض على الرماة فهاجمهم، ولحق بالمسلمين يقاتلهم وراء ظهورهم، وتراجع المسلمون، وعاد المشركون إلى قتالهم من جديد، فاضطرب حبل المسلمين، وفقدوا مواقعهم وأخذوا يقاتلون دون تخطيط وبلا تمييز، وكان بحق يوم بلاء وتمحيص، وأصيب الرسول ε بالحجارة، فكسرت رباعيته، وشج رأسه، وسال الدم على وجهه، وجعل يمسحه ويقول: { كيف يفلح قوم شجوا نبيهم }[1]، وكادت هذه المحنة تعصف بمجهودات ست عشرة سنة من الدعوة؛ بسبب زلة الرماة، ومخالفتهم لأوامر قائدهم، وإخلائهم للجبهة التي عينهم عليها[2]، وأشار القرآن إلى هذا في قوله تعالى: [وَلَقَد صدقَكُم الله وعده إذْ تحسونهم بِإِذْنِه حتى إذَا فَشلْتم وتنازعتم في الأمرِ وعصيتم من بعد ما أَراكُم ما تحبونَ منكُم من يرِيد الدنيا ومنكُم من يرِيد الآخرةَ ثُم صرفَكُم عنهم ليبتليكُم ولَقَد عفَا عنكُم والله ذُو فَضلٍ علَى المُؤمنِين] آل عمران/١٥٢.

وركز المشركون هجومهم على الرسول ε وثبت الصحابة يحمونه بأنفسهم، ويقاتلون دونه؛ بإيمان عميق، وفدائية عالية، ونزع أبو عبيدة بن الجراح τ إحدى الحلقتين من وجه الرسول ε، وتترس أبو دجانة τ عليه يحميه من ضربات النبال، ووقف سعد بن أبي وقاص τ يرمي النبال دونه، وأصيبت عين قتادة بن النعمان τ، فوقعت على وجنته فردها الرسول ε بيده، فصارت أحسن عينيه[3]، وتقدم أنس بن النضر τ يقاتل المشركين، ولم ينهزم حين انهزم الناس، قائلا: " ماذا تصنعون بالحياة بعده، قوموا فموتوا على مات عليه "[4]، واضطرت أم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية- رضي الله عنها- للقتال دفاعا عن الرسول ε، فجرحت جراحا كثيرة[5]، وقَتلَ الرسول ε أبي بن خلف بحربة، فمات أثناء عودته إلى مكة. وتمكن الصحابة بصبرهم وجلدهم من اختراق الحصار الدموي، وتمكنوا من اللجوء إلى جبل أحد، فكانت دماؤهم ثمنا لإصلاح ما أفسده الرماة، ويئس المشركون من إنهاء المعركة بنصر حاسم، فكفوا عن مطاردة المسلمين في شعاب أحد، وعادوا إلى مكة بعد أن نجت قاعدة الإسلام في المدينة من كيدهم[6].

---

(١)- البخاري: ك. المغازي، باب: [لَيس لَك من الأَمر شيءٌ أَو يتوب علَيهِم أَو يعذبهم فَإِنهم ظَالمونَ] آل عمران/١٢٨. ص٧٧٢.

(٢)- الندوي: مصدر سابق، ص (٢٣٤ ، ٢٣٥).

(٣)- المصدر نفسه، ص (٢٣٥ ، ٢٣٦).

(٤)- ابن القيم الجوزية: زاد الميعاد، ج٢، ص٩٣.

(٥)- العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ج٢، ص٣٩٠.

(٦)- كامل: دروس من غزوة أحد، ص (٧٧ ، ٨٧).

وكان انهزام المسلمين في أحد شذوذا في القاعدة، بعد أن استشهد من المسلمين سبعون شهيدا، وقتل من المشركين اثنان وعشرون رجلا، رغم هذا فإن تفاؤله ε لم يفارقه لحظة، فقد أمر المسلمين بلم شعثهم، وتضميد جراحهم، والاستعداد من جديد لملاقاة الأعداء[1]؛ فخرجوا حتى انتهوا إلى "حمراء الأسد" على بعد ثمانية أميال من المدينة، فأقاموا ثلاثة أيام، ورجعوا إلى المدينة دون أن يحدث قتال[2]، وقد أثنى الله تعالى عليهم في قوله تعالى: [الَّذين استجابوا لله والرسولِ من بعد ما أصابهم القَرح للذين أحسنوا منهم واتقَوا أجر عظيم، الَّذين قَالَ لَهم الناس إن الناس قَد جمعوا لَكُم فَاخشوهم فَزادهم إيماناً وقَالُوا حسبنا الله ونِعم الوكيلُ، فَانقَلَبوا بِنِعمة من الله وفَضلٍ لم يمسسهم سوءٌ واتبعوا رِضوانَ الله والله ذُو فَضلٍ عظيمٍ، إنما ذَلكُم الشيطَانُ يخوف أَولياءَه فَلا تخافُوهم وخافُون إن كُنتم مؤمنِين] آل عمران (١٧٢ ، ١٧٥).

٤- الدعوة وتحدي الأحزاب.

تعد غزوة الأحزاب من الوقائع ذات الأثر البعيد في تاريخ الإسلام والمسلمين، والمحك الحقيقي في تقرير مصير الدعوة الإسلامية؛ فكانت بحق معركة حاسمة، ومحنة شديدة، ابتلي فيها المسلمون، وزلزلوا زلزالا شديدا[3]. قال تعالى: [إِذْ جاؤوكُم من فَوقكُم ومن أَسفَلَ منكُم وإِذْ زاغَت الْأَبصار وبلَغت الْقُلُوب الْحناجِر وتظُنونَ بِالله الظنونا، هنالك ابتلي الْمؤمنونَ وزلْزِلُوا زِلْزالاً شديدا] الأحزاب (١٠ ، ١١).

وجاء تحرك المشركين استجابة لدعوة نفر من يهود، الذين أجلاهم الرسول ε على المدينة، للانتقام من المسلمين، بتأليب القبائل المعادية، والتوحد لاستئصال شأفة المسلمين[4]. ووجدت قريش في دعوة يهود فرصة سانحة؛ لفك الحصار الاقتصادي عنها، وتحرير طرق تجارتها إلى الشام، وازدادت نشاطا عندما شهد يهود لها زورا وبهتانا؛ بأفضلية الوثنية على التوحيد، وسجل القرآن موقف يهود المخزي، في قوله تعالى: [أَلَم تر إِلَى الذين أُوتواْ نصيبا من الْكتابِ يؤمنونَ بِالْجِبت والطاغُوت ويقُولُونَ للذين كَفَرواْ هؤلاء أَهدى من الذين آمنواْ سبِيلاً، أُولَئك الذين لَعنهم اللّه ومن يلْعنِ اللّه فَلَن تجِد لَه نصيرا] النساء (٥١ ، ٥٢). وأنكر ولفنسون تورط أسلافه، في كتابه * تاريخ اليهود في بلاد العرب *، قائلا: " كان من واجب هؤلاء ألا يتورطوا في مثل هذا الخطأ الفاحش، وألا يصرحوا أمام

---

(١)- عبد الحليم محمود: الرسول ε لمحات من حياته ونفحات من هديه، ص (١٣٨ ، ١٣٩)، المكتبة العصرية- بيروت، بدون طبعة وبدون تاريخ.

(٢)- الندوي: السيرة النبوية، ص (٢٤٠ ، ٢٤١).

(٣)- المصدر نفسه، ص٢٤٩.

(٤)- محمد الغزالي: فقه السيرة، ص٢٩٣.

زعماء قريش، بأن عبادة الأصنام أفضل من التوحيد الإسلامي، ولو أدى بهم الأمر إلى عدم استجابة مطالبهم.. "[١]. ونجح وفد يهود بعدما ضم غطفان أكبر قبائل نجد إلى التحالف، مقابل نصف ثمر خيبر؛ إغراء لهم بالمشاركة[٢]، وتم إنشاء اتحاد عربي وثني يهودي عسكري ضد المسلمين، وعاد الوفد[٣] إلى المدينة في جيش قوامه عشرة آلاف مقاتل[٤]، أسندت قيادته إلى أبي سفيان[٥].

ولم تخف هذه الأحداثُ المتسارعة، على جهاز أمن الدولة الإسلامية، فكان الرسول ε على حذر تام من أعدائه، فكان يرصد تحركات وفد يهود مذ خرج من خيبر قاصدا مكة، وبالمحادثات التي دارت بينه وبين قريش ثم غطفان. وما إن نقلت استخبارات المدينة ما عزمت عليه الأحزاب، من محاربة الإسلام، وتدمير دولته الجديدة، حتى بادر الرسول ε باستشارة أصحابه كعادته؛ لاتخاذ الإجراءات اللازمة؛ للدفاع عن الدعوة، وحماية المشروع الحضاري للأمة. وخرجت المشاورات المستفيضة[٦]، بحفر خندق على الجهة الشمالية المكشوفة من المدينة، وقسم الرسول ε أصحابه إلى مجموعات، تتكون كل مجموعة من عشرة أشخاص، تكلف كل واحدة بحفر أربعين ذراعا، وكان الرسول ε قدوتهم؛ يساهم في الحفر بهمة عالية، وتفان في العمل، وكان التراب يغطي بطنه وصدره[٧]، وكان المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة، فلما رأى ما بهم من جوع ونصب، قال:

" اللهم إن العيش عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة "

فقالوا مجيبين له:

نحن الذين بايعوا محمدا على الجهاد ما بقينا أبدا[٨].

وهكذا كان تنظيم العمل وتقسيمه، وإسهام الرسول ε فيه، والإيمان العميق ببذل الطاقة؛ لإنجاز الخطة الدفاعية، واستعظام الخطر الداهم، وتأميل الرسول ε جنده، ووعدهم بالنصر؛ بتسلم مفاتيح الشام وفارس، والمدائن واليمن، كلها عوامل كان لها الأثر الحاسم في إنجاز الخندق، البالغ طوله اثني

---

(١)- هيكل: حياة محمد ε، ص٢٧٣.

(٢)- العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ج٢، ص٤١٩.

(٣)- ويضم الوفد خمسة من زعماء يهود وهم: سلام بن أبي الحقيق، كنانة بن أبي الحقيق، وحي بن أخطب (من بني النضير)، وأبو عمار، وهوذا بن قيس (من بني وائل)، خليل: دراسة في السيرة، ص٢٠٩.

(٤)- الصلابي: السيرة النبوية، ج٢، ص٢٩٠.

(٥)- الندوي: السيرة النبوية، ص٢٥٠.

(٦)- سالم نوري: فقه السيرة النبوية، ص٢٧٢.

(٧)- خليل: دراسة في السيرة، ص٢١٠.

(٨)- البخاري: ك. المغازي، باب غزوة الخندق، رقم: (٤٠٩٩- ٤١٠٠)؛ ص (٧٧٨ ، ٧٧٩)، ومسلم عن أنس بنحوه، برقم: ١٨٠٥.

عشر ألف ذراع في ستة أيام. واستكمالا للخطة الدفاعية، عسكر الرسول ε بثلاثـة آلاف مجاهـد، جاعلا ظهر جيشه إلى جبل **سلع،** موزعا النساء والأطفال في قلاع حصينة[١]. وكانت خطة الخندق متطورة، ولم تكن معروفة ولا مألوفة في حروب العرب، فكانت بحق مفاجأة حقيقية للزاحفين علـى المدينة[٢].

وأبطل الأسلوب الجديد خطة الأحزاب، وأضعف معنويا م، وشرد أذها م؛ وشتت قـواهم[٣]. وقالوا: هذه المكيدة ما كانت العرب تصنعها ولا تكيدها[٤]. واضطر الأعداء إلى الـ ول خـارج المدينة، محاولين عبثا إيجاد ثغرة ينفذون منها، وكانت مفرزة من فرسان قريش يقودها عمرو بن عبد ود، استطلعوا منطقة ضيقة، وعبروها بخيولهم، فأقبل عليهم علي بن أبي طالب τ فقطع خط رجعتهم، ومنع امدادات الأحزاب إليهم، ثم نازل عمرو بن عبد ود فقتله، وقتل المسلمون رجلين من المشركين؛ وعادت بقية فرسا م هاربة إلى قواعدها[٥].

واستمر المسلمون يكافحون المشركين، بصبر وثبات، يرشقو م بالنبل تارة، ويرمو م بالحجـارة تارة أخرى؛ لمنعهم من اقتحام الخندق، أو بناء طرق. واشتد الوضع على المسلمين حين نقض يهـود بني قريظة عهدهم، وبحكم موقعهم في الجنوب الشرقي للمدينة يكونون قادرين على توجيـه ضـربة مؤذية للمسلمين من الخلف. و ذا الغدر صار المسلمون بين فكي كماشة، فالأحزاب من فـوقهم، وبنو قريظة أسفل منهم، وظن المنافقون بالله الظنونا؛ وزلزل المسلمون زلزالا شديدا. وجاء الوصـف في القرآن لهذه الحال، في قوله تعالى: [إِذْ جاؤوكُم من فَوقكُم ومن أَسفَلَ منكُم وإِذْ زاغَت الْأَبصار وبلَغت الْقُلُوب الْحناجِر وتظُنونَ بِالله الظنونا، هنالك ابتلي الْمؤمنونَ وزلْزِلُـوا زِلْزالًـا شـديدا] الأحزاب (١٠ ، ١١). ووقف المسلمـون بإيما م العميق، وتربيتهم العظيمة، يناظلون بشدة، وعزم وقوة، يكافحـون الشدائد، ويواجهـون التحديات الجسيمة، والمشركون مستمرون في محـاولات الاختراق، مما تسبب في فوات صلاة العصر، وقد استاء الرسول ε لفوات وقت الصلاة، حتى دعـا على المشركين يوم الخندق، قائلا: { ملأ الله قبورهم وبيو م نارا، كما شغلونا عن صلاة الوسـطى

---

(١)- خليل: مصدر سابق، ص٢١١.

(٢)- سالم نوري: فقه السيرة النبوية، ص٢٧٢.

(٣)- الصلابي: السيرة النبوية، ج٢، ص٢٩٢.

(٤)- سالم نوري: مصدر سابق، ص٢٧٤.

(٥)- خطاب: الرسول القائد، ص٢٣١.

حتى غابت الشمس }[1]. واستقرت المواجهة على الرماية بالنبال، فكان القتلى يعدون على الأصابع، ستة من المسلمين وعشرة من المشركين، وقتل واحد منهم أو اثنان بالسيوف[2].

وهم الرسول ε بأن يعقد صلحا بينه وبين غطفان، مقابل ثلث ثمار المدينة؛ رفقا بالأنصار وتخفيفا عن المسلمين، وتخذيلا للأحزاب وتفريقا لجمعهم؛ إلا أنه عدل عن ذلك بعدما رأى من سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة- رضي الله عنهما- ثباتا واستقامة، وتضحية وصمودا، وما زاد م المخاوف من تكالب الأعداء؛ إلا إيمانا وثباتا، وصلابة في الدفاع عن الدعوة[3].

وأسهم طول الحصار الذي دام أربعا وعشرين ليلة، في إضعاف معنويات الأحزاب، لا سيما وأن أهدافهم لم تكن واحدة، فقريش تريد استئصال شأفة المسلمين؛ لتحرير طرق تجار ا. والأعراب يبغون نصرا حاسما وسريعا؛ لنهب خيرات المدينة. ويهود مترددون في مواقفهم، فلم يشتركوا في القتال رغم نقضهم للعهد؛ خوفا من انسحاب الأحزاب، مما يجعلهم في مواجهة مع المسلمين دون دعم أو إسناد[4]. وزاد في إضعاف شوكة الأحزاب أن نعيم بن مسعود الغطفاني دخل الإسلام فطلب منه الرسول ε أن يكتم إسلامه؛ ليوقع بين الأحزاب، قائلا: { إنما أنت فينا رجل واحد، فخذل عنا إن استطعت، فإن الحرب خدعة }[5]. ونجح نعيم في تمرير خدعته، فأقنع يهود بطلب رهائن من قريش؛ لئلا تتركهم وحدهم، كما نجح في إقناع قريش، بأن يهود تريد منهم رهائن تسلمهم للمسلمين؛ ثمنا لتجديد الصلح معهم. و ذه الوقيعة انعدمت الثقة بين الأطراف المتحالفة، واختلفت كلمتهم، وتفرق شملهم.

ومما زاد أمور الأحزاب تعقيدا، أن الله عاقبهم برياح عاتية، وعواصف شديدة باردة، اقتلعت خيامهم، وأطفأت نيرا م، وقلبت قدورهم، ودفنت رحالهم. فما كان من أبي سفيان أن نادى بالرحيل، ونال المشركون من تحز م، سوى التعب وخسارة النفقات. وصدق الله وعده، فنصر دعوته، وأيد الله رسوله والمؤمنين. قال الله تعالى: [يا أيها الذين آمنوا اذْكُروا نِعمةَ الله علَيكُم إذْ جاءتكُم جنود فَأَرسلْنا علَيهم رِيحا وجنودا لم تروها وكَانَ الله بِما تعملُونَ بصيرا] الأحزاب/٠٩. وهزم الله المشركين، وشتت جمعهم، ورد كيدهم، كما جاء في قوله تعالى: [ورد الله الذين كَفَروا بِغيظهم لَم ينالُوا خيرا وكَفَى الله الْمؤمنِين الْقتالَ وكَانَ الله قَوِيا عزِيزا] الأحزاب/٢٥. وكان هذا

---

[1]- البخاري: ك. الدعوات، باب: الدعاء على المشركين، رقم: ٦٣٩٦، ص١٢٢٨. ومسلم: ٦٢٧.

[2]- المباركفوري: الرحيق المختوم، ص (٢١٨ ، ٢٢٠).

[3]- أبو شهبة: السيرة النبوية، ج٢، ص٢٨٥. الندوي: السيرة النبوية، ص٢٥٤.

[4]- العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ج٢، ص٤٣٠. سالم نوري ، فقه السيرة النبوية: ص٢٧٦.

[5]- ابن هشام: السيرة النبوية، ج٣، ص١٦٤.

استجابة لدعاء النبي ε خلال الحصار[1]، والذي جاء فيه: { اللهم ! مُنزِلَ الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللهم ! اهزمهم وزلزلهم }[2].

وبعد هذا النصر بهزيمة الأحزاب، تغير الموقف الإستراتيجي للنبي ε إزاء الوثنية من الدفاع إلى الهجوم[3]، مؤكداً هذا بقوله: { الآن نغزوهم ولا يغزونا، نحن نسير إليهم }[4]. وكان لارتداد الأحزاب، الأثر الكبير في تعالي الإسلام، وانتشار دعوته وتعاظم قوته، كما لم يعد في الإمكان بعد هذا اليوم، أن يتجمع خصوم الإسلام على هذه الصورة[5].

ثانيا: مرحلة الفتح المبين للدعوة وتمكينها.

بعدما حققت الدعوة انتصارا عسكريا بهزيمة الأحزاب، فقد حققت معه انتصارا سياسيا بمعاهدة صلح الحديبية؛ حيث أظهر هذا الانتصار تعاظم قوة المسلمين، وتحولت قوتهم إلى شوكة مرهوبة الجانب، مما أتاح لقائد الدعوة- الرسول ε- فرصة لعرض أفكاره، وتبليغ دعوته؛ مما هيأ النفوس للمعرفة والاستماع. وأكد الانتصار في الوقت ذاته، بأن المسلمين صاروا قوة لا تقهر، فولد هذا الأمر عند المشركين يأسا قاتلا؛ من استحالة محاربة الرسول ε ودعوته[6]. وقد حرص الرسول ε على على تعميق هذا المعنى في نفوس المشركين، قائلا: { الآن نغزوهم ولا يغزوننا نحن نسير إليهم }[7]، }[7]، وكان هذا إيذانا لمرحلة جديدة، أخذ الرسول ε فيها " زمام المبادرة لغزو المشركين في عقائدهم، قبل غزوهم في أجسادهم "[8]؛ تتويجا للفتح المبين، وتمكينا للدعوة والدين الجديد.

١- صلح الحديبية وانتصار الدعوة سياسيا.

لقد تغيرت أوضاع الجزيرة العربية، لا سيما بعد هزيمة الأحزاب في غزوة الخندق، فعاد المشركون مدحورين، رغم الحشد الهائل الذي جمعوه، وبعد أن لفظ يهود المدينة آخر نفس لهم، خاصة بعد الضربة الماحقة، التي وجهت إلى يهود بني قريظة، فكان هذا بمثابة مؤشرات سياسية وعسكرية، بأن

---

(١)- سالم نوري: مصدر سابق، ص (٢٧٦ ، ٢٧٧).
(٢)- البخاري: ك. المغازي، باب: غزوة الخندق وهي الأحزاب، رقم: ٤١١٥، ص٧٨١. مسلم: ١٧٤٢.
(٣)- العمري: السيرة النبوية الصحيحة: ج٢، ص (٤٣١ ، ٤٣٢).
(٤)- البخاري: ك. المغازي، باب: غزوة الخندق وهي الأحزاب، رقم: ٤١١٠، ص٧٨١.
(٥)- خليل: دراسة في السيرة، ص (٢١٨ ، ٢١٩).
(٦)- الغضبان: المنهج الحركي للسيرة النبوية، ص٣٣١.
(٧)- البخاري: ك. المغازي، باب: غزوة الخندق وهي الأحزاب، رقم: ٤١١٠، ص٧٨١.
(٨)- الغضبان: فقه السيرة النبوية، ص٣٢٦.

يأخذ المشروع الإسلامي مداه؛ للإنسياح في الجزيرة العربية، ليقضي على مرتكـزات الشرك والوثنية قضاء مبرما[1].

وتنفيذا لهذه الإستراتيجية، جاء قـرار الرسول ε بالخروج إلى مكة، معتمرا بداية ذي القعدة مـن السنة السادسة للهجرة، وفي ذهنه تحقيق أهداف ثلاثة:

١- إشعار الناس جميعا أن دعوة الإسلام، ليست بالضرورة قائمة على الحرب.

٢- الرغبة في تجميـد الصـراع ضد قريش.

٣- بيان أن المسلمين، هم أحفاد إبراهيم الخليل υ أبي الحنفية السمحة، وهم الأجـدر بـدخول الحرم الآمن؛ وممارسة شعائرهم القائمة على التوحيد الخالص[2].

وقد سبب قرار الخروج- المذكور آنفا- حرجا واستفزازا لقريش؛ فمنع المسلمـين من ممارسـة شعائرهم، في البيت الحرام، يتنافى مع الأخلاق والأعراف، مما يكلفها ثمنا باهضا، ليس إزاء المسلمين فقط؛ بل إزاء عرب الجزيرة عموما، فيضعف موقفها أمامـهم. وفي المقابل إن سمحـت للمسـلمين بدخول مكة، فهذا الموقف سيحرجها، ويهز سمعتها وكبرياءها؛ فدخولهم ذا الجمع الغفير، يظهرهم بمظهـر العنوة والقوة، لاسيما وأن هزيمتهم في الخندق، جديد وقعها على أذها م؛ عميق أثـرها في ذاكر م[3].

وقد نجح الرسول ε- وهو في الحديبية- في بيان مقصده، من أنه لا يريد قتالا؛ وإنما جـاء زائـرا للبيت، ومعظما لحرمته[4]؛ بل راغبا في تحقيق الصلح، قائلا: { والذي نفسي بيده، لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله؛ إلا أعطيتهم إياها }[5]. وهكذا هي دعـوة الإسلام، دعوة تجنح للسـلم والصلح، ونشر الخير والعدل، وفي المقابل دعوة تنبذ الحـرب؛ وتحارب الشر والفساد. وقد أدركت قريش هذه الحقيقة، من خلال المفاوضات والتي انتهت بعقد صلح الحديبية، والذي ضمن الشـروط التالية:

١- وضع الحرب بين الطرفين عشر سنين، فلا إسلال (سرقة) ولا إغلال (خيانة).

٢- من أتى محمدا من قريش بغير إذن وليه رده عليهم، ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يـردوه عليه.

---

(١)- سالم نوري: فقه السيرة النبوية، ص٣١٣.

(٢)- خليل: دراسة في السيرة، ص٢٢٣.

(٣)- سالم نوري: مصدر سابق، ص٣١٤.

(٤)- خليل: دراسة في السيرة، ص٢٢٥.

(٥)- ابن القيم: زاد الميعاد، ج٢، ص١٢٣.

٣- من أحب أن يدخل في عقد محمد دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل؛ فدخلت خزاعة في عقد الرسول ε، ودخلت بنو بكر في عقد قريش.

٤- أن يرجع المسلمون عن مكة، دون عمرة هذا العام، ليدخلوها في العام القادم؛ ويقيمون ـ ا ثلاثا والسيوف في أغمادها.

وقبل النبي ε هذه الشروط على ما بدا فيها من إجحاف وظلم؛ ليظهر أن من مبادئ دعوتـه، أن يسود السلام، ويحفظ للبيت حرمته[1]. وأثناء رجوعه ε إلى المدينة، نزل قوله تعالى: [إنا فَتحنا لَك فَتحا مبِينا، ليغفر لَك الله ما تقَدم من ذَنبِك وما تأَخر ويتم نِعمته علَيك ويهديك صراطًا مسـتقيما، وينصرك الله نصرا عزِيزا] الفتح (١ ، ٣). وكان عمر بن الخطاب τ من المسلمين، الذين ابتلوا في الصلح، والعودة إلى المدينة، ووقع من ذلك في نفوسهم حتى كادوا يهلكون، قال : أو فتح هو يا رسول الله ؟ قال: { نعم }[2].

وهكذا تحول الصلح إلى فتح ونصر، لقوله تعالى: [وعسى أَن تكْرهواْ شيئًا وهو خير لَّكُم وعسى أَن تحبواْ شيئًا وهو شر لَّكُم واللّه يعلَم وأَنتم لاَ تعلَمونَ] البقرة/ ٢١٦. وكان الصلح فتحا مبينـا، ونصرا عزيزا؛ لما ترتب عليه من فوائد عظيمة، ونتائج قيمة، يمكن تلمسها في الجوانب الآتية:

١- اعتراف قريش بكيان الدولة الفتية وبالدين الجديد، من خلال المفاوضات وعقد المعاهدات، مما أثر سلبا في حلفها مع القبائل الأخرى، والتي رأت أ ا في حـل من الانتماء لزعامتـها، والارتبـاط بمصيرها، وأن لها الحرية المطلقة في الانضمام لأي معسكر تراه مناسبا؛ للدخول في دينه، أو لكسـب صداقته[3]؛ فكان انضمام خزاعة إلى معسكر المسلمين، وانضمام جزء كبير من الأحـابيش، الـذين يمثلون قوة أحد بطون قريش؛ قد عزز قوة المسلمين، وأضعف صف المشركين[4].

٢- أكسب الصلح مهابة للإسلام، مما جعل خصومه يسلمون بغلبته وانتصاره عاجلا أو آجـلا، حيث سارع وجـهاء المشركين وقاد م للدخول في الإسلام؛ كخالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، كما سارع أعراب المدينة بالاعتذار عن تخلفهم عن المسير إلى مكة[5].

٣- استغل المسلمون فترة الصلح، فانتشروا في الأمصار، ونشطوا في الدعوة إلى الإسلام، ونشـر مبادئه ومحاسنه، وبيان تعاليمه، في ذيب الأخلاق، وتزكية النفوس، وتطهير القلوب والعقول، مـن

(١)- أبو شهبة: السيرة النبوية، ج٢، ص (٣٣٢ ، ٣٣٣).

(٢)- المباركفوري: الرحيق المختوم، ص٢٤٦.

(٣)- الندوي: السيرة النبوية، ص٢٨٢.

(٤)- خليل: دراسة في السيرة، ص٢٣٢.

(٥)- سالم نوري: فقه السيرة النبوية، ص٣٣١.

الشرك والوثنية، والعداء والخصومة، فكان أن دخل في الإسلام في السنتين اللتين أعقبتا صلح الحديبية، ما يفوق قبله بكثير؛ بدليل أن الرسول ε خرج من الحديبية في **ألف وأربعمائة**، ثم خرج بعد سـنتين في فتح مكة في **عشرة آلاف** رجل[١].

٤- وجد المسلمون من هدنة الحديبية، فرصة مناسبة لمحاربة القوى المعادية للإسلام، كـاليهود في خيبر وما جاورها، والبيزنطيين وحلفائهم العرب في الجهات الشمالية، والتجمعات القبليـة البدويـة المنتشرة في الصحراء، والمتربصة بالإسلام، من قبائل هوازن، ونجد، وبني مرة، وغطفان ونحوها[٢].

٥- حقق المسلمون تقدما عسكريا كبيرا، مما أتاح لهم نقل الدعوة إلى خارج الجزيرة العربية، كما حصل في غزوة مؤتة، كما وجد الرسول ε الفرصة مواتية، لإرسال الرسائل، وتوجيـه الوفـود إلى ملوك الفرس والروم وغيرهم؛ يدعوهم إلى الإسلام[٣].

٦- واستفاد من الصلح المستضعفون في مكة، فأسلم على يد أبي جندل، عدد كبير مـن أبنـاء قريش، فلحقوا بأبي بصير؛ وصار مركز دعوة وقوة للإسلام، فسبب نشاطهم، ضيقا وحرجا لقريش، من انتشار الإسلام بمكة، و ديدا لقوافلها التجارية العائدة إلى مكة، مما دفع قريشا بأن تتنازل للرسول ε على البند الذي يمنع لحـاق كل من أسلم به من قـريش إلى المدينة ، و ذا التنـازل تخلـص المستضعفون، مما كانوا يعانونه من ضيق في مكة[٤].

وفي ذي القعدة من السنة السابعة للهجرة، دخل المسلمون مكة، تنفيذا لشروط صلح الحديبيـة، وصدقت رؤيا الرسول ε، كما جاء في قوله تعالى: [لَقَد صدق الله رسولَه الرؤيا بِالْحق لَتـدخلُن الْمسجِد الْحرام إِن شاء الله آمنِين محلقين رؤوسكُم ومقَصرِين لَا تخافُونَ فَعلم ما لَم تعلَموا فَجعلَ من دون ذَلك فَتحا قَرِيبا] الفتح/٢٧. وتركت أحداث صلح الحديبية وعمرة القضاء، أثرها في نفوس الناس؛ فتغيرت نظرة القبائل العربية تجاه الدين الجديد، فتبين لهم بأنه دين يزهد في الحرب، ويرغب في الصلح. ورأى أهل مكة في تضامن المسلمين، وتعاو م وتعاطفهم، وتـآخيهم وتـآلفهم، وحسـن اقتدائهم بنبيهم، ما ولد في أنفسهم حبا للإسـلام وتعلقا به، وأدركوا أن هذه الجماعـة، لا يمكـن الوقوف في وجهها، ولا أمل في التغلب عليها، وأن الخـير كل الخير هو الدخول في الدين الجديـد،

---

(١)- الندوي: السيرة النبوية، ص٢٨٣.

(٢)- خليل: دراسة في السيرة، ص٢٣٣.

(٣)- سالم نوري: فقه السيرة النبوية، ص٣٣١.

(٤)- الندوي: السيرة النبوية، ص٢٨٣.

فأسلم قادة من قريش، وتبعهم ناس كثير، ففتحت ذا عمرة القضاء قلوب قريش، كمـا فتحـت أبواب مكة للمسلمين؛ فكان فتحا مبينا، ونصرا عزيزا[١].

٢- فتح مكة وانتصار الحلم والعفو على الانتقام والعداوة.

كان فتح مكة، تتويجا لإستراتيجية النبي ε السياسية في صلح الحديبية، وثمرة من ثمارهـا، فـدخل المسلمون مكة فاتحين، كما دخلوها معتمرين، بعد أن شاء الله تعالى لقريش أن تعين نفرا من حلفائها من بني بكر، أصابوا رجالا من بني خزاعة حلفاء الرسول ε؛ فنقضت ذا العمل ميثاقها وعهـدها. ولبى الرسول ε نداء زعيم بني خزاعة " عمرو بن سالم الخزاعي "، لما سأله النصرة والنجدة، قائلا: { نصرت يا عمرو بن سالم }[٢].

وتبرئة للذمة وإقامة للحجة، خير الرسول ε، قريشا بين دفع الدية لقتلى خزاعة، أو الـبراءة مـن حلف بني بكر؛ أو القتال. فاختارت قريش القتال، وندمت على اختيارها؛ فقد أدى اختيارهـا إلى حتف نفسها بيدها. وأخفق أبو سفيان في مساعيه لتجديد الصلح، وأمر النبي ε المسلمين بالاستعداد والتجهز للغزو، آخذا بأسباب الحيطة والحذر، حريصا على إحاطة الأمر بالسرية التامة، بدليل دعائه: { اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش، حتى نبغتها في بلادها }[٣]؛ حتى لا تستعد قريش للقتال،" وتعجـز عن الدفاع والمقاومة، فتذعن للأمـر وتحقَن الدماء "[٤]. إن الأولوية في منهج الإسلام أن تحفظ نفوس البشر، حتى ولو كانوا أعداء، ويتحقق النصر بأقل الخسائر. فالأولى بمحترفي الحروب في هذا العصر، والمتعطشين للقتل والدمار في هذا الزمان، أن يتعلموا من رحمة الرسـول ε ورأفتـه، في سياسته العسكرية مع أعدائه؛ ليكتشفوا عظمة هذا الدين، ومبادئه السمحة.

وفي هذا الظرف الدقيق وفي اللحظة الحاسمة، شذ حاطب بن أبي بلتعة τ في لحظة ضعف، أراد فيها إخبار قريش بمسير المسلمين إليهم[٥]، وتدخل الوحي، وأعلم الرسول ε بالأمر، ومنع الكتاب مـن الوصول إلى قريش؛ تحقيقا للرجاء النبوي. وأكد حاطب عذره، أن ما دفعه إلى هذا العمل حرصـه على حفظ ماله، وسلامة ولده، وليس كفرا أو ارتدادا؛ أو شكا في نصر الله. ولئن كان حضوره بدرا قد شفـع له من العقاب، فإن العمل في حد ذاته ضـلال عن سبيل الله[٦]. وفي هذه القصـة، نزل

---

(١)- خليل: دراسة في السيرة، ص (٢٣٨ ، ٢٣٩).

(٢)- ابن القيم: فقه السيرة، ص٢٦٠.

(٣)- ابن هشام: السيرة النبوية، ج٤، ص٣٠٧.

(٤)- خليل: دراسة في السيرة، ص٢٤٢.

(٥)- ابن القيم: فقه السيرة، ص (٢٦٢ ، ٢٦٣) ؛ [ستجد القصة كاملة].

(٦)- الغضبان: فقه السيرة النبوية، ص٣٦٠.

قوله تعالى: [يا أَيها الذين آمنوا لَا تتخذُوا عدوي وعدوكُم أَولياء تلْقُونَ إِلَيهم بِالْمودة] إلى قوله: [فَقَد ضل سواء السبِيلِ] الممتحنة/١٠.

وقد انتهج الرسول ε أسلوب الحرب النفسية مع قريش، فلما وصل مـر الظهران أمـر جيشه، وكانوا **عشـرة آلاف مقاتل**، بأن يوقد كل واحد نارا، فلما استطلعت قريش الأمر، ووقفت على حقيقته؛ أصابها الهلع وانتابها الذعر، وأيقنوا أن لا قبل لهم بهذا الجيش الكبير، الذي لم يعهـدوا بـه للمسلمين من قبل. وأسهم العباس بن عبد المطلب τ، في انتهاج ذات الأسلوب، أثناء لقـاءه بـأبي سفيان وصاحباه: حكيم بن حزام، وبديل بن ورقاء الخزاعي؛ فحدثهم ورهبهم ورغبهم، ونجـح في إقناعهم، بإعلان إسلامهم أمام الرسول ε[1]، وشعر أبو سفيان بأنه صار رهينة في يـد المسـلمين، وكانت المفاجأة له؛ أن دعاه الرسول ε إلى الإسلام، بدل توبيخه وإذلاله وتهديده بالقتل، فتيقن أنـه ليس أمام قائد خصم يريد إبادته وإبادة قومه؛ إنما هو أمام سيد أهل الأرض يدعوه إلى الإسلام، فاهتز كيانه ولم يتمالك أن قال: ما أحلمك وأكرمك وأوصلك. ومما زاد في رهبتـه، أن رأى منـاورات كتائب جند الله كلها بإمرة محمد ε؛ وأن أكثر ما هاله كتيبة الأنصار، فبدت له كأنها حرة سـوداء. فسأل العباس عنها فأجابه: هذه الأنصار عندها الموت الأحمر. فقال: سر يا عباس، فلـم أر كـاليوم صباح قوم في ديارهم[2]، مما جعله يقنع أهل مكة بعدم جدوى المقاومة، وكان أمر الرسـول ε يوم الفتح، أن: { من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن ألقى السلاح فهو آمن، ومن أغلق بابه فهـو آمن }[3]؛ زيادة في تأليف قلبه، والرفع من شأنه بين قومه.

إن السياسة الحكيمة التي انتهجها الرسول ε مع زعيم قريش، والمنهج القويم الذي زاوج فيه بـين القائد القوي للجيش؛ والداعية الناجح، وما أظهره من حلم وأناة، مميزات كانت كفيلة بتغيير البنـاء النفسي لقائد جيش العدو، فينتقل به من ظلمات الكفر إلى نور الإسلام، ومن متربص بالإسلام، إلى صمام أمان له وداعية إليه، وتتحـول داره من دار للتخطيط على حرب محمد ε إلى دار للاستسلام له؛ وهي من دون الدور جميعا مكانا آمنا؛ فأعطى بهذا مثلا رائعا للدعاة وللقادة من بعده، أن يقتدوا به ويسيروا على نهجه[4].

---

(١)- سالم نوري: فقه السيرة النبوية، ص٣٦٢.

(٢)- الغضبان: مصدر سابق، ص٣٦٢.

(٣)- مسلم: ك. الجهاد والسير، باب: فتح مكة، رقم: ٤٦٢٤، ص٦٨٩.

(٤)- الغضبان: مصدر سابق، ص٣٦٣.

ودخل الرسول ε مكة[1] خاشعا متواضعا، لا دخول فاتح متعال، دخل واضعا رأسه، حتى كـاد ذقنه يمس واسطة الرحل؛ تواضعا وخضوعا، وكان يقرأ سورة الفتح، غفرانا للذنوب، واستشـعارا للنعمة، وإفاضة للنصر المؤزر، وأردف أسامة بن زيد، ولم يردف أحدا من بني هاشم، ولا من أشراف قريش؛ إرساء للعدل والمساواة، وقصد البيت وطاف به، وكان حول البيت وعليه ثلاثمئـة وسـتون صنما، فجعل يطعنها بقوسه[2]، ويقول: [وقُلْ جاء الْحق وزهق الْباطلُ إن الْباطلَ كَـانَ زهوقًـا] الإسراء/ ٨١. وشكل تطهير البيت من الأصنام والأوثان، ضربة قوية لمظاهر الوثنية، وصور الجاهلية في الجزيرة العربية كلها؛ فصححت العقيدة، وعاد البيت كما أراده الله؛ مكانا لعبادة الله وتوحيده.

وكان الفتح رحمة ومحبة، وعفوا وصفحا، فقال مخاطبا قريشا: { فإني أقول لكم كما قال يوسف لإخوته: [لاَ تثْريب علَيكُم الْيوم يغفر اللّه لَكُم وهو أَرحم الراحمين] يوسف/٩٢، اذهبـوا فـأنتم الطلقاء }[3].

وهكذا انقلب الثأر لخزاعة المنكوبة إلى فتح عظيم، جلجل الآفاق، ورفرفت به راية التوحيد علـى ربوع مكة، التي حاربت الدعوة قرابة عشرين عاما أو تزيد[4].

٣- غزوة حنين ومبادئ النصر والهزيمة.

شكلت القبائل العربية في شمال الجزيرة وعلى رأسها هوازن وثقيف، أكبر تحد للإسلام والمسلمين بعد فتح مكة؛ ورأت هذه القبائل، أن توجه ضربة قاصمة للقوة الإسلامية المتعاظمة، فالسكوت على ما يحققه المسلمون من انتصارات، يعني فتح الطـريق أمامهم لاكتساح مواقع الوثنية واحـدة بعـد الأخرى[5]. ونجحت هذه القبائل في حشد **عشرين ألف مقاتل**، يقودهم زعيم هوازن، مالـك بـن عوف، والذي قرر أن يجعل خلف كل مقاتل أهله، وماله وولده؛ كباعث للقتال[6].

ولما بلغت النبي ε استعدادات هوازن وثقيف، خرج إليهم في **شوال سنة ثمان للهجرة**، على رأس **اثني عشـر ألف مقاتل**، وأعجب المسلمون بكثرتهم، رغم كثرة جيش الأعـداء، فقال قائل مـن المسلمين: (لن نغلب اليوم من قلة)، وأعجبتهم كثرة الناس[7]. وما إن وصل المسلمون إلى واد حنين

---

(١)- وكان ذلك صباح يوم الجمعة لعشرين ليلة خلت من رمضان، سنة ثمان للهجرة. (الندوي: السيرة النبوية، ص٣٤٣).

(٢)- الصلابي: السيرة النبوية، ج٢، ص (٥٢٦ ، ٥٢٧).

(٣)- الندوي: السيرة النبوية، ص٣٤٦.

(٤)- الغضبان: فقه السيرة النبوية، ص٣٦٤.

(٥)- خليل: دراسة في السيرة، ص٢٥٠.

(٦)- سالم نوري: فقه السيرة النبوية، ص٣٧٩.

(٧)- الندوي: السيرة النبوية، ص (٣٥٤ ، ٣٥٥).

حنين قبل وضوح الصباح، حتى فاجأهم العدو بكمائنه، فانقض عليهم دفعة واحـدة، واضـطرب حبلهم وأصا م الفزع[1]، وكروا راجعين ولم تغن عنهم كثر م، وجاء وصف هذا المشهد، في قولـه تعالى: [لَقَد نصركُم اللّه في مواطن كَثيرة ويوم حنينٍ إِذْ أَعجبتكُم كَثْرتكُم فَلَم تغنِ عـنكُم شـيئًا وضاقَت علَيكُم الأَرض بِما رحبت ثُم وليتم مدبِرِين، ثُم أَنزلَ اللّه سكينته علَـى رسـوله وعلَـى الْمؤمنِين وأَنزلَ جنودا لم تروها وعذب الذين كَفَرواْ وذَلك جزاء الْكَافرِين] التوبة (٢٥ ، ٢٦).

وفي هذا الظرف الدقيق، ثبت الرسول ε ومعه قرابة **المائة** من أصحابه، وكلهم ثقة عالية، بأن الله ناصر دعوته، يقول البراء τ: (ولقد كنا إذا حمي البأس نتقي برسول الله ε، وإن الشـجاع الـذي يحاذى به). فأمدهم الله تعالى **بآلاف من الملائكة**، والتي كانت تملأ الساحة وتسد الأفق،[2] وأنـزل سكينته عليهم، وتمكنت القلة المؤمنة من هزيمة الكثرة الكافرة، فكانت حنين بحق تربية للنفوس، على أن مبدأ النصر من عند الله وحده، وإن كانت العدة والعتاد أسباب يجب علي المسلم أن يأخذ ا[3]، لقوله تعالى: [وما النصر إِلا من عند اللّه الْعزِيزِ الْحكيمِ] آل عمران/ ١٢٦.

٤- عام الوفود والتمكين للإسلام.

وبغزوة حنين نكون قد وقفنا في دراستنا لهذا المبحث، على أهم الوقائع والأحـداث البـارزة، في إطار الصراع الطويل بين الحق والباطل، والتي شكلت الوثنية من خلاله، التحدي الأكـبر للإسـلام والمسلمين، وكان لهزيمة قريش الراعي الأكبر للشرك والوثنية، أثـره العميق في نفوس العرب قاطبة، فأدركوا أن لا مناص لهم، من تقبل الحقائق الجديدة على الأرض؛-لاسيما بعد أن أظهر المسـلمون قو م في غزوة تبوك، فَهزِم هرقل- ملك الروم البيزنطيين- بالرعب؛ حيث بقي قابعا بجيشه في حمص رغم الحشود التي حشدها، فلم يقوى على مواجهة المسلمين-؛ فراحت القبائل العربية ترسل وفودها تباعا؛ استسلاما لمنطق المتغيرات، وإذعانا لحقائق الواقع الجديد، وكان هذا في العام **التاسع للهجرة**، والذي سمى بعام الوفود[4].

وفي هذا العام بالذات؛ أوفد الرسول ε أبا بكر τ على رأس المسلمين الذين قصدوا موسم الحـج، وكان آخر موسم يشهده المشركون، فلما مضى نزلت بقية سورة التوبة، وفيها إعلان بالبراءة مـن الشرك والمشركين؛ وإ اء لكل العهـود التي بين المسلمين والمشركين، ويدخل في هذا كل من تخلف

---

(١)- خليل: دراسة في السيرة، ص٢٥١.

(٢)- الغضبان: فقه السيرة النبوية، ص (٣٦٩ ، ٣٧٢).

(٣)- أبو شهبة: السيرة النبوية، ج٢، ص٤٧٢.

(٤)- سالم نوري: فقه السيرة النبوية، ص٤١٢.

من المنافقين عن غزوة تبوك، قال تعالى: [براءةٌ من اللّه ورسوله إِلَى الذين عاهدتم من الْمشركين] إلى قوله تعالى: [وإِنْ أحد من الْمشركين استجارك فَأَجِره حتى يسمع كَلَام اللّه ثُم أبلغه مأْمنه ذَلك بِأَنهم قَوم لا يعلَمونَ] التوبة (١، ٦). وكان علي بن أبي طالب τ يبلغ هذه الآيات من حج من المشركين، يساعده في هذا عدد من الصحابة؛ منهم: أبو هريرة، والطفيل بن عمرو الدوسي ψ، وتضمنت المسائل الآتية: لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، ولا يطوف بالبيت عريان، ولا يحج بعد العام مشرك، ومن كان بينه وبين رسول الله ε عهد، فعهده على مدته[1].

وهذا عم الإسلام الجزيرة العربية بأسرها، بعد أن دخل الناس فيه أفواجا، وما دام الغالب حديثي عهد بالإسلام، فقد أرسل الرسول ε إلى الأمصار، من يتولى تعليم هؤلاء دينهم، وترسيخ تعاليمه السمحة، وأخلاقه الرفيعة، حيث أوصى ε الصحابيان: أبو موسى الأشعري، ومعاذ بن جبل- رضي الله عنهما -، عندما بعثهما إلى اليمن؛ قائلا: { يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا، وتطاوعا ولا تختلفا }[2].

وإذا كانت الحديبية هي الفتح المبين، الذي رفع عدد المسلمين من **ألف وخمسمائة** إلى **عشرة آلاف** يوم فتح مكة، فإن هذا الفتح قد رفع العدد إلى **مائة ألف وزيادة**، يوم الحج الأكبر في حجة الوداع[3]؛ وهكذا نجحت إستراتيجية الرسول ε السياسية قبل العسكرية، في التمكين لدين الله، وتحقيق الخلافة في الأرض، فانتشر الخير والعدل، واندحر الفساد والظلم؛ إنفاذا لوعد الله Ψ للمؤمنين، في قوله تعالى: [وعد الله الذين آمنوا منكُم وعملُوا الصالحات لَيستخلفَنهم في الْأَرضِ كَما استخلَف الذين من قَبلهم ولَيمكنن لَهم دينهم الذي ارتضى لَهم ولَيبدلَنهم من بعد خوفهم أَمنا يعبدونني لَا يشرِكُونَ بِي شيئًا ومن كَفَر بعد ذَلك فَأُولَئك هم الْفَاسقُونَ] النور/ ٥٥.

المطلب الرابع: الدروس والعبر.

١- لقد أراد الله لرسوله ε وللمؤمنين، " غنيمة أكبر، ونصرا أعظم "[4]، مما أرادوا لأنفسهم في معركة بدر ، فبعدما كان هدف المسلمين الاستيلاء على القافلة؛ أراد لهم النصر المؤزر على عدوهم، وإلحاق الهزيمة به. وهذه الفرصة نادرة، فلو عاد المسلمون أدراجهم، بعد إفلات القافلة من أيديهم؛ لفاتهم تحقيق النصر على عدوهم[5]، وذهبت فرصة إظهار هيبتهم، ورهبتهم أمام أعدائهم، لقوله

---

(١)- المصدر نفسه، ص (٤١٣ ، ٤١٤).

(٢)- البخاري: ك. الجهاد والسير، باب: ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب، وعقوبة من عصى إمامه، رقم: ٣٠٣٨، ص٥٨١.

(٣)- الغضبان: فقه السيرة النبوية، ص٣٦٤.

(٤)- البوطي: فقه السيرة، ص٢١٨.

(٥)- سالم نوري: فقه السيرة النبوية، ص (٢٣٧ ، ٢٣٨).

تعالى: [وإذْ يعدكُم الله إحدى الطائفَتين أنها لَكُم وتودونَ أن غَير ذَات الشوكَة تكُونُ لَكُم ويريــد الله أن يحق الحَق بِكلماته ويقْطَع دابِر الكَافرِين] الأنفال/٠٧.

٢- التزم النبي ε بمبدأ الشورى، وحرص على تطبيقه عمليا، امتثالا لأمر الله تعالى: [وشــاوِرهم في الأمرِ] آل عمران/١٥٩، وقوله تعالى: [وأمرهم شورى بينهم] الشورى/٣٨، لما في هذا المنــهج من تربية للأمة، وحسن الإعداد لها؛ لتتحمل مسؤوليا ا، وتقرر مصيرها بنفسها؛ بالمشاركة الفاعلة في اتخاذ القرارات والإجراءات. ولكي يصبح هذا المنهج صورة متجددة في القضايا التي تشــكل تحــديا مصيريا للأمة، نرى الرسول ε يطبق بنفسه هذا المنهج ليكون مثالا وأنموذجا لدعاة الأمــة وقاد ــا. والوقائع التي اخترناها كأمثلة لأبرز التحديات التي واجهت الدعوة خير مثال على ما نقول؛ ففي بدر شاور الرسول أصحابه ، بعد أن أفلت منهم العير، وطلع عليهم النفير، واستجاب لمشورة الحباب بن المنذر τ في اختيار المكان المناسب للجــيش، لما رأى رأيه أفضل وأصلح للمسلمــين؛ ومشــورته لأصحابه في شأن الأسرى. وجمع الرسول ε في أُحد بين الرفق والحزم، فانتهج الرفق حين استشــار أصحابه بين التحصن في المدينة، أو الخروج لملاقاة العدو، وانتهج الشدة لما أفضى التشاور إلى الــرأي الراجح، رغم أنه رأى في منامه ما يؤيد أحد الأمرين، ومما زاد الموقف اء، نزوله عند رأي المخالفين له. وكان هذا الحسم؛ ضمانا للوحــدة واجتماعا للكلمة، وحفاظا على المعنويات العالية. فالقائــد الناجح، هو من يتجنب التردد المؤدي للشقاق، وفتور الحماس[1]. وفي غزوة الأحزاب أخذ الرســول ε بخطة سلمان الفارسي τ في حفر الخندق، لما أُعجِب برأيه. واستشار الأنصار حينما اشتدت محنــة الأحزاب، بأن يعرض صلاحا على غطفان؛ تخفيفا على المسلمين، وتفريقــا للمشــركين. وأبــدوا مخالفتهم بشجاعة أدبية، عودهم عليها الرسول ε نفسه، بعد أن أعربوا عن استعدادهم التام، لتنفيــذ الاتفــاق؛ إذا كان وحــيا أو حبا لهم؛ ووافقهم الرســول ε رأيهم، بعدما رأى في نفوسهم ثباتــا وصمودا[2]؛ تأكيدا منه على أن قرار الحرب والسلم، لا يتخذ بطريقة فردية؛ بل يرجع فيه إلى الأمة، عن طريق أهل الحل والعقد، من ذوي العقل الراجح، والسلامة في الدين؛ والإخلاص والصدق[3].

٣- تعد هذه الغزوات، الأنموذج الأمثل لكثير من الانتصارات التي حققها المسلمون عبر العصــور على أعدائهم، الذين يفوقو م عددا وعددا. وقد برزت قيادة الرسول ε العســكرية في اســتجماع الأسباب الحقيقية للنصر في هذه الغزوات، وأهمها:

---

(١)- الحميدي: التاريخ الإسلامي، ج٥، ص (٧٥ ، ٧٦).

(٢)- سالم نوري: مصدر سابق، ص (٢٨٠ ، ٢٨١).

(٣)- البوطي: فقه السيرة، ص (٢١٨ ، ٢١٩).

١- **القيادة الموحدة:** فالمسلمون جميعا يطيعون أوامر الرسول ε، ويمتثلون أوامره برغبة جامحة، وإخلاص عجيب؛ لما يتحلى به من صفات القائد المثالي، ضبطا للأعصاب في أشد المواقف، وشجاعة في أحرج المواقف، وصبرا في الشدائد، ومساواة لنفسه مع أصحابه، واستشارة لهم في كل عمل حاسم؛ فكان الضبط أساس العلاقة بين الجيش وقائده. ففي بدر لم تكن للمشركين قيادة موحدة، عدا شخصين بارزين هما: عتبة بن ربيعة، وأبو جهل، ولم يكونا على رأي واحد، ولا هدف واحد. وفي معركة الأحزاب طغت علي اليهود وقريش الأنانية الفردية، على المصلحة العامة أثناء القتال[١]، وانعدمت الثقة بينهما، بعد أن نجح نعيم بن مسعود الغطفاني τ في التخذيل بينهما.

٢- **التعبئة الجديدة:** سلك الرسول ε في بدر، أسلوب تعبئة للجيش لا يختلف بتاتا عن أسلوب التعبئة الحديثة في حروب الصحراء، فكان لتشكيلة الجيش مقدمة وقسما أكبر ومؤخرة، مستفيدا من دوريات الاستطلاع وما تحمله من معلومات؛ مشكلا ما يعرف بمسير الاقتراب[٢]. وفي ساحة المعركة طبق الرسول ε أسلوب الصفوف على هيئة صفوف الصلاة؛ عملا بقوله تعالى: [إن الله يحب الّذين يقَاتلُونَ في سبِيله صفاً كأَنهم بنيانٌ مرصوص] الصف/٠٤، وهو أسلوب جديد يختلف عن أسلوب الكر والفر، المعتمد من طرف المشركين؛ حيث يؤمن للقائد السيطرة الكاملة على قواته، دفاعا وهجوما ومطاردة، أو يحمي أجنحة الجيش من فرسان العدو أو مشاته، ويوفر الاحتياط اللازم لتحقيق النصر، تماما كما في الحروب الحديثة؛ وقد كان لهذا الأسلوب وقعه وفائدته في تحقيق النصر[٣].

٣- **العقيدة الراسخة:** إن العقيدة الصحيحة التي تلقاها الصحابة ψ من مدرسة النبوة، صنعت منهم رجالا مؤمنين، يتوقون إلى الجهاد، ويرغبون في الاستشهاد. فقد عزموا على ملاقاة أعدائهم، وهم يعلمون أنهم يفوقونهم عددا وعددا، وصمموا على القتال وهم يعلمون أن القافلة قد فاتتهم، فما أصبح هناك كسب مادي يرجونه. لقد كانت أهداف المسلمين واضحة، فهم يجاهدون لحماية دعوتهم، ونشرها بحرية كاملة. أما أهداف المشركين فكانت أن تنحر الجزور، ويطعم الطعام، وتشرب الخمور، وتعزف القيان، فأنى لهؤلاء إن يقاتلوا ببسالة كما يقاتل أصحاب اليقين الراسخ؛ والإيمان الثابت[٤].

---

(١)- خطاب: الرسول القائد، ص (١١٣ ، ١١٥).

(٢)- خليل: دراسة في السيرة، ص١٨٥.

(٣)- الصلابي: السيرة النبوية، ج٢، ص (٢٤ ، ٢٦).

(٤)- خطاب: الرسول القائد، ص (١١٨ ، ١١٩).

٤- **المعنويات العالية:** أثبتت الحروب عبر التاريخ، أن التسليح والتنظيم الجيدين، والقوة العددية، غير كافية لتحقيق النصر، ما لم يتصف المقاتلون بمعنويات عالية. وقد تمتع الإيطاليون ذه المميزات في الحرب العالمية الثانية؛ إلا أ ا لم تغن عنهم شيئا، أمام معنويا م المنهارة، فكانوا عبئـا ثقـيلا علـى حلفائهم الألمان في كل معركة يخوضو ا، واعتبر الحلفاء المناطق التي تشغلها القوات الإيطالية، تشكل فراغا عسكريا لا يكترث به[١].

وقد أولى الرسول ε لمعنويات ا اهدين عناية خاصة، فكان تحريضه لأصحابه، قبل القتال وأثناءه، الأثر الكبير في تقوية عزائمهم، ورفع معنويا م، فلم يكترثوا بتفوق أعدائهم في العدد والعدد، امتثالا لقوله تعالى: [يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون] الأنفال/٦٥. واعتمد الرسول ε في تكوين هذه الإرادة القوية، على أسلوب الترغيب، فقال لأصحابه في أرض المعركة: { قومـوا إلى جنة عرضها السماوات والأرض }[٢]، وكان يبشرهم بمقتل صناديد المشركين، ويحدد مصارعهم؛ زيادة في الطمأنينة والثبات، ويوصيهم بالصـبر، وينهاهم عن التولي والفرار من المعركة؛ ويعـدهم بالجنة، في قوله ε: { والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا مقبلا غـير مدبر إلا أدخله الله الجنة }[٣].

و ذه المعنويات العالية، كتب الله تعالى النصر للمؤمنين، فكانت غزواته بحق صراعا حاسمـا بـين عقيدتين؛ فانتصرت عقيدة التوحيد التي تستحق البقاء، على عقيدة الشرك والوثنية والـتي تسـتحق الفناء[٤].

٤- إن الاستعانة بالله وحده، هي أساس النصر في هذه المعارك، وظهرت من جانبين:

أ- استعانة قلبية: فكان الدعاء ومناجاة الله، والتضرع إليه، قلبا ولسانا؛ يدل على حقيقة العبودية لله، وإظهار الحاجة والفقر الدائم إليه. ولما كان في دعاء النبي ε إلحاحا عجيبا، واضـطرارا كـبيرا؛ كانت الاستجابة سريعة، قال تعالى: [إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بـألف مـن الملائكة مردفين] الأنفال/٠٩.

ب- استعانة بالأسباب الشرعية: وذلك بما تمثله النبي ε من جهـد في تخطيطه للحرب في بدر،

---

(١)- المصدر نفسه، ص (١٢٠ ، ١٢١) . خليل: دراسة في السيرة، ص١٨٦.

(٢)- مسلم: ك. الإمارة، باب: ثبوت الجنة للشهيد، رقم: ١٩٠١، ص٧٣٦.

(٣)- ابن هشام: السيرة النبوية، ج٢، ص٤٦٧.

(٤)- خطاب: الرسول القائد، ص١٢١.

وحفر الخندق في غزوة الأحزاب، وعدم الأخذ بما هو محرم من الأسباب، فحتى في خداعه للعدو استعان في بدر بالتعريض دون أن يلجأ إلى الكذب الصريح؛ تأكيدا منه على الأخذ بالأسباب الشرعية فقط، وهذه صورة أخرى للعبودية الحقة لله تعالى[١].

٥- بدأت معركة أحد بانتصار عظيم، وانتهت بخذلان كبير، فكان الفشل والتنازع والعصيان أهم أسباب الهزيمة[٢]، لقوله تعالى: [ولَقَد صدقَكُم الله وعده إذْ تحسونهم بِإذْنِه حتى إذَا فَشلْتم وتنازعتم في الأَمرِ وعصيتم من بعد ما أَراكُم ما تحبونَ] آل عمران/١٥٢. فعصيان الجند لأوامر قائدهم في ساحة المعركة، يؤدي إلى ضياع فرص النصر؛ لذلك جاء التحذير من عاقبة المخالفة[٣]، في قوله تعالى: [فَلْيحذَرِ الَّذين يخالفُونَ عن أَمرِه أَن تصيبهم فتنةٌ أَو يصيبهم عذَاب أَليم] النور/٦٣.

٦- سجلت معركة أحد شجاعة الصحابة ψ، وقوة اندفاعهم للجهاد والاستشهاد؛ ففضلوا المواجهة المكشوفة على التحصن في المدينة، ووفق هذا المنهج ربوا أبناءهم، فهذا رافع بن خديج ، وسمرة بن جندب- رضي الله عنهما- كانا يتنافسان ويلحان بشتى الطرق والوسائل؛ ليجيزهما الرسول ε في خوض غمار المعركة، بعد أن أعفاهما مع إخوا م من الأحداث؛ رأفة ورحمة م من هول الحرب، فأجازهما الرسول ε بعد أن وجد فيهما الرغبة العارمة، والقدرة الفائقة، والخبرة اللازمة، فكانت فرحتهما شديدة بتحقيق رغبتهما[٤]. وفي أمثال هؤلاء الفتية، " ظهرت سمات التربية المحمدية، ومزايا الروح الإسلامية "[٥].

٧- وبرزت مساهمة المؤمنات في الدفاع عن الدعوة، ففي غزوة أحد، ساهمت المؤمنات في مداواة الجرحى، وسقي العطشى في أرض المعركة؛ واضطرت أم عمارة- رضي الله عنها-للقتال دفاعا عن الرسول ε، فجرحت جراحا بالغة، وأعدت زوجة جابر بن عبد الله τ الطعام، فكفى أهل الخندق ببركة الرسول ε[٦]. مما يدل على جواز الانتفاع بالنساء عند الضرورة، وإذا أمنت الفتنة، مع لزوم الستر والصيانة، ولهن حق الدفاع إذا تعرض لهن الأعداء[٧]. وإمكانية أن تتحمل المرأة عبء الدعوة، ويكون لها دورا فعالا في نشر الخير، وإصلاح ا تمع[٨].

---

(١)- سالم نوري: فقه السيرة النبوية، ص (٢٤١ ، ٢٤٢).
(٢)- الحميدي: التاريخ الإسلامي، ج٥، ص (١٠٣ ، ١٠٥).
(٣)- السباعي: السيرة النبوية، ص١٣٥.
(٤)- الحميدي: مصدر سابق، ج٥، ص (٧٥ ، ٧٨).
(٥)- العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ج٢، ص٣٨٣.
(٦)- الندوي: السيرة النبوية، ص (٢٥٢ ، ٢٥٣).
(٧)- المصدر نفسه، ص٣٩٠.
(٨)- السباعي: السيرة النبوية، ص١٣٦.

٨- وما تعرض له الشهـداء يوم أحد، وخاصة حمزة بن عبد المطلب τ من التمثيل، دليل علـى الحقـد الذي يملأ قلوب الأعداء، وخلو أنفسهم من أي إنسانية أو ضمـير، ولا تزال هذه النفسـية الحاقدة ظاهرة، من خلال الأعمال الوحشية، التي يمارسها المستدمرون الحاقدون إذا ما احتلوا بـلاد المسلمين.

٩- بقدر ما كانت الهزيمة في أحد، هزيمة جولة من جولات المواجهة مع الكفر والشرك؛ بقدر ما كانت انتصارا حقيقيا على النفس، فلما شعر المسلمون بأن الأعراب قد بيتوا الشر تجاههم، بادروهم بالخروج إليهم، فولوا الأدبار، وبرهنوا ذا على أن نفوسهم لم تنكسر، فانتصارهم على أنفسهم تمثل في إدراكهم لحقيقة الخطأ الذي وقع فيه فريق منهم. فالدعوة يمكن أن تواجه إخفاقات وخسائر عـبر مسير ا؛ لكن دون أن يتحول هذا إلى عامل إحباط حقيقي؛ لأن النصر في الأخير يكون لدعوة الحق. وإذا كان المشركون لم تثبط عزائمهم بما أصا م في بدر، فالأولى بالمسلمين أن يكونوا أكثـر همـة، وأصدق عزما؛ ولا يتأثرون بما أصا م في أحد[1]، لقوله تعالى: [إن يمسسكُم قَرح فَقَد مس القَـوم قَرح مثْلُه وتلْك الأَيام نداوِلُها بين الناسِ وليعلَم الله الَّذين آمنوا ويتخذَ منكُم شهداءَ والله لا يحـب الظالمين] آل عمران/١٤٠.

١٠- ويمكن الاستفادة من موقف النبي ε في غزوة الأحزاب، من عرض الصلح علـى غطفـان، مقابل ثلث ثمار المدينة؛ حفاظا على دين الأمة وكيا ا، وحقنا لدماء المسـلمين، وصـيانة للنفـوس والأعراض من خطر داهم، وإفشالا لمخططات الأعداء؛ وإضعافا لصفوفهم. بأن يجـد المسـلمون – انطلاقا من هذه الاعتبارات – مسوغا تحت ظروف معينة، بأن يقدموا لعدوهم بعـض التنـازلات الإقتصادية؛ دفعا لضرر أكبر. وضمن هذا الإطار، اضطرت الدولة الأموية أكثر من مـرة، فـدفعت الأمـوال لدولة الروم البيزنطية، حينما تحرشت بالدولة الإسـلامية، في خلافة معاوية بن أبي سفيان، وخلافة عبد الملك بن مروان، وكانت الدولة آنذاك عاكفة على توطيد الأوضاع الداخلية[2].

١١- ونسجل أثناء حفر الخندق، التفاعل الحقيقي بين الرسول ε القائد، وأصحابه جنده، وهـم يبذلون جهدهم في العمل مة عالية، مع ما يعانونه من التعب والجوع، وكان الرسول ε قدو م في العمل، وأشدهم تحملا للجوع والتعب؛ فإذا أعيتهم الصخرة قصدوه، فيضر ا بمعوله فيفتتـها. فمـا أسميناه تفاعلا، إنما كان تجسيدا فعليا لحقيقة العدالة والمساواة بين أفراد ا تمع، فمشاركته لم تكـن رمزية إعلامية؛ بل كانت فاعلة وحقيقية، ضاربا المثل الأعلى لمعاني القيادة الفذة، مبينا أن التقصير في

---

(١)- سالم نوري: فقه السيرة النبوية، ص (٢٦٥ ، ٢٦٧).

(٢)- المصدر نفسه، ص (٢٨١ ، ٢٨٢).

تحقيق معاني المساواة، هو تقصير في معاني العبودية لله تعالى[1].

١٢- شكل صلح الحديبية مكاسب عظيمة للدعوة، وانتصارا باهرا للإسلام والمسلمين[2]، فكانت نتائجه - المشار إليها سابقا- انعكاسا لعبقرية الرسول ε السياسية، وإستراتيجيته العسكرية: { الآن نغزوهم ولا يغزوننا.. }[3]؛ فلم ينحسـر نشاط الدعوة داخل الجزيرة فقط؛ بل أمست دعوة عالمية، بعد أن قرر الرسول ε مكاتبة الملوك والأمراء يدعوهم إلى الإسـلام، في أعقاب عودته من مقامـه بالحديبية؛ تثبيتا لأصحابه، وزيادة في انتشار الإسلام[4]، فكان بحق فتحا مبينا، ونصرا عزيـزا، قـال تعالى: [إنا فَتحنا لَك فَتحا مبِينا] الفتح/٠١.

١٣- ما ظهر في صلح الحديبية من تنازلات لصالح المشركين، إنما كان في الشكل لا في المضمون، فهي تقع في باب معرفة شر الشرين، وخير الخيرين. فالشر المترتب عن تغيير صيغة الكتابة من: [بسم الله الرحمن الرحيم] إلى: " باسمك اللهم "، ومحو كلمة: رسول الله ε، عن اسمه ε، أهون بكثير مـن الشر المترتب على عدم عقد الهدنة، التي كانت بمثابة الفتح المبين للإسلام. وفي المقابـل فـإن الخـير المترتب عن إسلام بعض الأفراد، من أمثال: أبي بصير، وأبي جندل ψ، والتمسك ـما ورفض الهدنة، أقل بكثير من الخير الذي ترتب على الموافقة على الصلح؛ من نشر للإسلام وإعـزاز لدعوتـه؛ بـل وإعادة هؤلاء إلى حضيرة الإسلام[5]. وما أظهره الرسول ε من تنازلات، يمكن وصفه بالمرونة العالية التي لا تتعارض مع الشرع، فلو تمسك الرسـول ε بمقترحاته في صياغة بنود الوثيقة؛ لكان تشددا في غير محله، مما يسبب ضياعا لمكاسب مهمة، لاسيما وأ ا تخص الدعوة ومستقبلها، و ـذا المنهج فـتح الرسـول ε مجالا رحبا، أمام الحركة الإسلامية، لتصل إلى آفاق جديدة، ومساحات واسعة لخدمـة الدعوة[6].

١٤- جاءت عمرة القضاء تصديقا إلهيا، لما وعد به الرسول ε أصحابه، مـن دخـولهم مكـة وطوافهم بالبيت، لقوله تعالى: [لَقَد صدق الله رسولَه الرؤيا بِالْحق لَتدخلُن الْمسجِد الْحرام إِن شاء الله آمنِين محلقين رؤوسكُم ومقَصرِين لَا تخافُونَ فَعلم ما لَم تعلَموا فَجعلَ من دون ذَلك فَتحا قَرِيبا] الفتح/٢٧، وحينما تترجم البشارات الإلهية في أرض الـواقع، تزيد المؤمنين ثقة وإيمـانا؛ بانتصار

---

(١)- البوطي: فقه السيرة، ص (٢٩٧ ، ٢٩٨).

(٢)- الحميدي: التاريخ الإسلامي، ج٦، ص٢١١.

(٣)- البخاري: ك. المغازي، باب: غزوة الخندق وهي الأحزاب، رقم: ٤١١٠، ص٧٨١.

(٤)- هيكل: حياة محمد ε، ص٣١٢.

(٥)- سالم نوري: فقه السيرة النبوية، ص (٣٢٦ ، ٣٢٧).

(٦)- خليل: دراسة في السيرة، ص٢٣١.

الإسلام، وهزيمة الشرك[1].

١٥- ولما قصد المسلمون مكة، لأداء مناسك العمرة، اصطحبوا أسلحتهم معهم، وأبقوها بعيـدا عن الحرم؛ التزاما بالعهود والمواثيق، وفي هذا المنهج تعليم للأمة، بوجوب أخذ الحيطة والحذر، وعدم الاطمئنان الكلي لمواثيق الكفار؛ فافتقادهم للأخلاق الرفيعة تجعلهم أميل للغدر، الذي يهدد مستقبل الأمة ومشروعها الحضاري. وكان خروجه من مكة بعد انقضاء ثلاثة أيام وفق بنود الصلح، التزامـا منه بالصدق في العهود والمواثيق، وهو خلق إسلامي رفيع، يجب أن يميز علاقات المسلمين مع أية جهة كانت، امتثالا لأمره تعالى: [يا أيها الذين آمنواْ أوفُواْ بِالْعقُود] المائدة/٠١. فالوفاء بالعهود والصدق فيها، من أساليب الدعوة ودلائل القوة، والغدر والكذب، من دلائل الجبن وعلامات الضعف[2].

١٦- إبراز معالم القوة، وملامح الثقة بالنفس، والثبات على المنهج، من أساليب الحرب النفسـية، التي تساهم في إضعاف معنويات الأعداء، وتحقيقا لهذه المعاني حرص المسلمون على إظهارهـا أمـام المشركين، وهم يرملون حول الكعبة وفي المسعى؛ تأكيدا على النشاط والقوة، وإدراكا لهذا المعـنى، كان الرسول ε يخاطب أصحابه قائلا: { ارملوا بالبيت ثلاثا ليرى المشركون قوتكم }[3]، ودخلت الرهبة قلوب المشركين، وفوجئوا بعكس ما كانوا يتصورون في المسلمين، من الضعف والخمول، وما قد راج من إصابتهم بحمى يثرب وسوء مناخها؛ وكان ذلك من مهدات فتح مكة. وملازمـة هـذا المنهج في إظهار القوة، لا يكون في ميدان المواجهة فحسب؛ بل لا بد أن يلازم المسـلم في حياتـه كلها، مما يتطلب تربية إسلامية حقيقية، تساهم في بناء شخصية قوية، قادرة على القيام بأعباء الدعوة وتبليغ الرسالة[4].

١٧- أما فتح مكة فكان تتويجا لما بذله الرسول ε وأصحابه، من تضحيات جسام، فالمتأمـل في الفتح يدرك قيمة التجويع والتشـريد، والصبر على البـلاء والمحن، ومتاعب الهجـرة ومخاطرهـا، وتضحيات المسلمين فيها، بالأرض والوطن، والأهل والأولاد، والعشيرة والمال، والقيمـة الكـبرى لصلح الحديبية، والذي أطلق الله عز وجل عليه اسم الفتح، في قوله: [فَعلم ما لَم تعلَموا فَجعلَ مـن دون ذَلك فَتـحا قَرِيبا] الفتح/ ٢٧، هو ما تحمـله المسلمون في أسفارهم وغزوا م، وجـهادهم واستشهادهم، وفوق هذا ندرك حقائق النبوة التي صاحبت الدعوة، تحميها وتحيطها بالحفظ والرعاية،

---

(١)- البوطي: فقه السيرة، ص٣٤٨.

(٢)- سالم نوري: فقه السيرة النبوية، ص (٣٤٩ ، ٣٥٠).

(٣)- رواه أحمد: رقم: ٢٧٩٣، ج٥، ص١٢.

(٤)- البوطي: مصدر سابق، ص٣٤٨.

في كل زمان ومكان، كل هذا وغيره كثير لم يذهب سدى، وإنما جرى وفق حساب دقيق، وكان ثمنا للفتح والنصر[1].

١٨- ولما حدث كل هذا من المشركين، لم يجد الرسول ε حين فتح عاصمة وثنيتهم، أن استغفر لهم وأطلق لهم حريتهم، ولم يفعل في التاريخ أحـد مثله؛ لأنه ε لم يكن يريد بدعوتـه ملكـا ولا سيطرة؛ وإنما أراده الله هاديا وفاتحا، فدخل مكة خاشعا شاكرا، وكله يقين بأن أهل مكة الذين أبقى على حيا م ودخلوا الإسـلام، سيكونون هم حملة الرسالة إلى الشعوب، وما تحقيق النصر في هـذا الأمد القصير؛ إلا دليل آخر على حقيقة النبوة، وصدق الدعوة[2].

١٩- أراد الله لواقعة حنين، أن تكون تربية للنفوس، ودرسا في العقيدة الإسلامية، ليتعلم المسلمون أن النصر من عند الله وحده، فلما كانت هذه الحقيقة حاضرة في إيمان المسلمين في بدر، نصرهم الله على قلتهم، ولما غابت عن أذها م في حنين، هزموا على كثر م، وكادوا يبادون لولا أن تداركتهم رحمة الله؛ فأعان الله القلة المؤمنة الصادقة، فبقيت في مواجهة ميدانية، فأمدها الله بمدد من عنده: [ثُم أَنزلَ اللّه سكينته علَى رسوله وعلَى الْمؤمنِين وأَنزلَ جنودا لم تروها] التوبة/٢٦، فكان النصر حليفها، فالأمة في جميع الأحوال يجب ألا تخلو من هذه الطائفة المؤمنة، والتي أشاد الرسول ε بحقها قائلا: { لا تقوم الساعة إلا وطائفة من أمتي ظاهـرون على الناس، لا يبالون من خذلهم ولا مـن نصـرهم }[3]، فعلى الدعاة بذل الجهـد في التربية الروحية والإيمانية، حتى لا تنحرف الثوابت عن دلالا ـا الحقيقية[4].

٢٠- وكان دور المرأة في هذه المرحلة حاضرا، ففي واقعة حنين وقفت أم سليم خلف المسـلمين، وبيدها الخنجر تدفع به عن نفسها، وبلغ ا إيما ا وغير ا على دينها، أن همت بقتل كل من فـر من المسلمين من ميدان القتال، واستأذنت الرسول ε فقال: { يا أم سليم ! إن الله قد كفـى وأحسـن }[5]، فالمرأة المسلمة شجاعة وقوية، فلم تكن غائبة عن ميدان الحرب؛ فهي تعالج الجرحى، وتسـقي الماء، وتجاهد للدفاع عن نفسها ودينها، وعن إخوا ا إذا لزم الأمر، فلا تكون فريسة سهلة للأعداء، ولها أن تساهم في خدمة دينها، بما يتماشى مع الضوابط الشرعية، التي تحفظ لها دينها وعرضها[6].

---

(١)- المصدر نفسه، ص (٣٦٤ ، ٣٦٥).

(٢)- السباعي: السيرة النبوية، ص (١٤٩ ، ١٥٠).

(٣)- ابن ماجة: سنن ابن ماجة، باب: اتباع سنة الرسول ε، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ط١، بدون تاريخ، رقم: ٠٩، ص١٤.

(٤)- سالم نوري: فقه السيرة النبوية، ص (٣٨٦ ، ٣٨٨).

(٥)- مسلم: ك. الجهاد والسير، باب: غزوة النساء مع الرجال، رقم: ٤٦٨٠، ص٧٠٤.

(٦)- سالم نوري: مصدر سابق، ص (٣٩٠ ، ٣٩١).

٢١- ولم ينس الرسول ε شأن الدعوة حتى في حالة الحرب، فوجد من اللازم مراعاة شريحة جديدة في المجتمع الإسلامي، عرفت بالمؤلفة قلوبهم، فأعطى أبا سفيان وولديه يزيد ومعاوية من غنائم حنين، زيادة في الثبات وترغيبا في الإسلام؛ ولمكانتهم بين قومهم، وجلبا للمصلحة ودفعا للمفسدة[١]، وكان الرسول ε يقول: { ..والله إني لأعطي الرجل وأدع الرجل، والذي أدع أحب إلي من الذي أعطي، ولكني أعطي أقواما لما أرى في قلوبهم من الجزع والهلع، وأكل أقواما إلى ما جعل الله في قلوبهم من الغنى والخير }[٢].

٢٢- إن الأمة إذا كانت قوية عزيزة، تكون مرهوبة الجانب، فيقبل عليها الناس رغبة ورهبة، وهذا ما يعكسه إقبال الوفود في السنة التاسعة للهجرة؛ أما إذا كان يسودها الضعف والتشتت، وحب الدنيا؛ أدبر عليها الناس ونفروا منها، وصارت هدفا للأعداء في دينها وفي خيرات بلادها[٣]، مصداقا لقوله ε: { توشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها }، فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: { بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن }، فقال قائل: يا رسول الله: وما الوهن؟ قال: { حب الدنيا، وكراهية الموت }[٤]. فالأمة مطالبة اليوم بأن تدرك مسؤوليتها تجاه دينها، ففي نصرته وعزته، وعزته، عزها ومجدها، ولن يتحقق هذا إلا بالعلم والعمل.

٢٣- إن المغازي في مجموعها تعد عملية واحدة، تحمل غاية محددة وواضحة، تهدف إلى توسيع نطاق الأمة الإسلامية؛ لتشمل جميع مناطق شبه الجزيرة العربية كلها، واعتناق سكانها للإسلام، فتصبح الجزيرة العربية بعد ذلك مركز إشعاع، وقاعدة أساسية لنشر الإسلام في ربوع العالم كله، ويفترض أن يصبح تحقيق هذا الهدف من واجبات الأمة الإسلامية وواجب كل عضو فيها، بأن يبذل نفسه وماله، وكل ما يستطيع لاستمرارية الدعوة، وأن يصير الدين كله لله[٥].

(١)- المصدر نفسه، ص (٣٩١ ، ٣٩٢).

(٢)- البخاري: ك. الجمعة، باب: من قال في الخطبة بعد الثناء: أما بعد، رقم: ٩٢٣، ص١٨٤.

(٣)- سالم نوري: مصدر سابق، ص (٤١٥ ، ٤١٦).

(٤)- أبو داود: ك. الملاحم، باب: في تداعي الأمم على الإسلام، رقم: ٤٢٩٧، ص (٦١١ ، ٦١٢).

(٥)- مؤنس: دراسات في السيرة النبوية، ص١٣١.

المبحث الثاني

تحــــدي اليهـــود

المطلب الأول: حقيقتــهم.

المطلب الثاني: استراتيجية النبي ε من موادعة اليهود.

المطلب الثالث: كيد اليهود وغــدرهم وخيانتــهم.

المطلب الرابع: محاولتهم تمزيق صف المسلمين وضرب وحدتهم.

المطلب الخامس: تصفية الوجود اليهودي وإجلاؤه.

المطلب السادس: الــدروس والعــبر.

المبحث الثاني

تحـدي اليهـود

تمهيـد.

اتخذ يهـود من يثرب معقلا لهم، فسكنوا كثيرا من أحيائها؛ فبنوا فيها قـلاعهم وشيدوا عليهـا حصو م، وأشهر قبائلهم: بنوا النضير، وبنوا قريضة؛ ويهـود خيبر. ولما رأوا المسلمين هـاجروا إلى المدينة، واتخذ الرسول ε من الأوس والخزرج أنصـارا له؛ يؤيدونه ويشدون أزره، قام اليهود دونـه يحسـدونه، ويضمرون العـداوة له ولدينه، فَألفُوا جماعة من المنافقين على رأسهم بن أبي بن سلول تشاركهم الحرب عليه وعلى دعوته[1]، فأمست هذه الفئة تشكل تحديا حقيقيا لدعوة الإسلام ودولته الجديدة، فما حقيقتهم؟ وكيف كان كيدهم وغدرهم؟ وما هو منهج التعامل معهم؟

المطلب الأول: حقيقتـهم.

لقد فرق القرآن الكريم بين اليهـود وبني إسرائيل؛ فرفض اعتبار أنبياء بني إسرائيل[٢] وأتبـاعهم الصالحين، منذ يوسف υ وانتهاء ببعثة محمد ε يهودا، مصداقا لقوله تعالى: [أَم تقُولُونَ إن إبـراهيم وإسماعيلَ وإسحق ويعقُوب والأسباطَ كَانواْ هودا أَو نصارى قُلْ أَأنتم أَعلَم أَمِ اللّه ومن أَظْلَم ممـن كَتم شهادةً عنده من اللّه وما اللّه بِغافلٍ عما تعملُونَ] البقرة/١٤٠. فَنسبهم إلى إسرائيل وهو يعقوب υ يمنحهم صلة به، ويضفي عليهم ظلالا دينية وإيمانية، كما يعد تكريما لهم؛ اعتبارا من أن أنبياء بني إسرائيل والصالحين منهم، وقفوا إلى جانب الحق والهدى، والإيمان في تاريخهم، فاستحقوا هذا التكريم الإيماني، وورثوه بانتسا م إلى يعقوب υ، الذي جاء بالتوحيد الخالص، الذي علمهم إيـاه أبـوهم إبراهيم الخليل υ[٣]. أما عندما بعث الله محمـد ε بالحق،لم تعد لبني إسرائيل الذين كفروا بـه أيـة صلة بيعقوب وأبناءه الأنبياء من بعده؛ لأن كفرهم بما جاء به محمد ε هو كفر لما جاء بـه أنبيـاء

---

(١)- جماز: دراسات في السيرة النبوية، ص٤٩.

(٢)- وأنبياء بني إسرائيل هم: يعقوب ويوسف وموسى وهارون وداود وسليمان وزكرياء ويحي وعيسى عليهم الصلاة والسلام.

(٣)- عمر سليمان الأشقر: العقيدة في الله، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الرغاية- الجزائر، بدون طبعة، (١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م)، ص٢٥٦.

يعقوب υ، و ذا استحق النبي ε وأمتـه المسلمة الوراثة الشرعية والحقيقية لما جـاء بـه يعقـوب وأبناؤه. ودليل هذا، ما روي عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: قدم النبي ε المدينـة، فـرأى اليهود تصوم يوم عاشوراء، فقال: { ما هذا ؟ }. قالوا: هذا يوم صالح، هذا يوم نجى الله بني إسرائيل من عدوهم، فصامه موسى. قال: { فأنا أحق بموسى منكم }، فصامه وأمر بصيامه[1]. ويمكننـا أن نستخلص من الحديث قاعدة هامة، وهي:" نحن أولى بموسى منهم"، إ ا قاعدة يعتقـدها المسـلمون دائما، ويتخذو ا شعارا دائما؛ بل أن الإسـلام حرم التفريق بين الأنبياء جميعا، أو بغضهم أو ذَمهم، أو الانتقاص من شأ م، ومن فعل هذا فقد كفر[٢]؛ لقوله تعالى: [إِن الذين يكْفُرونَ بِاللّه ورسـله ويرِيدونَ أَن يفَرقُواْ بين اللّه ورسله ويقُولُونَ نؤمن بِبعضٍ ونكْفُر بِبعضٍ ويرِيدونَ أَن يتخذُواْ بين ذَلك سبِيلاً، أُولَئك هم الْكَافرونَ حقّا وأَعتدنا للْكَافرِين عذَابا مهِينا] النساء (١٥٠ ، ١٥١).

لذلك فبنوا إسـرائيل الذين كفروا بالرسالة، كان القرآن يتحدث عن مواجهتهم للرسـول ε في المدينة، ويكشف عن نفسيا م ودسائسهم، ويبطل ادعاءا م ودعايا م، ويفند شبها م؛ كان يطلـق عليهم اليهود في مواضع عدة[٣]، في قوله تعالى: [ولَن ترضى عنك الْيهود ولاَ النصارى حتى تتبِـع ملتهم قُلْ إِن هدى اللّه هو الْهدى ولَئنِ اتبعت أَهواءهم بعد الذي جاءك من الْعلْمِ ما لَك من اللّه من ولي ولاَ نصيرٍ] البقرة/١٢٠، وفي قوله أيضا: [لَتجِدن أَشد الناسِ عداوةً للذين آمنواْ الْيهود والـذين أَشركُواْ] المائدة/ ٨٢. والمواضع كثيرة في القرآن الكريم على تسميتهم باليهود؛ لكفرهم بما جاء بـه الأنبياء من الدعوة إلى التوحيد الخالص، ومخالفتهم لتعاليمهم، وغدرهم؛ واتباع أهوائهم.

المطلب الثاني: إستراتيجية النبي ε من موادعة اليهود.

كتب النبي ε بينه وبين اليهود كتابا، وادعهم فيه وأقـرهم على دينهم وأموالهم، وشـرط لهـم واشـترط عليهم[٤]؛ مما أتـاح له التفـرغ لمواجهة الشرك والوثنية، وكان هدف الموادعة؛ إما تأمينا لجبهته الداخلية، وإما طمعا في إسلامهم مع ما يتمتعون به من قوة اقتصادية ذات شوكة ومنعـة[5]، بامتلاكهم للأراضي والحصون، وسيطر م على الآبار والعيون؛ وإما إقامة هدنة معهم، فلـيس مـن

---

(١)- البخاري: ك. الصوم، باب: صيام يوم عاشوراء، رقم: ٢٠٠٤، ص (٣٧٨ ، ٣٧٩).

(٢)- صلاح عبد الفتاح الخالدي: الشخصية اليهودية من خلال القرآن، للنشر والتوزيع، باب الواد- الجزائر، ط١، (١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م)، ص (٤٦ ، ٤٧).

(٣)- المصدر نفسه، ص (٣٥ ، ٣٩).

(٤)- ابن القيم: فقه السيرة، ص١٢٢.

(٥)- الغضبان: المنهج الحركي للسيرة النبوية، ص155.

صالح الدعوة أن تقام حرب مع اليهود، خاصة وأن الدولة لا تزال في بداية نشأ ا، والعدو الخـارجي متربص ا.

١- الصحيفة وأبعادها الدستورية.

تعد الصحيفة إحدى الركائز الأساسية للمجتمع الإسلامي الجديد، والدعامة الأساسـية للدولـة الإسلامية الناشئة، والمتأمل في بنودها شكلا ومضمونا، يتأكد من أن الإسلام دين حضاري، قـائم على التنظيم، قادر على تقنين مجالات الحياة، وفق الأطـر الشرعية السليمة. ولما صار الإسلام الغالب في يثرب، بقيت قلة من المشركين ومعهم اليهـود على مختلف قبائلهم، فأراد الرسول ε أن يعطـي للدولة الجديدة أبعادا دستورية؛ تراعي الفعاليات السياسية والعسكرية، والدينية والاجتماعية، وتشكل الهيكل العام لبناء الدولة[١]. ومراعاة لهذا الجانب ضمن الرسول ε الوثيقة بنودا تتعلق بموادعة اليهود، فهؤلاء وإن كانوا يخفون كيدهم للإسلام وبغضهم للمسلمين، فإ م لم يظهروا محاربتهم ولم يكشفوا بعد عن عداو م، وكو م أهل كتاب، والطمع في إسلامهم قائم، عقد الرسول ε معهم معاهـدة، تمنح لهم كامل الحـرية في الدين والمال، مستبعدا سياسة الإبعاد أو المصادرة والخصام؛ قاصدا تـوفير الأمن والسلام، والخير والرفاهية للبشرية جمعاء[٢].

وقد جاءت بنود الوثيقة مطولة في كتب السيرة[٣]، وآثرنا ذكرها مجملة، كما أوردها البـوطي في كتابه " فقه السيرة "[٤] وهي:

١- المسلمون من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق م وجاهد معهم أمة واحدة من دون الناس.

٢- هؤلاء المسلمون جميعا على اختلاف قبائلهم يتعاقلون بينهم، ويفدون عـانيهم[٥] بـالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٣- إن المؤمنين لا يتركون مفْرحا[٦] بينهم أن يعطوه في فداء أو عقل.

٤- إن المؤمنين المتقين، على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة[٧] ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بـين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعا ولو كان ولد أحدهم.

---

(١)- سالم نوري: فقه السيرة النبوية، ص٢٠١.

(٢)- المباركفوري: الرحيق المختوم، ص١٣٧.

(٣)- ابن هشام: السيرة النبوية، ج٢، ص (٣٦٨ ، ٣٧٠) . ابن كثير: البداية والنهاية، ج٣، ص (٢٦٢ ، ٢٦٤).

(٤)- البوطي: فقه السيرة، ص (٢٠٤ ، ٢٠٥).

(٥)- العاني: الأسير.

(٦)- المفرح: المثقل بالديون الكثير العيال.

(٧)- الدسيعة: العظيمة، وهي في الأصل ما يخرج من حلق البعير إذا رغا.

٥- لا يقتل مؤمن مؤمنا في كافر، ولا ينصر كافرا على مؤمن.

٦- ذمة الله واحدة، يجير عليهم أدناهم، والمؤمنون بعضهم موالي بعض دون الناس.

٧- لا يحل لمؤمن أقر بما في الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثا أو أن يؤويه، وإن من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة لا يؤخذ منه صرف ولا عدل.

٨- اليهود ينفقون مع المسلمين ما داموا محاربين.

٩- يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ[١] إلا نفسه وأهل بيته.

١٠- إن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هـذه الصحيفة.

١١- كل ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله.

١٢- من خرج من المدينة آمن، ومن قعد آمن، إلا من ظلم وأثم.

١٣- إن الله على أصدق ما في الصحيفة وأبره، وإن الله جار لمن بر واتقى.

وبعدما أقرت الصحيفة من جميع الأطراف، باتت سلطة الرسول ε ائية على المدينة، وأصـبحت دولة الإسلام دولة متكاملة الأركان، لأن الصحيفة كانت اللبنة الأخيرة، في إطار قانونية الدولة، إلى جانب الإقليم والشعب والسيادة[٢].

٢- دلالاتـها وفوائـدها.

ما يلاحظ على بنود الوثيقة، أ ا جاءت تنظم العلاقة بين المسلمين من جهة، وبين يهود ومشركي المدينة من جهة أخرى، وسنركز دراستنا على العلاقة مع اليهـود تماشيا مع طبيعة المبحث الخـاص بتحدي اليهود، لاستخلاص الدلالات والفوائد:

١- لقد دعم النبي ε الجبهة الداخلية وأمن جانبها، بالأخوة بين المؤمنين- المهاجرين والأنصـار- وموادعة اليهود؛ فأرسيت قواعد الدولة، وتميزت الشخصية الإسلامية، وبدأت تأخذ مكا ا في ا تمع الجديد، وأصبح للمسلمين شوكة وقوة؛ كل ذلك بفضل إيما م ووحد م وتآخيهم[٣]، لقوله تعالى: [

---

(١)- يوتغ: يهلك.

(٢)- سالم نوري: فقه السيرة النبوية، ص (٢٠٢ ، ٢٠٣).

(٣)- جماز: دراسات في السيرة النبوية، ص (٥١ ، ٥٢).

[واذْكُرواْ نِعمةَ اللّه علَيكُم إِذْ كُنتم أَعداء فَأَلف بين قُلُوبِكُم فَأَصبحتم بِنِعمته إِخوانا وكُنتم علَى شفَا حفْرة من النارِ فَأَنقَذَكُم منها كَذَلك يبين اللّه لَكُم آياته لَعلَّكُم تهتدونَ] آل عمران/ ١٠٣.

٢- حددت بنود الصحيفة مفهوم الأمة الواحدة، لقوله تعالى: [إِن هذه أُمتكُم أُمةً واحدةً وأَنا ربكُم فَاعبدون] الأنبياء/٩٢. و ـذا المفهوم نقل الرسول ε قومه، من شعار القبلية ورابطة الـدم إلى شعار الأمة الواحدة ورابطة العقيدة، فانصهرت طائفتا الأوس والخزرج في جماعة الأنصار، وجماعـة الأنصار والمهاجرين في جماعة المسلمين[١]، بفضل الأخوة القائمة على الحب، والعـدل والمسـاواة، وكان من نتائجها أن آثر[٢] الأنصار تقاسم الزاد وحتى النساء مع إخوا م المهاجرين، الذين قابلوا هذا العرض بخلق العفة، وصار هذا أنموذجا للنبل، ومثالا يقتدي به عبر الأجيال[٣].

و ـذا المبدأ تميز المسلمون عن اليهـود، فازدادوا اعتزازا بذا م، وقد دعم الرسول ε هذا الجانـب فأذن لأصحابه بصيام تاسـوعاء وعاشـوراء؛ مخالفة لليهود، دون أن يشكل هذا التميز حاجزا بين المسلمين وغيرهم، فقد أكدت بنود الوثيقة على حق المواطنة لأهل الكتاب، وأ م أمة واحدة ماداموا قائمين بالواجبات[٤].

٣- ما ورد في بنود الوثيقة: " أن اليهود يقفون مع المسلمين ما داموا محاربين "، فأكدت الوثيقـة ـذا البند، قيادة الرسـول ε لجميع سكان المدينة: مسلمين، ومشركين؛ ويهود، وأن يقفـوا صـفا واحدا للدفاع عن المدينة، وصـد أي اعتداء خارجي عنها، مشيرا ـذا البند إلى قرب المواجهة مـع قريش، واستطاع الرسول ε ـذه الوثيقة التي شملت ببنودها الجميع، أن يجعل أهل المدينة كلهم، على اختلاف أديا م وميولهم وأهوائهم، يدا واحدة على أعدائهم، متخذا كافة الاستعدادات لحشد قواته، في مكان واحد وتحت قيادة واحدة؛ لحماية الدعوة، والدفاع عن المشروع الحضاري للأمة[٥].

٤- وورد في بنود الوثيقة: " لليهـود دينهم، وللمسلمين دينهم إلا من ظلم وأثم ". و ـذا أقـر الإسلام، مفهوم الحرية الدينية بأوسع معانيها؛ وصار أساس الدولة الفكري، والقانون الأعلـى لهـا، ضاربا عرض الحائط، مبدأ التعصب ومصادرة الآراء والمعتقدات، فحرية العقيدة والعبادة مصـونة في الإسلام، للمسلمين دينهم ولليهود دينهم، لقوله تعالى: [لاَ إِكْراه في الدينِ قَد تبين الرشد من الْغي] البقرة/٢٥٦. و ـذا المفهوم تحققت العدالة والمساواة بين الجميع، محذرا في نفس الوقـت بالوعيـد

---

(١)- الصلابي: السيرة النبوية، ج١، ص٥٤٤.

(٢)- ومن الإيثار ما حصل بين سعد بن الربيع من الأنصار، وعبد الرحمان بن عوف من المهاجرين رضي الله عنهما.

(٣)- خطاب: الرسول القائد، ص (٧٠ ، ٧١). الغضبان: فقه السيرة النبوية، ص٢٣٥.

(٤)- الصلابي: السيرة النبوية، ج١، ص (٥٤٤ ، ٥٤٥).

(٥)- خطاب: الرسول القائد، ص (٧٣ ، ٧٤).

والهلاك لمن يخالف هذا المبدأ[1]. وحاشاه ε بإقراره لهذا المبدأ، أن يكون قد تصور المسألة لديه، مجرد تكتيك مرحلي، ريثما يقضي على أعدائه في الخارج، ليبدأ تصفية اليهود في الداخل، إن هذا الموقف السمح المنفتح، إنما صدر عن اعتقاد كامل لديه، بأن اليهود- باعتبارهم أهل كتاب- سيتجاوبون مع الدعوة الجديدة، ويساندو ا في مواجهة تحدي الوثنية؛ وأسوأ الاحتمالات أن يمسكوا أيـديهم دون إثارة المشاكل والفتن؛ أو وضع العراقيل والعقبات في طريق الدعوة، وهي تأسس دولتها وتراقب قوى الشر والوثنية المتربصة ا[2]، وما هي إلا فترة وجيزة حتى كشف اليهود عـن الغـدر المخبـوء في صدورهم، وضاقوا ذرعا بما التزموا به[3].

٥- ومما جاء في الصحيفة: " كل ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشـتجار يخـاف فساده، فإن مرده إلى الله Ψ وإلى محمد رسول الله ε ". وأقر هذا البند سيادة الدولة، والتي تتولاهـا سلطة حاكمة، ممثلة في قيادة الرسول ε التي يرجع إليها الأمر كله، وتحكم بما أنزل الله. وبموجب هذا النص أصبح الرسول ε رئيسا للدولة، ويتولى السلطة التنفيذية والقضائية، باعتراف الفعاليات المختلفة الموجودة في المدينة بما فيهم اليهود، والذين لهم حق الرجوع إليه، إذا ما حدث بينهم وبين المسـلمين شجار؛ أما ما يحدث في قضاياهم الخاصة، فلهم أن يرجعوا إلى أحبارهم إذا شاءوا، وقد خير الله Ψ رسوله ε بين قبول الحكم فيهم أو رده، في قوله تعالى: [فَإِن جآؤوك فَاحكُم بينهم أَو أَعرِض عنهم وإِن تعرِض عنهم فَلَن يضروك شيئًا وإِنْ حكَمت فَاحكُم بينهم بِالْقسط إِن اللّه يحب الْمقْسِـطين] المائدة/٤٢. ومن القضايا التي حدثت بين اليهود وحكموا الرسول ε فيها، أن يهود بني النضير كانوا يفرضون دية مضاعفة لقتلاهم على يهود بني قريظة، فلما ظهر الإسلام في المدينة، امتنعت بنو قريظة عن دفع الضعف، وطالبت بالمساواة[4]، ف ل قوله تعالى: [وكَتبنا علَيهِم فيها أَن الـنفْس بِـالنفْسِ والْعين بِالْعينِ والأَنف بِالأَنف والأُذُنَ بِالأُذُن والسن بِالسن والْجروح قصاص فَمن تصدق بِـه فَهـو كَفارةٌ له ومن لم يحكُم بِما أنزلَ اللّه فَأُولَئك هم الظالمونَ] المائدة/٤٥.

إن المتمعن في بنود الصحيفة، ليجدها قد أسست للدولة الإسلامية ذات الرسالة العالمية، ولكل فرد من أفراد المعمورة له نصيب فيها، وواجب الحـاكم فيها أن يقيم العدل، ويحكم بين الناس بـالحق، سواء كان المحكوم لهم، أصدقاء أو أعداء، أغنياء أو فقراء، عمالا أو أصحاب عمل[5]، لقوله تعالى: [

---

(١)- الصلابي: السيرة النبوية، ج١، ص٥٤٩.

(٢)- خليل: دراسة في السيرة، ص (١٥١ ، ١٥٢).

(٣)- البوطي: فقه السيرة النبوية، ص٢٠٧.

(٤)- الصلابي: السيرة النبوية، ج١، ص (٥٤٦ ، ٥٤٧).

(٥)- المصدر نفسه، ج١، ص (٥٤٨ ، ٥٥٠).

[يا أيها الذين آمنواْ كُونواْ قَوامين للّه شهداء بِالْقسط ولاَ يجرمنكُم شنآنُ قَومٍ علَى أَلا تعدلُواْ اعدلُواْ هو أَقْرب للتقْوى واتقُواْ اللّه إِن اللّه خبِير بِما تعملُونَ] المائدة/٠٨.

المطلب الثالث: كيـد اليهود وغدرهم وخيانتهم.

كانت موادعة الرسول ε لليهود، تهدف إلى توفير الأمن والسلام، وجلب الخير للبشرية جمعـاء، وأن تكون المدينة وما حولها في وفاق دائم، ويعيش الناس في بيئة يسودها الصفح والتسامح، بعيدا عن النعرة القبلية والنزعة العصبية، تحت سقف الدولة الإسلامية، وضمنت المعاهدة لليهود- كما أسلفنا- مطلق الحرية في الدين والمال، ولم يفكر الرسول ε يوما في إبعادهم، أو طـردهم مـن المدينـة، أو مصادرة أموالهم وممتلكاتهم[1]؛ بل كان يـأمل أن يكونوا عونا له على أعـدائه الوثنيين، أو علـى الأقل يشاركونه في حماية الوطن والذود عنه، خاصة أنهم أهل توحيد[2]؛ إلا أن اليهـود " اختـاروا النقض على الوفاء، والخيانة على الالتزام "[3]، وأبعد من ذلك صاروا عونا لعبدة الأوثان، في محاربـة الدعوة ومعاداة الإسلام، ولم يتركوا فرصة للإيقاع بالمسلمين والتآمر عليهم إلا انتهزوها، فكانوا بحق عقبة كؤودا في طريق الدعوة[4].

وازداد غيضهم واشتد حسدهم، لما رأوا الأمور تستقر، والإسلام ينموا ويتسـارع، فتحركـت كوامن الشر في نفوسهم[5]، ودفعهم حقدهم وحسدهم، إلى امتطاء أي وسـيلة يرونهـا ناجعـة في الإساءة إلى الله تعالى، ومحاربة رسوله ε والكيد لدعوته، وكان أبرزها:

١- سوء أدبهم مع الله تعالى.

أساء اليهود الأدب مع الله تعالى، فلم ينزهوه عن النقائص، وبلغت بهم الوقاحة وانعدام الأدب، أن وصفوا الله تعال بما لا يليق بجلاله وعظمته[6]، ودل على هذا قوله تعالى: [وقَالَت الْيهود يـد اللّـه مغلُولَةٌ غُلَّت أَيديهم ولُعنواْ بِما قَالُواْ بلْ يداه مبسوطَتان ينفق كَيف يشاء ولَيزِيدن كَثيرا منهم ما أُنزِلَ إِلَيك من ربك طُغيانا وكُفْرا وأَلْقَينا بينهم الْعداوةَ والْبغضاء إِلَى يومِ الْقيامة كُلَّما أَوقَدواْ نارا لِّلْحربِ أَطْفَأَها اللّه ويسعونَ في الأَرضِ فَسادا واللّه لاَ يحب الْمفْسِدين] المائدة/٦٤.

٢- سوء أدبهم مع الرسول ε.

---

(١)- المباركفوري: الرحيق المختوم، ص١٣٧.

(٢)- جماز: دراسات في السيرة النبوية، ص٥٢.

(٣)- خليل: دراسة في السيرة، ص١٥٢.

(٤)- جماز: مصدر سابق، ص٥٢.

(٥)- المكي: السيرة النبوية، ج١، ص٧٨.

(٦)- الصلابي: السيرة النبوية، ج١، ص٥٥٩.

فكانوا يلمزونه في حضرته، وأثناء خطابه، ويحيونه بتحية باطنها الدعاء عليه بـالموت، وظاهرهـا بالسلام عليه، مما يدل على معانا م النفسية المتولدة من فقدان عز كانوا يتصورون قدومـه إلـيهم، فكان منهم هذا الأذى، والتهجم؛ وسوء الأخلاق[1]. فعن عائشة – رضي الله عنها- قالت: كـان اليهود يسلمون على النبي ε، يقولون: السام عليك. ففطنت عائشة إلى قولهم، فقالت: عليكم السام واللعنة، فقال النبي ε: { مهلا يا عائشة، إن الله يحب الرفق في الأمر كله }، فقالت: يا نبي الله، أو لم تسمع ما يقولون؟ قال: { أو لم تسمعي أني أرد ذلك عليهم، فأقول: وعليكم }[2].

المطلب الرابع: محاولتهم تمزيق صف المسلمين وضرب وحد م.

كان اليهود يسعون إلى تقطيع أواصر المحبة بين المسلمين، بإثارة الفتن الداخلية، وإحياء الشعارات الجاهلية، وإذكاء النعرات الإقليمية، والدعوات القومية والقبلية؛ لإحداث الوقيعة بين الإخوة المتآلفين المتحابين[3].

ومن ذلك أن حاقدا ماكرا من اليهود، يدعى شاس بن قيس، قد تفتق ذهنه لحيلة ماكرة، لتشتيت وحدة الأنصار، لما رآهم يوما وقد ضمهم مجلس واحد، وهم يتحدثون في مودة وأخوة، بعد أن كانوا بالأمس أعداء متحاربين، فغاضه هذا المشهد الملتئم،فعزم على تمزيق الوحدة المتآلفة، وتفريق القلـوب المتحابة[4]، فقال: قد اجتمع ملأ بني قيلة- الأوس والخزرج- ذه البلاد، فمالنا ذا من قرار، فـأمر شابا من اليهود كان معه أن يذكرهم بيوم بعاث، وما كان فيه من قتل ودماء، وما تقاولوا فيه مـن الأشعار، ففعل فتكلم القوم وتفاخروا، وأشعلها الشيطان فتنة هوجاء، حتى قال أحدهم للآخـر: إن شئتم رددنا- أي الحرب- الآن جذعة، وغضب الفريقان وتنادوا: السلاح السلاح، موعدكم الحرة.

فبلغ ذلك الرسول ε فجاءهم مسرعا في جماعة من المهاجرين، وأخذ يخفضهم ويهدئ من ثور م، وكان فقه الدعوة حاضرا؛ حيث ذكر القوم برابطة العقيدة، كأقوى محرك للمسلمين، وخوفهم مـن العودة إلى الجاهلية[5]، فقال لهم: { يا معشر المسلمين، الله الله ! أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم، بعد أن هداكم الله للإسلام وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفـر، وألف به بين قلوبكم }[6].

---

(1)- المصدر نفسه، ج١، ص٥٦٠.

(2)- البخاري: ك. الدعوات، باب: الدعاء على المشركين، رقم: ٦٣٩٥، ص١٢٢٨. ومسلم: ٢١٦٥.

(3)- الصلابي: مصدر سابق، ج١، ص٥٥٦.

(4)- جماز: دراسات في السيرة النبوية، ص٣٥.

(5)- الغضبان: المنهج الحركي للسيرة النبوية، ص١٦٦.

(6)- ابن هشام: السيرة النبوية: ج٢، ص٤١٣.

عندها أفاق المسلمون من غضبهم، وعلموا أ ا نزغة شيطانية، وكيد من عدوهم، وألقوا السـلاح وبكوا ندما وحصرةً، وعانق بعضهم بعضا، وانصرفوا مع رسول الله ε سامعين مطيعين، وفي هذا نزل القرآن الكريم يحذر المسلمين، من الوقوع في دسائس اليهود وخبثهم، وكيدهم وخداعهم، وأ ـم لا يريدون لهم؛ إلا التفرق والتمزق والضياع[1]، لقوله تعالى: [يا أيها الذين آمنواْ إن تطيعواْ فَرِيقًا مـن الذين أُوتواْ الْكتاب يردوكُم بعد إِيمانِكُم كَافرين] إلى قوله: [كَذَلك يبين اللّه لَكُم آياتـه لَعلكُـم تهتدونَ] آل عمران (١٠٠ ، ١٠٣).

المطلب الخامس: تصفية الوجود اليهودي وإ اؤه.

وبعد الذي حدث من طرف اليهود، من مكر وخداع، ونشر للدسائس والأحقاد، ونقض للعهود والمواثيق، دف تمزيق شمل المسلمين، وتشتيت وحد م، ومحاربة الدعوة، والقضـاء علـى الدولـة الجديدة؛ تبين للرسول ε بعدها أن اليهود أعلنوا حر م الشاملة على الإسلام وأهله، وكشفوا عـن حقيقة الحقد المخبوء في نفوسهم، فكانوا بحق عقبة كؤودا وتحديا بارزا أمام مسيرة الدعوة. ومـا دام اليهود لم يصبروا على الحياة النظيفة، والحياة الهانئة التي عاهدهم عليها الرسول ε، وأعطاهم عليهـا موثقا، جاء القرار بتصفية وجودهم من المدينة وما حولها[2].

١- إجلاء يهود بني قينقاع.

بعد الانتصار الذي حققه المسلمون في بدر، استشاط اليهود غضبا، وغلـى مرجـلُ الحقـد في نفوسهم، وأحسوا بخطورة الإسلام وأهله، وراح الرسول ε يستثمر هذا النصر لصـالح الـدعوة[3]، فجمع يهود بني قينقاع في سوقهم، وخاطبهم قائلا: { يا معشر يهود، إحذروا من الله عز وجل مثل ما نزل بقريش من النقمة، وأسلموا فإنكم قد علمتم أني نبي مرسل، تجدون ذلك في كتابكم وعهـد الله إليكم }، ولم يستطيعوا كبت ما في نفوسهم، فأجابوا رسول الله ε بجرأة ووقاحة، فقـالوا: يـا محمد، إنك ترى أنا كقومك ؟ لا يغرنك أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فأصبت فرصة، إنا والله لئن حاربتنا لتعلمن أنا نحن الناس[4].

و ذا نقض اليهود العهد، وأظهروا تحديا صارخا، وروحا عدائية، واستعدادا للحـرب والقتـال، ونزل القرآن ينذرهم بسوء العاقبة، في قوله تعالى: [قُل للذين كَفَرواْ ستغلَبونَ وتحشرونَ إِلَى جهنم

---

(١)- أبو شهبة: السيرة النبوية، ج٢، ص (٣٨٩ ، ٣٩٠).

(٢)- جماز: دراسات في السيرة النبوية، ص٥٤.

(٣)- الغضبان: فقه السيرة النبوية، ص٢٨٥.

(٤)- ابن هشام: السيرة النبوية، ج٣، ص٠٧.

وبئس الْمهاد، قَد كَانَ لَكُم آيةٌ في فئَتين الْتقَتا فئَةٌ تقَاتلُ في سبِيل اللّه وأُخرى كَافرةٌ يرونهم مثْلَيهم رأْي الْعين واللّه يؤيد بِنصرِه من يشاء إِن في ذَلك لَعبرةً لِّأُولي الأَبصارِ] آل عمران (١٢ ، ١٣).

وبيت اليهود الفرصة لمكاشفة العداء، فجاءت امرأة من نساء المسلمين ببضاعة لهـا، وباعتـها في السوق، ثم جلست عند صائغ من بني قينقاع، فعمد إليها نفر من اليهود يريدون كشـف وجههـا فأبت، فأخذ الصائغ طرف ثو ا فعقده إلى ظهرها- دون علمها- فلما قامت انكشـفت سـوأ ا، وضحك اليهود منها، فصاحت المرأة فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله، وشـدت اليهـود على المسلم فقتلوه[١]، واشتعل فتيل الحرب بين الفريقين؛ فرأى النبي ε أنه لا مناص من تطهير المدينة من اليهود، والتخلص من خبثهم، الذي إن ظل سيكون مصدرا لكل البلابل والقلاقل[٢].

وفي منتصف شوال من السنة الثانية للهجرة، حاصرهم النبي ε خمس عشرة ليلة، حتى استسـلموا ونزلوا على حكمه، ورضوا بما يصنع في رقا م، ونسائهم، وذراريهم[٣]، وجاءه ابن أبي بن سـلول رأس المنافقين، وكان حليفا لهم، فقال: يا محمد أحسن في موالي، إني والله امرؤ أخشى الدوائر، وكان رأس المنافقين يلح، والرسول ε يعرض عليه مرات عديدة، فانتهج ε الحكمة في معاملته قائلا لـه: { هم لك على أن يخرجوا من المدينة }[٤]، وفي المقابل خلع عبادة بن الصامت τ حلفه مع هؤلاء، تبرئة إلى الله ورسوله منهم، قائلا: يا رسول الله أتولى الله ورسوله والمؤمنين، وأبرأ من حلف هؤلاء الكفار وولايتهم، ففيه وفي ابن سلول نزل قوله تعالى: [يا أَيها الذين آمنواْ لاَ تتخذُواْ الْيهـود والنصـارى أَولياء بعضهم أَولياء بعضٍ ومن يتولهم منكُم فَإِنه منهم إِن اللّه لاَ يهدي الْقَوم الظالمين] إلى قوله: [ومن يتول اللّه ورسولَه والذين آمنواْ فَإِن حزب اللّه هم الْغالبونَ] المائدة (٥١ ، ٥٦)[٥] ، وفي هـذه الآيات بيان واضح؛ لحقيقة الولاية لله ورسوله، والتبرئة من اليهود، فقال عبادة بن الصامت τ: (قد تغيرت القلوب، ومحى الإسلام العهود).

وشهدت هذه المرحلة تصفية لعدد من الشخصيات اليهودية، والتي كانت أشد عداء وتحريضا على الإسلام والمسلمين في المدينة؛ كعصماء بنت مروان، وأبو عفك، وكعب بن الأشرف[٦].

٢- إجلاء يهود بني النضير.

---

(١)- سالم نوري: فقه السيرة النبوية، ص (٢٨٧ ، ٢٨٨).

(٢)- جماز: دراسات في السيرة النبوية، ص٥٥.

(٣)- سالم نوري: مصدر سابق، ص٢٨٨.

(٤)- جماز: مصدر سابق، ص٥٦.

(٥)- ابن هشام: مختصر (السيرة النبوية)، دار النهضة، بدون طبعة وبدون تاريخ، ص (١٣٣ ، ١٣٤).

(٦)- الصلابي: السيرة النبوية، ج٢، ص٧٥٣. ابن هشام: السيرة النبوية، ج٣، ص٣٧.

رغم الرعب الذي أصاب اليهود بإجلاء إخوا م من بني قينقاع، لكن ما أصاب المسـلمين مـن خسارة في موقعة أحد، جعل اليهود يطلون برؤوسهم من جديد، يحدوهم الأمل للنيل من الإسـلام وأهله، وازدادت رغبتهم في تحقيق هدفهم، تلك الأحداث الأليمة التي لحقت بالمسلمين؛ فاستشـهد سبعون من خيرة الصحابة، من حفظة القرآن الكريم، في حادثة بئر معونة، غدرت م قبائل من بـني سليم، بتحـريض من عامر بن الطفـيل، كانوا في طريقهم إلى ديار بني عامر يدعو م إلى الإسلام. وغدر وفد من عضل والقارة بعشرة من الصحابة أرسلهم الرسول ε معهم؛ ليفقهـو م في الـدين ويعلمو م الإسلام، فلما وصل الوفد ذات الرجيع استصرخوا عليهم قبيلة هذيل، فشاركتهم غدرهم وخيانتهم، ومثلوا بالدعاة أشد تمثيل.

فوجد يهود من هذه الأحداث الأليمة، فرصة للاستهزاء والشماتة بالمسلمين، ودفعهم حقدهم إلى إحاكة الدسائس والمؤامرات[1]؛ فتجرأ يهود بني النضير على اغتيال قائد الدعوة الرسول ε بعـد أن حل بديارهم، طالبا مشاركتهم في دفع دية قتيلين من بني عامر، قتلهما عمرو بن أمية الضمري τ؛ مقدرا أنه يأخذ الثأر لشهداء بئر معونة، دون أن يعلم أن النبي ε قد أعطاهما عهدا.

وكشف قائدهم حيي بن أخطب عن طبيعة اليهود، في نقض العهد وفي قتل الأنبياء، فقتلوا يحـيي وزكرياء وهم من بني إسرائيل، فلا ضير عندهم أن يقتلوا محمدا ε وقد نزع منهم النبوة والملك كما يعتقدون، فانتدب لارتكاب هذه الجريمة عمرو بن جحاش ليرمي عليه صخرة[2]، فتداركت الرحمـة الرسول ε، فـ ل عليه الوحي يخبره بما همت عليه يهود، فنهض مسرعا عائدا إلى المدينة، موهما يهـود أنه ماض لقضاء حاجة، فتبعه من كان معه من الصحابة، فقالوا: ضت ولم نشعر بك، فأخبرهم بما همت به يهود[3].

وأحبط الله مؤامرة يهود، وكان هدفهم تفتيت دولة الإسلام والقضاء على الدعوة، ودفع المهاجرين إلى مكة، والأنصار إلى تحالفا م القديمة، فكشف الوحي عن غدرهم وخيانتهم، فكانت نعمة عظيمة على نبيه وأمته، بأن خيب الله فألهم[4]، مشيرا إلى هذا، في قوله تعالى: [يا أيها الذين آمنواْ اذْكُـرواْ نِعمت اللّه علَيكُم إِذْ هم قَوم أَن يبسطُواْ إِلَيكُم أَيديهم فَكَف أَيديهم عنكُم واتقُواْ اللّه وعلَـى اللّـه فَلْيتوكلِ الْمؤمنونَ] المائدة/١١.

---

(١)- جماز: دراسات في السيرة النبوية، ص (٥٦ ، ٥٧).

(٢)- الغضبان: المنهج الحركي للسيرة النبوية، ص (٢١١ ، ٢١٢).

(٣)- سالم نوري: السيرة النبوية، ص٢٩٩.

(٤)- المصدر نفسه، ص٢٩٩.

وبهذا الغدر نقض يهود بني النضير العهد، وجلبوا حتف أنفسهم بأيديهم، ووجه الرسول ε لهم إنذارا حمله إليهم محمد بن مسلمة τ، بالجلاء عن المدينة خلال عشرة أيام، ومن بقي بعدها ضربت عنقه[1]، فأرهب القوم وهبوا للرحيل؛ إلا أن رأس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول أرسل يثبتهم، ويحرضهم على البقاء، ويعدهم بالنصر، ويغريهم بالمدد بألفين من المقاتلين، وفي هذا نزل قوله تعالى: [ألَم تر إِلَى الذين نافَقُوا يقُولُونَ لإِخوانِهِم الذين كَفَروا من أَهلِ الْكتابِ لَئن أُخرِجتم لَنخرجن معكُم ولَا نطيع فيكُم أَحدا أَبدا وإِن قُوتلْتم لَننصرنكُم والله يشهد إِنهم لَكَاذبونَ، لَئن أُخرِجوا لَا يخرجونَ معهم ولَئن قُوتلُوا لَا ينصرونهم ولَئن نصروهم لَيولن الْأَدبار ثُم لَا ينصرونَ] الحشر (١١ ، ١٢).

فقويت نفوس يهود، ورفضوا الامتثال وأعلنوا الحرب، وحاصرهم النبي ε عشرين يوما، ولم يجدوا لا ناصرا ولا معينا، وأظهروا الاستسلام، وأذعنوا للجلاء، وكان لهم ما حملت إبلهم من الأموال عدا الدروع والسلاح، ونزل القرآن يصف حالتهم، في قوله تعالى: [هو الذي أَخرج الذين كَفَروا من أَهلِ الْكتابِ من ديارِهم لأَولِ الْحشرِ ما ظَننتم أَن يخرجوا وظَنوا أَنهم مانِعتهم حصونهم من الله فَأَتاهم الله من حيثُ لَم يحتسِبوا وقَذَف في قُلُوبِهم الرعب يخرِبونَ بيوتهم بِأَيديهم وأَيدي الْمؤمنِين فَاعتبِروا يا أُولي الْأَبصارِ] الحشر/٠٢.

وهكذا قضي على المعقل الثاني من معاقل اليهود، وأعز الله رسوله والمؤمنين، ووطد سلطانهم، وهزم الله اليهود والمنافقين، وخيب آمالهم؛ وجعل كيدهم في نحورهم.

٣- إجلاء يهود بني قريظة.

رأى نفر من يهود بني النضير- وعلى رأسهم: حي بن أخطب، وسلام بن أبي الحقيق، وكنانة بن أبي الحقيق- أن الهزائم التي لحقت بهم وبالوثنيين، سببها تفردهم في قتال المسلمين، فراحوا يقنعون قريشا، بأن يشكلوا حلفا واحدا قويا، يضم مختلف القوى اليهودية والوثنية، ويوجهون ضربة قوية مشتركة للمسلمين في المدينة، فلا تقوم لهم بعدها قائمة[2]، ونجح يهود في تحزيب قريش، وغطفان والأعراب؛ لحرب الرسول ε وأصحابه.

وأثناء حصارهم المدينة، سعوا إلى بني قريظة ونجحوا في ضمهم إلى حزبهم، وبهذا نقض يهود بني قريظة عهدهم مع الرسول ε، وازدادت المحنة وعظم البلاء، وزلزل المؤمنون زلزالا شديدا، وكادت كارثة تحل بالأمة وبمستقبلها، وتعصف بالدولة وكيانها؛ لولا أن تدارك الله الأمر بقدرته، ففرق شمل

---

(١)- جماز: دراسات في السيرة النبوية، ص٥٨.

(٢)- خليل: دراسة في السيرة، ص٣٤٢.

الأحزاب بإرسال ريح شديدة ، وأعز الله المؤمنين بجند من عنده، فعصم نبيه وحفظ دعوته[1]، وصور القرآن هذه الشدة في قوله تعالى: [يا أيها الذين آمنوا اذْكُروا نِعمةَ الله علَيكُم إذْ جـاءتكُم جنـود فَأَرسلْنا علَيهم رِيحا وجنودا لم تروها وكَانَ الله بِما تعملُونَ بصيرا، إذْ جاؤوكُم من فَـوقكُم ومـن أَسفَلَ منكُم وإِذْ زاغَت الْأَبصار وبلَغت الْقُلُوب الْحناجِر وتظُنونَ بِالله الظنونا، هنالك ابتلي الْمؤمنونَ وزلْزِلُوا زِلْزالًا شديدا] الأحزاب (٠٩، ١١).

ولم يكن الرسول ε وأصحابه، قد نفضوا غبار الأحزاب عن أنفسهم، حتى جاءه الـوحي يـأمره بمباغتة بني قريظة، قبل أن يعدوا عد م، ويقووا حصو م، فنادى الرسول ε أصـحابه قـائلا: { لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة }[2].

وحاصرهم[3] الرسول ε في حصو م خمسا وعشرين ليلة، امتلأت فيها قلو م رعبا وخوفا، حـتى اضطروا للاستسلام[4]، وعرضوا على النبي ε أن يحكم فيهم سعد بن معاذ τ، وفي اعتقـادهم أنـه سيرأف م، لما كان يربطهم به من حلف قديم؛ إلا أن سعدا τ قضى بأن يقتل الرجـال، وتسـبى النساء والذرية، وتقسم الأموال، فأقره الرسول ε على حكمه[5]، قائلا: { قضيت بحكم الله }[6].

وكان عقاب يهود بني قريظة، جزاء لخيانتهم ونقضهم للعهود والمواثيق، و ذا العقاب العادل سقط المعقل الثالث لليهود، والذين شكلوا بحق وكرا للخديعة والتآمر، وأنزل الله تعالى في شأ م: [وأَنزلَ الذين ظَاهروهم من أَهلِ الْكتابِ من صياصيهم[7] وقَذَف في قُلُوبِهِم الرعب فَرِيقًا تقْتلُونَ وتأْسرونَ فَرِيقًا، وأَورثَكُم أَرضهم وديارهم وأَموالَهم وأَرضا لم تطَؤوها وكَانَ الله علَى كُلِّ شـيءٍ قَـديرا] الأحزاب (٢٦ ، ٢٧).

٤- إجلاء يهود خيبر.

نجح الصحابة ψ في امتحان صلح الحديبية، فأطاعوا الله ورسوله، على ما تشتهيه أنفسهم وتشـير إليه عقولهم، فكانت الجائزة من الله، بالفتح القريب والمغانم الكثيرة، مؤكدا هذا في قوله تعالى: [لَقَد

---

(١)- محمد متولي الشعراوي: السيرة النبوية، المكتبة التوفيقية، القاهرة- مصر، بدون طبعة وبدون تاريخ، ص٣٣٢.

(٢)- البخاري: ك. المغازي، باب: مرجع النبي ε من الأحزاب. رقم: ٤١١٩، ص٧٨٢.

(٣)- وكان ذلك في شهر ذي القعدة سنة ٠٥هـ.

(٤)- أبو شهبة: السيرة النبوية، ج٢، ص (٤٠٦ ، ٤٠٧).

(٥)- سالم نوري: فقه السيرة النبوية، ص (٣٠٤ ، ٣٠٥).

(٦)- البخاري: ك. المغازي، باب: مرجع النبي ε من الأحزاب. رقم:٤١٢١، ص٧٨٢.

(٧)- صياصيهم: حصو م.

رضي الله عنِ الْمؤمِنِين إِذْ يبايِعونك تحت الشجرة فَعلم ما في قُلُوبِهِم فَأَنزلَ السكينةَ علَيهم وأَثَابهم فَتحا قَرِيبا، ومغانِم كَثيرةً يأْخذُونها وكَانَ الله عزِيزا حكيما] الفتح (١٨ ، ١٩).

وكانت غزوة خيبر، فاتحة الفتوح، وأولى المغانم، وتقع خيبر من الشمال الشرقي للمدينة على بعد سبعين ميلا، وتشكل أهم مستوطنة يهودية، وأكبر قاعدة حربية ذات قلاع حصينة، وقد دفع كيد يهود وحقدهم، إلى التربص بالإسلام وأهله، فهم في قرارة أنفسهم لا يأمنون أن يلقَوا مصير إخوا م، من يهود بني قينقاع، وبني النضير؛ وبني قريظة. فشكلوا بتصرفا م المريبة، وسلوكا م المشبوهة؛ مصدر فتن وقلق للمسلمين، فالأنباء تفيد بنشاطهم الدؤوب في تجميع جهودهم، مع القوى ا اورة من غطفان والأعراب؛ لغزو المدينة[١].

لكن الرسول ε وأصحابه كانوا أيقاظا لتحركات يهود ومكرهم، فعزموا على إفشال خططهم ورد كيدهم؛ فخرج إليهم في **محرم من السنة السابعة للهجرة**، بجيش قوامه ألفا وأربعمائة، ولم يأذن فيه لمن تخلف عن الحديبية، وكان معه عشرون امرأة للخدمة والإسعاف[٢].

وفاجأهم الرسول ε في الصباح الباكر بجيشه، وهم في طريقهم إلى مزارعهم، فَصعقُوا وهربوا إلى حصو م، وهم يصرخون: محمد والخميس[٣]. فرفع النبي ε يديه، وقال: { الله أكبر خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم، فساء صباح المنذرين }[٤].

وحاصرهم المسلمون بقوة عددهم وعد م بعد قوة إيما م وثقتهم في النصر، فبدأت حصون خيبر تتهاوى رغم ما يمتازون به من بأس شديد، وسلاح وافر، ومال كثير[٥]، ولم يغن عنهم دفاعهم المستميت، وضاقت عليهم حصو م، وتمكن اليأس من قلو م، وأيقنوا بالهلكة، وأعلنوا الاستسلام، وطلبوا الصلح على أن تحقن دماؤهم، فقبل ذوا الرحمة منهم ذلك، ولما أراد الرسول ε إجلاءهم، عرضوا عليه زراعة الأرض وللمسلمين نصفها[٦]، فأجا م ε: { نقركم على ذلك ما شئنا }[٧].

ورغم مصالحة النبي ε لهم، وإحسانه إليهم بإجابة مطالبهم؛ إلا أن نفوسهم جبلت على الحقد والغدر، فقد تجرأت امرأة منهم تدعى زينب بنت الحارث اليهودية على قتله، فقدمت له شاة

---

(١)- جماز: دراسات في السيرة النبوية، ص (٦٣ ، ٦٤).

(٢)- الندوي: السيرة النبوية، ص٣١٦.

(٣)- والخميس: أي الجيش.

(٤)- البخاري: ك. المناقب، باب: سؤال المشركين أن يريهم النبي ε آية، فأراهم انشقاق القمر، رقم: ٣٦٤٧، ص٦٩٦.

(٥)- أبو شهبة: السيرة النبوية، ج٢، ص٤١٥.

(٦)- المصدر نفسه، ج٢، ص٤١٧.

(٧)- البخاري: ك. فرض الخمس، باب: ما كان النبي ε يعطي المؤلفة قلو م وغيرهم من الخمس ونحوه. رقم: ٣١٥٢، ص٦٠٤.

مسمومة، وأكثرت السم في ذراعها، بعد أن أخبرت بأنه أحب الطعام إليه، فكانت المعجزة الإلهيـة، بأن أخبره الذراع بأنه مسموم فلفظه، ولم يزل أثر السم يعاود الرسول ε حتى اختاره الله إليـه [1]، فعن عائشة-رضي الله عنها- قالت: كان النبي ε يقول في مرضه الذي مات فيه: { يا عائشة، مـا أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر، فهذا أوانُ وجدت انقطاع أ بهري من ذلك السم }[2].

ودب الخوف بقية يهود، فخشي يهود وادي القرى وفدك وتيماء، أن يحل بهم ما أصاب إخوانهم، فقبلوا الصلح ونزلوا على مثل حكمهم؛ بأن تترك لهم الأرض والنخيل بأيديهم، فعامـلهم النبي ε عليها، ورجع قافلا إلى المدينة[3].

وبهذا سقطت سائر حصون اليهود، وتهاوت جميع معاقلهم وقلاعهم، بقوة إيمان المؤمنين وجلدهم وصبرهم، وتم إخضاعهم جميعا تحت سلطان الإسلام، وانتهى نفوذهم وكيانهم، ولم تقم لهم قائمـة؛ بسبب ما جنوا على أنفسهم من خيانة للعهود ومخالفة للمواثيق، وأصبحت الدولـة في مـأمن مـن كيدهم من ناحية الشمال إلى بلاد الشام، إلى أن أجلاهم عمر بن الخطاب τ في خلافته، عن الجزيرة العربية نهائيا؛ عملا بقوله ε: { لا يبقين دينان بأرض العرب }[4]، وعلى أساس أن بقاءهم وإقرارهم وإقرارهم في بلدهم كان مشروطا بمشيئة المسلمين[5]، لقوله ε: { نقركم على ذلك ما شـئنا }[6]، وهكذا لقي يهود جزاء خيانتهم، وغدرهم، [ولَا يحيق الْمكْر السيئُ إلا بِأهله] فاطر/٤٤، فـذاقوا عاقبة كيدهم وظلمهم، وطهرت جزيرة العرب من دسائسهم، [وكَذَلك أَخذُ ربك إِذَا أَخذَ الْقُرى وهي ظَالمةٌ إن أَخذَه أَليم شديد] هود/١٠٢.

المطلب السادس: الـدروس والعـبر.

١- لم يتمالك يهود بني قينقاع بأن يكضموا غيضهم، وحقدهم عقب انتصار المسلمين في بـدر؛ لأن توقعاتهم كانت تفيد بأن يزول كيان المسلمين إلى الأبد، وتكسر شوكتهم عندما تثور العـرب عليهم، انطلاقا من هذا، فإن اليهود لم يظهروا عداوتهم للمسلمين، ولم يكشفوا لهم عن حقدهم أثناء وجودهم بالمدينة؛ بل راحوا يوقعون مع الرسول ε العهود والمواثيق، على العيش معا في سلام وأمان، معتقدين في قرارة أنفسهم قرب نهاية الإسلام ودعوته. ولما حدث ما لم يكن في الحسـبان، ضـاقت

---

(١)- أبو شهبة: مصدر سابق، ج٢، ص (٤١٧ ، ٤١٨).

(٢)- البخاري: ك. المغازي، باب: مرض النبي ε ووفاته، رقم: ٤٤٢٨، ص٨٣٨.

(٣)- الصلابي: السيرة النبوية، ج٢، ص٤٤١.

(٤)- الموطأ: ك. الجامع، باب: ما جاء في إجلاء اليهود من المدينة، رقم: ١٦٥٠، ص٤٩٨.

(٥)- أبو شهبة: السيرة النبوية، ج٢، ص (٤٢١ ، ٤٢٢).

(٦)- البخاري: ك. فرض الخمس، باب: ما كان النبي ε يعطي المؤلفة قلوبهم وغيرهم من الخمس ونحوه. رقم: ٣١٥٢، ص٦٠٤.

صدور اليهود غيضا وحسدا، ولم يتمالكوا على عدم البوح بما تكيد به نفوسهم، فـأعلنوا صـراحة نقضهم للعهود والمواثيق، متبجحين بقدرا م القتالية، وملوحين بالحرب على المسلمين، كاشفين لهـم عن عداو م المتزايدة، والتي أكدها الله تعالى في قوله: [لَتجِدن أشد الناسِ عداوةً للذين آمنواْ الْيهود والذين أشركُواْ] المائدة/٨٢.

وانطـلاقا من هذا الواقع، أصبح لـزاما على كل مسلم أن يعي تمـاما، بأن الركون إلى اليهود، والاطمئنان إلى عهودهم ومواثيقهم، ليس من الحكمة ولا من السـياسة، ولا من الدين في شـيء، فميز م: أ م لا عهـد لهم، ولا ميثاق[1]، لقوله تعالى: [أَو كُلما عاهدواْ عهداً نبذَه فَرِيق منهم بلْ أَكْثَرهم لاَ يؤمنونَ] البقرة/١٠٠.

٢- إن الطرف الرئيسي لواقعة بني قينقاع متعلق بنقاب المرأة المسلمة، حيث راودها يهودي على نزع نقا ا فأبت؛ لكو ا تعتبره جزءا من ثوابت العقيدة التي لا يجوز نقضها بحـال مـن الأحـوال، والحجاب وما يتضمنه من وضع النقاب- مع ما ورد في هذه المسألة من خلاف- ليس رمزا للمـرأة فحسب؛ بل مكون أساسي في فقه المرأة المسلمة، وله وظيفته الدينية والاجتماعية؛ حيث يرسي أسس العفة في سلوك الرجل والمرأة، مما يؤدي إلى حفظ التوازن الأخلاقي في ا تمع، لذا فإن الاعتداء على الحجاب في نظر الإسلام، اعتداء على نظامه الحياتي وعقيدته الدينية[2].

٣- أما واقعة بني النضير فتفيد بأن التآمر على حياة النبي ε قد تجاوز مرحلة التفكير والتخطـيط، وحد التحريض والإثارة، إلى مرحلة الهم بالقتل وتنفيذه[3]، وما دام القائد المسلم صار هدفا رئيسـا للعدو، فالواجب أن يكون يقظا ومنتبها، ويحسن التصرف في الحالات الصعبة. وإذا كان الرسول ε قد كشف غدر يهود بني النضير بوحي من الله: [واللّه يعصمك من الناسِ إِن اللّه لاَ يهدي الْقَـوم الْكَافرِين] المائدة/٦٧؛ فإن الحركات الإسلامية ملزمة بكشف مخططات أعدائها، واتجاها م في نقض العهود أو الوفاء ا، بمدى اختراق رجالا ا لصفوفهم، وتحسس أخبارهم[4].

٤- إن الدعاة قد يقعون في شـرك الأعداء أو الحلفاء؛ بسبب نيتهم الطيبة، وهذا لا يعفيهم مـن المسؤولية، فسرية التخطيط وسرعة البداهة، والتعامل في المقابل ببلاهة ظاهرية بجهل مخططات العدو، عناصر أساسية في اتقاء شر العدو؛ فقد مكث اليهود ينتظرون عودة الرسول ε لقتله، وفي ذهنهم أنه

---

(١)- البوطي: فقه السيرة، ص٢٣٢.

(٢)- سالم نوري: فقه السيرة النبوية، ص٢٩٠.

(٣)- المصدر نفسه، ص (٣٠١ ، ٣٠٢).

(٤)- الغضبان: المنهج الحركي للسيرة النبوية، ص٢١٢.

خرج لقضاء حاجة، تماما كما توهم المشركون ليلة الهجرة، انتظار استيقاظ الرسول ε مـن فراشـه لقتله، فتفاجؤوا بعلي τ ينام مكانه[1].

٥- كانت المنابذة صريحة لبني النضير، في خطاب رسول الله ε لحي بن أخطب، على لسان محمد بن مسلمة τ: { أن اخرجوا من بلده فإنكم قد نقضتم العهد بما هممتم به من الغـدر }، لكـن رد اليهود كان سفيها، ولعل جرأ م نجمت من تحرك الطابور الخامس، والمتمثل في زعيم المنافقين عبد الله بن أبي الذي ثبتهم، وأغراهم بالرجال والمال، فكان التطاول منهم على الحرب ورفض الجلاء، " إنا لا نخرج فليصنع ما بدا له ". وليس من سمة القائد المسلم أن يوعـد فلا يفي، أو يهدد فلا ينفذ، فما إن وصل رد اليهود صباحا حتى حاصرهم النبي ε مساء، فالصف المسلم القوي بوحدته، كفيل بحـرق النفاق وخططه، وسحق العدو وفتنته[2].

٦- كان لحصار بني النضير فوائد وأبعاد أساسية، أهمها:

أ- كان للعمليات الفـدائية دورا لـه أثره في نشر الرعب والخوف في صفوف العدو، فقد نصب علي τ كمينا لليهودي عزوك، قائد النبالة وأمهرهم فقتله، بعد أن كان يستهدف دار القيادة، ويـود اغتيال الرسول ε وعشرة معه، وكلف الرسول ε أبا دجانة وسهل بن حنيف – رضي الله عنـهما- في عشرة من الصحابة، لاحقوا الكتيبة اليهودية وقتلوا من فيها، ومثلت العملية قوة لعزيمة المسـلمين وردعا لليهود[3].

ب- تضمنت العقوبة، استهداف العدو في أعز ما يملك؛ لحمله على الاستسلام، فثبت أن النبي ε أتلف بعض نخيلهم وترك الباقي، وأشار القرآن مؤيدا وموافقا على هذا الإجراء[4]، في قوله تعـالى: [ما قَطَعتم من لينة أو تركْتموها قَائمةً علَى أُصولها فَبِإِذْنِ الله وليخزي الْفَاسقين] الحشر/٠٥.

ج- كان للحدثين السابقين أثرا في دفع اليهود للخروج، وقبول حكم الرسـول ε فـيهم بعـد حصارهم، غير أن حسا م بعد الحرب يختلف عنه قبلها، فأجا م ε قائلا: { لا أقبله اليـوم ولكـن أخرجوا منها ولكم دماؤكم وما حملت الإبل إلا الحلقة [5] }[6].

---

(١)- المصدر نفسه، ص٢١٢.

(٢)- المصدر نفسه، ص (٢١٢ ، ٢١٣).

(٣)- المصدر نفسه، ص٢١٣.

(٤)- سالم نوري ، مصدر سابق، ص٣٠٢.

(٥)- الحلقة: السلاح.

(٦)- الغضبان: المنهج الحركي للسيرة النبوية، ص (٢١٣ ، ٢١٤).

٧- إن اليهود في تاريخنا المعاصر، قد استقوا الدروس من عدوهم الأول، الذي أ ـى وجـودهم، فراحوا يتلمسون أساليبه ويطبقو ا- بكل أسف– على المسلمين؛ فلما اجتاح اليهود الأرض العربيـة عام ١٩٦٧م بقوة السلاح، قَبِل العرب بالعودة إلى قرار التقسيم الصادر عام ١٩٤٧م؛ إلا أن اليهـود رفضوا وأصروا على عدم العودة لحدود الرابع من حزيران. فإذا كان عقاب الله تعالى قد لحق اليهود زمن الرسول ε لما كفروا بالإسلام؛ فإن عقابه قد لحق بأمته لما هجرت القرآن، ولما كان اليهود هـم المشردون والمشتتون أصبح الفلسطينيون هم المشردون والمشتتون؛ والمبعدون عن الديار وهـم أهـل الديار[1].

٨- والمتأمل لما ترتب على واقعة بني النضير من نتائج، في مجال السياسة المالية والتشريع المتعلق ا، يجد مفهوم جديد والمتمثل في الفيء؛ وهو المال المتحصل عليه من العدو دون قتال، وبموجب عقـد صلح بين الطرفين، لقوله تعالى: [وما أَفَاء الله علَى رسوله منهم فَما أَوجفْتم علَيه من خيـلٍ ولَـا رِكَابٍ ولَكن الله يسلطُ رسلَه علَى من يشاء والله علَى كُل شيءٍ قَدير] الحشر/٠٦. وحكمه أنـه يعود إلى النبي ε أو إلى الإمام؛ ليضعه على النحو الذي بينه الله تعالى: [ما أَفَاء الله علَى رسوله مـن أَهلِ الْقُرى فَلله وللرسولِ ولذي الْقُربى والْيتامى والْمساكينِ وابنِ السبِيلِ كَي لَا يكُونَ دولَـةً بـين الْأَغْنِياء منكُم وما آتاكُم الرسولُ فَخذُوه وما نهاكُم عنه فَانتهوا واتقُوا الله إِن الله شديد الْعقَـابِ] الحشر/٠٧. وفي هذا تأكيد على أن المقصد العام من السياسة المالية في الإسلام، أن تتحقـق الفائـدة للأمة، سواء كانت أموالا خاصة أو عامة[2].

٩- وإذا تأملنا موقف الأنصار في خضم واقعـة بني النضير، نجد حبهم الكبير لنبيهم وطاعتـهم المطلقة له، فرغم أن الغنـائم قد جعلت للمهاجرين دو م؛ إلا أ م لم يعارضوا سياسته ووافقوا رأيه؛ لاعتقادهم الجازم أن ما يفعله الرسول ε إنما هو وحي من الله تعالى، يقتضي الرضا والتسليم[3]. و ذا الأنموذج الفريد في التربية، نجح الرسول ε في تأسيس مجتمع شاب يحكمه مبدأ العطاء قبل الأخـذ، ويوجهه الإيمان العميق في سكناته وحركاته، إ ا قدوة الرسول ε مثالهم الأعلى في تجـرده وإيثـاره وعطائه[4]، وغنم المسلمون من سلاح اليهود خمسين درعا، وخمسين بيضة، وثلاثمائة وأربعين سـيفا، كان لها وز ا في تسليح الجيش، وقوة للمؤمنين في حر م للعدو وترهيبه[5].

---

(١)- المصدر نفسه، ص (٢١٤ ، ٢١٥).

(٢)- سالم نوري: مصدر سابق، ص٣٠٣.

(٣)- المصدر نفسه، ص٣٠٣.

(٤)- خليل: دراسة في السيرة، ص١٥٦.

(٥)- الغضبان: المنهج الحركي للسيرة النبوية، ص٢١٦.

١٠- لقد جنح بعض المعاصرين إلى نفي روايات قتل رجـال بني قريظة، زاعمين أن إثبا ا يجرح المشاعر الإنسانية، ويخدم الدعـاية الصهيونية، فالمسألة ليست ذه الصـورة؛ بل المصادر الإسلامية أثبتت وقوع هذه الحادثة، وما العقوبة التي أنزلت م إلا جزاء خيانتهم وغدرهم، ولـيس مـن داع للتنصل من حـقائق التاريخ وتكذيب الروايات الصحيحة، فقد عرضوا بغدرهم كيان الإسـلام والمسلمين للإبادة، والمدينة وما فيها للتدمير، ولو تم لهم وللأحزاب النصر على المسلمين، لما تورعـوا عن استئصال شأفتهم، وهتك أعراضهم، وتخريب ديارهم[١]، ولكان ما لا يتصوره العقـل، ومـا لا يوضع في الحسبان؛ وستكون الكارثة أ ضعافا مضاعفة في رجال المسلمين، ونسائهم؛ وأولادهم[٢].

١١- كان بإمكان يهود بني قريظة أن يحافظوا على عهدهم، ويعيشوا في رحاب الإسلام آمـنين مطمئنين؛ لكنهم أبوا إلا القضاء على الإسلام، فاستعجلوا ايتهم بأيديهم، ودفعهـم تـدبيرهم إلى ارتكاب ثلاث جـرائم؛ تدينهم بالخيانة العـظمى، ويعـدون في نظر كل الشرائع والقوانين مجرمي حرب، تكفي واحدة منها للحكم عليهم بالموت، وهذه الجرائم هي:

١- تعريض جيش المسلمين للخطر، بإفشائهم لأسرار المسلمين واتصالهم بالعدو.

٢- تقديم الإعانة المادية والأدبية للعدو؛ ليبسر له احتلال المدينة.

٣- محاربتهم للجيش الإسلامي الذي يدافع عن المدينة (وطنهم) في أدق الظروف، وأحـرج الأوقات[٣].

١٢- كشفت واقعة بني قريظة على جواز الاجتهاد في الفروع وإمكانية الخلاف فيها، كاختلاف الصحابة ψ في فهم كلام الرسول ε: { لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة }[٤]، دون أن يعنف أحدا من الفريقين أو يعاتبه؛ تقريرا لمبدأ الخلاف في الفروع، وهو أصل من الأصول الشرعية، وتقريرا لمبدأ الاجتهاد في استنباط الأحكام الشرعية[٥].

١٣- لقد عانى المسلمون في غزوة خيبر معاناة شديدة، قد نفذ أثناء حصارهم زادهم وطعـامهم، ورغم هذه المحنة، صبروا واحتسبوا قرابة شهرين على الحرب، ويهود خيبر يدافعون باستماتة شـديدة عن وجودهم وحصو م، فقاتلوا وصبروا؛ إلا أن المؤمنين كانوا أقوى صبرا وأكثر شجاعة، وما بذلوه فاق تصورات العدو، فسخروا أرواحهم ودماءهم وطاقا م؛ لكسر شوكة العدو، وحطموا أسطورة

---

(١)- جماز: دراسات في السيرة النبوية، ص٦٣.

(٢)- أبو شهبة: السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، ج٢، ص (٤٠٩ ، ٤١٠).

(٣)- جماز: مصدر سابق، ص٦٣.

(٤)- البخاري: ك. المغازي، باب: مرجع النبي ε من الأحزاب، رقم: ٤١١٩، ص٧٨٢.

(٥)- البوطي: فقه السيرة، ص٣٠٧.

يهود آنذاك والذين كانوا يحسبون كل بطل من أبطالهم، بألف رجل من المسلمين[1]، وقـد صـور القرآن ضخامة المعركة وضراو ا، في قوله تعالى: [لَا يقَاتلُونكُم جميعا إلَا في قُرى محصنة أَو مـن وراء جدرٍ بأْسهم بينهم شديد تحسبهم جميعا وقُلُوبهم شتى ذَلك بِأَنهم قَوم لَا يعقلُونَ]الحشر/١٤.

١٤- إن النصر الإسـلامي الذي تحقق في خيبر كان من القوة والضـخامة، بحيث لم ينه الوجود العسكري لليهود في أرض العرب لعقد أو عقدين، أو قرن أو قرنين من الزمان؛ إنما أ اه لخمسة عشر قرنا، فلم تقم لليهود بعدها قائمة ولم يرتفع لهم علم ولا راية؛ إلا أن جاء منتصف هذا القرن، فأقام اليهـود دولتهم على أرض فلسطين، ولم يغب عن أذهـا م لحظة مرارة خيبر وذلها وهوا ا، وبقي اليهود يلقنـو ا للأجيال جيـلا بعد جيل، حتى كانت معـركة الخامس من حزيران عـام ١٩٦٧م واستمرت ستة أيام، سقطت على إثرها الأرض العربية من جديد في سوريا والأردن ومصر، واحتلت بيت المقدس وأثناءها صرح وزير الدفاع الإسرائيلي آنذاك، قائلا: " هذه بخيبر". وكانت فرحة اليهود عارمة، وراحوا يهتفون أثناءها:" محمد مات، خلف بنات "[2].

١٥- إن النصر الذي تحقق على يد الرسـول ε إنما تحقق بفضل راية التوحيد، ولن يتحقق هذا النصر من جديد على اليهود، إلا بالعودة إلى هذه الراية، حينها سيفرح المؤمنون بنصر الله [3]، فعـن أبي هريرة τ، عن رسول الله ε قال: { لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا اليهود، حتى يقول الحجـر وراءه اليهودي: يا مسلم، هذا يهودي ورائي فاقتله }[4].

١٦- إن الغزوات السابقة كانت قائمة على أسباب دفاعية، فالمسلمون يدافعون ا عن وجودهم ويردون ا هجمات أعدائهم؛ أما غزوة خيبر فجاءت بعد غزوة بني قريظة وصلح الحديبيـة، فهـي تختلف اختلافا جوهريا على من قبلها، فالدعوة الإسلامية أثناءها دخلت مرحلة جديدة من القوة بعد معاهدة الحديبية، وكان الرسول ε قد أغار عليهم فجأة دون أن يبادروا إلى المواجهة أو القتال بعد أن دعاهم إلى الإسلام. ولما بات الرسول ε في خيبر انتظر حتى الصباح، فلما لم يسمع آذانا إلى الصلاة- الشعيرة الإسلامية الكبرى- فاجأهم، وأغار عليهم وقاتلهم على ذلك، ويزداد هذا السبب وضوحا، عندما سلم الرسول ε الراية لعلي τ قـائلا له: { على رسلك حتى ت ل بساحتهم، ثم ادعهـم إلى الإسلام، واخبرهم بما يجب عليهم، فوالله لأن يهدي بك رجل واحد خير لك من حمر الـنعم }[5]،

---

(١)- الغضبان: فقه السيرة النبوية، ص٤٠٩.

(٢)- المصدر نفسه، ص (٤٠٩ ، ٤١٠). وسمعت هذه المظاهرة في شريط مسجل أذاعته فتح عقب المعركة.

(٣)- المصدر نفسه، ص٤١٠.

(٤)- البخاري: ك. الجهاد والسير، باب: قتال اليهود، رقم: ٢٩٢٦. ص (٥٦١ ، ٥٦٢).

(٥)- البخاري: ك. الجهاد والسير، باب دعاء النبي ε الناس إلى الإسلام والنبوة، رقم: ٢٩٤٢. ص٥٦٥.

وانطلاقا من هذه الغزوة ذهب العلماء إلى جواز الإغارة على من بلغتهم الدعوة دون إنذار سـابق أو دعوة جديدة[1].

١٧- وقعت حادثتين في غزوة خيبر، تعدان من الخوارق التي أيد الله ا نبيه ε وهما:

أ- أن النبي ε تفل في عين علي τ، وكان يشتكي منها فبرأت تماما.

ب- أن الله تعالى أوحى إليه بأمر الشاة المسمومة، لما هم بالأكل منها؛ بيانا لما اختص الله تعالى به نبيه ε من العصـمة والحفـظ[2]، لقوله تعالى: [واللّه يعصمك من الناسِ إن اللّه لاَ يهدي الْقَوم الْكَافرِين] المائدة/٦٧.

١٨- وفي ظل الهوة الواسعة بين المسلمين والعمل بشريعتهم، حققت اليهودية العالمية نجاحا باهرا في تحقيق أهدافها، وتطبيق مخططا ا بسهولة ويسر، والتي كانت تعتبرها ضربا من الخيـال، حيـث أقيمت دولة إسرائيل في قلب العالم الإسلامي، وتمكنت من الانتصار على أعظم معسكر عربي عـدةً وعتادا، وحطمت قوته الجوية، وأضعفت قوة إرادة الشعب، وروح المقاومة لديه، في بضع ساعات في الخامس من حزيران عام ١٩٦٧م، واستولت على القدس والضفة الغربية، كما استولت على الكثير من الأراضي العربية، والمواطن الاستراتيجية فيها، وهي تحلم الآن بالاستيلاء على المنطقة العربية كلها من الخليج إلى المحيط، ويتحدث زعماؤها باستهداف الأماكن المقدسة في قلب الجزيرة العربية؛ بل يمـني اليهود أنفسهم بأن يصبحوا السطوة العالمية التي تملي إراد ا على القادة والزعماء في العالم كلـه[3]. فهل سيحقق اليهود أحلامهم؟ أم ستستفيق الأمة الإسلامية من سبا ا، وتدرك حقيقة الخطر الـذي يحدق ا ؟ وهل ستكون في يوم من الأيام يدا واحدة ضد عدوها ؟!.

وبعد هذه الدراسة، فإن اليهود قد ألفوا أن يعيشوا في أوحال الدس، والكيد والوقيعة، وليس مـن طبيعتهم أن يعيشوا في أجواء نظيفة بعيدة عن الفتن والمتاعب، ولو أدوا حقوق الجـوار، واحترمـوا العهود والمواثيق لعاشوا آمنين مطمئنين؛ لكنهم تعجلوا الشر والغدر فحصـدوا عاقبتهما[4]، لقولـه تعالى: [ويمكُرونَ ويمكُر اللّه واللّه خير الْماكرِين] الأنفال/٣٠. ورغم ما بذلوه من كيد لمحاربـة الدعوة، والسعي لخدمة أهوائهم ومصالحهم؛ إلا أن جهودهم كلها باءت بالفشـل، أمـام إرادة الله

([1])- البوطي: فقه السيرة، ص (٣٣٣ ، ٣٣٤).

([2])- المصدر نفسه، ص٣٣٨.

([3])- أبو الحسن علي الحسني الندوي: مقالات إسلامية في الفكر والدعوة، إعداد سيد عبد ا يد الغوري، دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، (١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م)، ج٢، ص (٣٤٠ ، ٣٤١).

([4])- جماز: دراسات في السيرة النبوية، ص٥٦.

تعالى التي اقتضت أن يحفظ هذا الدين لهذه الأمة جيـلا بعد جيل. قال تعالى: [يرِيدونَ ليطْفؤوا نور الله بِأفْواههم والله متم نوره ولَو كَرِه الْكَافرونَ] الصف/٠٨.

المبحث الثالث

تحـ ـدي المنـافقـ ـين

المطلب الأول: حقيقتـهم.

المطلب الثاني: بداية ظهورهم وتجمعهم.

المطلب الثالث: دورهم وخطرهم ومنهج التعامل معهم.

المطلب الرابع: الدروس والعبر.

المبحث الثالث
تحدي المنافقين

تمهيد.

ما إن فرغ المسلمون من مقاومة عدوهم يهود، والذين كانوا يشكلون خطرا حقيقيا على الدعوة الإسلامية، المتنامية في المدينة، وعقبة كؤودا أمام دولة الإسلام الناشئة فيها؛ حتى واجهوا عدوا آخر أشد خطرا، وأعظم حقدا وكيدا؛ إنه الطابور الخامس المتمثل في معسكر المنافقين(1). فما حقيقتهم؟ وما طبيعة منشئهم وتجمعهم؟ وفيما تمثل دورهم وخطرهم؟ وما المنهج الأسلم في التعامل معهم؟

المطلب الأول: حقيقتهم.

إن الدارس لطبيعة حركة النفاق لدى المجتمع الجاهلي في المدينة، ليجدها ترتبط ببعديها النفسي والاجتماعي؛ **ففي البعد النفسي،** نجد كثيرا من الناس– انطلاقا من هذا البعد- يندفعون لاتخاذ

(1)- جماز: دراسات في السيرة النبوية، ص٦٥.

موقفين إزاء قضية واحدة؛ خدمة لمصلحة فردية أو جماعية، وتتدرج هذه الإزدواجية في اتخاذ المواقف، لتصبح عاملا مؤثرا في شخصية الإنسان من خلال سلوكه وتصرفاته، ثم تتطور فتصبح ظاهرة مرضية تعرف عند علماء النفس" بانفصام الشخصية "، عندها يفقد المـرء موقفه إزاء مجريـات الأحـداث المتسارعة والمتقلبة[1]، ويصير بتعبير الرسول ε: {.. إمعة، تقولون: إن أحسن النـاس أحسـنا، وإن ظلموا ظلمنا..}[2]؛ فطبيعة المنافق مضادة للطبيعة الإيمانية الواعية، وضد الفطرة السليمة [3] .

أما **البعد الاجتماعي** لظاهرة النفاق؛ فترجع إلى طبيعة المجتمع الذي بعث فيه الرسول ε، مجتمـع قبلي قائم على التسيب والانفلات، متعصب للقبيلة خاضع لأوامر مشايخها، منقاد لمواقفها والتي تخدم مصلحتها، وتحرص على سيادتها بين القبائل الأخرى.

ولما جاء الإسلام يدعو إلى الانضباط والتزام النظام، ويحارب الفوضى والانفلات، وجد العربي في هذه الدعوة، خروجا على تقاليده وأعرافه، وتخليا على ولائه لقبيلته، فضلا عن دعوته إلى الانصـهار داخل مجتمع واحد شامل، تتلاشى فيه الولاءات المتعددة، والعصبيات المختلفة، ويخضع فيه الجميـع لسلطة واحدة، يحكمها دستور واحد، من مشرع واحد هو الله تعالى[4].

وبقي الإسلام بسبب هذه الدعوة، يحارب الجـاهلية ردحا من الزمن، ويكافح لتطويعها وإلغائها، وأوجد هذا الوضع مقاومة وثنية صريحة لدعوة الإسلام، كما قاد إلى حركة نفاق تمكنت من اختراق صفوف المسلمين، وتطور- فيما بعد- إلى ظهور حركتي الردة؛ والفتنة في عصر الراشدين[5].

وأصبحت تشترك حركة الوثنية بزعامة قريش في مكة، مع حركة النفاق بزعامة عبد الله بن أبي بن سلول في المدينة في العداء للإسلام، ومحاربة أهله؛ إلا أنهما تختلفان في أسلوب المواجهة؛ تماشيا مـع القوة والضعف. فلما كان عداء قريش ظاهرا في مكة، فهذا راجع لما تتمتع به من قوة وشوكة، أمـا عداء النفاق في المدينة فكان مستترا؛ لأنه كان ضعيفا أمام قوة المسلمين، لهذا السبب اختار ابن أبي بن سلول النفاق أسلوبا في محاربة الدعوة، بدليل أنه لما حقق المسلمون انتصارا حاسما في بدر قال:" هذا أمر توجه فلا مطمع في إزالته "، فرأى هو وأصحابه، أن لا مفر لهم من اعتناق الدين الجديد نفاقا، مما يتيح لهم التسرب في صفوف المسلمين؛ للتنفيس عن أحقادهم، بمحاولتهم تفكيك المجتمع الإسلامي، ومحاربة دعوته. وبهذا الأسلوب أصبح المنافقون يعيشون في صفوف المسلمين، يشاركونهم حيـاتهم،

---

(1)- خليل: دراسة في السيرة، ص (٣٦٣ ، ٣٦٤).

(2)- الترمذي: ك. البر والصلة، باب: ما جاء في الإحسان والعفو، رقم: ٢٠٠٨، ص٢٧٥.

(3)- الندوي: مقالات إسلامية في الفكر والدعوة، ج٢، ص٣٥٧.

(4)- خليل: مصدر سابق، ص ٣٦٤.

(5)- المصدر نفسه، ص (٣٦٤ ، ٣٦٥).

ويجالسو م مجالسهم؛ ويقولون بألسنتهم ما ليس في قلو م، [وإِذَا لَقُواْ الذين آمنواْ قَالُواْ آمنـا وإِذَا خلَواْ إِلَى شياطِينِهِم قَالُواْ إِنا معكُم إِنما نحن مستهزِؤونَ] البقرة/١٤.

المطلب الثاني: بـداية ظهورهم وتجمعهم.

لم يكن لحركة المنافقين- حسب ما أشرنا سابقا- وجودا في مكة؛ لأن الإسلام في هذا العهد كان ضعيفا مضطهدا، " لا يملك حولا ولا طولا، ولا يملك لأحد نفعا ولا ضرا "[١]، وكان كل من يعتنق الإسلام يعرض نفسه للخطر والابتلاء، ويصبح هدفا للأعداء، وصار لا يدخل فيه إلا من قوي إيمانه، وصدق عزمه؛ وباع حياته. فالمؤمنون كانوا قلة مستضعفين، أمام قوة وجبروت المشركين، وصـور القرآن هذا في قوله تعالى: [واذْكُرواْ إِذْ أَنتم قَلِيلٌ مستضعفُونَ في الأَرضِ تخـافُونَ أَن يـتخطَفَكُم الناس] الأنفال/ ٢٦. ومع هذا فقد أشار السيد قطب- رحمه الله- بوجود المنافقين في العهد المكي، مستدلا بقوله تعالى: [إِذْ يقُولُ الْمنافقُونَ والذين في قُلُوبِهِم مرض غَر هؤلاء دينهم ومن يتوكلْ علَى اللّه فَإِن اللّه عزِيز حكيم] الأنفال/٤٩. وفسر هذا الموضع من الآية الكريمة: [الْمنافقُونَ والذين فـي قُلُوبِهِم]، بالذين مالوا إلى الإسلام في مكة؛ ولكن لم تصح عقيد م، ولم تطمئن قلو م، وخرجوا مع النفير مزعزعين، فلما رأوا قلة المسلمين وكثرة المشركين، قالوا ما قالوا؛ لجهلهم بحقيقة أسباب النصر، وأسباب الهزيمة[٢].

وعندما دخل الرسول ε المدينة وقبيل غزوة بدر الكبرى، لم يكن النفاق قد طل برأسه بعد، بدليل أن عبد الله بن أبي كان واضحا في إعلاء كفره، فوصلت جرأته أن طلب من الرسول ε الكف عـن الدعوة ونشر الإسلام، قائلا:" أيها المرء ! لا أحسن من هذا، إن كان ما تقول حقا، فلا تؤذنـا في مجالسنا، وارجع إلى رحلك فمن جاءك فاقصص عليه.."[٣].

بل أن مشركي مكة، كانوا في غيض شديد من المؤمنين الذين وجدوا مأمنا في المدينة، ومسـتقرا لهم، فكتبوا إلى عبد الله بن أبي بصفته مشركا، ورئيسا للأنصار آنذاك- وكادوا أن يتوجوه ملكا لولا هجرة الرسول ε إليهم وإيما م به- يحرضونه على الرسول ε وأصحابه، بكلمات نابية:" إنكم آويتم صاحبنا، وإنا نقسم بالله لتقاتلنه أو لتخرجنه، أو لنسيرن إليكم بأجمعنا حتى نقتل مقاتلتكم، ونستبيح نساءكم". وحركت هذه الكلمات حقد ابن أبي- لما يراه قد استلبه ملكه- فسارع يمتثل أوامر إخوانه

---

(١)- الندوي: السيرة النبوية، ص٢٠٠.

(٢)- قطب: في ظلال القرآن، ج٣، ص١٥٣٢.

(٣)- الغضبان: فقه السيرة النبوية، ص (٣٨٥ ، ٣٨٦).

المشركين[١]، فلما بلغ ذلك الرسول ε ذكرهم بالقرابة والنسب، وبالأبوة والنبوة[٢]، قائلا: { لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ، ما كانت تكيدكم بأكثر مما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم، تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم ؟! }، فلما سمعوا ذلك من النبي ε تفرقوا[٣].

وهكذا استطاع النبي ε بحنكته وحكمته أن يطفئ نار الأعداء ويبطل كيدهم، ومع أن معسكر اليهود كان واضحا في عدائه آنذاك؛ إلا أن أفرادا منهم مارسوا الجاسوسية في صفوف المسلمين، فكانوا يتظاهرون بالإسلام ويبطنون الكفر[٤]، وكشف القرآن عن هذا الأنموذج في قوله تعالى: [وقَالَت طَآئِفَةٌ من أَهلِ الْكتابِ آمنواْ بِالذي أُنزِلَ علَى الذين آمنواْ وجه النهارِ واكْفُرواْ آخره لَعلهم يرجِعونَ] آل عمران/٧٢.

وانطلاقا مما أشار إليه السيد قطب- رحمه الله – بوجود المنافقين في مكة، فإننا نرى أن وجودهم لم يبرز كتجمع أو معسكر يمكن أن نطلق عليه معسكر المنافقين، كما هو الحال أيضا في المدينة قبل غزوة بدر الكبرى؛ لأن النفاق كان مقتصرا على أفراد لا على جماعات يحسب لها حساب. ولذلك ما قاله هؤلاء المنافقين في المدينة، وهؤلاء المنافقين في مكة، كان شيئا واحدا؛ لأن إغواء الشيطان للفريقين كان واحدا، ومرضهما كان واحدا أيضا؛ ممثلا في الرغبة في اتقاء الضرر وتحصيل الفائدة، لذلك اتحدت عبارتهما تجاه المؤمنين، كما عبر القرآن على لسانهم، بقوله تعالى: [إِذْ يقُولُ الْمنافقُونَ والذين في قُلُوبِهِم مرض غَر هؤلاء دينهم] الأنفال/٤٩. أي كيف تقاتل القلة المؤمنة، الكثرة الكافرة ؟! فكان الرد الإلهي: [ومن يتوكلْ علَى اللّه فَإِن اللّه عزِيز حكيم] الأنفال/٤٩. فهؤلاء المؤمنين على قلتهم، قد اختاروا الله فتوكلوا عليه؛ فأعزهم ونصرهم[٥].

ولما منى الله تعالى على المؤمنين بالنصر الكبير في غزوة بدر الكبرى، برز تجمع المنافقين في المدينة وظهر للعيان، فبعد أن رأى بن أبي مقتل صناديد قريش، أمر أصحابه أن يدخلوا الإسلام نفاقا، ولم تطاوعه نفسه أن يخلص في إسلامه، فأمسك العصا من وسطها، فضمن بقاء أتباعه معه، فظاهر الأمر مسلمون، وباطنه كافرون. وأصبح المنافقون يشكلون أكبر خطر على الإسلام والمسلمين، بدسائسهم ومكائدهم، وتولى القرآن التنديد بأفعالهم تارة، وفضحهم تارة أخرى[٦]، فصور القرآن موقفهم

---

(١)- المصري: سيرة الرسول ε، ص٢٣٠.

(٢)- الغضبان: المنهج الحركي للسيرة النبوية، ص١٦٦.

(٣)- المباركفوري: الرحيق المختوم، ص١٣٩.

(٤)- الغضبان: فقه السيرة النبوية، ص٣٨٦.

(٥)- الشعراوي: السيرة النبوية، ص (٢٤٣ ، ٢٤٦).

(٦)- الغضبان: مصدر سابق، ص٣٨٦.

المضطرب تصويرا دقيقا، في قوله تعالى: [مذَبذَبِين بين ذَلك لاَ إلَى هؤلاء ولاَ إلَى هؤلاء ومن يضللِ اللَّه فَلَن تجِد لَه سبِيلاً] النساء/١٤٣. ووصفهم بقوله أيضا: [ومن الناسِ من يعبد الله علَى حـرف فَإِنْ أَصابه خير اطْمأَن بِه وإِنْ أَصابته فتنةٌ انقَلَب علَى وجهِه خسِر الدنيا والْآخرةَ ذَلك هو الْخسرانُ الْمبِين] الحج/١١.

المطلب الثالث: دورهم وخطرهم ومنهج التعامل معهم.

ظل المنافقون يشكلون خطرا حقيقيا على الإسلام وأهله، على غرار غيرهم من اليهود الحاقـدين، والمشركين الوثنيين. فتراهم يرتدون ثوب الإسلام؛ لكنهم يخفون تحته كفرهم وحقدهم. فإذا كـان المؤمنون في رخاء أسلموا، وإذا كانوا في شدة كفـروا، وكلما ازدادت كـثرة المسلمين وقويـت شوكتهم، ازداد في المقابل غيض المنافقين وتأصل حقدهم. يدلون العدو على عورات المسلمين، غـير مكترثين بأسرارهم، ولا آبهين لما يحدث لهم، يعملون على إشاعة الفتن وبث الأراجيف في صـفوف المسلمين؛ لينخدع بأكاذيبهم ضعاف الإيمان، لقوله تعالى: [يا أَيها الرسـولُ لاَ يحزنـك الـذين يسارِعونَ في الْكُفْرِ من الذين قَالُواْ آمنا بِأَفْواههِم ولَم تؤمن قُلُوبهم ومن الذين هـادواْ سـماعونَ للْكَذبِ سماعونَ لقَومٍ آخرِين] المائدة/٤١. وظلت مواقفهم تستهدف الدعوة الإسلامية، وتعرقـل مسيرتها، فهم مع اليهود يتربصون بالإسلام الدوائر، ويحيكون ضده المؤامرات والدسائس؛ لإلحـاق الهزائم به والقضاء عليه[١]. فما هي أبرز المحطات التي عظم فيها خطرهم وتبين فيها مكـرهم؟ ومـا منهج التعامل معهم؟

١- **شفاعتهم لليهود في غزوة بني قينقاع.**

كان النفاق واضحا من زعيم المنافقين ابن أبي، حينما نقض يهود بني قينقاع عهدهم وميثـاقهم، فلما حاصرهم النبي ε نزلوا على حكمه، فقام المنافق ابن أبي دونه يمنعه من إنفاذ حكمه، ملحا- بلا أدب ولا خجل- العفو عنهم، قائلا: يا محمد أحسن في موالي- وكانوا حلفاء الخزرج- فأبطأ عليـه رسول الله ε، فكرر ابن أبي مقالته، فأعرض عنه، فأدخل يده في جيب درعه، فقال له رسول الله ε: { أرسلني، وغضب حتى رأوا لوجهه ظللا، ثم قال ويحك أرسلني }. ومضى المنافق على إصـراره، وقال: لا والله لا أرسلك حتى تحسن في موالي، أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع، قد منعوني من الأحمر والأسود، وتحصدهم في غداة واحدة؟! إني والله امرؤ أخشى الدوائر. فقال رسول الله ε: { هم لك }[٢].

---

(١)- جماز: دراسات في السيرة النبوية، ص٦٦.

(٢)- المباركفوري: الرحيق المختوم، ص١٧٠. ابن هشام: السيرة النبوية، ج٣، ص٠٨.

*** الدلالات والفوائد.**

ويمكن دراسة هذا الموقف ومناقشته كما يلي:

أولا: إن موقف ابن أبي كان موقفا غريبا على الحس الإسلامي، إذ لا يكون هذا الموقـف بـين جندي وقائده، فكيف يكون بين مسلم ورسول رب العالمين؟! فيقف مسلم ويدخل يده في جيـب درع رسول الله ε، ويطلب منه الرسول ε أن يدعه فلا يدعه، فيغضب ويلح عليه بقوله: { ويحـك أرسلني }، ويسترسل في وقاحته فلا يستجيب، إن مثل هذا الأدب لم يعهد به الصف الإسلامي أبدا، فالمسلم معروف بأدبه الجم، وانضباطه وتفانيه في الطاعة(1).

ثانيا: والرسول ε في إجابته لما ألح عليه ابن أبي، يعطينا دروسا في الفقه السياسي، فلعـل إجابـة طلبه: { هم لك }، من شأ ا أن تغسل قلبه، وتزيل الغشاوة عنه فتتم هدايته، فيصلح ويصلح أتباعه، ويتماسك الصف المسلم ويلتـحم. ومما ينبغي أن نتعلمه من هذا، أن جنود الحـ ـركة الإسـلامية ورجالا ا تبع لقيادا م، وليس من حق زعيم أو قائد في صفها، أن يتخذ موقفا مناقضا لقيادته أمـام الأعداء؛ بل الواجب- ما دام جزءا منها- أن يتبنى موقفها(2).

ثالثا: وهذا الموقف من المنافقين، يبين لنا مدى العلاقة التي تربطهم باليهود في محاربة الدعوة، فقـد وقف ابن أبي مع اليهود وتمسك بحلفهم، فلا غرابة في ذلك فهم جميعا مشتركون في معاداة الرسـول ε، والكفر بالإسلام. كما أن المنافقين كانوا لا يتوقعون انتصار الإسلام، وهذا واضح من مقالة ابن أبي:" إني امرؤ أخشى الدوائر" أي يخشى زوال الإسلام، ورجوع العصبية بين الأوس والخزرج، فيجد حلفاءه من اليهود(3).

رابعا: إن الدعوة تحتاج في كل زمان ومكان إلى رجال أقوياء، يعطو ا رهبة، ويكسبو ا قوة أمام أعدائها. فقد سجلت الواقعة موقفين عظيمين لرجلين من الأنصار:

- أحدهما: المنذر بن قدامة السلمي τ، وقد جابه ابن أبي مجا ة قوية حين أمر بحل كتاف اليهود، قائلا: أتحلون قوما ربطهم رسول الله ε ؟! والله لا يحلهم رجـل إلا ضربت عنقه. مما جعل ابن أبي يتراجع ويلجأ إلى الرسول ε ثانية لاستصدار الأمر بفك رباطهم.

- وثانيهما: الصحابي عويم بن ساعدة الأوسي τ، وقد رد ابن أبي بالقوة، لما أراد الدخول علـى الرسول ε دون إذن، فشجه في وجهه.

---

(1)- الغضبان: المنهج الحركي للسيرة النبوية، ص (١٨٢ ، ١٨٣).

(2)- المصدر نفسه، ص١٨٣.

(3)- الحميدي: التاريخ الإسلامي: ج٣، ص٣١.

ولا شك فإن ابن أبي قد أدرك من الموقفين السابقين، أن موازين الشرف قد تبدلت في الإسلام، وصار أمر الرسول ε فوق كل أمر، وطاعته أوجب من طاعة أي إنسان آخر[1].

٢- **خيانتهم للمسلمين في غزوة أحد.**

لما خرج الرسول ε مع أصحابه إلى أحد، لملاقاة العدو على رأس قوة تضم ألف رجل، فأثناء مسيرهم انخذل عنهم رأس النفاق ابن أبي بثلث من الجيش، فرجع ومعه ثلاثمائة من المنافقين في وقت عصيب، بحجة أن النبي ε لم يأخذ برأيه، بمقاتلة المشركين داخل المدينة[2]، قائلا: أطاعهم وعصاني، ندري على ما نقتل أنفسنا هاهنا أيها الناس؟! وكان قد لحق به عبد الله بن حرام τ، محاولا إقناعه بالعودة والانضمام إلى إخوانه، ومخاطبا المنسحبين، مذكرا إياهم بوجوب النصرة، وفظاعة الخذلان، قائلا: (يا قوم، أذكركم الله ألا تخذلوا قومكم ونبيكم..)، فكان جوابهم له: لو نعلم أنكم تقاتلون لما أسلمناكم، ولكنا لا نرى أنه يكون قتال[3].

فلما أصروا على الانسحاب بين لهم عبد الله بن حرام τ استغناء المؤمنين عنهم، وأشعرهم هوان أمرهم في دعائه عليهم، قائلا: (أبعدكم الله أعداء الله، فسيغني الله عنكم نبيه). وقد أثبت الله ما أجابوا به على سبيل التوبيخ لهم[4]، في قوله تعالى: [ولْيعلَم الذين نافَقُواْ وقيلَ لَهم تعالَواْ قَاتلُواْ في سبِيلِ اللّه أَوِ ادفَعواْ قَالُواْ لَو نعلَم قتالاً لاتبعناكُم هم للْكُفْرِ يومئذ أَقْرب منهم للإِيمان يقُولُونَ بِأَفْواههم ما لَيس في قُلُوبِهم واللّه أَعلَم بِما يكْتمونَ] آل عمران/١٦٧. وبين الله تعالى أن انسحاب المنافقين من الجيش، إنما هو تصفية لصفوف المؤمنين، فلا يبقى فيهم منافق متخاذل، وقد أكد الله تعالى هذا بقوله: [ما كَانَ اللّه ليذَر الْمؤمنِين علَى مآ أَنتم علَيه حتى يميز الْخبِيثَ من الطيبِ] آل عمران/١٧٩. كما ترك الانسحاب في المقابل أثرا سيئا في نفوس بعض المسلمين، فقد فكر بنو سلمة وبنو الحارثة، بالعودة إلى المدينة، لكن الله تعالى ثبتهم وشد أزرهم، وقد صور القرآن موقف الطائفتين[5]، في قوله تعالى: [إِذْ همت طَّآئفَتان منكُم أَن تفْشلاَ واللّه وليهما وعلَى اللّه فَلْيتوكلِ الْمؤمنونَ] آل عمران/١٢٢.

***- الدلالات والفوائد.**

ويمكن دراسة هذا الموقف ومناقشته كما يلي:

---

(١)- المصدر نفسه، ج٣، ص (٣٢ ، ٣٣).

(٢)- سالم نوري: فقه السيرة النبوية، ص٢٥٢.

(٣)- الحميدي: مصدر سابق، ج٣، ص٨٤.

(٤)- المصدر نفسه، ج٣، ص٨٤.

(٥)- سالم نوري: فقه السيرة النبوية، ص (٢٥٢ ، ٢٥٣).

أولا: لعل حرص رأس المنافقين عبد الله بن أبي على الاستمساك بموقفه المؤيد لرأي الرسـول ε، جاء ليظهر بمظهر المتحمس لتنفيذ رأي النبي ε في التحصن في المدينة، بعدما رأى أكثرية المسـلمين تطالب بملاقاة العدو خارجها؛ ليزيد- حسب اعتقاده– من شقة الخلاف بين الطرفين، وربما رأى أن القتال داخل المدينة، يتيح للمنافقين الاختباء والتسـلل من سوء القتال، والنجاة بأنفسـهم دون أن يلاحظـهم أحد، ثم يتفرجون ويتأملون من مخابئهم؛ ليعرفوا من المنتصر ليلتحقوا به، ومن المنـهزم ليتخلوا عنه[1].

ثانيا: لقد أخذ النبي ε برأي الأكثرية، تفاديا للنقاش المفضي للشقاق، وإبرازا لأهمية الشـورى في الإسلام، والتي من نتائجها وجوب الأخذ برأي الأغلبية[2]، امتثالا لقوله تعالى: [وشاورهم في الأمر] آل عمران/١٥٩، وتأكيدا على أن قرارات الحرب والسلم لا تتخذ بطريقة فردية[3].

ثالثا: كانت تصرفات المنافقين في هذه الغزوة غريبة، فماداموا لا يريدون النصرة للإسـلام، لمـاذا خرجوا ؟ وما سبب رجوعهم من الطريق ؟ والجواب على هذا الإشكال له عدة احتمالات:

أ- كان خروجهم للحصول على الغنائم في حال انتصار المسلمين، فلمـا رأوا ضـخامة جـيش المشركين أصا م الذعر، فامتلأت قلو م خوفا ورعبا، فولوا الأدبار.

ب- وربما كـان خروجهم للتستر على نفاقهم، فلما أصا م الـرعب رأوا أن النفاق سيكلفهم تضحيات كبيرة، فقفلوا راجعين إلى المدينة، مفضلين-حسب اعتقادهم- نقمة المؤمنين إذا بقيت لهم بقية بعد المعركة، على الموت المحقق الذي سيصيبهم على يد الكفار.

ج- وربما كان خروجهم يهـدف إلى بث الفتنة، وإثارة البلبلة، ونشر الخوف في صفوف المؤمنين ا اهدين، إذا ما شارفوا الوصول إلى مكان مواجهة الأعداء.

وانطلاقا من هذه الاحتمالات السابقة، فقد حصل للمنافقين ما أرادوا، وأوقعوا – بخيانتهم- الفتنة في صفوف جيش المسلمين، ورجع ابن أبي بثلث الجيش في لحظة عصيبة، وربما راهن علـى نصـف الجيش، هذا إذا سلمنا أن الرسول ε لم يرد اليهود من قبل وهم حلفاء ابن أبي، لكـان للانسـحاب وقعه وأثره. وفي النهاية فقد برهن المنافقون بقيادة زعيمهم، وبتصرفا م المريبة على مدى خيانتـهم،

---

(1)- خليل: دراسة في السيرة، ص٣٧٤.

(2)- المصدر نفسه، ص٣٧٤.

(3)- سالم نوري: مصدر سابق، ص (٢٥٧ ، ٢٥٨).

وأعطوا دليلا واضحا على نفاقهم؛ وتبين للمؤمنين بالدليل القاطع مدى كرههم وعداو م للإسـلام وأهله[1].

رابعا: شهدت أحد قمة تجمع المنافقين، وبروز دورهم وخطرهم؛ ذلك أن القرآن الكريم لم يتوان لحظة في فضحهم وكشف مخططا م، كما جاء في قوله تعالى: [وما أصابكُم يوم الْتقَى الْجمعـان فَبِإِذْنِ اللّه وليعلَم الْمؤمنِين، ولْيعلَم الذين نافَقُواْ وقيلَ لَهم تعالَواْ قَاتلُواْ في سبِيلِ اللّه أَوِ ادفَعواْ قَالُواْ لَو نعلَم قتالاً لاتبعناكُم هم للْكُفْرِ يومئذ أَقْرب منهم للإِيمان يقُولُونَ بِأَفْواههم ما لَيس في قُلُوبِهم واللّـه أَعلَم بِما يكْتمونَ] آل عمران (١٦٦ ، ١٦٧). وأعلن الرسول ε المفاصلة الصريحة معهم، حـين رد حلفاء ابن أبي من اليهود، قائلا: {.. فليرجعوا، فإنا لا ننتصر بأهل الكفر على أهـل الشـرك} [٢]؛ ليؤكد أن سلامة الصف ووضوح الولاء، أهم بكثير من التجمع العشوائي، ولما برز هـذا الطـابور الخامس، أصبح المؤمنون ينظرون إليهم بحذر وحيطة؛ فلا يشاركو م رأيا، ولا يعطـو م سـرا. ولم يتوان القرآن في التحذير الشديد من سوء مصيرهم، وفتح باب التوبة أمام المغرر ـم، ليرجعـوا إلى الصف الإسلامي بعد التوبة النصوح، قال تعالى: [إِن الْمنافقين في الدرك الأَسفَلِ من النارِ ولَن تجِد لَهم نصيرا، إِلا الذين تابواْ وأَصلَحواْ واعتصمواْ بِاللّه وأَخلَصواْ دينهم للّه فَأُولَئك مع الْمؤمنِين وسوف يؤت اللّه الْمؤمنِين أَجرا عظيما] النساء (١٤٥ ، ١٤٦). وحققت هذه الخطة أهـدافها في تفتيـت تجمعهم، والتحذير من كيدهم، وبدأ خط تصاعد المنافقين في الانحدار[٣].

٣- تحـريضهم ليهود بني النضير.

كانت معاناة يهود بني النضير شديدة، أثناء حصار المسلمين عليهم، في أعقاب تآمرهم على قتـل قائد الدعوة الرسول ε، فلما فشلوا في الصمود أخذوا يتجهزون للرحيل[٤]؛ إلا أن ابن أبي وكبـار المنافقين، أرسلوا إلى بني النضير وهم يعانون من قبضة الحصار: " أن اثبتوا وتمنعوا، فإنا لن نسـلمكم وإن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن أخرجتم خرجنا معكم، ولا تخرجوا فإن معي من العرب وممن انضوى إلى قومي ألفين، فأقيموا فهم يدخلون معكم حصونكم، ويموتون عن آخرهم قبل أن يصلوا إلـيكم "[5].

---

(١)- الحميدي: التاريخ الإسلامي، ج٥ ، ص (٨٢ ، ٣٨).

(٢)- محمود المصري: سيرة الرسول ε، ص٣٠٤، نقلا عن: ابن سعد: الطبقات، ص (٢/ ٤٨).

(٣)- الغضبان: المنهج الحركي للسيرة النبوية، ص (١٨٤ ، ١٨٦).

(٤)- خطاب: الرسول القائد، ص٢٠٨.

(٥)- الصلابي: السيرة النبوية، ج٢، ص٢٢٤.

إلا أن طبيعـة المنافقين المزدوجـة قد فاجأ م، فأصبحوا لا يقولون ما لا يفعلون مع المعسـكر الإسلامي فقط؛ بل حتى مع المعسكر الذي من المفترض أن يشاركوه ودهم وإخلاصهم، وكشـف المنافقون عن نفسيتهم المزدوجة؛ التي لم تكن شخصية واحـدة تتخذ موقفا واحدا؛ بل شخصـيتين تظهر بموقفين مختلفين[1].

وظل يهود بني النضير- تحت معاناة الحصار- ينتظرون نجدة إخوا م المنافقين، حتى أيقنـوا عبثـا إسراعهم إليهم، وأدركوا عين اليقين نفاقهم، عندئذ سألوا الرسول ε أن يؤمنـهم علـى أمـوالهم، ودمائهم وذراريهم، مقابل الجلاء عن ديارهم[2]، وجاءت في أعقاب هذه الحادثة الآيات القرآنيـة، موضحة موقفهم فاضحة تحالفهم مع اليهود، كاشفة عن حقيقة نفاقهم[3]، في قوله تعالى: [أَلَم تـر إِلَى الذين نافَقُوا يقُولُونَ لإِخوانِهم الذين كَفَروا من أَهلِ الْكتابِ لَئن أُخرِجتم لَنخرجن معكُم ولَـا نطيع فيكُم أَحدا أَبدا وإِن قُوتلْتم لَننصرنكُم والله يشهد إِنهم لَكَاذبونَ، لَئن أُخرِجوا لَـا يخرجـونَ معهم ولَئن قُوتلُوا لَا ينصرونهم ولَئن نصروهم لَيولن الْأَدبار ثُم لَا ينصرونَ، لَأَنتم أَشد رهبـةً فـي صدورِهم من الله ذَلك بِأَنهم قَوم لا يفْقَهونَ] الحشر (١١ ، ١٣).

*** الدلالات والفوائد.**

- ويمكن دراسة هذا الموقف ومنا قشته كما يلي:

أولا: أفرد القرآن الكريم للحديث عن يهود بني النضير، سورة كاملة وهي سورة الحشر، حتى سمى حبر الأمة عبد الله بن عباس τ هذه السورة بسورة بني النضير، والتي بينت موقـف المنـافقين مـن الدعوة، وعلاقتهم باليهود، كما أشارت إلى المنافقين واليهود على أ م إخوانا رغم اختلاف كفرهم، وخاطبت- في المقابل- المؤمنين وأمر م بالتقوى وحذر م من المعصية[4].

ثانيا: انتقل أسلوب المنافقين من التحدي السافر في غزوة أحد، إلى العمل في الخفاء في واقعة بـني النضير؛ لأ م لم يعودوا يملكون القوة على المواجهة، ولا القوة على التحدي، فصاروا -والحال هذه- يتآمرون من وراء الأقنعة، محاولين عبثا تحقيق النصر مع حلفائهم اليهود على المسلمين، فدعوا اليهود

---

(١)- خليل: دراسة في السيرة، ص٣٧٣.

(٢)- خطاب: الرسول القائد، ص٢٠٩.

(٣)- الصلابي: السيرة النبوية، ج٢، ص٢٣٣.

(٤)- المصدر نفسه، ج٢، ص٢٣٤.

إلى الثبات في وجه جيش المسلمين(١). وكشف القرآن عن طبيعتهم المزدوجة حتى مع إخوا م يهود، مؤكدا كذ م بإمدادهم يهود بني النضير بألفين من المنافقين، يقاتلون معهم وينصرو م(٢).

ثالثا: قرر القرآن حقيقة قائمة في نفوس اليهود والمنافقين: [لَأنتم أشد رهبةً في صدورِهم من الله ذَلك بِأنهم قَوم لا يفْقَهونَ] الحشر/١٣. فاليهود والمنافقون يخافون المسلمين أكثر من خوفهم من الله تعالى؛ لأ م لا يفقهون حقيقة الله وعظمته حتى يخشوه حق خشيته، وترجع حقيقة سوء فهمهم هذه إلى صفات عالقة بنفسيتهم، وهي:

أ- فهم جبناء لا يواجهون المسلمين إلا من قراهم المحصنة، أو من وراء جدرا م، لقوله تعالى: [لَا يقَاتلُونكُم جميعا إِلا في قُرى محصنة أَو من وراء جدرٍ] الحشر/١٤.

ب- تحسبهم في الظاهر متحدين؛ لكن في حقيقة الأمر قلو م متفرقة، فالعداوة بينـهم شـديدة، وهذا مكمن ضعفهم وخورهم، وهذا راجع لعدم إدراكهم للحق، ودورا م في فلك الباطل، لقولـه تعالى: [بأْسهم بينهم شديد تحسبهم جميعا وقُلُوبهم شتى ذَلك بِأَنهم قَوم لا يعقلُونَ] الحشر/١٤.

والغرض من كشف القرآن لصفات المنافقين واليهود؛ تشجيعا للمسلمين على قتالهم بعد أن عرفوا خوفهم وضعفهم، فأدركوا حتمية النصر عليهم(٣).

رابعا: ولئن استطاع رأس المنافقين ابن أبي، أن يحافظ على حياة حلفاءه من يهود بني قينقاع، فهو بعد الخيانة السافرة في أحد، أضعف وأعجز من أن يبدي رأيا، أو يتقدم بطلـب إلى الرسـول ε؛ ليحافظ على حياة يهود بني النضير، فتآمره السري مع اليهود ضد الإسلام زادت في خيانته، بعد مـا تولى القرآن فضحه، وأماط اللثام عن العار الذي لحق به. وكانت الصفعة العنيفة للمنـافقين، حـين خرج اليهود دون سلاح، وهم يهدمون بيو م بأيدهم، فسبب هذا الوضع إسقاطا ماديـا ومعنويـا لهم(٤).

٤- اعتمادهم أسلوب التخريب الداخلي.

بعدما خابت آمال المنافقين في هزيمة المسلمين، عبر صراعهم الطويل مع الوثنية واليهودية، وبعد أن فشلت محاولا م التخذيلية(٥)، رأى المنافقون أن يبحثوا عن أسباب أخرى؛ لضرب الجبهة الداخليـة

---

(١)- الغضبان: المنهج الحركي للسيرة النبوية، ص١٨٧.

(٢)- الصلابي: مصدر سابق، ج٢، ص٢٣٤.

(٣)- المصدر نفسه، ج٢، ص (٢٣٤ ، ٢٣٥).

(٤)- الغضبان: مصدر سابق، ص١٨٧.

(٥)- ولقد كشف القرآن عن إحدى محاولا م التخذيلية، أثناء غزوة الأحزاب في قوله تعالى: [وإِذْ يقُولُ الْمنافقُونَ والذين في قُلُوبهِم مرض ما وعدنا الله ورسولُه إِلا غُرورا] الأحزاب/ ١٢. فقال أحد المنافقين وهو معتب بن قشير في ساعات الخوف والزلزلة، بعد أن سمع بشريات الرسول ε

للمجتمع الإسلامي محاولين تفكيكها؛ بنشر الفوضى وبث الفتن فيها، وإلصاق الشائعات الهدامة ا.
فأطلق المنافقون بقيادة زعيمهم ابن سلول، في أعقاب غزوة بني المصطلق سهمين فتاكين باتجاه قلب ا تمع المسلم، كادا أن ي فا من دمه[1]، ويعصفا بوحدته، ويشغلا المسلمين بأنفسهم ومشاكلهم عن بناء دولتهم الجديدة في المدينة، ونشر الدعوة فيها وانطلاقا منها[2]، وكان أحدهما باتجاه الحس القبلي والذي لم يستأصل ائيا، والآخر باتجاه القيم الخلقية التي تميز ا تمع الإسلامي.

أولا: إثارة العصبية الجاهلية.

لما حقق المسلمون نصرا مؤزرا على بني المصطلق[3]؛ لمشاركتهم قريشا في غزوة أحـد، باغتـهم الرسول ε بعد أن بلغتهم دعوة الإسلام. فازداد ذا غيض المنافقين، وتطلعت نفوسهم يوما إلى هزيمة المسلمين؛ لتشفى قلو م من نار الحقد التي أصابتهم، وتحقيقا لهذا الهدف سعوا إلى إثارة العصبية بين المهاجرين والأنصار.

فعن زيد بن أرقم τ قال: (كنت في غزاة[4]، فسمعت عبد الله بن أبي يقول: لا تنفقوا على مـن عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله، ولئن رجعنا من عنده ليخرجن الأعز منها الأذل، فـذكرت ذلك لعمي[5]- أو لعمر- فذكره للنبي ε فدعاني فحدثته، فأرسل رسول الله ε إلى عبد الله بـن أبي وأصحابه فحلفوا ما قالوا، فكذبني رسول الله ε وصدقه، فأصابني هم لم يصبني مثله قط، فجلست في البيت، فقال لي عمي: ما أردت إلى أن كذبك رسول الله ε ومقتك ؟! فأنزل الله تعالى: [هم الذين يقُولُونَ لَا تنفقُوا علَى من عند رسولِ الله حتى ينفَضوا ولله خزائن السـماوات والْـأَرضِ ولَكـن الْمنافقين لَا يفْقَهونَ، يقُولُونَ لَئن رجعنا إِلَى الْمدينة لَيخرِجن الْأَعز منها الْأَذَلَ ولله الْعزةُ ولرسـوله وللْمؤمنِين ولَكن الْمنافقين لَا يعلَمونَ] المنافقون (٧ ، ٨). فبعث إلي رسول الله ε فقرأ، فقـال: { إن الله قد صدقك يا زيد }[6].

ومما سعى له المنافقون؛ تأجيجا للفتنة وإثارة للعصبية، وتمزيقا لوحدة المسلمين، ما روي عن جابر بن عبد الله الأنصاري τ قال: (غزونا مع النبي ε وقد ثاب معه ناس من المهاجرين حـتى كثُـروا،

بالفتح المبين لهذا الدين في أقطار الأرض: (يعدنا محمد أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا لا يأمن من أن يذهب إلى حاجته، وما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا). الغضبان: فقه السيرة النبوية، ص٣٩٢.

(١)- خليل: دراسة في السيرة، ص (٣٧٩ ، ٣٨٠).

(٢)- جماز: دراسات في السيرة النبوية، ص٦٧.

(٣)- وهم بطن من بطون خزاعة، سكنوا القديد وعسفان بين المدينة ومكة، وكانت هذه الغزوة في بداية شعبان من السنة الخامسة للهجرة.

(٤)- تفيد الروايات بأ ا غزوة بني المصطلق. (فتح الباري ٨/ ٦٤٩).

(٥)- لعمي: يريد به: سعد بن عبادة τ سيد الخزرج وليس عمه حقيقة، وأما عمر فهو ابن الخطاب τ. (فتح الباري ٨/ ٦٤٥).

(٦)- العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ج٢، ص٤٠٨.

وكان من المهاجرين رجل لَعاب، فَكَسع[1] أنصاريا، فغضب الأنصاري غضبا شديدا حتى تـداعوا، وقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فخرج النبي ε فقال: { ما بال دعوى أهل الجاهلية ؟ ثم قال: ما شأ م }. فَأُخبِر بِكَسعة المُهاجِري الأنصاري، قال: فقـال الـنبي ε: { دعوها فإ ا خبيثة }. وقال عبد الله بن أبي بن سلول: أقد تداعوا علينا، لـئن رجعنـا إلى المدينـة ليخرجن الأعز منها الأذل، فقال عمر: ألا نقتل يا رسول الله هذا الخبيث؟ لعبد الله، فقال النبي ε: { لا يتحدث الناس أنه كان يقتل أصحابه }[2].

وأذن الرسول ε بالرحيل، في ساعة لم يكن يرتحل فيها، فمشى بالناس يومهم ذلك حتى أمسـى، وليلتهم حتى أصبح، وصدر يومهم ذلك حتى آذ م الشمس، ثم نزل بالناس، فلم يلبثوا أن وجـدوا مس الأرض فوقعوا نياما، وقد فعل ذلك الرسول ε؛ ليشغل الناس عن الحديث الذي صدر عن زعيم المنافقين ابن أبي[3].

قال ابن إسحاق: فلما استقل رسول الله ε وسار لقيه أسيد بن حضير τ، فحياه بتحية النبوة وسلم عليه، ثم قال: يا نبي الله، والله لقد رحت في ساعة مبكرة، ما كنت تروح في مثلها، فقال لـه رسول الله ε: { أو ما بلغك ما قال صاحبكم؟ }، قال: وأي صاحب يا رسول الله ؟ قال: عبد الله ابـن أبي، قال: وما قال ؟ قال: زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، قال: يا رسول الله، ارفـق به، فوالله لقد جاءنا الله بك، وإن قومـه لينظمون له الخرز ليتوجوه، فإنه ليرى أنـك قـد استلبته ملكا[4].

وكان عبد الله بن عبد الله بن أبي رجلا صالحا من الصحابة الأخيار، قد استل سيفه أمـام بـاب المدينة، ووقف دون أبيه قائلا: قف. فوالله لا تدخلها حتى يأذن لك رسول الله ε، فإنه العزيز وأنت الذليل، حتى جاءه النبي ε فأذن له، وقد قال: يا رسول الله، إن أردت قتـله فمرني بذلك، فأنا والله أحمل إليك رأسه، فنهاه رسول الله ε قائلا: { ولكن بر أباك وأحسن صحبته }[5].

*** الدلالات والفوائد.**

- ويمكن دراسة هذا الموقف ومناقشته كما يلي:

---

[1]- فكسع: أي ضربه برجله.

[2]- البخاري: ك. المناقب، باب: ما ينهى من دعوة الجاهلية، رقم: ٣٥١٨، ص (٦٧٥ ، ٦٧٦).

[3]- المباركفوري: الرحيق المختوم، ص٢٣٥.

[4]- ابن هشام: السيرة النبوية، ج٣، ص (٢١٦ ، ٢١٧).

[5]- سالم نوري: فقه السيرة النبوية، ص٢٧٩.

أولا: قام النبي ε بإجراءات عملية، كفيلة بمعالجة الموقف المتأزم بين المسلمين في هذه الغزوة؛ بسبب الفتنة التي سعى المنافقون إلى إشعالها، لتدمير وحدة المسلمين وتمزيق الصـف الإسـلامي، باتخـاذ الخطوات الآتية:

١- التحذير من العودة إلى إحياء العصبيات الجاهلية، بعدما هداهم الله تعالى إلى الإسلام، فـآخى بينهم ووحدهم، لقوله تعالى: [واعتصمواْ بِحبلِ اللّه جميعا ولاَ تفَرقُواْ واذْكُرواْ نِعمةَ اللّه علَيكُم إِذْ كُنتم أعداء فَألف بين قُلُوبِكُم فَأصبحتم بِنِعمته إِخوانا وكُنتم علَى شفَا حفْرة من النارِ فَأنقَذَكُم منها كَذَلك يبين اللّه لَكُم آياته لَعلَكُم تهتدونَ] آل عمران/١٠٣.

٢- دعا إلى التناصر في طلب الحق، والإنصاف تحقيقا للعدل، لقوله ε: { ولْينصرِ الرجل أخاه ظالما أو مظلوما، إن كان ظـالما فلينهه، فإنه له نصر، وإن كان مظلوما فلينصره }[١]. وأبطـل المفهـوم الجاهلي: (أنصر أخاك ظالما أو مظلوما)[٢].

٣- ترك الرسول ε معاقبة رأس المنافقين ابن أبي رغم كيده ومكره؛ حفاظا على سمعة المسـلمين، وتأليفا للقبائل بمنع الدعاية التي قد تنفر من الإسلام، ولم يقتصر علاج هذا الموقف علـى التوضـيح والبيان[٣]؛ بل أمر الرسول ε الجيش بالرحيل، فسار م بقية ار يوم المشكلة والليلة، حـتى آذ ـم الشمس من صباح الغد، فنال الجيش التعب في اية السفر، وذهب الجميع في سبات عميق؛ تفاديـا لأية فرصة للخوض في حديث الفتنة[٤].

٤- لجأ النبي ε في التعامل مع المنافقين وزعيمهم، إلى الحكمة والتعقل بدل الشدة والعنف؛ حتى لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه. و ذا المنهج اشتهر الرسول ε بين الناس، بأنه حليم وكـريم ومسامح، وزاد هذا التعامل في تأليف القلوب وتوحيد الصفوف؛ وفي المقابل ضـعف مركـز ابـن سلول، وصار قومـه يعنفونه ويلومونه كلما أخطأ، بعد افتضاح أمره وخبث نيته[٥]. وحينها قـال الرسول ε لعمر بن الخطاب τ: { كيف ترى يا عمر ؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لي اقتله، لأرعدت له أنف لو أمر ا اليوم بقتله لقتلته! }، أجاب عمر τ: (قد والله علمت، لأمر رسول ε أعظم بركة مني !)[٦].

---

(١)- مسلم: ك. البر والصلة والآداب، باب: نصر الأخ ظالما أو مظلوما، رقم: ٦٥٨٢، ص٩٧٣.

(٢)- العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ج٢، ص٤٠٩.

(٣)- المصدر نفسه، ج٢، ص٤١٠.

(٤)- سالم نوري: فقه السيرة النبوية، ص٢٨٦.

(٥)- المصدر نفسه، ص٢٨٦.

(٦)- خليل: دراسة في السيرة، ص٣٨٢. ابن هشام: السيرة النبوية، ج٣، ص٢١٨.

ثانيا: كشفت الواقعة أن الأمة الإسلامية مهما نمت وتطورت، فيجب عدم إغفال المنهج التربوي فيها أو التقليل من شأنه، فا تمع المسلم مهما عظم بناؤه، وارتفعت درجته، تبقى بعض اللبنات فيه ضعيفة؛ تتسبب في تصدعه وإلحاق الضعف فيه، مما يتطلب إدامة التربية الروحية في صفوف المسلمين، لتكون مانعا من انبعاث دعاوى الجاهلية من جديد[١].

ثالثا: ندرك في هذه الواقعة المفاصلة الصريحة بين الإيمان والكفر، بين ابن أبي بن سلول وقد أصبح رأسا للنفاق يسعى للكيد للإسلام ومحاربة دعوته، وبين الابن (عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول)، الذي تمكن الإيمان من قلبه، فوقف في وجه أبيه، رغم أنه كان أبر الناس به لحبه له، فلم ينتصر للقرابة ولا للعصبية؛ لأنها صارت لديه من ماضي الجاهلية، فراح يمنع أباه من دخول المدينة حتى يأذن له الرسول ε بذلك؛ حبا لله تعالى ورسوله، وانتصارا للإسلام، وقد برهن على قوة إيمانه وصفاء عقيدته إلى الحد الذي عبر فيه عن استعداده لقتل أبيه أقرب الناس إليه، إذا كان ثمة حكم شرعي يتعلق به؛ إلا أن المنهج التربوي والإسلامي، جعل الرسول ε يوصي الابن المؤمن بالبر بوالده والإحسان إليه[٢].

ثانيا: ضرب القيم الخلقية بإيذاء الرسول ε في نفسه وأهل بيته.

لما أخفقت محاولة المنافقين في محاربة الإسلام بإثارة العصبية الجاهلية، وجهوا سهامهم نحو شخصية الرسول ε، فآذوه في نفسه وأهل بيته، فأعلنوا حربا نفسية مريرة، من خلال قصة الإفك التي اختلقوها[٣]، قاصدين ضرب دعوته؛ بتشويه عرضه، وإسقاط كرامته.

وأشاع المنافقون هذه القصة، مستهدفين أم المؤمنين عائشة- رضي الله عنها- زوج النبي ε في عرضها، أثناء عودتهم إلى المدينة في أعقاب غزوة بني المصطلق. ولما عسكر الجيش في الطريق افتقدت عائشة- رضي الله عنها- عقدها، فذهبت للبحث عنه غير بعيد من المعسكر، وبعد عودتها وجدت الجيش قد غادر المكان، دون أن يشعر أحد بعدم وجودها داخل الهودج، فلم تبرح مكانها مقدرة عودة المسلمين إليها، وكان صفوان بن المعطل السلمي τ أحد الصحابة الأجلاء، قد جعله الرسول ε على الساقة[٤]، وأثناء مسيره تفاجأ بوجودها فأدرك أن القوم نسوها، فأناخ لها راحلته فركبتها، وسار

---

(١)- سالم نوري: مصدر سابق، ص٢٨٦.

(٢)- المصدر نفسه، ص٢٨٦.

(٣)- العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ج٢، ص٤٠٨.

(٤)- قال الحافظ بن حجر: ووقع في حديث ابن عمر τ بيان سبب تأخر صفوان τ، ولفظه: (سأل رسول الله ε أن يجعله على الساقة، فكان إذا رحل الناس قام يصلي ثم أتبعهم فمن سقط له شيء أتاه به). الحميدي: التاريخ الإسلامي، ج٦، ص٨٥.

وسار أمامها يقودها[1] حتى وصل إلى المدينة، ولما رآها المنافقون قالوا ما قالوا، فقذفوا في عرضـها، وطعنوا في كرامتها، ووجد المنافقون فرصة أخرى لضرب الإسلام واستهداف الدعوة، مـن خـلال تشويه بيت النبوة، وانتشرت الفتنة انتشارا كبيرا حتى وقع في حبالها بعض المسلمين.

وكانت المحنة قاسية والامتحان عسير على المسلمين، وأصبح الرسول ε في غاية الحزن والألم، رغم ثقته المطلقة ببراءة زوجه؛ فما كان الله ليفضحه في أهل بيته، وهو القدوة والمثل الأعلـى للأمـة في الطهر والنقاء، فماذا عساه أن يفعل ليقضي على هذه الفتنة ؟! سوى انتظار حكم الله تعالى فيهـا، فتقطع الألسنة الكاذبة، وتدحض الأراجيف الباطلة.

ونزل القرآن الكريم من فوق سبع سماوات، مدويا ومعلنا براءة أم المؤمنين مما رماها به المنافقون من الإفك، كاشفا فريتهم، فاضحا مؤامرا م، متوعدا إياهم بالعذاب الأليم، محذرا المؤمنين من الوقوع في شركهم، والسير على خطاهم، موضحا لهم القواعد والأسس التي تحكم علاقا م الاجتماعية؛ صيانة للحرمات وحفظا للأعراض[2]، وجاء كل هذا في قوله تعالى: [إِن الذين جاؤوا بِالْإِفْك عصبةٌ منكُم لَا تحسبوه شرا لكُم بلْ هو خير لكُم لكُل امرِئٍ منهم ما اكْتسب من الْإِثْمِ والذي تولى كبره منهم لَه عذَاب عظيم] النور/١١، إلى قوله تعالى: [الْخبِيثَات للْخبِيثين والْخبِيثُونَ للْخبِيثَـات والطيبـات للطيبِين والطيبونَ للطيبات أُولَئك مبرؤونَ مما يقُولُونَ لَهم مغفرةٌ ورِزق كَرِيم] النور/٢٦.

وكان الذي تولى كبر هذا الإثم العظيم، ابن سلول رأس المنافقين، ووقع في فخه مـن المسـلمين، حسان بن ثابت شاعر الرسول ε، ومسطح بن أثاثة من المهاجرين ومن شهد بدرا ومن المقـيمين في بيت أبي بكر τ، وحمنة بنت جحش ابنة عمة رسول الله ε وزوج شهيد الإسلام مصعب بن عمير ψ جميعا[3].

وهكذا فضح الله تعالى المنافقين، وجعل كيدهم في نحورهم، وعاد المسلمون وهم أعظم ثقة بنبيهم، وأشد إيمانا بنبيهم وتصديقا له، وأكثر حذرا من الوقوع في مؤامرات المنافقين ودسائسهم[4].

*** الدلالات والفوائد.**

- ويمكن دراسة قصة الإفك ومناقشتها كما يلي:

---

(١)- جماز: دراسات في السيرة النبوية، ص (٦٩ ، ٧٠).

(٢)- المصدر نفسه، ص (٧٠ ، ٧١).

(٣)- الغضبان: المنهج الحركي للسيرة النبوية، ص (٢٠٥ ، ٢٠٦).

(٤)- جماز: دراسات في السيرة النبوية، ص٧١.

أولا: لقد هزت محنة الإفك شخصية النبي ε هزا قويا؛ ففصلت إنسانيته العادية عن نبوته الصافية، وكان لتأخر الوحي الإلهي بروزا للجانب الإنساني في شخصه. وقد تجلت للناس حقيقتان أساسـيتان وهما:

أ- جعلت الحادثة النبي ε لم يخرج بنبوته ورسالته عن طبيعته البشرية، فدفعته الشـائعات إلى أن يتأمل ويفكر ويضطرب لها أحيانا، ويبذل جهده في التحري والسؤال، واستشارة أولي الـرأي مـن أصحابه أحيانا أخرى، وهم يقولون: (ما علمنا عليها من سوء). ومضى شهر، وما أضـاف مـن كلامه إلا قوله: {..يا عائشة، إنه بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة، فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب، فاستغفري الله وتوبي إليه.. }[1]. فلسانه عبر عن وحي ضميره، بكلام بشر لا يعلـم الغيب، وبكلام الصادق المتثبت، لا متقول ولا قـائل ما ليس له بـه علم، ولم يبرح مكانه حتى نزل القرآن معلنا براء ا من فوق سبع سماوات، ومؤكدا على عفتها وطهار ا. وانطلاقا من هذه الحقيقة، لا يجوز لأي مؤمن صادق، أن يتصور أن نبوة محمد ε، قد تجاوزت به حدود بشريته، فينسب إليه ما لا ينسب إلا لله وحده.

ب- كما أكدت الحادثة، أن الوحي الإلهي ليس شعورا نفسيا صادرا من كيان النبي ε، ولا شيئا خاضعا لإرادته أو تطلعاته أو أمنياته، وإلا لكان من السهل عليه القضاء على الفتنة في مهدها، بقرآن ينسجه من عنده؛ فيطمئن به المؤمنين، ويخرس به ألسنة المنافقين، لكنه ما كان ليترك الكذب علـى الناس، ويكذب على الله Ψ، والذي قال في محكم تـ يله: [ولَو تقَولَ علَينا بعض الْأَقَاوِيلِ، لَأَخـذْنا منه بِالْيمينِ، ثُم لَقَطَعنا منه الْوتين، فَما منكُم من أَحد عنه حاجِزِين] الحاقة (٤٤ ، ٤٧).

وأول من تجلت لها هاتان الحقيقتان، أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- ، فقد ذهبت في توحيدها وعبوديتها، وحمدها وشكرها، مذهبا أنساها ما سواه؛ فأجابت أمها -لما طلبت منها أن تقوم فتشكر النبي ε- قائلة: (لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله، هو الذي أنزل براءتي). فكانت خيرية القصة- رغم ظاهر شرها – بارزة في تثبيت العقيدة الإسلامية، ورد ما قد يعلق ا من شبهات[2]، وتلـك هـي الخيرية التي أخبر الله Ψ في قوله: [إِن الذين جاؤوا بِالْإِفْك عصبةٌ منكُم لَا تحسبوه شرا لكُم بلْ هو خير لكُم] النور/١١.

ثانيا: وكلفت حادثة الإفك أطهر النفوس البشرية، آلاما لا تطاق، وزرعت في بعـض النفـوس الشك، والقلق والريبة والاضطراب. فَعلق قلب الرسول ε أشرف البشرية وأطهرها على الإطـلاق،

---

(١)- البخاري: ك. المغازي، باب: حديث الإفك، رقم: ٤١٤١، ص (٧٨٦ ، ٧٨٩).

(٢)- البوطي: فقه السيرة، ص (٢٨٦ ، ٢٨٨).

وقلب زوجه العفيفة الطاهرة، وقلب أبيها أكرم الناس وأقربهم إليه، كما علق قلب رجل من خيرة الصحابة – صفوان بن المعطل τ- وقد شهد له الرسول ε بالخيرية. فظل هؤلاء يعيشون حالة من الألم والقلق الذي لا يطاق، حتى نزل القرآن بعد شهر معلنا البراءة لأم المؤمنين، فاضحا المنافقين الذين استهدفوا بيت النبوة، فأدان تآمرهم على الدعوة؛ بترويج الدعايات الكاذبة، والشائعات المغرضة، معاتبا المؤمنين الذين سقطوا في مخططاتهم ومكائدهم، وهم مشهورون بالتقوى والصلاح، من أمثال: مسطح بن أثاثة، وحسان بن ثابت، وحمنة بنت جحش ψ جميعا[1]، مقيما عليهم حد القذف؛ كفارة لهم من الذنوب، وحفاظا على العرض الذي هو من الضروريات الخمس التي حافظ عليها الإسلام؛ إلا عبد الله بن أبي زعيم المنافقين. وقد ذكر ابن القيم- رحمه الله- الحكمة من عدم إقامة الحد عليه، وهي:

أ- أن ابن أبي كان يستوشي الحديث، ويجمعه ويحكيه، ويخرجه في قوالب من لا ينسب إليه.

ب- إن الحد لا يثبت إلا ببينة أو بإقرار، وابن أبي لم يقر بالقذف، ولا شهد به على أحد، فكان يذكره بين أصحابه؛ لكنهم لم يشهدوا به عليه، ولم يكن يذكره بين المؤمنين.

ج- أن الحدود تخفيف عن أهلها وكفارة لهم، وابن أبي ليس أهلا لذلك؛ لأن الله وعده بالعذاب الأليم في الآخرة.

د- وقيل ترك حده لمصلحة هي أعظم من إقامته عليه؛ وهي تأليف قومه، وعدم تنفيرهم من الإسلام. وقال ابن القيم-رحمه الله- في ختام كلامه: ولعل الحد ترك لهذه الوجوه كلها[2].

٥- تثبيطهم للمسلمين في غزوة تبوك.

لما أعلن الرسول ε النفير في غزوة تبوك، رغب المسلمين في النفقة، ووعد بالجنة لمن ساهم في تجهيز جيش العسرة[3]، قائلا: { من جهز جيش العسرة فله الجنة }[4]. وبدأ المسلمون يتسابقون في دفع الصدقات، كل حسب استطاعته وقدرته.

وفي ظل هذه الرغبة الملحة، واللهفة الجامحة في الشوق للجهاد والرغبة في الاستشهاد، كان النفاق قد طل برأسه، فأخذ المنافقون يثبطون همم المسلمين ويثنون من عزائمهم؛ قائلين لهم: لا تنفروا في

---

(١)- محمد علي الصابوني: روائع البيان تفسير آيات الأحكام، مكتبة رحاب، بور سعيد- الجزائر، ط٤، (١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م)، ج٢، ص (١١٧ ، ١١٨).

(٢)- الصلابي: السيرة النبوية، ج٢، ص٢٨٦. نقلا عن زاد الميعاد: لابن القيم، ج٣، (٢٦٣ ، ٢٦٤).

(٣)- العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ج٢، ص (٥٢٤ ، ٥٢٥).

(٤)- البخاري: ك. فضائل الصحابة، باب: مناقب عثمان بن عفان τ، رقم: ٢٧٧٨، ص٧٠٥.

الحر[١]، فأنزل الله تعالى فيهم: [وقَالُواْ لاَ تنفرواْ في الْحر قُلْ نار جهنم أَشد حرا لو كَانوا يفْقَهونَ] التوبة/١٨.

وعمد المنافقون إلى أساليب عديدة، للتثبيط والتخذيل؛ للنيل من عزيمة المسلمين في مواجهة الروم البيزنطيين، قائلين: (يغزوا محمد بني الأصفر مع جهد الحال، والحر والبلد البعيد، ألا ما قبل له بـه! يحسب محمد أن قتال بني الأصفر اللعب ؟!)[٢].

و ى الله تعالى رسوله عن قبول أعذار المنافقين، ومما قاله الجد بن قيس: يا رسول الله، أو تأذَن لي ولا تفْتني ؟ فو الله لقد عرف قومي أنه ما من رجل أشد عجبا بالنساء مني، وإني أخشى إن رأيـت نساء بني الأصفر أن لا أصبر، فأعرض عنه النبي ε وقال: { قد أذنت لك }، ف ل فيه: [ومنهم من يقُولُ ائْذَن لي ولاَ تفْتني أَلاَ في الْفتنة سقَطُواْ وإِن جهنم لَمحيطَةٌ بِالْكَافرِين] التوبة/٤٩. كما عاتب الله تعالى نبيه، حين أذن بالتخلف لمن قدم له أعذارا كاذبة[٣]، في قوله: [عفَا اللّه عنك لم أَذنت لَهم حتى يتبين لَك الذين صدقُواْ وتعلَم الْكَاذبِين] التوبة/٤٣.

ولم يضعف المنافقون في زرع الخوف ونشر الفتن؛ لتمزيق صفوف المسلمين، وإضعاف وحـد م، فأنشؤوا لهذا الغرض مسجدا ضرارا، ظاهره تحقيق المنفعة والتوسعة، وباطنه بث الفتنة ومحاربة الدعوة، ولما تبين للرسول ε ما أراد به بانوه، من نشر الكفر والتفريق بين المؤمنين[٤]، أمر دمه بعدما اه الله عن الصلاة فيه[٥]، لقوله تعالى: [والذين اتخذُواْ مسجِدا ضرارا وكُفْرا وتفْرِيقًا بين الْمؤمنِين وإِرصادا لمن حارب اللّه ورسولَه من قَبلُ ولَيحلفَن إِنْ أَردنا إِلا الْحسنى واللّه يشهد إِنهم لَكَاذبونَ، لاَ تقُم فيه أَبدا لمسجِد أُسس علَى التقْوى من أَولِ يومٍ أَحق أَن تقُوم فيه فيه رِجالٌ يحبونَ أَن يتطَهرواْ واللّـه يحب الْمطهرِين] التوبة (١٠٧ ، ١٠٨).

وبعدما نجح النبي ε في حشد نحو ثلاثين ألف مقاتل، وصل إلى تبوك فأقام فيها عشرين ليلة، بينما كان هرقل قابعا في حمص مع جيشه، ولم يتحرك لمواجهة المسلمين، وعاد النبي ε في شهر رمضان إلى المدينة بعد شهرين من الغياب، وجاءه المنافقون المتخلفون يقدمون اعتذارا م علانية، فاستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله تعالى؛ وأصبح الرسول ε بموجب هذه الغزوة، سيد الجزيرة العربية كلها[٦].

---

(١)- الصلابي: السيرة النبوية، ج٢، ص٥٩٨.
(٢)- سالم نوري: فقه السيرة النبوية، ص٣٩٩.
(٣)- الصلابي: مصدر سابق، ج٢، ص (٥٩٨ ، ٥٩٩).
(٤)- العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ج٢، ص٥٢٧.
(٥)- أبو شهبة: السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، ج٢، ص (٥٠٧ ، ٥٠٨).
(٦)- سالم نوري: فقه السيرة النبوية، ص٤٠٢.

ومع وصول النظام الإسلامي إلى قوته في السنة التاسعة للهجرة، انحسرت حركة النفاق في المجتمع الإسلامي، وازدادت تراجعا وانحدارا، وأفل نجمها بموت زعيمها عبد الله بن أبي بن سلول في ذي القعدة من السنة التاسعة للهجرة. وكانت المفاصلة صريحة في حقهم، بعدما دمغهم الله بالكفر، وبالنهي عن الصلاة على من مات منهم، في قوله تعالى: [ولاَ تصل علَى أَحد منهم مات أَبدا ولاَ تقُم علَى قَبرِه إِنهم كَفَرواْ بِاللّه ورسوله وماتواْ وهم فَاسقُونَ، ولاَ تعجِبك أَموالُهم وأَولاَدهم إِنما يرِيد اللّه أَن يعذبهم بِها في الدنيا وتزهق أَنفُسهم وهم كَافرونَ] التوبة (٨٤ ، ٨٥).

وهكذا تراجعت حركة النفاق في المدينة، ولم يبق للمنافقين وجود في العام العاشر للهجرة، بعدما فضحهم الله تعالى في سورة التوبة، فكشف نواياهم وفضح أعمالهم، وأماط اللثام عن أحوالهم النفسية والقلبية، وكشف عن مواقفهم قبل غزوة تبوك وبعدها، وعن حيلهم وأعذارهم الكاذبة في التخلف عن الجهاد، وخططهم في بث الفتنة ؛والسعي لتشتيت وحدة الأمة[1].

***- الدلالات والفوائد.**

- ويمكن دراسة موقف المنافقين في هذه الغزوة ومناقشته كما يلي:

أولا: تعد غزوة تبوك المحرق الذي كشف مخططات المنافقين، لذلك سميت سورة التوبة بالفاضحة والمخزية، فتحدثت السورة عن أدوارهم الرهيبة، والتي برزت كما يلي:

١- التثاقل عن الجهاد، في قوله تعالى: [لَو كَانَ عرضا قَرِيبا وسفَرا قَاصدا لاتبعوك ولَكن بعدت علَيهم الشقةُ وسيحلفُونَ بِاللّه لَوِ استطَعنا لَخرجنا معكُم يهلكُونَ أَنفُسهم واللّه يعلَم إِنهم لَكَاذبونَ] التوبة/٤٢.

٢- فتنة من انضم إلى الجيش الإسلامي مجاهدا، في قوله تعالى: [لَقَد ابتغواْ الْفتنةَ من قَبلُ وقَلَّبواْ لَك الأُمور حتى جاء الْحق وظَهر أَمر اللّه وهم كَارِهونَ] التوبة/٤٨.

٣- الحسد الذي يأكل قلوبهم، فهم يفرحون لمصيبة المسلمين، ويحزنون لفرحهم، في قوله تعالى: [إِن تصبك حسنةٌ تسؤهم وإِن تصبك مصيبةٌ يقُولُواْ قَد أَخذْنا أَمرنا من قَبلُ ويتولواْ وهم فَرِحونَ] التوبة/ ٥٠.

٤- السعي للنيل من النبي ε، بالسخرية بآيات الله ورسوله، في قوله تعالى: [ولَئن سأَلْتهم لَيقُولُن إِنما كُنا نخوض ونلْعب قُلْ أَبِاللّه وآياته ورسوله كُنتم تستهزِؤونَ] التوبة/٦٥.

---

(١)- الصلابي: السيرة النبوية، ج٢، ص (٦٥٦ ، ٦٥٨).

٥- قولهم لكلمة الكفر، وكفرهم بعد إسلامهم، ومحاولتهم اغتيال الرسول ε، في قوله تعـالى: [يحلفُونَ بِاللّه ما قَالُواْ ولَقَد قَالُواْ كَلمةَ الْكُفْرِ وكَفَرواْ بعد إسلاَمهم وهمواْ بِما لَم ينالُواْ] التوبة/٧٤.

٦- الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف، في قوله تعالى: [الْمنافقُونَ والْمنافقَات بعضهم من بعـضٍ يأمرونَ بِالْمنكَرِ وينهونَ عنِ الْمعروف ويقْبِضونَ أَيديهم نسواْ اللّه فَنسِيهم إِن الْمنافقين هم الْفَاسقُونَ] التوبة/٦٧.

٧- يثبطون المسلمين عن الجهاد، ويلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات، لقولـه تعـالى: [وقَالُواْ لاَ تنفرواْ في الْحر قُلْ نار جهنم أَشد حرا لَّو كَانوا يفْقَهونَ] التوبة/٨١. وفي قوله: [الـذين يلْمزونَ الْمطَّوعين من الْمؤمنِين في الصدقَات والذين لاَ يجِدونَ إِلا جهدهم فَيسخرونَ منهم سـخر اللّه منهم ولَهم عذَاب أَليم] التوبة/٧٩.

٨- اتخاذهم مسجد الضرار وكرا لهم، ومنطلقا لمؤامراتهم[1]، لقوله تعـالى: [والـذين اتخـذُواْ مسجِدا ضرارا وكُفْرا وتفْرِيقًا بين الْمؤمنِين وإِرصادا لِّمن حارب اللّه ورسولَه من قَبلُ ولَيحلفَن إِنْ أَردنا إِلا الْحسنى واللّه يشهد إِنهم لَكَاذبونَ] التوبة/١٠٧.

ثانيا: لقد اتخذت حركة النفاق من مسجد الضرار، أسلوبا جديدا في محاربة الدعوة، بعدما أعيتها الأساليب الأخرى، فها هي تلجأ الآن إلى اتخاذ المسجد رمز العبادة، كوسيلة لتحقيق أهدافها بضمان أكبر، بعد مباركة الرسول ε له بالصلاة فيه، وأبرزها:

١- السعي إلى مزيد من الإندماج في المجتمع الإسلامي.

٣- تحقيق مبدأ الإزدواجية، بتوظيف المسجد في أعمال ظاهرها طيب مقبول، وباطنها تصـرفات هدامة، تهدف إلى تمزيق الصف الإسلامي، وضرب وحدته.

٤- اتخـاذ المسجد منطلـقا لبث الأراجيف والشائعات، ومركزا للاتصال بالأعداء؛ للتنسـيق والتخطيط لمحاربة الدعوة[2].

وكان مكر المنافقين بهذا التخطيط شديدا، إلا أن مكر الله كان أشد، فأحبط مآمراتهم، وأفشـل مخططاتهم، بقرآن تولى فضحهم وتعريتهم، ورد به كيدهم ومكرهم؛ وحفظ به دينه ودعوته لأمتـه، قال تعالى: [ويمكُرونَ ويمكُر اللّه واللّه خير الْماكرِين] الأنفال/٣٠.

وهكذا فإن ظاهرة النفاق، قد بدأت قبيل أحد وبلغت ذروتها فيها، وعادت للظهور بعـد فـتح مكة وانتصار الإسلام وتفرده بالسلطان، وكانت أوضح ما يكون في غزوة تبوك إلى أن تولت سورة

---

(١)- الغضبان: فقه السيرة النبوية، ص (٣٩٧ ، ٣٩٨).

(٢)- خليل: دراسة في السيرة، ص (٣٨٧ ، ٣٨٨).

التوبة فضحهم وتعريتهم؛ لكن لا يعني هذا انتهاءهم[1]، ودليل ذلك لما تـوفي الرسـول ε وجـد المنافقون على غرار أعداء الإسلام فرصة للتكالب ضد الدولة، فعن عائشة- رضي الله عنها- ، قالت: (لما توفي رسول الله ε ارتدت العرب واشرأبت اليهودية والنصرانية، ونجم النفاق وصار المسـلمون كالغنم المطيرة في الليلة الشاتية؛ لفقد نبيهم ε حتى جمعهم الله على أبي بكر)[2]. فكـان للمنـافقين دورا كبيرا في حركات الردة والتنبؤ في خلافة أبي بكر τ، وفي الفتنة التي هزت الأمـة في الخلافـة الراشدة[3].

المطلب الرابع: الـدروس والعـبر.

١- إن لكل عدو أو خصم، سياسة خاصة في التعامل معه والتصدي له، فقد عدل النبي ε عن قتل يهود بني قينقاع؛ حفاظا على وحدة المسلمين، وتفاديا لحدوث فتنة في صفوف المـؤمنين؛ بسـبب حداثة عهدهم بالإسلام، وخشية أن يؤثر فيهم رأس المنافقين؛ لمكانته وسمعته بينهم آنذاك، وتجنبا لفتح أكثر من جبهة للصراع آنذاك؛ لكن لما تقادم العهد، ونقض يهود بني قريظة ميثاقهم وعهدهم، أقدم على قتلهم بعدما أمن حدوث الفتنة في المجتمع بسببهم[4].

٢- جاءت واقعة أحد اختبارا وتمحيصا للمؤمنين؛ ليتميز المؤمن الصادق من المنافق الكـاذب[5]، لقوله تعالى: [ما كَانَ اللّه ليذَر الْمؤمنِين علَى ما أَنتم علَيه حتى يميز الْخبِيثَ مـن الطيـبِ] آل عمران/ ١٧٩.

٣- وجاءت واقعة بني النضير بمثابة جولة جديدة، لتداعي معسكر المنافقين بعدما نـزل القـرآن يكشف كيـدهم، ويفضح مـؤامراتهم، فصار التظاهر بالإسلام- بعد هذا الفضح- لا يجدي نفعا، وأصبح باب التوبة الصادقة، الطريق الوحيد للكثير منهم، بعد أن ظهر الحق وزهق الباطل[6].

٤- تعد قصة الإفك، حلقة فريدة من سلسلة فنون الإيذاء والمحن ، فكانت أشد وقعا، وأعظم أثرا على النبي ε؛ لكونها استهدفت سمعته وهو في أعلى مستويات الدعوة والقيادة، مما قد يؤثر سلبا على سير دعوته ومكانته القيادية. وهذه الفرية تختلف عن سابقتها من الإبتلاءات، فما واجهه في بدايـة دعوته- مما ذكرناه من أذى معنوي ومادي- كان قد وطن نفسه لقبوله وتحمله، فلم يشكل في طريق

---

(١)- الغضبان: المنهج الحركي للسيرة النبوية، ص٢٠٦.

(٢)- ابن هشام: السيرة النبوية، ج٤، ص٥١٥.

(٣)- خليل: دراسة في السيرة، ص٣٨٩.

(٤)- سالم نوري: فقه السيرة النبوية، ص٢٩٢.

(٥)- سالم نوري: فقه السيرة النبوية، ص٢٩٢.

(٦)- المصدر نفسه، ص (١٨٧ ، ١٨٨).

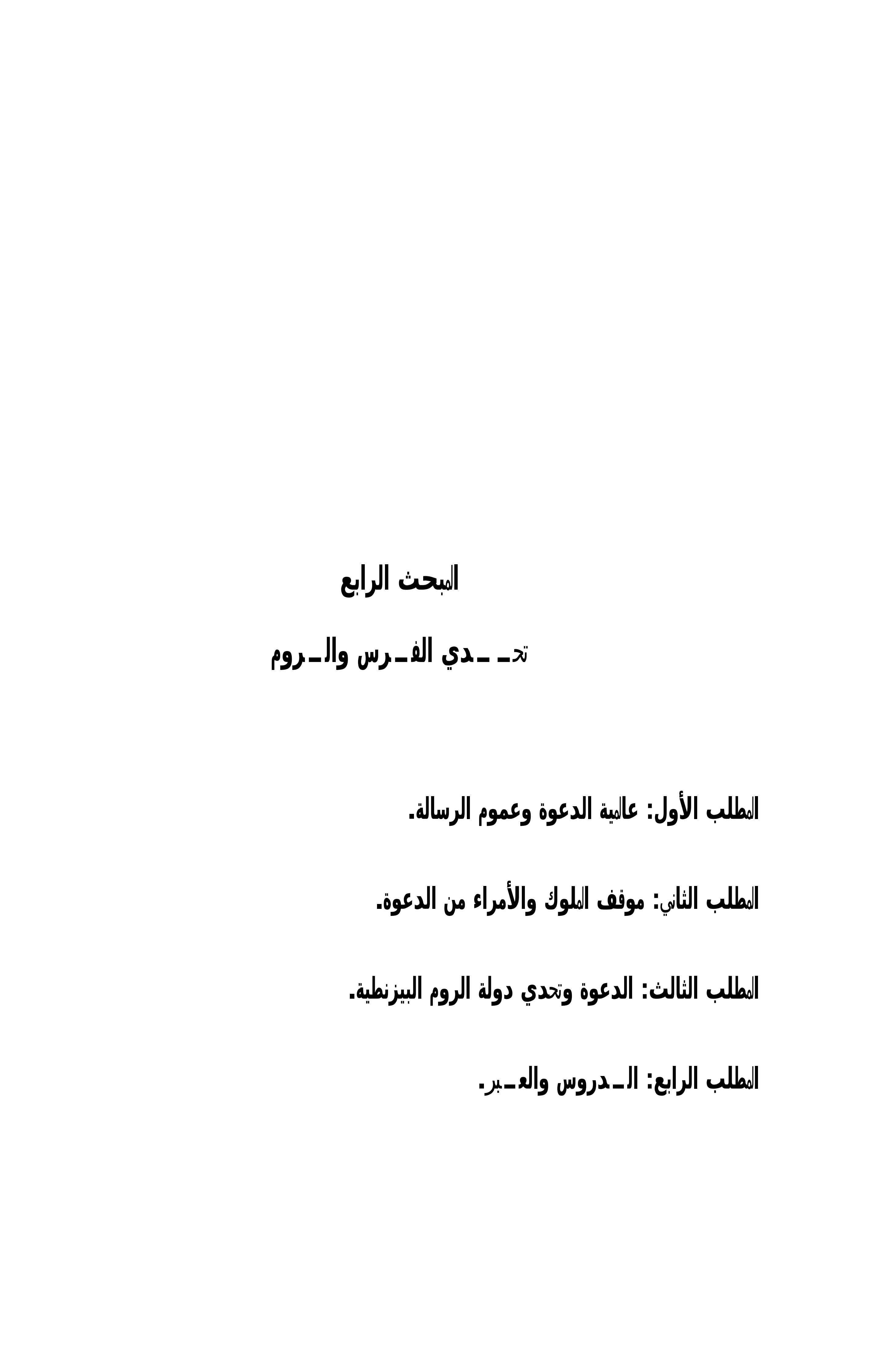
دعـوته مفاجأة له؛ أما قصة الإفك فقد تفاجأ ا؛ فهي ليست بالأمر الذي اعتاده أو توقعه، فكانت بحق أذية أبلغ تأثيرا مما عداها، كيف لا وهي تطعن العرض؛ وتستهدف الكرامة الإنسانية ؟![1].

٥- وإزاء هذه الصورة الخطيرة للنفاق والمنافقين، وجب إدراك طبيعة هذه الفئة، وحجم خطرهـا على الأمة، في كل عصر ومصر، فالنفاق لم يعد أمرا تاريخيا؛ بل صار أمرا واقعا، ينخر جسد الأمـة ويوهن من عزيمتها، ويحارب عقيد ا. فربما تجد من المحسوبين على الإسلام، قد تسلموا راية النفـاق مقابل مغنم أو منصب، وراحوا يتكلمون باسمه؛ ليحرفوا الكلم عن مواضعه فضلوا وأضلوا، والمنـهج النبوي يقتضي داوم الحذر واليقظة من دورهم وخطرهم؛ باتخاذ كل الوسائل المادية والفكرية لـدحر دعاوى النفاق، ومنعهم من نشر سمومهم، بتدمير مراكزهم ومنابرهم الإعلامية، فقد أمر النبي ε دم مسجد الضرار، وهدم دار سويلم اليهودي، وقد اتخذها المنافقون مركزا للإشاعة والتآمر؛ والتثبـيط والخذلان، مع وجوب الموازنة بين تحقيق المصالح من تأليف القلوب وجمع الكلمة، ودفـع المفاسـد كتنفير الناس من الإسلام[2].

---

(١)- البوطي: فقه السيرة، ص٢٨٦.

(٢)- سالم نوري: فقه السيرة النبوية، ص (٤٠٧ ، ٤٠٩).



المبحث الرابع

تحـــدي الفـــرس والـــروم

المطلب الأول: عالمية الدعوة وعموم الرسالة.

المطلب الثاني: موقف الملوك والأمراء من الدعوة.

المطلب الثالث: الدعوة وتحدي دولة الروم البيزنطية.

المطلب الرابع: الـــدروس والعـــبر.

المبحث الرابع

تحـدي الفـرس والـروم

تمهيـد.

تعد دولتا الفرس والروم، الدولتان اللتان تتمتعان بالقوة والنفوذ، في زمن دعوة الرسول ε، فكـان الفرس يسيطرون على أجزاء كبيرة من جنوب الجزيرة العربية؛ ويفرضون عليها مجوسيتهم، والرومان يحتلون أجزاء أخرى من شمال الجزيرة العربية، ويفرضون عليها نصرانيتهم[1]. وفي ظل هذا الانقسـام والتنافس على النفوذ، عرفت الدولتان انحرافا دينيا، وفسادا أخلاقيا، واضطرابا اجتماعيـا؛ بسـبب الحروب والغارات التي أ كت قواهما، مما جعل شعوب هذه المناطق، تتوق إلى العيش في ظل الحريـة والإخاء، والعدل والمساواة[2]، وتعرف رسالتها؛ والغاية من وجودها. فما موقف الدعوة تجاه هـذا الوضع ؟ وما هي استراتيجيتها في تبليغ رسالة الإسلام إلى أهل هذه الديار ؟

المطلب الأول: عالمية الدعوة وعموم الرسالة.

بعدما أمن الرسول ε شر قريش، ومناوأ ا لدعوة الإسلام عقب صلح الحديبية، وجـد الفرصـة مواتية لنشر دعوته خارج الجزيرة العربية، وتبليغ رسالة الإسلام إلى الناس كافة، كما أمره بذلك ربه Ψ[3]، في قوله: [قُلْ يا أَيها الناس إني رسولُ اللّه إِلَيكُم جميعا] الأعراف/١٥٨. وفي قوله: [ومـا

---

(١)- الغزالي: فقه السيرة، ص٣٥٤.

(٢)- أبو شهبة: السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، ج٢، ص (٣٥٧ ، ٣٥٨).

(٣)- المصدر نفسه، ج٢، ص٣٥٧.

أرسلْناك إلا كَافةً للناسِ بشيرا ونذيرا ولَكن أكْثَر الناسِ لَا يعلَمونَ] سبأ/٢٨. وماجـاءت مكاتبـة الرسول ε للملوك والأمراء خارج الجزيرة، إلا تعبيرا عمليا على عالمية رسالته، تلك العالمية التي أكد ا وأوضحتها الآية التي نزلت في العهد المكي، في قوله تعالى: [وما أَرسلْناك إِلا رحمـةً للْعـالَمين] الأنبياء/١٠٧. فصححت النظرة القائلة بتدرج الدعوة، من الإقليمية إلى العالمية، تبعا لاتساع النفـوذ السياسي للرسول ε. كما قررت الآية الكريمة عالمية الدعوة والمسلمون مستضعفون، ومضـطهدون بمكة يخافون أن يتخطفهم الناس[١].

المطلب الثاني: موقف الملوك والأمراء من الدعوة.

كان أسلوب مراسلة الملوك والأمراء، أسلوبا جديدا من أساليب الدعوة وتبليغ الرسالة[٢]، فانتهج الرسول ε من خلاله الحكمة والموعظة الحسنة، واحتـرام المخاطب (عظيم الروم)؛ لمكانتـه بـين قومه، وبالترغيب والترهيب،" واختار لكل واحد منهم رسولا يليق به، ويعرف لغته وبلاده"[٣]. وقد عبر الرسول ε على هذا المنهج قولا وفعلا؛ فبعث رسله إلى عدد من الملوك والأمـراء يـدعوهم إلى الإسلام[٤]، عن أنس أن النبي ε كتب إلى كسرى، وإلى قيصر والنجاشي، وإلى كل جبار، يـدعوهم إلى الله تعالى، وليس بالنجاشي الذي صلى عليه النبي ε[٥]. وكان ذلك في ذي الحجة سنة ٠٦ هـ[٦] أو في محرم سنة ٠٧ هـ[٧]. فكيف كان موقف هؤلاء الملوك والأمراء من دعو م للإسلام ؟

١- جواب هرقل عظيم الروم.

يعد نص الكتاب الذي حمله دحية بن خليفة الكلبي τ إلى عظيم بصرى الحارث الغساني، عامـل هرقل ملك الروم، النص الوحيد الذي ثبتت صحته على وفق شروط المحدثين، والاعتماد عليه تاريخيا؛ والاستدلال به في مجال التشريع[٨]. ووافق الكتاب هرقل وهو مقبل على بيت المقدس يزوره؛ تقربـا وشكرا لانتصاره على الفرس، ووفاء لنذره برد الصليب إلى مكانه[٩]، وتناول هرقل الكتاب وقرأ فيه: فيه:

---

(١)- العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ج٢، ص (٤٥٥ ، ٤٥٦).

(٢)- الصلابي: السيرة النبوية، ج٢، ص٤٥٨.

(٣)- الندوي: السيرة النبوية، ص٢٨٧.

(٤)- العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ج٢، ص٤٥٥.

(٥)- مسلم: ك. الجهاد والسير، باب: كتب النبي ε إلى ملوك الكفار يدعوهم إلى الله عز وجل، رقم: ٤٦٠٩، ص٦٨٥.

(٦)- العمري: مصدر سابق، ج٢، ص٤٥٥، نقلا عن: الواقدي والطبري، (٢/ ٢٨٨).

(٧)- المصدر نفسه، ج٢، ص٤٥٥، نقلا عن: ابن سعد ، الطبقات: ص (١/ ٢). وابن القيم ، زاد الميعاد: ص (١/ ٣٠).

(٨)- سالم نوري: فقه السيرة النبوية، ص٣٤٣.

(٩)- هيكل: حياة محمد ε، ص٣٢٢.

{ بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم: سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليـت فـإن عليك إثم الأريسيين، و [يا أَهلَ الْكتابِ تعالَوْاْ إِلَى كَلَمة سواء بيننا وبينكُم أَلا نعبـد إلا اللّـه ولاَ نشرك بِه شيئًا ولاَ يتخذَ بعضنا بعضاً أَربابا من دون اللّه فَإِن تولوا فَقُولُواْ اشهدواْ بِأَنا مسلمونَ] آل عمران/٦٤ }[١].

وتسلم هرقل الكتاب وتأمل فيه، وأوتي له بأبي سفيان الذي كان متواجدا في عاصمة الروم حينها، فسأله عن أحوال النبي ε، وأثبت له أبو سفيان ما يمتاز به من خلق ونسب رفيع، فقال هرقل: (..فإن كان ما تقول حقا، فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج، لم أكن أظنه أنه منكم، فلو أني أعلم أني أخلص إليه، لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه)[٢].

وأشارت الروايات: أن هرقل لما قرأ الكتاب، جمع وجوه دولته وحاشيته، فقال لهم: يا معشر الروم ! هل لكم في الفلاح والرشد، وأن يثبت لكم ملككم.. فقالوا له: وما ذاك أيها الملك ؟ قال: تتبعون هذا النبي العربي. فحاصوا حيصة حمر الوحش، وتناجزوا ورفعوا الصليب، فلما رأى ذلك يئس مـن إسلامهم، وخاف على نفسه وملكه فسكنهم، وقال: إنما قلت لكم ما قلت لأختبركم، وأنظر كيف صلابتكم في دينكم، فقد رأيت منكم الذي أحب فسجدوا له[٣].

والراجح أن هرقل كان رجلا سياسيا، لا يهمه أمر اعتناق الدين، بقدر ما كان يهمه تنمية قوتـه وتدعيم ملكه، ودفعته لباقته السياسية فاستدعى دحية، وحاول التظاهر أمامه بالإسلام، وأعطاه قدرا من الدنانير وصرفه، بدليل أن دحية لما عاد إلى الرسول ε وأخبره، قال: { كذب عـدو الله لـيس بمسلم، وأمر بالدنانير فقسمت على المحتاجين }[٤].

٢- موقف كسرى عظيم الفرس.

وحمل عبد الله بن حذافة السهمي τ، رسالة النبي ε إلى عظيم البحرين، على أن يدفعها بدوره إلى كسرى عظيم الفرس، وكان نصها:

{ بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله النبي الأمي، إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبـده و

---

(١)- البخاري: ك. بدء الوحي، باب: ٠٦، رقم: ٠٧، ص٢٤.

(٢)- البخاري: ك. بدء الوحي، باب: ٠٦، رقم: ٠٧، ص (٢٣ ، ٢٤).

(٣)- سالم نوري: فقه السيرة النبوية، ص (٣٤٣ ، ٣٤٤). نقلا عن ابن سعد، الطبقات: ص (٢/ ٢٣).

(٤)- الغزالي: فقه السيرة، ص (٣٥٥ ، ٣٥٦).

رسوله، أدعوك بدعاية الإسلام، فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة، لأنذر من كان حيا ويحق القـول على الكافرين، فأسلم تسلم، فإن أبيت فإن إثم المجوس عليك }[1].

ولما قرئت الرسالة على كسرى استشاط غضبا ومزقها، وأمر باذان عامله على اليمن، بأن يأتيـه برأس هذا الرجل، ولما بلغ الرسول ε ما كان من موقف كسرى، قال: مزق الله ملكه. وأثناء إيفاد باذان رسله إلى الرسول ε، مزق الله ملك كسرى، حيث قتله ابنه شيرويه واستولى على عرشه، وبعد أن عرف النبي ε ذلك، أعلم الرسل بالأمر وطلب منهم أن يكونوا رسـله إلى بـاذان يدعونـه إلى الإسلام. وبعد أن شعر أهل اليمن بتمزق الإمبراطورية الفارسية وانحلال سلطانها، ووصـول أخبـار انتصارات الرسول ε على قريش، وقضاءه على سلطة اليهود؛ كان باذان سعيدا بأن يعتنق الإسـلام، ويبقى عاملا على اليمن، فكان إسلامه يمثل نقطة ارتكاز قوية للإسلام في جنوب الجزيرة العربية[2].

٣- رد النجاشي.

وحمل عمرو بن أمية الضمري τ، كتاب النبي ε إلى النجاشي ملك الحبشة، وجاء فيه: { بسـم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى النجاشي، ملك الحبشة أسلم أنت، فإني أحمد إليـك الله الذي لا إله إلا هو، الملك القدوس، السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسـى بـن مـريم روح الله وكلمته، ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة فحملت به، فخلقه من روحه ونفخه، كما خلـق آدم بيده، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة على طاعته، وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني فإني رسول الله، وإني أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل، وقد بلغت ونصـحت فـاقبلوا نصـيحتي، والسلام على من اتبع الهدى }[3].

وأشار هيكل بأن رد النجاشي كان جميلا، وورد في بعض الروايات أنه أسلم، رغم ما أثاره بعض المستشرقين من شك في إسلامه، وأن النبي ε بعث له بكتاب آخر، يطلب إليه رد المسلمين المقـيمين بالحبشة إلى المدينة، وجهز لهم سفينتين حملتاهم، وكان على رأسهم جعفر بن أبي طالب τ[4].

أما نصوص الكتب التي وجهت إلى المقوقس حاكم مصر، والحارث بن أبي شمر الغساني حـاكم دمشق، وهوذة بن علي الحنفي حاكم اليمامة، وحاكم عمان والبحرين، فلم تثبت نصوصـها مـن الناحية الحديثية، ولا يعني هذا نفي إرسالها إلى الملوك والأمراء، كما لا يعـني الطعـن التـاريخي في

---

(١)- الأصبهاني: دلائل النبوة، ج٢، رقم: ٢٤١، ص (٣٤٨ ، ٣٤٩).

(٢)- هيكل: حياة محمد ε، ص٣٢٣.

(٣)- الصلابي: السيرة النبوية، ج٢، ص٤٦٠.

(٤)- هيكل: مصدر سابق، ص (٣٢٣ ، ٣٢٤).

نصوصها، فيمكن أن تكون صحيحة شكلا ومضمونا، ولكنها لا ترقى إلى مستوى الاحتجاج ا في السياسة الشرعية، وفي موضوعات العقيدة والشريعة. وثبت أن النبي ε لما أراد أن يكتب إلى الـروم، قيل له: إ م لن يقرؤوا كتابك إذا لم يكن مختوما، فاتخذ خاتما من فضة ونقشه: (محمد رسـول الله)[١] ، وهذا يدل على مرونة السياسة الإسلامية في الإفادة من الوسائل والرسوم المعاصرة، ما دامت لا تتعارض مع أحكام الشريعة الإسلامية وروحها العامة[٢].

المطلب الثالث: الدعوة وتحدي دولة الروم البيزنطية.

برز نشاط الرسول ε بعد صلح الحديبية، على نشر دعوته في أنحاء مختلفة مـن الجزيـرة العربيـة وخارجها، فبرز نشاطه الدعوي على نشاطه العسكري[٣]، في إخضاع القبائل العربية النصرانية الموالية للروم، ودعوة أهلها إلى الدين الجديد؛ قبل أن تقوم الروم بأي عمل يستهدف دولة الإسلام الفتية[٤]. وقد ظهر تحدي الروم للدعوة في حياته ε، في مواجهتين هما:

١- الإمتحان العسير في **مؤتة.**

اضطر الرسول ε لمواجهة الروم البيزنطيين، والقبائل العربية الموالية لهم في مؤتة[٥]؛ انتقاما للـدعاة الذين قتلوا في ذات أطلاح من أرض الشام[٦]. كما جاءت المعركة ردا حاسما على مقتل الحارث بن عمير الأزدي τ، الذي بعثه الرسول ε بكتابه إلى ملك بصرى، فعرض له شرحبيل بن عمر الغساني- عامل قيصر الروم على البلقاء- فأوثقه رباطا، وضرب عنقه[٧].

ورأى النبي ε ضرورة تأديب القبائل العـربية، الذين دأبوا على اسـتفزاز المسـلمين وتحـديهم، وارتكاب الجرائم ضد دعا م، فجهز المسلمين للقتال وكانوا ثلاثة آلاف مقاتل خرجوا إلى الشـام، وجعل على الجيش زيد بن حارثة τ أميرا، فإن أصيب خلفه جعفر بن أبي طالب τ، فإن أصيب خلفه عبد الله بن رواحة τ. ويعد هذا الإجراء الاحترازي الأول؛ تحسبا للمخاطر المتوقعة، بسبب الوجهـة البعيدة للحملة، ولكو ا المواجهة الأولى مع الإمبراطورية البيزنطية، وحلفائها من قبائـل العـرب في الشام[٨].

---

(١)- البخاري: ك. الجهاد والسير، باب: دعوة اليهود والنصارى، رقم: ٢٩٣٨، ص٥٦٣.

(٢)- العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ج٢، ص (٤٥٨ ، ٤٥٩).

(٣)- المباركفوري: الرحيق المختوم، ص٢٤٨.

(٤)- العمري: مصدر سابق، ج٢، ص٤٦٧.

(٥)- مؤتة: قرية بأدنى بلقاء الشام، والمعركة وقعت في جمادي الأولى سنة ٠٨هـ، وفق شهر سبتمبر سنة: ٦٢٩م.

(٦)- الصلابي: السيرة النبوية، ج٢، ص٤٨٤.

(٧)- الشعراوي: السيرة النبوية، ص٣٦٦.

(٨)- سالم نوري: فقه السيرة النبوية، ص (٣٥١ ، ٣٥٢).

ولم ينس الرسول ε حين ودع الجيش في ثنية الوداع، أن يوصي بآداب القتال في الإسلام، فعـن سلمان بن بريدة، عن أبيه، قال: كان رسول الله ε، إذا أمر أميرا على جيش أو سـرية، أوصـاه في خاصته بتقوى الله، ومن معه من المسلمين خيرا، ثم قال: { اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا مـن كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا، ولا تغدروا ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدا، وإذا لقيت عدوك من المشـركين فادعهم إلى ثلاث خصال (أو خلال)، فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم، وكف عنهم.. }[١].

ولما نزل الجيش معان[٢]، وصلت الأخبار بـ ول هرقل بأرض مآب وهي البلقاء في مائة ألف مـن الروم، ومائة ألف أخرى من نصارى العرب، لخم وجذام وقضاعة. وأمام هذه المعادلة غير المتكافئة، أمضى المسلمون ليلتين في معان يتشاورون في أمرهم، فرأى البعض مكاتبة الرسول ε وإخباره بقـوة العدو؛ ليمدهم بالمدد أو يأمرهم بأمره[٣]، غير أن عبد الله بن رواحة τ حسم الأمر وخاطب الجـيش قائلا: (يا قوم ! والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون، الشهادة، وما نقاتل بعدد ولا قـوة ولا كثرة، وما نقاتلهم إلا ـذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين: إما ظهـور وإما شهادة)[٤].

وكان لهذه الكلمة الملتهبة وقعها في النفوس، فاختفت ـا مشاعر التردد، وقرروا مواجهـة العـدو مهما كانت النتائج[٥]. واندفع زيد بن حارثة τ بجيشه إلى منطقة مؤتة، جنوب الكرك بيسير، حيث دارت رحى معركة ملحمية، سجل فيها القادة الثلاثة، بطولات عظيمة انتهت باستشهادهم. ثم اختار المسلمون خالد بن الوليد τ قائدا للجيش، فأدرك خطورة الموقف، فأعاد تنظيم جيشه؛ فأبدل الميسرة بالميمنة، وجعل قسما من الجيش يتقدمون من الخلف؛ ليوهم العدو بالمدد، وتمكن من القيام بانسحاب منظم، لم يخسر فيه سوى القليل من الجند، وعد هذا الانسحاب نجاحا عظيما، تم من خلاله إنقـاذ الجيش من مأزق حقيقي. بعدما أبلى المسلمون بلاء حسنا، فأظهروا بطولات نادرة، وقد وجِـد في جسد جعفر بن أبي طالب τ، أكثر من تسعين إصابة، وانكسرت في يد خالد τ تسعة أسياف. ومن معجزات النبي ε أنه أخبر الصحابة باستشهاد القادة الثلاثة، وعيناه تذرفان قبل وصول الخبر، وأخبر باستلام خالد بن الوليد τ الراية، وبشرهم بالفتح على يديه، وعلى الرغم من هذا، فإن الجيش لما عاد صاح الناس بالجند، وهم يحثون التراب في وجوههم: يا فرار ! فررتم في سبيل الله ! فقال الرسول ε:

---

(١)- مسلم: ك. الجهاد والسير، باب: تأمير الإمام الأمراء على البعوث، ووصيته إياهم بآداب الغزو وغيرها، رقم: ٤٥٢١، ص (٦٦٨ ، ٦٦٩).

(٢)- معان: وهي الآن محافظة من محافظات الأردن.

(٣)- العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ج٢، ص٤٦٨.

(٤)- ابن هشام: السيرة النبوية، ج٤، ص٢٨٩.

(٥)- الشعراوي: السيرة النبوية، ص٣٦٧.

{ ليسوا بالفرار، ولكنهم الكرار إن شاء الله }[1]. وعبر موقف المسلمين هذا عن الـروح المعنويـة العالية، وعن النماذج الرفيعة من الرجولة الفذة المبكرة، نتيجة للتربية الإسلامية الجادة، والقائمة على منهج النبوة[2].

وتعزيزا لهذا الأمر بعث الرسول ε بحملة مؤلفة من ثلاثمائة مقاتل بقيادة عمرو بـن العـاص τ، تحركت في جمادى الثانية سنة ٠٨هـ، هاجمت القبائل العربية التي شاركت في معركة مؤتة، في منطقة ذات السلاسل، ثم أتبعها بمأتي مقاتل بقيادة عبيدة عامر بن الجراح τ، فأصبح عدد مقـاتلي الحملـة خمسمائة، وتوغل عمرو بن العاص τ قاصدا كل مكان فيه جمع، فكانوا يتفرقون ويفرون من وجهه، حتى انتهى إلى أقصى بلاد: بلا وعذرة وبلقين. مستعيدا - ـذه الحملة- الهيبة للمسلمين بين سـكان المناطق التي توغلت فيها[3].

وبلغت شجاعة المسلمين وبسالتهم في هذه المعركة، حدا لم تعرفه أمة معاصـرة، حيـث حقـر إقدامهم كبرياء الأمم التي عاشت دهرا من التاريخ، تصول وتجول لا يوقفها شيء، فالاستهتار بالخطر والطيران إلى الموت، ليس فروسية احتكرها الرجال المقاتلون وحدهم؛ بل أضحت قوة غامرة، تعدت الرجال إلى الأطفال، وإلى أن أصبحت الأمة كلها مكافحة، وحسبك أن الجيش لما عاد إلى المدينـة، قابله الصبية بصيحات الاستنكار، يحثون التراب في وجوه الجند، وينادون: يا فرار ! أي جيل مثـل هذا الجيل الذي صنعه الإيمان ؟!

وأي نجاح بلغته رسالة الإسلام في صياغة أولئك الصبية ؟! إننا في أمس الحاجة إلى هذا المسـتوى من التربية ![4].

٢- تحدي الروم الأكبر في تبوك.

لقد جاءت غزوة تبوك، في رجب سنة ٠٩هـ، في إطار السياسة التي أطلقها الرسول ε بعد غزوة الخندق، وكان شعارها: { الآن نغزوهم ولا يغزونا.. }[5]، والتي ـدف إلى استئصال الشرك مـن الجزيرة العربية، والتصدي للنظم السياسية المستبدة، والتي ما فتأت تجتهد في منع الدعوة من الانتشار، والقضاء على أي خطر يستهدف كيان الدولة الإسلامية[6]. كما جاءت هذه الغزوة ـدف إدخـال

---

(١)- ابن هشام: السيرة النبوية، ج٤، ص٢٩٥.

(٢)- الصلابي: السيرة النبوية، ج٢، ص٤٩٢.

(٣)- سالم نوري: فقه السيرة النبوية، ص (٣٥٣ ، ٣٥٤).

(٤)- الشعراوي: السيرة النبوية، ص٣٧٠.

(٥)- البخاري: ك. المغازي، باب: غزوة الخندق وهي الأحزاب، رقم: ٤١١٠، ص٧٨١.

(٦)- سالم نوري: فقه السيرة النبوية، ص (٣٩٦ ، ٣٩٧).

الرعب في نفوس القبائل العربية، التي لم تلتحق بعد بركب الإسلام في جزيرة العرب؛ والقبائل العربية المتنصرة والخاضعة لنفوذ الإمبراطورية الرومانية والتابعة لها[1].

ولما بلغت الأخبار، أن الروم قد جمعت الحشود ومعهم القبائل العربية، من لخم وجـذام وغسـان وعاملة، وأن طلائعهم قد عسكرت في البلقاء قاصدين المدينة، عزم الرسول ε على قتالهم، فهم أقرب الناس إليه وإلى الإسلام وأهله، وهم أولى الناس بالدعوة إلى الحق[2]، وهذا ما أشار إليه القرآن في قوله تعالى: [يا أيها الذين آمنواْ قَاتلُواْ الذين يلُونكُم من الْكُفارِ وليجِدواْ فيكُم غلْظَةً واعلَمواْ أن اللّه مـع الْمتقين] التوبة/١٢٣.

وجاءت هذه الغزوة في ظروف صعبة، وشدة بالغة، وتسمية جيشها بجيش العسرة يكشف حد ا، فمع الضائقة الإقتصادية الشديدة، عمد النبي ε إلى حث المسلمين على النفقة، والتبرع بما لديهم من أموال، ووعـدهم بالأجر العظيم، والثواب الكبير، قائلا: { من جهز جيش العسرة فله الجنة }[3]. وتسابق المؤمنون في الصدقة للفوز بالجنة، فتصدق عثمان τ بألف دينار صبها في حجر الرسـول ε، فقال: { ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم }[4]، وجعل يرددها مرارا[5]، وبرزت آثار التربية النبوية، النبوية، في التنافس في الصدقة، كل حسب طاقته وقدرته، وتصدق أبو بكر τ بكل ماله، وعمر بـن الخطاب τ بنصف ماله. وهذا ما نجد أمتنا اليوم في أمس الحاجة إليه؛ لحماية دينها والـدفاع عـن مشروعها الحضاري، فالأعباء ثقيلة والمعركة رهيبة وطويلة، والعدو قوي ماكر، والتغلب عليه يتطلب المزيد من التضحيات بالأنفس والأموال؛ والتغلب على الأهواء والشهوات[6].

وصنع الإيمان المعجزات، فبكى المؤمنون الذين اعتـذر لهم النبي ε، فلم يجد ما يحملـهم عليـه، فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع؛ حزنا على حرما م من شرف الجهاد، وخلد القرآن ذكـرهم، في قوله تعالى: [ولاَ علَى الذين إِذَا ما أَتوك لتحملَهم قُلْت لاَ أَجِد ما أَحملُكُم علَيه تولواْ وأَعينهم تفيض من الدمع حزنا أَلا يجِدواْ ما ينفقُونَ] التوبة/٩٢.

وفي المقابل جاء المنافقون بأعذار واهية، فقعدوا عن الجهاد، ومثبطين المؤمنين؛ بذريعة الفرار مـن الحـر الشديد، فتبين المنافقون من الصـادقين، وفضحهم القرآن في قوله تعالى: [فَرِح الْمخلَّفُـونَ

---

(١)- الندوي: السيرة النبوية، ص٣٦٩.

(٢)- سالم نوري: فقه السيرة النبوية، ص٣٩٧.

(٣)- البخاري: ك. فضائل الصحابة، باب: مناقب عثمان بن عفان τ، رقم: ٢٧٧٨، ص٧٠٥.

(٤)- الترمذي: ك. المناقب، باب: من فضائل عثمان τ وأعماله الطيبة، رقم: ٣٧٠٢، ص٥٨٢.

(٥)- الندوي: السيرة النبوية، ص٣٧١.

(٦)- السباعي: السيرة النبوية، ص١٩٤.

بِمَقْعدهم خلاَف رسولِ اللّه وكَرِهواْ أن يجاهدواْ بِأَموالهم وأَنفُسِهِم في سبِيلِ اللّه وقَالُواْ لاَ تنفـرواْ في الْحر قُلْ نار جهنم أَشد حرا لو كَانوا يفْقَهونَ] التوبة/٨١.

وجمع الرسول ε ثلاثين ألفا من الجند، ويعد أكبر جيش جمعه لمواجهة الروم، ولما وصل الرسول ε تبوك، جاءته الأخبار بانسحاب الروم وعدولهم عن فكرة الزحف واقتحام الحدود، فعدل النبي ε عن تتبعهم داخل بلدهم، لما رأى أن الغرض قد تحقق؛ بإدخال الرعب في قلوب الأعداء، وتوطيد سلطان الإسلام في الأقسام الشمالية من الجزيرة العربية.

وأثناء إقامة الرسول ε في تبوك عشرين ليلة، أرسل خالد بن الوليد إلى دومـة الجنـدل، فأسـر حاكمها أكيدر بن عبد الملك وكان نصرانيا، فصالحه على الجزية وأعاده إلى مكانه، ثم صالح حكـام أيلة وجرباء وأذرح على الجزية، وكاتبهم على ذلك.

وجاءت هذه الغـزوة تمهيدا لفتح بلاد الشام، فجهز الرسول ε جيشا آخر بقيادة أسامة بن زيد τ؛ إلا أن الجيش لم يتحرك بسبب وفاته، فكانت آخر إشارة من النبي ε للمسلمين، للفت انتباههم وشد أنظارهم؛ للانطلاق بعمليات الفتح الواسعة، لتبليغ الدعوة، ونشر الرسالة خارج الجزيرة، وهذا الذي تم بعد ذلك[1].

المطلب الرابع: الـدروس والعـبر.

أولا: أظهر الرسول ε من خلال إرسال الكتب إلى الملوك والأمراء، دراية سياسية خارقة، وقـوة وشجاعة فائقتين؛ لا سيما وأن كتبه قد أرسلت إلى ملوك أقوياء على تخوم بلاده، كهرقل وكسـرى والمقوقس، مما عكست هذه السياسة، حرص الرسول ε وعزيمته الشديدة على تبليغ دعوته، وإيمانـه المطلق بتأييد الله له، محققا بهذه السياسة، النتائج التالية:

١- إيجاد أسلوب جديد في سياسة التعامل الدولي لم تكن مألوفة ومعروفة من قبل.

٢- أكسب الدولة الإسلامية، مكانة وقوة فرضت وجودها آنذاك.

٣- كشفت الرسائل نوايا الملوك والأمراء، ومواقفهم إزاء الدعوة الجديدة.

٤- كانت الكتب تعبيرا عمليا، بأن دعوة الإسلام ليست دعوة إقليمية أو محلية أو قومية؛ بل دعوة عالمية وجب على الجميع القيام بها، أفرادا أو جماعات أو هيـئات، كل حسب قدرته وموقعه، لقوله تعالى: [وما أَرسلْناك إِلا رحمةً للْعالَمين] الأنبياء/١٠٧.

---

(١)- سالم نوري: فقه السيرة النبوية، ص (٤٠٢ ، ٤٠٣).

وبهذه الإستراتيجية السياسية، عظم شأن الدولة، وتعززت مكانتها الدينية والسياسية قبل فتح مكة؛ كما مهدت الطريق لتوحيد بلاد العرب، ووحدة شعوبها في عام الوفود[1].

ثانيا: وكانت الرسائل إلى الملوك والأمراء، إشارة للمسلمين باتجاه الإمبراطوريات المحيطة بهم، ليعدوا القوة اللازمة؛ لإزاحة الأنظمة المستبدة، التي كبلت شعوبها عن التفكير والتأمل بشكل مناسب، ويعرف الإنسان حقوقه وواجباته؛ ورسالته الحقة تجاه خالقه وتجاه الإنسانية جمعاء. كما كانت الرسائل إشعارا وإنذارا في آن واحد، فعدم قبول الدعوة يترتب عليه نتائج وخيمة في الدنيا والآخرة، وعبر الرسول ε على هذا المعنى بعبارة وجيزة بليغة، بقوله: { أسلم تسلم }[2]، فإن لم يسلم فإنه لا يسلم، مما قد يلحق به من خطر في الدنيا وعقاب في الآخرة. فأخلاقيات الحرب في الإسلام، إشعار العدو وتحذيره، ودعوته إلى الإسلام قبل مهاجمته[3].

ثالثا: لقد حرص النبي ε من خلال الأحداث المتعلقة بمعركة مؤتة، على إرسال الدعاة إلى بلاد الشام لدعوة أهلها إلى الإسلام، فكان ذلك إعدادا عمليا وذهنيا لقادة الدولة الإسلامية، بأن دولة الإسلام إنما هي دولة رسالة، واجبها الأول هو الدعوة إلى الله، ورعاية شؤون مواطنيها الأخروية، قبل رعاية شؤون مواطنيها الدنيوية؛ بتحقيق عبودية الله في خلقه، لقوله تعالى: [وما خلقْت الْجِن والْإنس إلا ليعبدون] الذاريات/٥٦. وتحقيق الخلافة في الأرض؛ بعمارتها وفق المنهج الذي ارتضاه الله لعباده، لقوله تعالى: [هو أنشأكُم من الأرض واستعمركُم فيها] هود/٦١. فغزوة مؤتة، تعد إحدى حلقات الإعداد الذهني والنفسي والعملي؛ لتوجيه أنظار الأمة صوب الآفاق الرحبة خارج الجزيرة، بتبليغ رسالة الإسلام لشعوب العالم؛ وحمل الدعوة للأمم المختلفة[4].

رابعا: كانت وصية النبي ε للجيش أثناء توجهه إلى مؤتة، تعكس المستوى الرفيع للحرب في الإسلام وأخلاقياتها السامية، فقد نهى النبي ε عن الغدر، وقتل الأطفال والنساء، والشيوخ والرهبان، ونهى عن هدم البيوت وقطع الأشجار؛ وحتى وضع الخيارات أمام العدو قبيل المواجهة، مما يدل على أن الإسلام لا يرغب ابتداء في الحرب؛ بل يجنح للسلم حفاظا على الأرواح. وما حارب الرسول ε وأصحابه إلا اضطرارا، فالمسلمون في حروبهم هداة لا جناة. وما عهدت البشرية تشريعا كتشريع الإسلام، يحفظ للبشرية كرامتها وللإنسانية إنسانيتها، فقد غضب الرسول ε في حنين لقتل امرأة،

---

(1)- الصلابي: السيرة النبوية، ج٢، ص (٤٦٩ ، ٤٧٠).
(2)- البخاري: ك. بدء الوحي، باب: ٠٦، رقم: ٠٧، ص٢٤.
(3)- سالم نوري: مصدر سابق، ص (٣٤٦ ، ٣٤٧).
(4)- المصدر نفسه، ص (٣٥٤ ، ٣٥٥).

وأوصى بالامتناع عن قتل النساء والأطفال، والعجزة والرهبان الذين لا يقاتلون، وصـارت هـذه الوصايا تشريعا من بعده، فنفذها أبو بكر τ فكان يوصي ا الجيوش أثناء القتال. وحرصت الجيوش الإسلامية على هذه المبادئ الإنسانية النبيلة في مختلف العصور، فعامل صلاح الدين الصـليبين بعـد الانتصار عليهم، فأعطى الأمان للشيوخ ورجال الدين، والنساء والأطفال؛ بل وللمحاربين الأشداء، بخلاف الصليبين أنفسهم لما سقطت بيت المقدس في أيديهم، غدروا بالمسلمين فذبحوا كل من التجـأ إلى المسجد، بعد أن أعطوهم الأمان[1]. ونرى في تاريخنا المعاصر، قتل الآلاف من البشـر، وهـدم الآلاف من المساكن على رؤوس ساكنيها دون شفقة ولا رحمة، وأفرزت حروب العصر مصطلحات عدة: كالتطهير العرقي والمقابر الجماعية؛ لتدل صراحة أن الإنسانية – في ظل حضارة الغرب المعاصرة – قد فقدت معيارها الأخلاقي، بعدما فقدت حقيقتها الروحية[2].

خامسا: تدل غزوة مؤتـة وغيرها من الوقائع، بأن دم الجندي المسلم مصـون، وقيمته عظيمة في الإسلام، وأن المسلمين مطالبون بحمايته أو الثأر له. وما كانت غزوة مؤتة إلا ثأرا لمقتل الحارث بـن عمير الأزدي τ، وقبلها كانت بيعة الرضوان استعدادا للثأر لعثمان بن عفان τ، عندما أشيع مقتله من طرف قريش، وكانت غزوة تبوك ثأرا لفروة بن عمرو الجذامي أحد قادة الروم، وكان إسلامه سببا في مقتله. وكل هذه الوقائع ما قامت إلا ثأرا من قاتلي الرسـل غـدرا؛ واسـتخفافا بـالأعراف الدبلوماسية. فالأصل أن الرسل لا تقتل، وما يقدم الغادرون على هذا إلا تحديا لخصومهم[3]، فكـان الهدف من وراء معركة مؤتة- رغم الفارق بين الجيشين ثلاثة آلاف مقابل ميئتي ألـف- إلا إعـلام الروم بالوجود العسكري الإسلامي، وإشعارهم بقـوة المسلمين، حتى ولو كان هذا الجيش كله من ضحايا المعركة[4].

سادسا: كشفت واقعة مؤتة، عن مدى تمسك الصحابة بمبدأ الشورى، فلما وصلوا معان تشاوروا فيما يجب فعله أمام حشود الروم وحلفائهم؛ ليكون القرار مدروسا ومتفقا عليه، ولما تكلم عبـد الله بن رواحة، فاصلا الموقف بمواجهة العدو، لم يتردد الصحابة ولم يتخاذلوا، بعدما شرح الله صدورهم للجهاد والرغبة في الاستشهاد، وتبين للجميع أن النصر لا يكون بقوة العدد والعدد؛ بـل بـالتقوى وبالإيمان الكامن في الصدور. ومع ما يكتنف هذه الواقعة من خسارة ظاهرة؛ إلا أ ا تحمل في طيا ا

---

(1)- السباعي: السيرة النبوية، ص (١٦٧ ، ١٧٢).

(2)- سالم نوري: مصدر سابق، ص (٣٥٧ ، ٣٥٨).

(3)- الغضبان: المنهج الحركي للسيرة النبوية، ص (٥٠٧ ، ٥٠٨).

(4)- الغضبان: فقه السيرة النبوية، ص٣٥٠.

معان النصر، فمن استشهد فقد فاز بالجنة، ومن نجا فقد تعلم درسا جديدا من مواجهة حشود الروم الكافرة، من معرفة ضرورية لعددهم وعد م وأساليب قتالهم،مما مكنهم من دحر الروم بالرعـب في تبوك[1].

سابعا: جمعت غزوة تبوك في طبيعتها بين غايتين رئيسيتين، هما: فهي من جهة جاءت تمثل المنـهج الجهادي الذي يلازم الإسلام، ويبقى لازما له في السعي لنشر رسالة الإسلام. ومن جهة ثانية جاءت لدحر خطر الروم، والذي أضحى ماثلا في جهود هرقل- الإمبراطور البيزنطي- وتحشيده للجنـد في حمص من بلاد الشام. فالغزوة جمعت بين كو ا جهاد طلب، وجهاد دفع[2].

ثامنا: برهن الصحابة ψ في غزوة تبوك، على قوة إيما م وشدة عزائمهم، فتسابقوا في تجهيز جيش العسرة بالصدقة والنفقة، فجاء عثمان τ بثلاثمائة بعير مجهزة بالأقتاب والأحلاس، وبمئتي أوقية مـن الفضة[3]، وساهم أبو بكر τ بماله كله، وعمر τ بنصف ماله، معتبرين أن الجهاد بالمال شقيق الجهاد بالنفس، لقوله ε: { من جهز غازيا في سبيل الله فقد غزا }[4]. كما أظهـر الفقـراء صـدقهم في المشاركة، فألحوا على النبي ε بأن يجد ما يحملهم عليه، فلما تعذر ذلك رجعوا وأعينهم تفيض مـن الدمع؛ دلالة على صدق إيما م ونواياهم، فكان أجرهم كأجر ا اهدين المشاركين، لقوله تعـالى: [ولاَ علَى الذين إِذَا ما أَتوك لتحملَهم قُلْت لاَ أَجِد ما أَحملُكُم علَيه تولواْ وأَعينهم تفيض من الـدمعِ حزنا أَلا يجِدواْ ما ينفقُونَ] التوبة/٩٢. وكشف المؤمنون عن معد م الثمين بالاسـتجابة الفعالـة والكبيرة، فنفروا في ثلاثين ألف مقاتل عكسوا حقيقة التناغم الموجود بين الأمة وقائدها، والذي يعد ضروريا ولازما لتحقيق ضة الأمة. وأعطت هذه الفئة المؤمنة بقيادة الرسول ε، درسا للأجيـال في قوة التحمل، فشكل الواحد منهم أسطورة وهو يقطع المسافة بين المدينة وتبوك، والتي تقدر ب: ٨٠٠ كلم بين ركوب ومشي، وتحت الحرارة الشديدة، والجوع والعطش، هدفهم من هـذا الاجتـهاد أن يصيبوا الجنة، لقوله ε: { .. ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة }[5]، وأن يتجنبـوا نـار جهنم[6]، لقوله تعالى: [قُلْ نار جهنم أَشد حرا لو كَانوا يفْقَهونَ] التوبة/٨١.

---

(١)- سالم نوري: فقه السيرة النبوية، ص (٣٥٥ ، ٣٥٦).

(٢)- المصدر نفسه، ص٤٠٣.

(٣)- البوطي: فقه السيرة، ص٤٠٧.

(٤)- الترمذي: ك. فضائل الجهاد، باب: ما جاء في فضل من جهز غازيا، رقم: ١٦٢٨، ص٢٢٥.

(٥)- الترمذي: ك. صفة القيامة والرقائق والورع، باب: ما يدخل الجنة، رقم: ٢٤٥٢، ص٣٥٦.

(٦)- سالم نوري: فقه السيرة النبوية، ص (٤٠٤ ، ٤٠٧).

وهكذا لما بذل المؤمنون في جيش العسرة، أرواحهم وأموالهم وجهدهم، واسـتبدلوا راحتـهم في أجمل صورها، بالعذاب في أقسى صـوره وأشكاله، برهنوا ذا على صـدق إيما م بالله ومحبتهم له؛ فحق لهم النصر والتأييد، فكفاهم الله شر قتال الروم، بعد أن قذف الله الرعب في قلـو م فتفرقـوا عنهم، ويسر خضوعهم لحكم الجزية، مقابل العسر الذي تحمله المؤمنون مع نبيهم في رد العدوان على دولتهم، وحماية دعو م؛ وتبليغ رسالتهم[1].

الفصل الثالث

المعالم العامة لمنهج النبي ε في مواجهة التحديات

وبعدما تتبعنا مجهودات النبي ε في تبليغ دعوته للبشرية، خلال الفترة المكية والمدنية، والمنهج الذي انتهجه في كيفية مواجهة التحديات المختلفة، والتي كانت تعترض طريق دعوته؛ حري بنا أن نقـف على أهم المعالم البارزة التي ميزت منهجه ε في مواجهة الصعاب، وكيفية التعامـل مـع الحـوادث

(1)- البوطي: فقه السيرة، ص (٤٠٦ ، ٤٠٧).

والمشكلات أثناء ممارسته للعملية الدعـوية؛ لتكون قاعدة يرجع إليها الدعاة حاضـرا ومسـتقبلا، وسراجا منيرا يضيء طريقهم في تبليغ رسالة الدعوة؛ وحماية المشروع الحضاري للأمة. ففيما تتمثـل معالم هذا المنهج ؟

ويمكننا الإجابة على هذا الإشكال في هذا الفصل، من خلال دراستنا لهذه المباحث الأربعة الآتية:

المبحث الأول: أركـانـه.

المبحث الثاني: التـ ـدرج.

المبحث الثالث: الصـ ـبر.

المبحث الرابع: الأهداف الإستراتيجية.

المبحث الأول

أركـ ـ ـ ـانـ ـ ـ ـه

المطلب الأول: الثبـات عـلى المبـدأ.

المطلب الثاني: التكيـف مـع الواقـع.

المطلب الثالث: الفعالية في توظيف الإمكانيات.

المطلب الرابع: الاستمراريـة والتـواصـل.

المطلب الخامس: استراتيجية الأخلاق النبيلة.

المطلب السادس: التوكل على الله والاستعانة به.

المبحث الأول
أركـــانـــه

تمهيـد.

لقد ظهرت في الفترة المكية – أثناء مرحلة البناء الذاتي وتكوين القاعدة الصلبة – قوى معادية من قريش وحلفائها، فعزمت على مواجهة الدعوة بأساليب شتى: كالحرب النفسية والأذى الجسـدي، والترهيب والترغيب، والحصار الاقتصادي والاجتماعي؛ وأسلوب تصفية قيادات الحركة النبوية، مما دفع الدعوة بأن تحافظ على مكاسبها بتغيير استراتيجية عملها إلى المدينة المنـورة، حيـث النصـرة

والتأييد؛ إلا أ ا وجدت نفسها في مواجهة مع جبهتين خطيرتين: جبهة اليهود وحركـة المنـافقين، فأصبحت الدعوة- ذا الوضع – في مواجهة شاملة مع ا تمع الجاهلي بكـل عقائـده، وعاداتـه وتقاليده[١].

ورغم التحالف الإستراتيجي الشامل، الذي شكلته القوى المعادية للدعوة، من خبرات وإمكانات، ونظريات يهودية ونفاقية وشركية، وحوافز مادية؛ إلا أن النبي ε قد نجح في إعاقة هذه القوى، مـن بلوغ غايا ا وتحقيق أهدافها. وتمكنت القيادة الإسلامية – في المقابل- من حماية طليعتها الدعويـة، والتي تم بناءها في مكة؛ بناء متكاملا كما ونوعا، ونجحت في إعدادها لحمل أعباء الدعوة بكل صبر ووعي، فانبثقت منها قيادات عسكرية، وسياسية وعلمية، كان لها الأثر الإيجابي في المساهمة في بنـاء كيان الدولة في المدينة بمسؤولية وفعالية. مما مكنها من بناء رأي عام واسع، شكل تجاوبا كبيرا مـع قضايا الدعوة، وآفاقها المستقبلية، وهذا النجاح يعود بالأساس إلى حسن الترشيد النبوي[٢]، والـذي مكن الإنسان من خلاله من تصحيح عقيدته، ومعرفة رسالته، وغايته من وجوده. إن خيريـة هـذا الإنجاز يعود أساسا إلى منهجه ε المعتمد في " عملية الهدم والبناء "[٣]، والذي يلقي علينـا واجـب استخلاص معالمه الرئيسية للاستفادة والإفادة.

المطلب الأول: الثبات على المبدأ.

كان الثبات على المبدأ من أبرز المعالم التي ميزت الدعوة، وأحد الخطوات الهامة على طريق النصر؛ لأن المدعوين إذا رأوا في الداعية ثباته على المبدأ، أدركوا خيرية ما يدعوا إليه، خاصة إذا تيقنوا أن من يـدعوهم لا يريد من دعوته لهم، تحقيق منفعة مادية أو مكاسب شخصية؛ بل يريد نفعهم وخيرهم وتحقيق سعاد م[٤].

لذلك كان الرسول ε ثابتا على المبدأ في دعوته، جاعلا ثوابت الإسلام ومقررات مصلحة الدعوة، " الحكم والفصل بينه وبين الناس، في الأخذ والعطاء، والموافقة والمخالفة، والولاء والبراء، والإقـدام والإحجام "[٥]؛ ممتثلا لأمر ربه حين كان يخاطبه، بقوله تعالى: [فَاستمسِك بِالذي أُوحي إِلَيك إِنك علَى صراط مستقيمٍ] الزخرف/٤٣.

---

(١)- الطيب برغوث: معالم هادية على طريق الدعوة إلى الإسلام، دار الشهاب ، باتنة- الجزائر ، دون طبعة ودون تاريخ، ص (٠٧ ، ٠٨).

(٢)- المصدر نفسه، ص (٠٨ ، ٠٩).

(٣)- الطيب برغوث: منهج النبي ε في حماية الدعوة، ص٤٦٢.

(٤)- جمعة أمين عبد العزيز: الدعوة قواعد وأصول، دار الصديقية للنشر، حسين داي- الجزائر، ط٢، بدون تاريخ، ص١٢٧.

(٥)- الطيب برغوث: منهج النبي ε في حماية الدعوة، ص٤٦٣.

ورغم الحـصار الذي تعيشه الدعوة، والصحابة يتخطفون ويؤذون في الله أشـد الإيذاء، وهـم صابرون محتسبون؛ فإن الرسول ε ظل صامدا أمام العروض والإغراءات، ولم ينثن ويتراجـع تحـت ضغط التهديد والترهيب[1]، وكان يجيب مشركي قريش ويتحداهم، قائلا: { يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر، حتى يظهره الله، أو أهلك فيه، ما تركته }[2].

وشرع النبي ε بثباته على المبدأ، يفضح الفكر الوثني، عاقدا العزم على تعرية النظام الجاهلي بحـزم وحسم، وجاء القرآن مؤكدا هذا النهج، في قوله تعالى: [إنكُم وما تعبدونَ من دون اللـه حصـب جهنم أنتم لَها وارِدونَ، لَو كَانَ هؤلَاء آلهةً ما وردوها وكُل فيها خالدونَ] الأنبيـاء (٩٨ ، ٩٩). كما لم يتردد في إعلان المفاصلة بين عبادته للواحد الأحد وبين عباد م للشرك، امتثالا لأمره تعالى: [قُلْ يا أَيها الْكَافرونَ، لَا أَعبد ما تعبدونَ] الكافرون (٠١ ، ٠٢). ومضى ε في حزم وثبات، يهاجم القوانين الظالمة، ويفضح النظم السائدة في قريش؛ فتوعد بالويل لمن يطفف الكيل والميزان، قال تعالى: [ويلٌ للْمطَففين، الذين إِذَا اكْتالُواْ علَى الناسِ يستوفُونَ، وإِذَا كَـالُوهم أَو وزنـوهم يخسِـرونَ] المطففين (٠١ ، ٠٣). واستنكر وأد البنات، كما جاء في قوله تعالى: [وإِذَا الْموؤودةُ سئلَت، بِـأَي ذَنبٍ قُتلَت] التكوير (٠٨ ، ٠٩). كما أكد على حق المرأة في الميراث، في قوله تعالى: [يوصـيكُم اللّه في أَولَادكُم للذكَرِ مثْلُ حظ الأُنثَيينِ] النساء/ ١١. الأمر الذي يستدعي فضح المبادئ الباطلـة، والسائدة في عصرنا، كالرأسمالية والاشتراكية والعلمانية ونحوها، وتصحيح مفاهيم الحريات وضبطها. ولم يتوان الرسول ε في مهاجمة رموز الشرك والكفر، وهدم زعاما م وكشف مؤامرا م، وإعراضهم عن سماع كلمة الحق؛ تأكيدا منه على ثباته على المبدأ، وأيدت آيات كثيرة هذا المبدأ منـها: قولـه تعالى: [تبت يدا أَبِي لَهبٍ وتب، ما أَغْنى عنه مالُه وما كَسب، سيصلَى نارا ذَات لَهبٍ] المسـد (٠١ ، ٠٣). وقوله: [كَلَّا لَئن لم ينته لَنسفَعا بِالناصية] العلق/ ١٥. وقوله: [فَلَا تطعِ الْمكَذبِين، ودوا لَو تدهن فَيدهنونَ] القلم (٠٨ ، ٠٩). و ذا المنهج كان هم الرسول ε هو السعي إلى تغيير الـنظم الجاهلية، وإصلاح واقعها؛ لتتفق مع المفاهيم الإسلامية الجديدة[3].

---

(١)- محمد أمحزون: منهج النبي ε في الدعوة من خلال السيرة الصحيحة، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ، القاهرة – مصر ، ط٣ ، (١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م)، ص١٠٠.

(٢)- ابن هشام: السيرة النبوية، ج١، ص١٨٦.

(٣)- عبد الحليم محمد الرمحي: مفاهيم في فقه الدعوة وأساليبها، دار مكتبة الحامد للنشر والتوزيع ، عمان- الأردن ، ط١ ، (٢٠٠٢م)، ص (٦٢ ، ٦٤).

فالمتأمـل في النماذج التي أشرنا إليها في بحثنا، خـلال الفـترة المكية من صور الحرب النفسـية، والترغيب والترهيب، والمساومة والاستدراج، إلى طلب التنازل وأنصاف الحلول، تدل دلالة واضحة على مدى خطورة التحديات التي كانت تهدد الدعوة، إلى درجة أن المشركين حاولوا استدراج النبي ε وهم أن يدانيهم ويقاربهم في بعض ذلك؛ إلا أن الله ثبتـه وعصمه من كيـدهم، ووقـاه عاقبـة مكرهم؛ وعاقبة الركون إليهم[1]. وقد أشار القرآن إلى هذا في قوله تعالى: [وإن كَادواْ لَيفْتنونك عن الذي أوحينا إلَيك لتفْتري علَينا غَيره وإِذًا لاتخذُوك خليلاً، ولَولاَ أن ثَبتناك لَقَد كدت تركَن إِلَـيهم شيئًا قَليلاً، إِذاً لأَذَقْناك ضعف الْحياة وضعف الْممات ثُم لاَ تجِد لَك علَينا نصيرا] الإسـراء (٧٣ ، ٧٥).

المطلب الثاني: التكيف مع الواقع.

إن عناية النبي ε الشديدة بمعرفة الواقع الإنساني، وإحاطته الشاملة بأوضاعه ومشاكله، يسرت لـه الطريق للتعامل معه بموضوعية، مما مكنه من ممارسة عملية التغيير والإصلاح بإيجابية، باتجـاه تحقيـق أهداف الرسالة ومقاصـدها الدعويـة[2].

فالرسول ε كان واقعيا في تعاطيه مع المشكلات التي تعترض طريقه، في واقع اجتمـاعي تطبعـه آنذاك عوامل نفسية معقدة؛ " من ثارات وولاءات، وعواطف متأججة، وعصبية عارمـة، وجـرأة نادرة، وقسوة وصلابة؛ وعدم انضباط.."[3] وكل واحدة من هذه المشكلات تحتاج إلى قيادة كفأت نادرة، ذات بصيرة ثاقبة؛ تعمل على تنقية الواقع الاجتماعي منها، وتنقله إلى مسـتويات يسـودها الإيمان، والتراحم والإخـاء.

إلا أن الرسول ε باعتماده على المرونة كمنهج في التعامل مع الواقع الإنساني، أهله للنجاح في حل كل المشكلات التي تعترضه، والتحديات التي تواجهه، في عملية تغيير الواقـع الجـاهلي للأفـراد أو الجماعات ببساطة ويسر. وكادت الحرب أن تشتعل بين القبائل بسبب من يحصل له الفضل في وضع الحجر الأسود في مكانه من البيت، بعد أن هدمت قريش الكعبة وأعادت بناءها، فأشـار ε بثـوب فأتوا به، فوضعه فيه بيده، ثم أمر بأن تأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، حتى إذا بلغوا بـه موضـعه،

---

(١)- أمحزون: منهج النبي ε في الدعوة، ص (١٠٢ ، ١٠٥).

(٢)- برغوث: منهج النبي ε في حماية الدعوة، ص٤٦٥.

(٣)- سعيد حوى: الرسول ε، شركة الشهاب للنشر والتوزيع، باب الواد – الجزائر، بدون طبعة وبدون تاريخ، ص٢٠٦.

وضعه هو بيده[1]، فانتصرت الحكمة على الحرب ذه الواقعية، وتآلف الناس بعد ال اع والاختلاف ذه البساطة والمرونة.

وأثناء عودة الرسول ε من غزوة بني المصطلق نزل المسلمون على ماء، فحدث حادث استغله زعيم المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول لخلخلة صف المسلمين وضرب وحد م.. فسمع بـه عمـر بـن الخطاب τ فاستأذن الرسول ε في قتله. فأجابه ε قائلا: { لا يتحدث الناس أنه كان يقتل أصحابه }[2].. وبعد مدة تحولت فيها العقليات، وتغيرت فيها الأوضاع لصالح الإسلام، قال ε لعمر: { أما والله لو قتلته يوم قلت لي، لأرعدت أنوف رجال، لو أمر م اليوم بقتله لقتلوه }[3]. فعدم الإذن بقتل زعيم المنافقين؛ جاء اتقاء للفتنة التي قد تصيب صف المسلمين، بما لزعيم المنافقين آنذاك من أتبـاع، وجاء المنع؛ تماشيا مع ظروف الواقع ومعطياته، واتجاه الرأي العام في ا تمع الذي لا يخدم مصـلحة الدعوة[4].

كما راعى الرسول ε المصالح الأساسية والحقيقية للإسلام على بعض الاعتبارات الأخرى، عندما درس بنود الصلح، دراسة واقعية دقيقة، فقبل بشروط الصلح رغم ما يبدوا فيها للبعض من إجحاف للمسلمين، أو رضا بالدنية في الدين كما رآها البعض، على ما يترتب على هذه المعاهدة من مكاسب عظيمة للدعوة عاجلا أو آجلا، وتنازل عن بعض الشكليات في كتابة الوثيقة؛ كحـذف البسـملة المعهودة، وكتابة بدلها: باسمك اللهم..؛ جلبا للمصلحة ودرءا للمفسدة التي ستترتب على عدم كتابة معاهدة الصلح[5].

وفي أُحد، ترتبت على هزيمة المسلمين آثار سلبية انعكست على نفسيا م؛ من ضـعف للـروح المعنوية، وسقوط هيبتهم، وطمع المشركين في استئصال شأفتهم؛ والقضاء عليهم ائيا. فعزم الرسول ε على تغيير هذا الواقع، فما إن وصل إلى المدينة في اليوم الأول، حتى أمر المسلمين بالخروج لتتبـع آثار المشركين في اليوم الثاني، فلما سمع المشركون بأخبار الهجوم والطرد وراءهم، حـتى دب فـيهم الرعب وأعلنوا الرحيل الذي يشبه الهرب، بعدما كانوا بالأمس عازمين على ملاحقـة المسـلمين في المدينة، واستئصال شأفتهم فيها، وبقي المسلمون معسكرين في حمراء الأسد مدة ثلاث ليال، ونـزل

---

(١)- المصدر نفسه، ص٢٠٦.

(٢)- البخاري: ك. المناقب، باب: ما ينهى من دعوة الجاهلية، رقم: ٣٥١٨، ص (٦٧٥ ، ٦٧٦).

(٣)- ابن هشام: السيرة النبوية، ج٣، ص٢١٨.

(٤)- برغوث: معالم هادية على طريق الدعوة إلى الإسلام، ص (٣٠ ، ٣١).

(٥)- يوسف القرضاوي: أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة، من سلسلة الصحوة الإسلامية، رقم الإيداع بدار الكتاب: ٧٣٢٦ / ١٩٩٠م، ص (٢٦ ، ٢٧).

القرآن يربيهم ويعظهم، و ـذا التدبير غسلت كل آثار الهزيمة في أحد[١]، ونماذج تطبيقية أخرى مـن الواقعية في العمل النبوي، ما يكفي الدعاة، أن يجيلوا فيها فكرهم، ثم يعيدوا صياغتها وفق الوسـائل المتاحة، والظروف المناسبة؛ لإحداث التغيير الإسلامي المنشود، الذي يرتبط بمقومات المنهج الأساسية، ويتوافق مع طبيعة الحياة المعاصرة[٢].

وتدل هذه الإمكانيات العجيبة، التي كان يتمتع ـا الرسول ε في حل المشـكلات المستعصـية، بسهولة ومرونة، على مدى استقامته على منهج الحق الذي يدعو إليه، والذي يمثل أرقى صور الواقعية والمثالية؛ بمراعاته لظروف البيئة التي يتعاطى معها.

المطلب الثالث: الفعالية في توظيف الإمكانيات.

وهذا الجانب يعد أحد المعالم البارزة، التي ميزت منهجه ε في مواجهة التحديات؛ حيث انصـبت ا ـهودات على استيعاب الأتباع تربية، وتنظيما ورعاية، والعمل على استثمار طاقا ـم وإمكانيـا ـم بإيجابية وفعالية، بما تتضمنه من: " النظام والانضباط، وروح المبادرة وقوة الإرادة، والجدية والطموح، والرغبة في النجاح، والمصابرة وا ـالدة؛ والثبات والمرونة.."[٣]؛ لخدمة الدعوة، والسـعي لتحقيـق مقاصدها، وبلوغ أهدافها.

وانطلاقا من واقعية الدعوة ومرونتها، فقد فسح ا ـال للاستفادة من كل الخبرات الفنية، والمهارات العلمية، وتوظيف كل الإمكانيات الفكرية والمادية، في مواجهة التحديات التي تعيق مسيرة الـدعوة بفعالية كبيرة، لتصل إلى آفاقها الرحبة والواسعة.

ففي الإمكانيات الفكرية، برزت العبقرية القيادية في معرفة إمكانيات الرجال، واستكشاف طاقا ـم العقلية، باستخلاص الرأي الصالح، عن طريق تنفيذ مبدأ الشورى، [وشـاورهم فـي الأمـر] آل عمران/ ١٥٩، فكان الرسول ε القدوة العليا للبشرية في حبه للشورى وحرصه عليها، ومحاولة توسيع دائر ـا، فاستشار المهاجرين قبل غزوة بدر، ثم استشار الأنصار ثانية؛ ليؤكد على تطبيقها، ويحـرص على تجسيدها عمليا، ويمحو أي تردد في اتخاذ قرار الحرب، ليشعر بأن المسؤولية ملقاة على الجميـع. وفي ساحة المعركة أخذ برأي الحباب بن المنذر τ في اختيار المكان الملائم لـ ـول الجيش، وأقره قائلا: { لقد أشرت بالرأي }[٤]، وأمر بتنفيذه. وفي أحد أخذ برأي الأكثرية في الخروج لملاقاة العدو. وفي

---

(١)- سعيد حوى: الرسول ε، ص (٢١٦ ، ٢١٧).

(٢)- الطيب برغوث: الواقعية في الدعوة إلى الإسلام، دار الشهاب للطباعة والنشر، باتنة- الجزائر، ط١، (١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م)، ص٤٧.

(٣)- الطيب برغوث: منهج النبي ε في حماية الدعوة، ص٤٦٧.

(٤)- ابن هشام: السيرة النبوية، ج٢، ص٤٦٢.

الأحزاب أخذ برأي سلمان الفارسي τ بحفر الخندق، وفي الحديبية أخذ بمشورة أم سلمة زوجته بنحر الهدي أمام أصحابه، والأمثلة كثيرة سقناها في طيات بحثنا، تدل صراحة على نجاح هذا المنهج في استكشاف الخبرات والمهارات الفكرية، وحسن استثمارها في خدمة الدعوة وحمايتها(1).

ولم يغفل الرسول ε مؤهلات الصحابة وإمكانيا م الفردية، ليوظفها بفعالية في مكا ا المناسب، فما تمتع به الصحابي الجليل مصعب بن عمير τ من مؤهلات شخصية: كاللباقة والهدوء، وحسن الخلق والحكمة، وقوة إيمانه وإخلاصه.. أهلته بأن يكون سفيرا في المدينة، وكان مثالا ناجحا للسفارة، حيث قام بترجمة روح بيعة العقبة الأولى عمليا وسلوكيا؛ بالتزام نظام الإسلام ونشر تعاليمه، و يئة البيئة الصالحة لانتقال الدعوة، وبناء الدولة في مقرها الجديد(2). كما أقر ε خالد بن الوليد τ على خطته العسكرية بانسحاب الجيش مفضلا سلامتهم على أن يغامر م في معركة تشبه الانتحار، وكان جيش المسلمين ثلاثة آلاف، وجيش الروم ١٥٠ ألفا؛ أي أضعاف جيش المسلمين، فلما استقبلهم المتحمسون واصفين إياهم بالفرار، دافع عنهم النبي ε قائلا: {.. ولكنهم الكرار إن شاء الله }؛ مظهرا استحسانه ذا التصرف الحكيم، ومعترفا بخبرة القائد العسكرية، وهذا الحديث ينبهنا إلى خطأ الاستجابة إلى العواطف في اتخاذ القرارات المصيرية(3).

وأما ما يتعلق بالإمكانيات المادية، من قوة بدنية ومالية، فقد أمر الله بإعداد القوة اللازمة لملاقاة العدو، ووجوب الإنفاق في سبيل الله لدعم الجهاد، في قوله تعالى: [وأَعدواْ لَهم ما استطَعتم من قُوة ومن رباط الْخيلِ ترهبونَ بِه عدو اللّه وعدوكُم وآخرِين من دونِهم لاَ تعلَمونهم اللّه يعلَمهم وما تنفقُواْ من شيءٍ في سبِيلِ اللّه يوف إِلَيكُم وأَنتم لاَ تظْلَمونَ] الأنفال/٦٠.

وجسد الرسول ε روح المبادرة عمليا، وكان مثالا لأصحابه وهو منهمك في عمله في حفر الخندق؛ يضرب بالمعول، ويجرف بالمسحاة، ويحمل في المكتل في ظروف قاسية، يسودها البرد والخوف، والجوع والتعب، وكان عاصبا بطنه، يعلمهم الصبر والمصابرة، وقوة الإرادة؛ والرغبة الجامحة في تحقيق النصر(4).

وسارع الصحابة ψ، في غزوة تبوك يتسابقون في تجهيز الجيش بالنفقة والتصدق، بمجرد التذكير والترغيب، كل حسب قدرته وإمكانياته المادية، مبرهنين على مستواهم العالي في التربية النبوية؛ وعلى

---

(1)- سعيد حوى: مصدر سابق، ص (٢٠١ ، ٢٠٢).

(2)- الصلابي: السيرة النبوية، ج١، ص٣٩٨، وص٤٠٣.

(3)- القرضاوي: أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة، ص (٩١ ، ٩٢).

(4)- أمحزون: منهج النبي ε في الدعوة، ص٢١٠.

صدق إيمانهم وإخلاصهم في خدمة الدعوة[١]، وفي هذا درس للأمة، بأن تنخرط في ميدان البذل والعطاء المادي؛ لتساهم في بناء مراكز للدعوة، تعنى ببناء الإنسان، وتنشأة الرجال الذين يساهمون في بناء نهضة الأمة، فاهمين لدينهم واعين بشؤون دنياهم، ويعملون على نشر الفكر الإسلامي الصحيح، وإذا كان الغرب المسيحي لا يبخل بتبرعاته التي تبلغ آلاف الملايين خدمة للتنصير، ومثلهم رجال المال من اليهود الذين يبذلون بسخاء من أجل دولتهم وهم جميعا على باطل، فمن باب أولى أن ينفق المسلمون في خدمة دينهم وهم على الحق[٢].

والأمثلة كثيرة على نجاح الرسول ε في توظيف كل الإمكانيات المتاحة بفعالية كبيرة، في مواجهة التحديات، وحسن ترشيدها في خدمة الدعوة، انطلاقا من إحساسه الكبير بحجم المسؤولية الملقاة على عاتقه، ووضوح أهداف دعوته، ونبل رسالته؛ باقتناعه الراسخ بأنه يحمل الخير الكثير للإنسانية جمعاء.

المطلب الرابع: الاستمرارية والتواصل.

فالرسول ε مذ بدأ دعوته، لم يضعف ولم تفتر عزيمته، ولم يتردد لحظة في دعوة الناس إلى اعتناق الإسلام والتمسك بتعاليمه؛ دون أن يبالي بحجم التحديات التي كانت تواجهه، ولا بالصعاب التي كانت تعترض طريقه.

فالاستمرار في الدعوة بجدية وفعالية، في مواصلة عملية الهدم والبناء، شكلت إحدى العقبات الكبرى، أمام محاولات القوى المعادية، " في إيقاف عجلة الدعوة، أو تحريفها عن مسارها، أو تجميد حركتها "[٣]؛ لإعاقتها من التقدم نحو تحقيق هدفها.

فأحداث الحركة النبوية على مدار ثلاث وعشرين عاما، خلال الفترتين المكية والمدنية خير شاهد، على أن الدعوة لم تنقطع لحظة من اللحظات؛ بفضل الله تعالى، ثم بفضل الحكمة في المواقف.

ففي مكة كانت المهمة تنحسر في تربية الأجيال، وتكوين القاعدة الصلبة على التوحيد والإيمان؛ لتتهيأ لتحمل مسؤولياتها، وتقوم بمهامها، ولم يشأ الرسول ε أن يشغلهم في هذا العهد، بتحطيم الأصنام، ولا بمقاومة الأعداء[٤]، رغم ضراوة الأذى المادي والمعنوي، فالحكمة تقتضي أن يصبر ويأمر أتباعه بالصبر، ولو فعل غير هذا، لخسر أتباعه قتلا، بانغماسه في قضايا الثأر، ثم خسر بعد هذا مشروع رسالته، ولما أمكنه الاستمرار في تبليغ دعوته. ولما انتقل إلى المدينة تجدد عزمه بمواصلة مسيرته

---

(١)- الغضبان: فقه السيرة النبوية، ص (٣٧٩ ، ٣٨٠).

(٢)- القرضاوي: أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة، ص (٦٢ ، ٦٣).

(٣)- برغوث: منهج النبي ε في حماية الدعوة، ص٤٦٩.

(٤)- القرضاوي: أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة، ص (٣٤ ، ٣٥).

دون كلل ولا ملل، من معاهدة إلى سلام إلى حرب إذا دعت الحاجة أو الضرورة؛ إلى سـرية هنـا وهناك، حسب الظروف والإمكانيات[1].

وهكذا كانت الاستمرارية والتواصل إحدى المعالم البارزة التي ميـزت منهجـه ε في مواجهـة التحديات، كما ساهمت في نجاحه في خدمة الدعوة؛ وتوسيع كيان الدولة.

المطلب الخامس: إستراتيجية الأخلاق النبيلة.

ومن المعالم التي ميزت منهجه ε في مواجهة التحديات، والعمل على إزاحتها من طريق دعوته، ما اتصف به من أخلاق عالية رفيعة، شكلت المنهج الأمثل في جذب الناس إلى الإسلام، والتمسك بـه عقيدة، والعمل به شريعة، كيف لا ؟! وقد اشتهر ε قبل بعثته وبين قومه بالأمانة والصدق، وبعـد بعثته امتدحه ربه[2]، بقوله: [وإنك لَعلى خلُقٍ عظيمٍ] القلم/٠٤.

وكانت استراتيجية النبي ε في توظيف الأخلاق الرفيعة، من مثل إنسانية، وشفقة ورحمة، وحلـم وصبر، وعفو وصفح، وجود وكرم..في دعوته؛ دليل على حرصه الشديد، من أن ينقل النـاس مـن أوحال الجاهلية، إلى رحاب الإسلام، وينقذهم مما ينتظرهم من سوء العاقبة في عاجلـهم وآجلـهم، وهذا ما أشار إليه القرآن في قوله تعالى: [لَعلك باخع نفْسك ألا يكُونوا مؤمِنِين] الشعراء/٠٣، وفي قوله تعالى: [فَلَا تذْهب نفْسك علَيهم حسرات إن الله عليم بِما يصنعونَ] فاطر/٠٨.

وذهبت رأفة الرسول ε وشفقته ورحمته، بأولئك الذين كانوا يسيرون بالاتجاه المعاكس لسنن الله في الآفاق والأنفس والكتاب، إلى الحد الذي كان لا يبالي فيه، بما يلقاه منهم من إعـراض وصـد، وأذى شديد، باذلا كل ما من شأنه أن يجنبهم عاقبة كفرهم، وسوء مصيرهم.

وما اتصف به ε من الأخلاق الرفيعة، أكثر من أن تعد أو تحصى؛ تدل صراحة على نبوته، وصدق دعوته، ووضوح هدفه؛ ونبل غايته. فالمثل الإنسانية كانت الطابع الأساسي في حياته حتى مع أعداءه. مرت أمامه يوما جنازة، فقام لها، فقيل له: إ ا جِنازةُ يهودي، فقال: { أليست نفسا }[3]. وغضب في إحدى الغزوات لما وجد امرأة مقتولة، فكان إذا بعث بعثا أو جيشا، أوصاهم بعدم قتـل النسـاء والصبيان، قائلا: {.. اغزوا ولا تغلوا، ولا تغدروا ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدا.. }[4]. وهذه الأمثلـة وغيرها تمثل القمة في احترام المشاعر الإنسانية للأعداء[5].

---

(١)- سعيد حوى: الرسول ε، ص١٩٢.

(٢)- علي جريشة: مناهج الدعوة وأساليبها، مكتبة رحاب – الجزائر، ط٢، (١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م)، ص٣٨.

(٣)- البخاري: ك. الجنائز، باب: من قام لجنازة يهودي، رقم: ١٣١٢، ص (٢٥٥ ، ٢٥٦).

(٤)- رواه مسلم: ك. الجهاد والسير، باب: تأمير الأمير الأمراء على البعوث، ووصيته إياهم بآداب الغزو..، رقم: ٤٥٢١، ص (٦٦٨ ، ٦٦٩).

(٥)- أبو شهبة: السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، ج٢، ص٦٢٩.

ومن رحمته وشفقته، أن قومه وعشيرته آذوه أشد الإيذاء؛ فوضعوا الأشواك في طريقه، والقذر على بابه، وسلا الجزور على ظهره، وحاولوا خنقه وقتله، ومع هذا كان يقول: { اللهم اهد قومي فـإ م لا يعلمون }[1]. ولما توجه إلى الطائف ودعا ثقيفا إلى الإسلام، آذوه وأغروا سفهاءهم وصـبيا م، فرموه بالحجارة حتى أدموا قدميه الشريفتين، فخيره الله أن يطبق عليهم الجبال، فقال ε: { بل أرجو أن يخرج الله من أصلا م من يعبد الله وحده، لا يشرك به شيئا }[2]. وتجلت هذه الشفقة من رحمته بأمته، في قوله تعالى: [وما أَرسلْناك إِلا رحمةً للْعالَمين] الأنبياء/١٠٧. ومن تأصل هذا الخلق فيـه، وتميزه به، أن أوصى أتباعه بأن يكونوا رحماء كما وصفهم القرآن، في قوله تعالى: [محمد رسـولُ الله والذين معه أَشداء علَى الْكُفارِ رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغونَ فَضلًا من الله ورِضـوانا سيماهم في وجوههم من أَثَرِ السجود] الفتح/٢٩. وشملت رحمته حتى الحيوان فضلا عن الإنسـان، فأوصى بالإحسان إلى الشاة أثناء ذبحها، فقال: { إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلـتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحَ، وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحتـه }[3]. وهـذه الشواهد خير دليل بأن رحمته شملت كل ذي روح من إنسان وحيوان، سابقا ذا كل لوائح حقوق الإنسان الحديثة، وجمعيات الرفق بالحيوان، مما يضنه الناس من مبادرات الحضارة الغربية وحدها[4].

ومن حلمه وصبره، وعفوه وصفحه، ما قدمنا طرفا منه في رحمته، فكان لا يزيده الأذى إلا صبرا، ولا إسراف الجاهل إلا حلما، {..وما انتقم رسول الله لنفسه قط، إلا أن تنتهك حرمة الله، فينتقم لله ا }[5]. وعفوه عن أهل مكة يوم الفتح، خير دليل على سماحته وحلمه. وكان من إبائه حينما عرِض عرِض عليه قتل ابن أبي زعيم المنافقين، قال: { لا يتحدث الناس أنه كان يقتل أصـحابه }[6]؛ بـل أجاب ابنه عبد الله، حينما عرض عليه قتل أبيه، قائلا: { بل نترفق به، ونحسن صحبته ما بقي معنـا }[7]، وأمثلة
أخرى كثيرة في حلمه وعفوه، كانت سببا في دخول الناس للإسلام[8].

---

(١)- المصدر نفسه، ج٢، ص٦٣٩.

(٢)- البخاري: ك. بدء الخلق، باب: إذا قال أحدكم: آمين. رقم: ٣٢٣١، ص (٦٢٠ ، ٦٢١).

(٣)- الترمذي: ك. الديات، باب: ما جاء في النهي عن المثلة، رقم: ١٤٠٩، ص١٨٩.

(٤)- العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ج٢، ص (٦٣٥ ، ٦٣٨).

(٥)- البخاري: ك. المناقب، باب: صفة النبي ε، رقم: ٣٥٦٠، ص٦٨٢.

(٦)- البخاري: ك. المناقب، باب: ما ينهى من دعوة الجاهلية، رقم: ٣٥١٨، ص (٦٧٥ ، ٦٧٦).

(٧)- ابن هشام: السيرة النبوية، ج٣، ص٢١٨.

(٨)- أبو شهبة: السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، ج٢، ص (٦٤٦ ، ٦٤٨).

وأما جوده وكرمه، وسخاؤه وسماحته، فكان عن طباع في نفسه، وعن ثقة في سعة خـزائن الله، روي عن أنس τ: (أن رجلا سأل النبي ε غنما بين جبلين، فأعطاه إياه، فأتى قومه فقال: أي قوم ! أسلموا، فو الله ! إن محمدا ليعطي عطاء ما يخاف الفقر)[1]. وكان يحسن بعطائه لبعض الناس؛ تأليفا لقلوبهم، ثم لا يلبثون أن يصيروا من خيار المسلمين. فعن أنس τ قال: (إن كان الرجل ليسـلم مـا يريد إلا الدنيا، فما يسلم حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها)[2]. ويوم حنين تـألف بعض حديثي عهد بالإسلام حتى أضحوا من المخلصين له، ولم يكن هذا إسرافا منه؛ بل كان سياسة شرعية، قصد بها تأليف قلوب هؤلاء الذين صاروا فيما بعد خدما للإسلام، وقادة في نشر دعوته[3].

والأخبار عن أخلاقه ε أكثر من أن يسعها هذا المقام لذكرها وحصرها، إلا أن حسن توظيفهـا ساهم في تمتين العلاقة مع الأتباع،كما كانت لها استراتيجيتها في مواجهة التحديات، بتجنيب الدعوة متاهات الصدام مع الأعداء، بما أفرزته من معاني إنسانية سامية وأخلاق عالية، انعكست إيجابـا في تعزيز صف الإسلام، وتوسيع دائرته يوما بعد يوم، بعد أن برزت شخصية الرسول ε بالتحلي بهـا أخلاقا وسلوكا، مما دفع الخصوم إلى مراجعة مواقفهم وتغيير قناعتهم.

المطلب السادس: التوكل على الله والاستعانة به.

إن التوكل على الله والاستعانة به، بعد استفراغ الوسع وبذل الطاقة والجهد، في تـوفير الأسـباب والأخذ بها، من المعالم الأساسية التي ميزت منهجه ε في مواجهة التحديات، والعوامل الأساسـية في نجاحه ε في علاج المشكلات؛ وتحقيق النصر.

ويعد التوكل على الله، الأساس في منهج دعوة الرسل والأنبياء، فإليه يلجئون وبه يلوذون، فكانوا دائما يقولون، كما حكى القرآن عنهم، في قوله تعالى: [وما لَنا ألا نتوكلَ علَى اللّه وقَد هدانا سبلَنا ولَنصبِرن علَى ما آذَيتمونا وعلَى اللّه فَلْيتوكلِ الْمتوكلُونَ] ابراهيم/١٢.

وجسد المسلمون هذا الجانب عمليا في غزوة أحد، فلما هددوا بتجمع الأعداء للقضاء علـيهم لم يبالوا بهم؛ لثقتهم بالله واعتمادهم عليه، وتفويض أمرهم إليه، فكان أن صرف الله عنـهم العـدو، وسجل لهم موقفهم الرائع[4]، في قوله تعالى: [الذين قَالَ لَهم الناس إن الناس قَـد جمعـواْ لَكُـم

---

(١)- مسلم: ك. الفضائل، باب: ما سئل رسول الله ε شيئا قط، فقال: لا، وكثرة عطائه، رقم: ٦٠٢١، ص (٨٨٢ ، ٨٨٣).

(٢)- مسلم: ك. الفضائل، باب: ما سئل رسول الله ε شيئا قط، فقال: لا، وكثرة عطائه، رقم: ٦٠٢١، ص (٨٨٢ ، ٨٨٣).

(٣)- أبو شهبة: السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، ج٢، ص (٦٤٩ ، ٦٥٠).

(٤)- السيد سابق: إسلامنا، طبع بترخيص من وزارة الشؤون الدينية، تحت رقم: ٨٨/٢٠٤، بتاريخ: ١٤٠٨/٠٨/٠٢هـ/ الموافق ل: ١٩٨٢/٠٣/٢٠م. ومطابع دار البعث بقسنطينة، رقم الإيداع القانوني: ٣٩٦٩٦ / ١٩٨٨م، ص (٤٨ ، ٤٩).

فَاخشوهم فَزادهم إِيماناً وقَالُواْ حسبنا اللّه ونِعم الْوكيلُ، فَانقَلَبواْ بِنِعمة من اللّه وفَضلٍ لم يمسسـهم سوءٌ واتبعواْ رِضوانَ اللّه واللّه ذُو فَضلٍ عظيمٍ] آل عمران (١٧٣ ، ١٧٤).

والتوكل على الله لا ينافي اتخاذ الأسباب، بل لا يصح إلا إذا وفر الإنسان لكل عمل يريده، جميع الأسباب الموصلة إلى تحقيقه؛ لأن الأسباب بالمسببات، والنتائج بالمقدمات، وإهمال هذا الجانب مناف للسنن، ومخالف لمقتضى التكاليف[1]، وجاء تقرير هذا الجانب في مواضع عدة من القران الكـريم، في قوله تعالى: [يا أَيها الذين آمنواْ خذُواْ حذْركُم فَانفرواْ ثُبات أَوِ انفرواْ جميعا] النساء/٧١، وقوله: [وأَعدواْ لَهم ما استطَعتم من قُوة ومن رباط الْخيلِ ترهبونَ بِه عدو اللّه وعدوكُم] الأنفال/٦٠.

ورغم أن النبي ε لم يفرط في توفير هذا الجانب، فقد كان يلجأ إلى الله، كلما شرع في الإنجـاز، متجردا من الحول والقوة، طالبا الحفظ والتأييد؛ ليقينه الراسخ بأن النصر لا يتحقق في النهاية إلا من عنده، وأن التوفيق والنجاح لا يأت إلا وفق إرادته.

ففي بدر كان النبي ε يطمئن أصحابه بالنصر، بعد أن استجمع كل أسبابه، بإعداد القوة اللازمة، وبالرأي والمشورة، ورغم هذا اليقين بالنصر إلى درجة أنه حدد مصارع القوم؛ فقد بقي طوال الليلة في العريش داعيا متضرعا، ناشدا ربه إنجاز وعده، وما أراد ـذا إلا تعبيرا عن العبودية الخالصة، الـتي خلق الإنسان من أجلها[2].

والأسباب وإن استوفت كل مستلزما ـا، تبقى النتائج مرهونة بإرادة الله وحده، وقد تمثل المسلمون هذا الحس عمليا، فنصرهم الله في معارك كثيرة كانوا قلة في العدد والعدة؛ لكن لما طغى جانب الثقة في النصر بالكثرة في حنين، وقع الخلل في مفهوم النصر الرباني فحلت الهزيمة، فكان درسـا تربويـا للمسلمين؛ ليتبرؤوا من حولهم وقو ـم، ويكون توكلهم واعتمادهم على الله وحده واهب النصر[3]، وقرر الله هذا المبدأ في قوله تعالى: [إِن ينصركُم اللّه فَلاَ غَالب لَكُم وإِن يخذُلْكُم فَمـن ذَا الـذي ينصركُم من بعده وعلَى اللّه فَلْيتوكلِ الْمؤمنونَ] آل عمران/١٦٠.

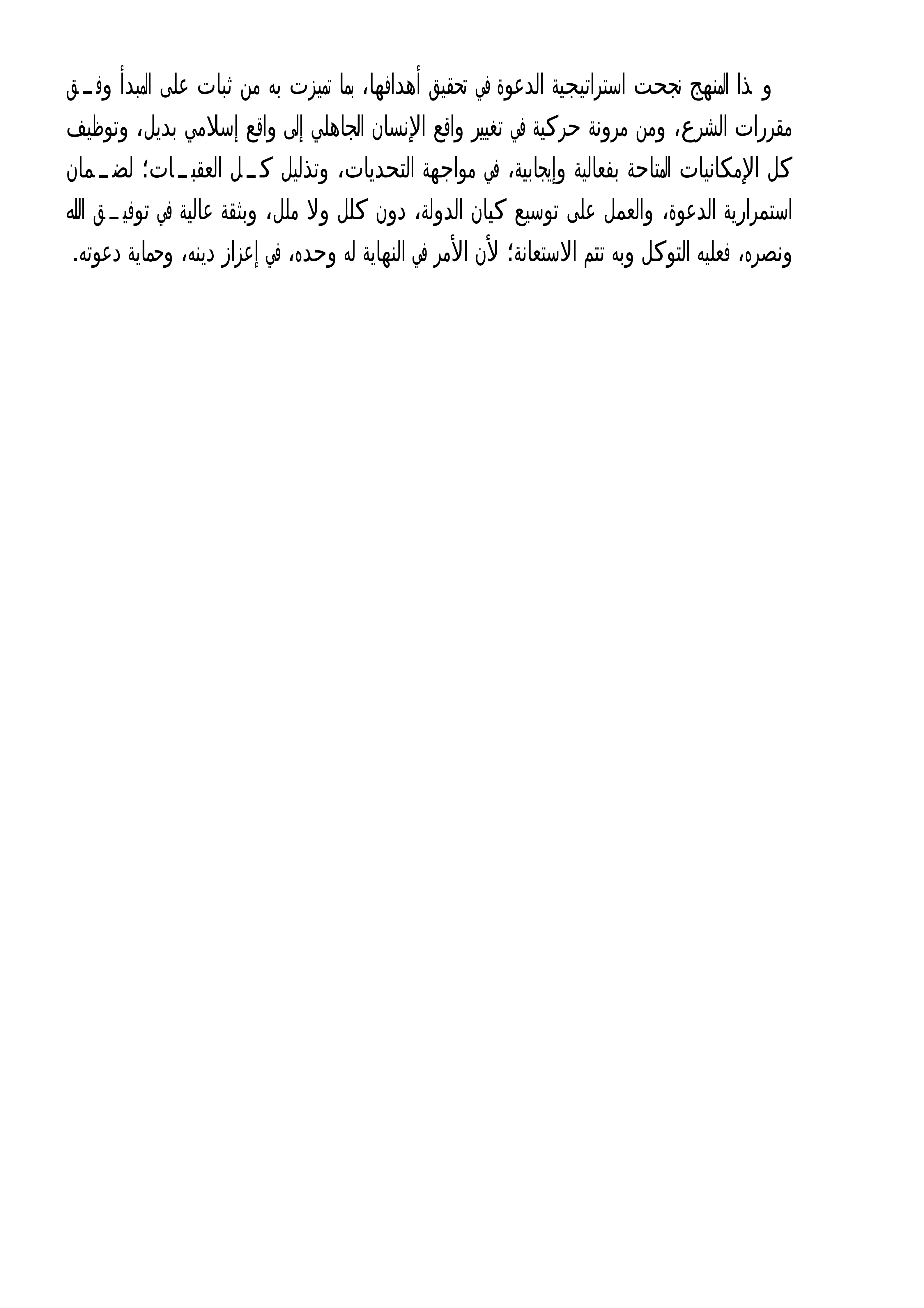
وهكذا كان من معالم منهجه ε أن تساهم الأحداث في تربية جيل النبوة، لتبقى علاقتهم مرتبطة بالله ومشدودة إليه ، يدعونه بإخلاص وصدق، وإيمان وثبات، فهو وحده من يهبهم النصر؛ ويقيهم احتمالات الفشل.

---

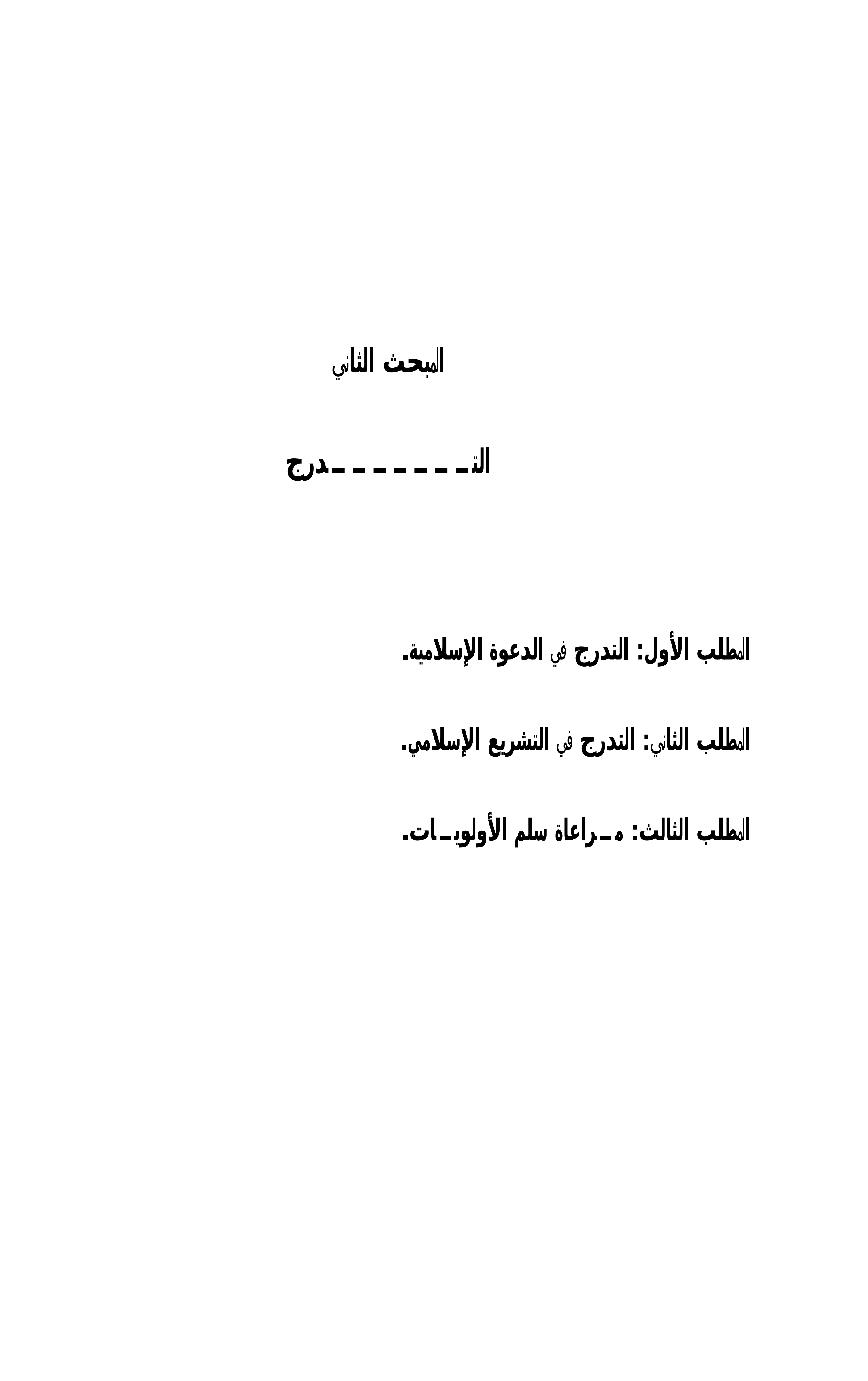
(١)- المصدر نفسه، ص (٥٢ ، ٥٣).

(٢)- البوطي: فقه السيرة، ص (٢٢١ ، ٢٢٢).

(٣)- الغضبان: فقه السيرة النبوية، ص (٣٦٩ ، ٣٧٠).



و ـذا المنهج نجحت استراتيجية الدعوة في تحقيق أهدافها، بما تميزت به من ثبات على المبدأ وفـق مقررات الشرع، ومن مرونة حركية في تغيير واقع الإنسان الجاهلي إلى واقع إسلامي بديل، وتوظيف كل الإمكانيات المتاحة بفعالية وإيجابية، في مواجهة التحديات، وتذليل كـل العقبـات؛ لضـمان استمرارية الدعوة، والعمل على توسيع كيان الدولة، دون كلل ولا ملل، وبثقة عالية في توفيـق الله ونصره، فعليه التوكل وبه تتم الاستعانة؛ لأن الأمر في النهاية له وحده، في إعزاز دينه، وحماية دعوته.



المبحث الثاني

التـــــــــدرج

المطلب الأول: التدرج في الدعوة الإسلامية.

المطلب الثاني: التدرج في التشريع الإسلامي.

المطلب الثالث: مـراعاة سلم الأولويـات.

المبحث الثاني

التـــــدرج

تمهيـد.

يعد التدرج من السنن الربانية الجارية في الكون، وقد حفلت الكثير من الآيات القرآنية بالحـديث عن هذه السنن التي لا تتبدل ولا تتغير؛ لإبرازها وتوجيه الأنظار إليها، لأخذ العبرة والفائدة. فكـان التدرج في خلق الإنسان قبل الولادة، في قوله: [ولَقَد خلَقْنا الْإنسانَ من سلَالَة من طينٍ، ثُم جعلْنـاه نطْفَةً في قَرارٍ مكينٍ، ثُم خلَقْنا النطْفَةَ علَقَةً فَخلَقْنا الْعلَقَةَ مضغةً فَخلَقْنا الْمضغةَ عظَاما فَكَسونا الْعظَام لَحما ثُم أَنشأْناه خلْقًا آخر فَتبارك الله أَحسن الْخالقين] المؤمنون (١٢ ، ١٤). وخضع للتدرج بعد الولادة، في قوله تعالى: [الله الذي خلَقَكُم من ضعف ثُم جعلَ من بعد ضعف قُوةً ثُم جعلَ من بعد قُوة ضعفًا وشيبةً يخلُق ما يشاء وهو الْعليم الْقَدير] الروم/٥٤. وعلـى هـذه الأطـوار خلـق الله الحيوانات والنباتات، وجعلها تتدرج بين النماء والكمال والنضج، وفق سنن الله الحكيمة[1]. وجرت هذه السنة في خلق السماوات والأرض، لقوله تعالى: [ولَقَد خلَقْنا السماوات والْأَرض وما بينهمـا في ستة أَيامٍ وما مسنا من لغوبٍ] ق/٣٨؛ أي في ستة أطوار وأزمنة يعلمها الله، وقد خلقها الله تعالى ذا التدرج لحكمة وفائدة، وكان قادرا أن يقول لها: كوني فتكون[2]. وانطلاقا مما سقناه، فإذا كان الله تعالى يوجه أنظار المسلمين نحو السنن الجارية التي تحكم الكون، فمن باب أولى أن تحكـم هـذه النواميس حياة الأفراد، والشعوب؛ والأمم، والواجب أن يتأملها المسلمون ويدرسو ا بعناية فائقـة؛ ليدركوا فائد ا ومغزاها، فينطلقوا راشدين في التعامل مع الواقع بحكمة، ويبلغون رسالة ر م، " بقدر ما يلزم من أفكار وتوجيهات، وبالأسلوب الذي يؤثر فيه، ويحوله إلى الإسلام "[3]، وإذا كانت هذه

---

(١)- الصلابي: السيرة النبوية، ج١، ص (١٣٨ ، ١٤١).

(٢)- يوسف القرضاوي: الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف، من سلسلة الصحوة الإسلامية بدون طبعة وبدون تاريخ، ص١٠٥.

(٣)- حسن البنا: الأصول العشرين- شرح وتحليل-، إعداد: محمد عبد الحكيم خيال، مكتبة رحاب، بورسعيد- الجزائر، بدون طبعة وبدون تاريخ، ص٢٦.

هي حقيقة السنن الجارية في الأنفس والآفاق، فإلى أي مدى نجح الرسول ε في الاستفادة من هـذه السنن في تغيير الواقع الجاهلي ؟ وإذا كان التدرج سنة كونية ثابتة، فكيف تقررت هـذه السـنة في الدعوة، وفي الناحية الشرعية ؟

المطلب الأول: التدرج في الدعوة الإسلامية.

والرسول ε هو قدوتنا، فقد ظل ثلاثا وعشرين سنة في الدعوة يطبق منهج التـدرج، تماشيا مع السنن الجارية؛ لتغيير الحياة الجاهلية إلى الحياة الإسلامية. ورغم تركيزنا على التحديات التي واجهت الدعوة في العهد المكي، تماشيا مع موضوع بحثنا؛ إلا أن التدرج في مراحل الدعوة يعد أحد المعـالم البارزة التي ميزت منهجه ε في تبليغ دعوته، فكانت دعوته متدرجة تسير بالناس رويدا رويدا حـتى انتهت إلى هدفها المنشود، وقد تميز مسارها خلال العهدين المكي والمدني بأربع مراحل أساسية وهي:

أولا: مرحلة بناء القاعدة الصلبة.

وتمت أثناء الفترة السرية بمكة، والتي دامت ثلاث سنوات، وبدأت هذه المرحلة امتثالا للأمر الرباني بتبليغ الرسالة، في قوله تعالى: [يا أَيها الْمدثر، قُم فَأَنذر، وربك فَكَبر، وثيابك فَطَهر] المدثر (٠١ ، ٠٤)، فكانت الآيات إيذانا بشحذ العزائم، وأمرا جازما للقيام بواجب الدعوة[١]، واقتضت الحكمة أن يتم خلال هذه الفترة، بناء القاعدة الصلبة عن طريق الاصطفاء والتخيير، " القائم علـى المعرفـة الشخصية لمن لهم قابلية، واستعدادا للتجاوب مع الدعوة، والانخراط في موكبها، حتى لا يتسرب إليها من ليس في مستواها من أصحاب الآفاق المحدودة، والعقليات الضيقة، ممن لا يصلحون طليعة قياديـة يؤسس عليها صرح الدعوة "[٢]، ويحملون عبئها، ويقودون ا تمع الإسلامي بمسؤولية.

ثانيا: مرحلة الصدع بالدعوة مع ضبط النفس.

وبدأت منذ الإعلان عن الدعوة في مكة واستمرت إلى وقت الهجرة إلى المدينة المنـورة، وكـان الانتقال إلى هذه المرحلة الجهرية، بعد أن أصبحت القاعدة الصلبة مستعصية على الإبادة، وتمتع بالقوة والصلابة، والتجذر في الأعماق مما يجعلها أقوى من الإفناء، ولم يزدها التعذيب والفـتن والمحـن إلا صلابة في الحق، وثباتا على المبدأ[٣]. وقد نجح الرسول ε بتوجيه من ربه عز وجل، بتربية أصـحابه على ضبط النفس في مواجهة الأعداء، بالتحلي بالصبر والحلم، والعفـو والصـفح، والاسـتمرار في الدعوة، والتعود على السير المنتظم مهما كان الأمر مخالفا للمألوفات والعادات، لتفويت الفرصة على

---

(١)- الصلابي: السيرة النبوية، ج١، ص١١٠.

(٢)- أمحزون: منهج النبي ε في الدعوة، ص١١١.

(٣)- الغضبان: فقه السيرة النبوية، ص٩٩.

المشركين بعدم مواجهتهم بالمثل؛ حرصا على حياة جيل النبوة، فهم مادة الإسلام الناشـئة، وحمـاة الدعوة في عاجلها وآجلها، عملا بالتوجيهات الإلهية[1]، كماجاءت في قوله تعالى: [قُل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ليجزي قَوما بِما كَانوا يكْسِبونَ] الجاثية/١٤، وفي قوله: [فَاصـفَح عنهم وقُلْ سلَام فَسوف يعلَمونَ] الزخرف/٨٩، وفي قوله: [ولَمن صبر وغَفَر إن ذَلك لَمن عـزمِ الْأُمورِ] الشورى/٤٣، وفي قوله: [أَلم تر إِلَى الذين قيلَ لَهم كُفواْ أَيديكُم وأَقيمواْ الصـلاَةَ وآتـواْ الزكَاةَ] النساء/٧٧.

ثالثا: مرحلة الدفاع والمقاومة.

وبدأت هذه المرحلة من أول يوم من الهجرة إلى المدينة، وامتدت إلى صلح الحديبية، وقـد نجـح الرسول ε في تأسيس دولة الإسلام بالمدينة، كهدف استراتيجي كان يسعى لتحقيقه لحماية دعوتـه، والمحافظة على مكاسبها بإيجاد موطن آمن لها، وجاء هذا النجاح تتويجا جهودات الحركة النبويـة في مكة، تربية وإعدادا وتخطيطا، تماشيا مع السنن الجارية، وبالعناية الإلهية التي كانت ترعاها، وبالوحي الذي كان يوجهها.

ولما قدم الرسول ε المدينة، لم يحارب أحدا من أهلها؛ بل وادعهم بما في ذلك اليهـود، فكـان يسالمهم ويتألفهم بكل وجه، وكان هدف الجهاد في هذه المرحلة، الدفاع عن العقيدة وعن الـنفس، ومقاومة المعتدين، لقوله تعالى: [وقَاتلُواْ في سبِيلِ اللّه الذين يقَاتلُونكُم ولاَ تعتدواْ إِن اللّه لاَ يحـب الْمعتدين] البقرة/١٩٠. ولقوله: [وقَاتلُوهم حتى لاَ تكُونَ فتنةٌ ويكُونَ الدين كُله للّه فَإِن انتهواْ فَإِن اللّه بِما يعملُونَ بصير] الأنفال/٣٩.

وهكذا كان الأمر بقتال المشركين؛ لصد عدوا م، وإزالة الفتنة عن الناس؛ ليتعرفوا عن الـدعوة، وما فيها من قيم العدل، والصلاح والإصلاح[2].

رابعا: مرحلة النصر والتمكين.

وتميزت هذه المرحلة، بنشر الإسلام في ربوع الجزيرة وخارجها، بعد انتصار الدعوة عسكريا زيمة الأحزاب، وسياسيا بمعاهدة صلح الحديبية، فتعاظمت قو ا وصارت شوكة مرهوبة الجانب، مما ولد يأسا قاتلا في نفوس المشركين، من استحالة محاربتها[3].

---

(١)- أمحزون: منهج النبي ε في الدعوة، ص (١١٥ ، ١١٦).

(٢)- المصدر نفسه، ص (٢٤٧ ، ٢٤٨).

(٣)- الغضبان: المنهج الحركي للسيرة النبوية، ص٣٣١.

وتعزز هذا النصر بسقوط آخر معاقل الوثنية في حنين، فكان على القبائل أن أرسلت وفودها؛ استسلاما لمنطق المتغيرات، وإذعانا لحقائق الواقع الجديد، وتم هذا في العام التاسع الهجري، والذي سمي بعام الوفود[1].

وجاء في هذه المرحلة، الإذن بقتال كل من يقف في طريق الدعوة، أو يمتنع عن الدخول في الإسلام من المشركين أو الملاحدة أو الوثنيين أو من أهل الكتاب، حتى يسلموا أو يدفعوا الجزية عن يد وهم صاغرون، وقد توفي الرسول ε وعلى هذا الأمر استقر حكم الجهاد في الإسلام، وصار عليه الخلفاء الراشدون ضد فارس والروم[2]. بدليل قوله تعالى: [فَإِذَا انسلَخ الأَشْهر الْحرم فَاقْتلُواْ الْمشرِكين حيثُ وجدتموهم وخذُوهم واحصروهم واقْعدواْ لَهم كُلَ مرصد فَإِن تابواْ وأَقَاموا الصلاَةَ وآتواْ الزكَاةَ فَخلواْ سبِيلَهم إِن اللّه غَفُور رحيم] التوبة/٥، وقوله: [قَاتلُواْ الذين لاَ يؤمنونَ بِاللّه ولاَ بِالْيومِ الآخرِ ولاَ يحرمونَ ما حرم اللّه ورسولُه ولاَ يدينونَ دين الْحق من الذين أُوتواْ الْكتاب حتى يعطُواْ الْجِزيةَ عن يد وهم صاغرونَ] التوبة/٢٩.

وإذا كانت سنة التدرج جارية في خلقه وكونه، فالأحرى بالدعوة أن تساير هذه السنن، وتستفيد من هذه النواميس، لا سيما في عصرنا الذي تعهدت فيه الجاهلية بتدمير البلاد وإهلاك العباد، وعزمت فيه على نشر الشر والفساد، بوسائل حديثة وإمكانيات عجيبة، ومواجهة هذا الحجم من التحديات لحماية مجتمعاتنا، ومحاربة الشر والانحراف الذي تجذر في شعوبنا، يحتاج منا إلى تدرج، لا يعلم نتائجه إلا الله[3].

وقد أيد الأستاذ البنا- رحمه الله- التعامل بهذا المنهج، قائلا: ".. لا تصادموا نواميس الكون فإنها غلابة، ولكن غالبوها واستخدموها وحولوا تيارها، واستعينوا ببعضها على البعض، وترقبوا ساعة النصر وما منكم ببعيد "[4].

المطلب الثاني: التدرج في التشريع الإسلامي.

وكما شهد الواقع الجاهلي انحرافا في العقيدة، فقد شهد انحرافا في السلوك والأخلاق، فكان من سمات التربية القرآنية في مكة، هو بناء العقيدة وترسيخ الإيمان في النفوس؛ لتكون التشريعات في المدينة مبنية على قاعدة عقائدية صلبة؛ مراعاة لمبدأ التدرج العقلي والنفسي، وتماشيا مع طبيعة النفس

---

(1)- نوري: فقه السيرة النبوية، ص٤١٢.

(2)- أمحزون: منهج النبي ε في الدعوة، ص (٢٤٨ ، ٢٤٩).

(3)- الصلابي: السيرة النبوية، ج١، ص١٤٠.

(4)- حسن البنا: مجموعة رسائل، شركة الشهاب للنشر والتوزيع، ط٢، بدون تاريخ، من رسالة المؤتمر الخامس، ص١٢٧.

البشرية، التي لا تقبل التغيير الحاد؛ بل تتجاوب مع التغيير التدريجي[1]، وفي هذا المعنى تقول السـيدة عائشة -رضي الله عنها-، واصفة تدرج التشريع ونزول القرآن: (.. إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل، فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندع الخمر أبدا، ولو نزل: لا تزنوا، لقالوا: لا ندع الزنا أبدا..)[2]. وانطـلاقا من هذا المعـنى، جاءت التشريعات شيئا فشيئا، ففرضت الفرائض وحرمـت المحرمـات بالتدريج[3].

أولا: التدرج في **الفرائض.** وقد شمل عدة فرائض، منها:

١- **التدرج** في **تشريع الجهاد**، ويدل تتابع مراحله المتعددة وتدرجها، أن الإسلام لا يبادر بالحرب، ولا يقرها اعتداء، وهذه المراحل هي:

أ- الكف عن القتال في مكة، وفي أول العهد بالهجرة إلى المدينة، لقوله تعالى: [ألَم تر إلى الَّـذين قيلَ لَهم كُفوا أيديكُم وأقيموا الصلاةَ وآتوا الزكَاةَ] النساء/٧٧.

ب- الإذن بالقتال من غير إيجاب، لقوله تعالى: [أُذنَ للذين يقَاتلُونَ بِأنهم ظُلموا وإن اللـه علَـى نصرهم لَقَدير] الحج/٣٩.

ج- وجوب قتال من قاتل المسلمين، لقوله تعالى: [وقَاتلُوا في سبِيلِ الله الَّـذين يقَـاتلُونكُم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المُعتدين] البقرة/ ١٩٠.

د- الأمر بقتال المشركين جميعا، كما يقاتلون المسلمين جميعا، لقوله تعالى: [وقَـاتلُوا المُشـرِكين كَافةً كَما يقَاتلُونكُم كَافةً واعلَموا أن الله مع المُتقين] التوبة/٣٦[4].

٢- **التدرج** في **فريضة الصيام**، وجاء التدرج في هذه الفريضة، كما يلي:

أ- لما قدم الرسول ε إلى المدينة، كان يصوم عاشوراء وثلاثة أيام من كل شهر.

ب- فرض الصيام، في قوله تعالى: [يا أيها الذين آمنواْ كُتب علَيكُم الصيام كَما كُتب علَى الذين من قَبلكُم لَعلَّكُم تتقُونَ، أياما معدودات فَمن كَانَ منكُم مرِيضا أَو علَى سفَرٍ فَعدةٌ من أَيـامٍ أُخـر

---

(1)- عبد الحليم الكناني: الدعوة الفردية- قواعد وأصول-، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة- مصر، ط١، (١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م)، ص (٥١ ، ٥٥).

(2)- البخاري: ك. فضائل القرآن، باب: تأليف القرآن، رقم: ٤٩٩٣، ص (٩٩٣ ، ٩٩٤).

(3)- القرضاوي: الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف، ص١٠٥.

(4)- الصلابي: السيرة النبوية، ج١، ص٥٨٤. محمد جمال: مفتريات على الإسلام، ص (٥١ ، ٥٢).

وعلى الذين يطيقُونه فديةٌ طَعام مسكينٍ فَمن تطَوع خيرا فَهو خير له وأَن تصوموا خير لكُم إن كُنتم تعلَمونَ] البقرة (١٨٣ ، ١٨٤). فكان من شاء صام، ومن شاء أطعم مسكينا فأجزأه ذلك.

ج- فرض صيام شهر رمضان، في قوله تعالى: [شهر رمضانَ الذي أُنزِلَ فيه الْقُرآنُ هدى للنـاسِ وبينات من الْهدى والْفُرقَان فَمن شهد منكُم الشهر فَلْيصمه] البقرة/١٨٥.

د- وكانوا يأكلون ويشربون، ويأتون النساء ما لم يناموا، فإن ناموا امتنعوا. وكـان عمـر بـن الخطاب τ قد أصاب من النساء بعدما نام، فأتى النبي ε فذكر له ذلك[1]، فأنزل الله عز وجـل: [أُحل لَكُم لَيلَةَ الصيامِ الرفَثُ إِلَى نِسآئكُم هن لباس لكُم وأَنتم لباس لهن علم اللّه أَنكُم كُنتم تختانونَ أَنفُسكُم فَتاب علَيكُم وعفَا عنكُم فَالآنَ باشروهن وابتغوا ما كَتب اللّه لَكُم وكُلُوا واشـربوا حتـى يتبين لَكُم الْخيطُ الأَبيض من الْخيط الأَسود من الْفَجرِ ثُم أَتموا الصيام إِلَى الليلِ] البقرة/١٨٧.

ثانيا: التدرج في المحرمات. ويعد هذا التدرج، من أعظم الحكم التي سلكها الإسـلام في معالجـة الأمراض الاجتماعية؛ كالتدرج في تحريم الخمر، وفي تحريم الربا.

١- التدرج في تحريم الخمر. فقد نجح القرآن بهذه السياسة، في اقتلاع هذا الداء المستشري لـدى العرب، فلم يحرمه دفعة واحدة، وإنما حرمه بالتدرج على أربع مراحل:

أ- التنفير منه بطريق غير مباشر، في قوله تعالى: [ومن ثَمرات النخيلِ والأَعنابِ تتخـذُونَ منـه سكَرا ورِزقًا حسنا إِن في ذَلك لآيةً لقَومٍ يعقلُونَ] النحل/٦٧. فأخبر عن الأول بأنه سكر أي يذهب العقل، ووصف الثاني بأنه رزق حسن؛ ليوضح الفرق بينهما.

ب- التنفير المباشر بالمقارنة بين شيئين: شيء فيه نفع مادي ضئيل، وشيء فيه ضرر صحي وعقلي جسيم، وإثم كبير، في قوله تعالى: [يسأَلُونك عنِ الْخمرِ والْميسِرِ قُلْ فيهما إِثْم كَبِير ومنافع للنـاسِ وإِثْمهما أَكْبر من نفْعهما] البقرة/٢١٩.

ج- التحريم الجزئي في أوقات الصلاة، في قوله تعالى: [يا أَيها الذين آمنوا لاَ تقْربوا الصلاَةَ وأَنـتم سكَارى حتى تعلَموا ما تقُولُونَ] النساء/٤٣.

د- التحريم الكلي في جميع الأوقات[2]، في قوله تعالى: [يا أَيها الذين آمنوا إِنما الْخمر والْميسِـر والأَنصاب والأَزلاَم رِجس من عملِ الشيطَان فَاجتنِبوه لَعلكُم تفْلحونَ، إِنما يرِيد الشيطَانُ أَن يوقـع

(١)- عمر سليمان الأشقر: تاريخ الفقه الإسلامي، قصر الكتاب البليدة – الجزائر، بدون طبعة وبدون تاريخ، ص (٤٤ ، ٤٥).
(٢)- الصابوني: التبيان في علوم القرآن، ص (٣٥ ، ٣٨).

بينكُم الْعداوةَ والْبغضاء في الْخمرِ والْميسِرِ ويصدكُم عن ذكْرِ اللّه وعنِ الصلاَة فَهلْ أَنتم منتهونَ] المائدة (٩٠ ، ٩١).

٢- **التدرج في تحريم الربا**. وقد نجح التشريع الإسلامي في تحريم الربا، باعتماده علـى سياسـة التدرج في علاج المجتمع من هذا المرض، فكان التحريم على أربع مراحل:

أ- الإشارة إلى بغض الربا، في قوله تعالى: [وما آتيتم من ربا ليربو في أموالِ الناسِ فَلَا يربو عند الله وما آتيتم من زكَاة تريدونَ وجه الله فَأُولَئك هم الْمضعفُونَ] الروم/٣٩.

ب- التحريم بالتلويح لا بالتصريح، وجاء حكاية عن جرائم اليهود، وليس فيها ما يـدل علـى التحريم القاطع للربا، كما جاء في قوله تعالى: [فَبِظُلْمٍ من الذين هادواْ حرمنا علَيهم طَيبات أُحلـت لَهم وبِصدهم عن سبِيلِ اللّه كَثيرا، وأَخذهم الربا وقَد نهواْ عنه وأَكْلهم أَموالَ الناسِ بِالْباطلِ وأَعتدنا للْكَافرِين منهم عذَابا أَليما] النساء (١٦٠ ، ١٦١).

ج- التحريم الصريح للربا، لكنه تحريم جزئي لا كلي، ويتعلق بالربا الفاحش، حيث بلغ في الشناعة والقبح، أن صار أضـعافا مضاعفة، كما جاء في قوله تعالى: [يا أَيها الذين آمنواْ لاَ تـأْكُلُواْ الربـا أَضعافًا مضاعفَةً واتقُواْ اللّه لَعلكُم تفْلحونَ] آل عمران/١٣٠.

د- التحريم الكلي القاطع[1]، كما جاء في قوله تعالى: [يا أَيها الذين آمنواْ اتقُواْ اللّه وذَرواْ ما بقي من الربا إِن كُنتم مؤمنِين، فَإِن لم تفْعلُواْ فَأْذَنواْ بِحربٍ من اللّه ورسـوله وإِن تبـتم فَلَكُـم رؤوس أَموالكُم لاَ تظْلمونَ ولاَ تظْلَمونَ] البقرة (٢٧٨ ، ٢٧٩).

وبهذه المعالجة المتدرجة، يتضح لنا سر التشريع الإسلامي، في معالجته للواقع الاجتماعي الجـاهلي المريض، وقد برهن الإسلام باعتماده سياسة التدرج في تحريم المحرمات المتأصلة فيهم، مراعيا الجانـب العقلي والنفسي لديهم، بأنه " أبعد نظرا، وأهدى سبيلا، وأنجح تشريعا، وأنجع سياسة [2] "، مـن الأمم المتحضـرة التي أفلست، وفشلت في إبعـاد شعـوبها عن أمهات الخبائث، مما يدل هذا على إعجاز الإسلام، وصلاح شريعته في سياسة الشعوب، وتهذيبها أخلاقا وسلوكا.

المطلب الثالث: مراعاة سلم الأولويات.

إن غياب فقه الأولويات في أبجديات العمل الإسلامي، يعد من المعوقات الرئيسية للدعوة، وأحـد التحديات التي تواجه مسيرتها، وتعرقل تقدمها نحو تحقيق أهدافها. ويرجع غياب هـذا الأمـر، إلى ضعف البصيرة بالدين وبالواقع وبالحياة، فربما تجد من الدعاة من يندفع فيخبط خبط عشواء؛ فيقدم ما

---

(١)- الصابوني: روائع البيان في تفسير آيات الأحكام، ج١، ص (٣٨٩ ، ٣٩١).

(٢)- الصابوني: مصدر سابق، ص٣٨.

حقه التأخير، ويؤخر ما حقه التقديم، ويهتم بالفروع ويهمل الأصول، ويكبر الأمر الصغير، ويهـون من الأمر الكبير[1]، ويتشدد في موضع التسامح واللين، ويتسامح في موضع التشدد، ويفهم الوقـائع على غير حقيقتها، ويفسرها وفقا لأوهام لا أساس لها من سنن الله في خلقـه، ولا من أحكامـه في شرعه، وقد يندفع إلى تغيير واقع ا تمع بارتجالية، دون مراعاة لأفكاره وتقاليده، وأخلاقه ومشاعره، وربما أقدم بجرأة وفدائية، لا تعبأ بالموت ولا تم بالنتائج[2].

والمتأمل بالنظر الثاقب في هذه التصرفات والسلوكيات، يرى شذوذا واضحا عن منهج النبـوة في مراعاة سلم الأولويات، والتدرج في المعامـلات. ورغم معرفة الدعـاة بأهمية هذا الأمر، والإقـرار بضرورته والتأكيد عليه، يبقى تجسيده في الواقع العملي يشوبه القصور والخلل؛ بسبب البعـد عـن إدراك الواقع الفكري والاجتماعي للناس، والفهم الجزئي أو الحرفي لنصوص الشريعة وأحكامها، دون إدراك لروحها ومقاصدها، فيكون الفشل في نقل الناس إلى الإسلام نتيجة حتمية[3].

والمتأمل في السيرة النبوية والمتمعن في أحداثها، يجد فيها من النماذج ما يدل على أهمية وضـرورة احترام سلم الأولويات سواء في مواجهة التحديات التي تعترض مسيرة الدعوة، أو في ما يتعلق بحيـاة المسلمين أنفسهم:

فكانت أولوية الدعوة في مكة، تم ببناء الإنسان عقائديا، وتربية الجيل المـؤمن علـى مكـارم الأخلاق، وإعداده لحمل أعباء الدعوة في المستقبل، ولم يشرع للمسلمين في هذا العهد، أن يحملـوا فؤوسهم ويحطموا الأصنام التي كانت تحيط بالكعبة وقد بلغت ٣٦٠ صنما؛ فالحكمة تقتضي إزالـة الأوثان من العقول قبل إزالتها من أرض الواقع[4].

وتعلمنا وقائع صلح الحديبية، ما يمتاز به الرسول ε من مرونة عالية، بما لا يخل ولا يتعارض مـع الشرع، وأن التشدد إذا كان في غير محله، فإنه يتسبب في ضياع مكاسب هامة، خاصة إذا كانـت هذه المكاسب متعلقة بالإسلام والمسلمين[5]؛ ومراعاة لهذا البعد فإن الرسول ε أعطـى الأولويـة في صلح الحديبية إلى إتمام الاتفاق، بدل التمسك بالصيغة الشكلية للوثيقة؛ لما رأى في ذلك من مصلحة أكيدة للدعوة، أبقت نتائجها الباهرة عمر بن الخطاب τ نادما على معارضته للصلح، ومتخوفا من أن

---

(١)- القرضاوي: أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة، ص٣٤.

(٢)- القرضاوي: الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف، ص٩٨.

(٣)- برغوث: معالم هادية على طريق الدعوة إلى الإسلام، ص (٣٩ ، ٤٠).

(٤)- القرضاوي: أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة، ص (٣٤ ، ٣٥).

(٥)- سالم نوري: فقه السيرة النبوية، ص٣٢٧.

ي ل الله به عقابا للذي صنع يوم الحديبية، فكان يقول: (فما زلت أصوم وأتصدق وأعتق من الذي صنعت مخافة كلامي الذي تكلمت به يومئذ حتى رجوت أن يكون خيرا)[1].

وفي غزوة حنين، خص النبي ε المؤلفة قلو م من أهل مكة، بمزيد من الغنائم؛ لقـرب عهـدهم بالإسلام، ووكل أهل الإيمان إلى ما في قلو م من الغنى والخير، وفي هذا مراعاة للأولويـات بتقـديم الأمر الأهم على المهم[2].

وقد قيل لعمر بن عبد العزيز- رحمه الله- يوما: أخر عمل هذا اليوم وقم به غدا، فقال: لقد أعياني عمل يوم واحد، فكيف إذا اجتمع علي عمل يومين ؟!

ومن حكم ابن عطاء: حقوق في الأوقات يمكن قضاؤها، وحقوق الأوقات لا يمكن قضاؤها، إذ ما من وقت يرد؛ إلا ولله فيه حق جديد، وعمل أكيد !

ونتعلم من هـذه الحكم فقه الأوليات، فيجب أن نعرف قيمة الأوقات، فنعطيها حقهـا في أداء الواجبات فيها، فضياعها في وقتها يفوت فرصا، قد لا تعوض يوما أبدا[3].

و تبقى هذه النماذج وغيرها، شاهدة على أهميـة مبدأ التدرج، باعتباره أحد المعالم البارزة الـتي ميزت منهجه ε في الدعوة إلى الله، والمنهج الأسلم في مواجهة التحديات، وعلاج المشكلات بما يحقق المكاسب العظيمة للدعوة، وعلى الدعاة الذين " يسعون إلى استئناف الحياة الإسلامية، وإقامتـها في الأرض، أن يراعوا سنة التـدرج في تحقيق أهدافهم، آخذين في الاعتبار سمو الهـدف، وحجـم الإمكانيات، وكثرة المعوقات" [4]؛ لتكون تصرفا م خاضعة لسلم الأولويات؛ تحقيقا لمصلحة الدعوة المنضبطة بالشرع.

---

(1)- الصلابي: السيرة النبوية، ج٢، ص٤٣٢.

(2)- أمحزون: منهج النبي ε في الدعوة، ص (٢١٨ ، ٢١٩).

(3)- القرضاوي: أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة، ص٣٨.

(4)- القرضاوي: الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف، ص١٠٥.

المبحث الثالث

الصـــــــــــبر

المطلب الأول: الصـبر على الطـاعة والعبـادة.

المطلب الثاني: الصبر في وجه التهديدات وأمام الإغراءات.

المطلب الثالث: الصـبر عـلى الابتـلاء.

المبحث الثالث

الصـــــــبر

تمهيـد.

ولما كان تغيير الواقع الجاهلي إلى الواقع الإسلامي ليس بالأمر الهين، فإن من يقومون بهذه المهمـة يحتاجون إلى إرادة صلبة، وعزيمة قوية[1]، ومرونة عالية، وحكمة بالغة، ونفس طويل؛ لضبط النفس،

---

(1)- أمحزون: منهج النبي ε في الدعوة، ص77.

وترويضها على ما لم تتعود عليه، وما لم تألفه في سابق عهدها؛ تحقيقا للنصر والتمكين. ووصولا لهذه الغاية الكبرى، كانت استراتيجية الدعوة في العهد المكي، توصي بالصبر بدل الصدام المسلح مع الشرك، خدمة لمصلحة الدعوة، ومراعاة لظروف المرحلة، فالأولوية تقتضي فسح المجال للدعوة، لتبرز حقيقة الإسلام؛ بأنه دعوة خير للإنسانية جمعاء، فلو أذن بالقتال لما أمكن تعريف الناس بحقيقة الإسلام، وبأبعاده النبيلة مدى الحياة، ولحدث قتال في محيط الأسرة الواحدة، ولاتهم الإسلام بأنه دين يفرق بين الولد وأبيه، وبين العبد وسيده، وبين المرأة وزوجها، ولقد قيلت مع الأمر بالكف عن القتال، فماذا يقال يا ترى لو أن القرآن أذن بالقتال في هذا العهد؟![1]، ثم إن قريشا ذات عنجهية وثارات، فقد يدفعها قتالها إلى الزيادة في العناد، مما يولد ثارات وضغائن مرتبطة بدعوة الإسلام، فتتحول فكرة الإسلام من دعوة إلى ثارات، تنسي معها فكرته الرئيسية، ولوقع قتال في كل بيت فيه مؤمن، واستعمل هذا سلاحا ضد الإسلام، بأنه دين يأمر بقتل الأهل والأقارب، مما يكون ذريعة لإفناء المسلمين مع قلتهم، ومن يدري لعل من بين المعاندين المشركين سيتحولون يوما، من محاربين للإسلام إلى معتنقين له ومدافعين عنه، فالحكمة تقتضي أن يصبر المسلمون على مواجهة الباطل؛ لتكوين القاعدة الصلبة والعريضة، المستعصية على الإفناء والإبادة، وربما الاستفادة من النخوة العربية التي تنتصر في العادة للمظلوم الذي يحتمل الأذى، خاصة إذا كان الأذى واقعا على الكرام من الناس، وإعلان الجوار لأبي بكر وحمايته، وخبر نقض الصحيفة الظالمة خير شاهد، كما يكسب الصبر الدعوة والدعاة تعاطفا شعبيا، مما يلفت انتباه الجماهير بتساؤلهم عن السر من وراء صمود المسلمين وصبرهم في وجه المحن والشدائد، مما يكون سببا في إيمانهم. فالرسول ε رغم تأييد الوحي له، فقد كان يتحرك في إطار سنن الله في خلقه كسائر البشر؛ ليقينه التام بأن أسلوب المواجهة المبكرة، في مقابل ضغوط الجاهلية وتحدياتها، في استدراج المسلمين إلى الصدام المسلح، معناه استئصال شأفة الحركة النبوية في مهدها، بحكم الاختلال الواضح في ميزان القوى بينهما[2]. ولأهمية التربية على الصبر، كوسيلة ناجعة في تجاوز الأزمات، وحسم المواجهة لصالح المسلمين، فقد حفلت آيات القرآن بذكره في تسعة وتسعين موضعا، فما هي مجالاته ؟ وكيف انعكس إيجابيا في تربية الصحابة وإعدادهم لمواجهة التحديات ؟

المطلب الأول: الصبر على الطاعة والعبادة.

---

(1)- شلبي: الدعوة الإسلامية في عهدها المكي، ص (٢٦٠ ، ٢٦١).

(2)- أمحزون: مصدر سابق، ص (١١٥ ، ١١٩).

وضمانا لاستمرارية الدعوة وحمايتها، وبناء القاعدة وإعدادها، ولمواجهة اعتـداءات المشـركين بالصبر وضبط النفس؛ أصبح من الضروري أن تتلقى هذه الفئة، القدر الكافي من التربيـة اللازمـة، بالتركيز على الطاعة والعبادة، تماشيا مع طبيعة المرحلة وآفاق الدعوة، امتثالا لأمر الله تعالى: [أَلَم تر إِلَى الذين قيلَ لَهم كُفواْ أَيديكُم وأَقيمواْ الصلاَةَ وآتواْ الزكَاةَ] النساء/٧٧، ورغم أن الآية مدنيـة، فإنها تشير إلى ما يحدث بمكة، ووجوب الكف عن قتال المشركين، سواء بمبادأتهم، أو الـرد علـى اعتداءاتهم[1]. وكانت هذه التربية تهدف إلى إبراز جانبين هامين هما:

أ- توثيق الصلة بالله Ψ.

فالتركيز على العبادة والطاعة في مرحلة البناء، يترك أثرا عميقا في النفس، فيصير القلب موصـولا بخالقه، مما يجعل المسلم أكبر من المحنة التي تصيبه، وأقوى على الفتنة التي تمتحنه؛ وأثبت علـى الحـق الذي يتبعه[2].

ولأهمية هذا الجانب في ضبط النفس، والتحلي بالصبر، كان الرسول ε يأمر أصحابه ويـوجههم، نحو توثيق صلتهم بالله، تماشيا مع التوجيهات الربانية التي ترشدهم، بأن يخصصوا شطرا مـن الليـل للصلاة، وترتيل القرآن، في قوله تعالى: [يا أَيها الْمزملُ، قُمِ الليلَ إِلا قَليلًا، نِصفَه أَوِ انقُص منه قَليلًا، أَو زِد علَيه ورتلِ الْقُرآنَ ترتيلًا، إِنا سنلْقي علَيك قَولًا ثَقيلًا، إِن ناشئَةَ الليلِ هي أَشد وطئًا وأَقْوم قيلًا] المزمل (٠١ ، ٠٦). فالتزم النبي ε وأصحابه بالتهجد وتلاوة القرآن بهمة عاليـة، في دورة تدريبيـة مغلقة، قرابة سنة كاملة وبإرادة قوية، حتى ورمت أقدامهم فجاءهم التخفيـف، بعـد أن علـم الله اجتهادهم في طلب رضاه، وتبين استعدادهم بامتثال أوامره، فصار قيام الليل نافلـة بعـد أن كـان فريضة[3]، لقوله تعالى: [إِن ربك يعلَم أَنك تقُوم أَدنى من ثُلُثَيِ الليلِ ونِصفَه وثُلُثَه وطَائفَةٌ من الذين معك والله يقَدر الليلَ والنهار علم أَن لن تحصوه فَتاب علَيكُم فَاقْرؤوا ما تيسـر مـن الْقُـرآن] المزمل/٢٠.

وهذا الاختبار في هجر الفراش، ومقاومة النوم، ومألوفات النفس من الدعة والراحة والكسل، هو تربية على المجاهدة، وتدريب للتغلب على حظوظ النفس وشهواتها، وزاد لمن يريد حمـل الـدعوة، ويقوم بأعبائها وتكاليفها الشاقة، كما أن التربية الروحية، وتوثيق الصلة بالله، بالتقرب إليه ومناجاته في جوف الليل، زاد ضروري لمن يضطلع بمهمة تقويم مسار البشرية، ويوجههـا نحـو توحيـد الله

---

(١)- المصدر نفسه، ص١١٦.

(٢)- الغضبان: المنهج الحركي للسيرة النبوية، ص٤١.

(٣)- الصلابي: السيرة النبوية، ج١، ص٢٧٩.

وطاعته[1]، وجاء وصف القرآن لهؤلاء، بأ م: [كَانوا قَلِيلًا من الليلِ ما يهجعونَ، وبِالْأَسحارِ هــم يستغفرونَ] الذاريات (١٧ ، ١٨).

ولم يكن القصد من هذا الاختبار إتعاب النفس وتعذيبها، بقدر ما يعد تربية إيمانية لها، دف إلى توثيق الصلة بالله، بالذكر والتلاوة، وبالتبتل والعبادة، وحسن التوكل، لقوله تعالى: [واذْكُرِ اســم ربك وتبتلْ إِلَيه تبتِيلًا، رب الْمشرِقِ والْمغرِبِ لَا إِلَه إِلا هو فَاتخذْه وكِيلًــا] المزمــل (٨ ،٩)، ولم يقتصر دور هذه الأشياء في تقوية الإرادة، بالصبر على البلاء، وتحمل الأذى، ومواجهة الإهانة؛ بــل صارت السلاح الوحيد للمؤمنين، في هذه المرحلة التي لم يسمح فيها بالمواجهة المباشرة، لقوله تعالى: [واصبِر علَى ما يقُولُونَ واهجرهم هجرا جمِيلًا، وذَرنِي والْمكَذِّبِين أُولِي النعمة ومهلْهــم قَلِيلًــا] المزمل (١٠ ، ١١). وأبناء الحركة الإسلامية، في أمس الحاجة إلى هذا المنهج في التربية الروحية، وما لم يتدرب جنودها على قيام الليل، ويتلقون دورات متكررة في الإحياء وا اهدة؛ فســيكون مــآلهم السقوط والا يار أمام الشدائد والمحن، وإذا تلقى الجنود ما يكفي من التربية الروحية، فــإن حــرارة العبادة وحرارة الثقة بالنصر، تكون أقدر على مواجهة حرارة الأعداء[2].

ب- إظهار صفة العبودية لله Ψ.

ولئن كانت ظروف المرحلة المكية، تستدعي الامتثال الكامل للتوجيهات القرآنية، الداعية إلى ضبط النفس وكف الأيدي في مواجهة المشركين، أو رد اعتداءا م، والمواظبة على الطاعة والعبادة، والذكر والتلاوة؛ تزكية للنفس وتربيتها، في مواجهة الشدائد والمحن؛ فإن هذه المظاهر في حد ذا ا، تمثل صفة العبودية لله، والتي دل عليها قوله تعالى: [وما خلَقْت الْجِن والْإِنس إِلا لِيعبدون] الذاريات/٥٦.

وإن ما يلاقيه الدعاة من الأذى والفتنة، في سبيل إقامة ا تمع الإسلامي، سنة إلهيــة في الكــون، وسلوك في الطريق الطبيعي؛ للوصول إلى الغاية، وللتمييز بين الصادق والكاذب، لقوله تعالى: [ألم، أَحسِب الناس أَن يتركُوا أَن يقُولُوا آمنا وهم لَا يفْتنونَ، ولَقَد فَتنا الذين من قَبلهم فَلَيعلَمن الله الذين صدقُوا ولَيعلَمن الْكَاذبِين] العنكبوت (٠١ ، ٠٣). وما دام هذا التكليف فيه من الكلفة والمشــقة، فهو في حقيقته مظهر آخر للعبودية الحقة[3].

المطلب الثاني: الصبر في وجه التهديدات وأمام الإغراءات.

---

(١)- أمحزون: منهج النبي ε في الدعوة، ص (٦١ ، ٦٢).

(٢)- الغضبان: المنهج الحركي للسيرة النبوية، ص (٤٢ ، ٤٣).

(٣)- البوطي: فقه السيرة، ص (١٠٦ ، ١٠٨).

لما كان ا ال الذي تشتغل فيه الدعوة، مجالا دقيقا وحساسا، يمس التقاليد والعادات والمصالح[1]، فإن مساومة المشركين للرسول ε في دعوته، اتخذت صورا شتى؛ وأبرزها المساومة بالتهديد والترغيب، ورغم المواقف الصعبة المصاحبة للدعوة في مكة، وتحديات الحصار والإيذاء، فإن الرسول ε بقي صامدا في وجه التهديدات، صابرا أمام الإغراءات؛ ولم ينثن ويتراجع[2].

أ- الصبر في وجه التهديدات.

وجاءت التهديدات في صورة حرب نفسية، للنيل من عزيمة الرسول ε في تبليغ دعوته، والتأثير على نفسه، ودفعه للاستسلام والتراجع؛ بفتنته في دينه. فهذا أبو جهل نراه يهدده، بأن ينهاه عن صلاته، ويتوعد بوطء عنقه إذا سجد؛ إلا أن الله أخزاه بما هدد، فقال: (إن بيني وبينه لخندقا من نار، وهولا وأجنحة)، فقال رسول الله ε: { لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضوا عضوا }[3].

كما نال الصحابة ψ حضهم من ديدات أبي جهل الفاسق، فكان يقول للشريف إذا أسلم: لنسفهن حلمك، ولنفيلن رأيك، ولنضعن شرفك. ويقول للتاجر: لنكسدن تجارتك، ولنهلكن مالك؛ وإن كان ضعيفا ضربه وأغرى به[4].

وتماشيا مع سنة التدافع والصراع بين الحق والباطل، أصبح أبناء الإسلام عرضة للتهديد بالعذاب وبالسجن، إذا ما سلكوا مسلك الدعاة، في إعلان كلمة الحق، أو الاقتداء م في عباد م ولباسهم، أو في عفتهم، و ذا العمل يصيرون محل مة وموضع شبهة، ولا نجاة لهم من التهديد؛ إلا بالتبرؤ من هؤلاء الدعاة، ومخالفتهم في عقيد م وسلوكهم. والداعية الحق والمؤمن الصادق، لا يرهبه التهديد ولا يثنيه الوعيد، عن التمسك بدينه، أو تبليغ دعوته، منطلقا من قوله تعالى: [وإن يمسسك اللّه بِضر فَلاَ كَاشف لَه إلا هو وإن يمسسك بِخيرٍ فَهو علَى كُل شيءٍ قَدير] الأنعام/١٧. وقد يكون التهديد بقطع الرزق، والإخراج من الوظيفة، والنيل من الجاه وتحطيم السمعة، وبالترويع والقتل، وهذه التهديدات لن تثني المسلم؛ لأنه يعلم من بيده الرزق، لقوله تعالى: [وما من دآبة في الأَرضِ إلا علَى اللّه رِزقُها ويعلَم مستقَرها ومستودعها كُل في كتابٍ مبِينٍ] هود/٠٦، ويعلم من بيده الموت والحياة، وأن الأجل إذا حان، فإنه لا يتقدم لحظة أو يتأخر[5]، لقوله تعالى: [ولكُل أُمة أَجلٌ فَإِذَا جاء أَجلُهم لاَ يستأْخرونَ ساعةً ولاَ يستقْدمونَ] الأعراف/٣٤.

---

(١)- شلبي: الدعوة الإسلامية في عهدها المكي، ص٣٥٨.

(٢)- أمحزون: منهج النبي ε في الدعوة، ص١٠٠.

(٣)- مسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب:" كلا إن الإنسان ليطغى"، رقم: ٢٧٩٧، ص١٠٥٠.

(٤)- ابن هشام: السيرة النبوية، ج١، ص٢٢٥.

(٥)- الغضبان: فقه السيرة النبوية، ص (١٠٥ ، ١٠٧).

ب- الصبر أمام الإغراءات.

وعندما رأت قريش تعاظم قوة المسلمين، فصاروا يدعون لله جهارا، ويمارسون عباد م علانيـة، والمد الإسلامي يتقدم ويتعزز، بإسلام حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب- رضي الله عنـهما-، وهما شخصيتان عظيمتان لهما مكانتهما، والرسول ε في منعة بعمه وعشيرته؛ وجدت أن لا منـاص لها، من أن تجرب أسلوب العروض والمغريات، فعرضت على الرسول ε أن يصبح أكثـرهم مـالا، وجاها وملكا، مقابل التخلي عن دعوته.

إن الأعداء لا يعبأون بالدعاة، عندما يكونون في الأحوال العادية، وربما يستهزؤون م، ويسخرون منهم، وحتى يلحقون م الأذى؛ لكن عندما تشتد عليهم الضغوط، وتسد أمامهم المنافذ، وتصـبح مصالحهم في الخطر، نراهم يلجأون إلى المساومة بالإغراءات مع دعاة الحق. وبقدر ما تكشف هـذه المغريات القيم الحقيقية للجاهلية، فإ ا تشكل ابتلاء حقيقيا للدعاة، أمام غريزة حب المال، [وتحبونَ الْمالَ حبا جما] الفجر/٢٠، وغريزة حب الشهوات، [زين للناسِ حب الشهوات من النساء والْبنِين والْقَناطيرِ الْمقَنطَرة من الذهبِ والْفضة والْخيلِ الْمسومة والأنعامِ والْحرث ذَلك متاع الْحياة الـدنيا واللّه عنده حسن الْمآبِ] آل عمران/١٤؛ لتمحص إيما م، وتكشف عن مدى صبرهم، ومدى ثبا م وصدقهم؛ وإخلاصهم تجاه دعو م. وفي المقابل يتبين لنا، بأن المبادئ والشعارات التي ترفعها الجاهلية في كل عصر، تبقى ستارا يخفي وراءه، العبادة الحقيقية للدرهم والدينار، ورعاية المصـالح وإشـباع الغرائز[1].

ويبقى جواب الرسول ε الأنموذج الأمثل للدعاة، والمنهج الأسلم في الصبر أمـام المغريـات، وفي الثبات والإخلاص، فكان جوابه: { ما بي ما تقولون، ما جئتكم أطلب مالكم، ولا الشرف فـيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولا، وأنزل علي كتابا، وأمرني أن أكون لكـم بشـيرا ونذيرا، فبلغتكم رسالـة ربي ونصحت لكم، فإن تقبلـوا مني ما جئتكم به، فهـو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوا علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيننا وبينكم }[2].

ولعل الإشكال الذي يطرح في هذا الموضوع، لماذا لم يقبل الرسول ε ما عرض عليه مـن المـال والجاه والسلطان ويسخره في خدمة الدعوة ؟

---

(١)- الغضبان: المنهج الحركي للسيرة النبوية، ص٧٧.

(٢)- ابن هشام: السيرة النبوية، ج١، ص٢٠٨.

والجواب المحتمل: أن النبي ε لم يرض سلوك هذه الوسيلة، لكونها تتنافى مع مبادئ الدعوة، فالمساومة كانت للعدول عن الدعوة، وفي الإسلام الغاية لا تبرر الوسيلة، وما دامت غاية الإسلام شرعية، فالوسائل الموصلة إليها لا بد أن تكون شرعية[1].

وبعد أن فشل المشركون في إغراء النبي ε حاولوا استدراجه إلى أنصاف الحلول؛ ليتنازل عن بعض دعوته، فطلبوا منه الإنظار لمدة سنة حتى يهدي لآلهتهم ثم يسلموا بعد ذلك، فهم أن يقاربهم ويدانيهم، لولا أن الله عصمه من كيدهم وثبته، ووقاه عاقبة الركون إليهم، لقوله تعالى: [وإِن كَادوا لَيفْتنونك عن الذي أَوحينا إِلَيك لتفْتري علَينا غَيره وإِذًا لاتخذُوك خليلاً، ولَولاَ أَن ثَبتناك لَقَد كدت تركَن إِلَيهم شيئًا قَليلاً، إِذاً لأَذَقْناك ضعف الْحياة وضعف الْممات ثُم لاَ تجِد لَك علَينا نصيرا] الإسراء (٧٣ ، ٧٥). ومن صور المساومة، أن المشركين قالوا: (.. يا محمد ! هلم فلنعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد، ونشركك في أمرنا كله..)، فأنزل الله: [قُلْ يا أَيها الْكَافرونَ..] الكافرون/٠١.

والمتأمل في النماذج الآنفة، من التهديد والإغراء، والمساومة والاستدراج، إلى التنازل إلى أنصاف الحلول، يلاحظ مدى خطورة التحديات التي كانت تهدد الدعوة، بالاستدراج نحو تنازلات قاتلة، والنبي ε كان معصوما؛ لكن الأحداث جاءت لتعلم الدعاة، بأن أحكام الشريعة لا تقبل الركون ولا المساومة.

فالمفاصلة ضرورية اليوم للدعاة، فليس هناك ترقيع مناهج، ولا أنصاف حلول، ولا التقاء في منتصف الطريق مع خصوم الدعوة، إنما هي الدعوة إلى الدين الخالص، إلى السعي للعمل على تطبيق الشريعة في كل مجالات الحياة، وإلا فهي البراءة الكاملة، والمفاصلة التامة؛ والحسم الصريح[2]، [لَكُم دينكُم ولي دينِ] الكافرون/٠٦.

المطلب الثالث: الصبر على الابتلاء.

اقتضت سنة الله في الدعوات والدعاة، أن يقع الابتلاء على المؤمنين، ويتم اختبارهم بالتعرض للأذى والمحن، لتكتشف صلابة دينهم وقوة إيمانهم، فيتبين الصادق من الكاذب، والمخلص من المنافق، تماما كما يختبر المعدن النفيس بالنار، فكلما ازداد صهره، انكشفت جودته أو خساسته[3]، لقوله تعالى: [ولَقَد فَتنا الذين من قَبلهِم فَلَيعلَمن الله الذين صدقُوا ولَيعلَمن الْكَاذبِين] العنكبوت/٠٣، وقوله: [أَم حسِبتم أَن تدخلُواْ الْجنةَ ولَما يأْتكُم مثَلُ الذين خلَواْ من قَبلكُم مستهم الْبأْساء والضراء

---

(١)- أمحزون: منهج النبي ε في الدعوة، ص (١٠٢ ، ١٠٣).

(٢)- المصدر نفسه، ص (١٠٣ ، ١٠٥).

(٣)- الغضبان: فقه السيرة النبوية، ص١٢٧.

وزلْزِلُواْ حتى يقُولَ الرسولُ والذين آمنواْ معه متى نصر اللّه ألا إِن نصر اللّه قَرِيـب] البقـرة/٢١٤. ولحتمية هذه السنة، فقد تعرض الرسول ε وأصحابه للاختبار بالمحن والابتلاءات، وهم أحب جنـود الله تعالى إليه، فصبروا وثبتوا على طريق الحق، فكان صبرهم دعوة صامتة، ظهرت إيجابيتها في دخول كثير من الناس إلى الإسلام، ولو وهنوا أو استكانوا لما استجاب لدعو م أحد[1]. وظهر هذا الابتلاء في نوعين من الأذى:

أ- الأذى المعنوي.

وجاء في شكل حرب إعلامية شاملة، شنتها الجاهلية ضد الدعوة ورجالا ا، فرمي النبي ε بتـهم هازلة، وشتائم سفيهة، كالجنون والسحر، والسخرية والتحقير، والاستهزاء والتكـذيب، واسـتقبل بنظرات ناقمة، وعواطف منفعلة هائجة، لقوله تعالى: [وإِن يكَاد الذين كَفَروا لَيزلقُونك بِأَبصارِهم لَما سمعوا الذكْر ويقُولُونَ إِنه لَمجنونٌ] القلم/٥١.

واستهدف القرآن، فحاولوا تشويه تعاليمه، وإثارة الشبهات حوله، فقالوا عنـه: بأنـه أسـاطير الأولين، [وقَالُوا أَساطير الْأَولين اكْتتبها فَهي تملَى علَيه بكْرةً وأَصيلًا] الفرقان/٠٥. ولمـا كانـت المعركة شرسة، تولى القرآن الرد على إيرادا م، وإبطال أكاذيبهم، وفضح شبها م، وهذا ما تناولناه بالدراسة في الفصل الأول من بحثنا.

واستهدف الصحابة ψ في هذه الحرب، فتعرضوا للاستهزاء والسخرية، والغمـز والضـحك[2]، ووصف القرآن وضعهم، في قوله تعالى: [إِن الذين أَجرموا كَانواْ من الذين آمنوا يضـحكُونَ، وإِذَا مرواْ بِهِم يتغامزونَ، وإِذَا انقَلَبواْ إِلَى أَهلهم انقَلَبواْ فَكهِين، وإِذَا رأَوهم قَالُوا إِن هؤلَـاء لَضـالونَ] المطففين (٢٩ ، ٣٢).

والتاريخ يعيد نفسه مع جاهلية العصر، والتي لم تتوان لحظة في استثمار ما وصـلت إليـه مـن تكنولوجيا الاتصال والإعلام الحديثة، وما أعدته من طاقات بشرية، لاستهداف أمتنا الإسـلامية، في تشويه دينها، والتشكيك في هويتها، وبث بذور الفتنة بين أبنائها، وتشتيت وحد ا. وكلما عرفـت الأمة صحوة؛ بوجوب العودة إلى دينها، وتحقيق ضتها بمشـروعها الحضـاري؛ ثـارت ثائر ـا، وسارعت في ا ام أبناءها المخلصين، بالرجعية والتعصب والتخلف، ولم يسلم حتى نبي الأمـة مـن أكاذيبهم وافتراءا م، بما جاء في كتاب " آيات شيطانية "، وبما صوره الغرب المسيحي، المتعصـب المعادي، بما ظهر في الصحف الدانمركية، عبر الصور الكاريكاتورية.

---

(1)- المصدر نفسه، ص١٣٠.

(2)- المباركفوري: الرحيق المختوم، ص (٥٨ ، ٥٩).

كما استهدفت جاهلية العصر، تعاليم الإسلام ومبادئه، وتجرأت في الطعن في صلاحيتها، بأ ا غير صالحة لهذا العصر، وأ ا قدر الأمة العربية في ما مضى؛ أما اليوم فالعصر عصـر القوميـة، وعصـر الاشتراكية العلمية، وعصر الرأسمالية والديمقراطية، وكأ ا الصيغة ذا ا التي وردت في جاهلية الأمس، والتي وصفت القرآن، بأنه أساطير الأولين[1].

وحين لجأت الجاهلية إلى هذه الأساليب، لما لها من آثار نفسية عميقة، كان القرآن ي ل فيـذكر تارة بما حدث للأنبياء السابقين، وما أصاب المستهزئين م، وتارة أخرى يدعو إلى الصبر في مواجهة ادعاءا م[2]، في قوله تعالى: [ولَقَد استهزِئ بِرسلٍ من قَبلك فَحاق بِالذين سخرواْ منهم ما كَانواْ بِه يستهزِؤونَ] الأنعام/١٠، وفي قوله: [فَاصبِر علَى ما يقُولُونَ وسبح بِحمد ربك قَبلَ طُلُوعِ الشمسِ وقَبلَ غُروبِها] طه/١٣٠.

ب- الأذى المادي.

قد يعجز الأعداء عن صرف الدعاة عن دعو م، وحملهم على تغيير مواقفهم، بالتهديد والإغـراء، والسخرية والتهكم، وتوجيه الا امات الظالمة؛ ولكنهم يستمرون في مطارد م، بوسائل أكثر تشديدا وفعالية، وأبرزها إلحاق الأذى الجسماني م، فتراهم يتفننون في ابتكار وسائل جديـدة في تعـذيب الدعاة، فيصبون جام غضبهم عليهم؛ لحملهم على التراجع عن مبادئهم ومواقفهم، وإكراههم علـى ترك دعو م، وابتزازهم للحصول على المعلومات التي يريدو ا، وإذلالهم وقهرهم؛ وردع الناس مـن أن يسلكوا طريقهم[3].

وقد تعرض الرسول ε وأصحابه جميعا للأذى المادي، ووقع عليهم التعذيب والاعتداء الآثم، وكان الرسول ε أسوة لأصحابه في الصبر والثبات، تسليما بسنة الله تعالى في الابتلاء في الـدعوات، فعـن سعد بن أبي وقاص τ قال: قلت: يا رسول الله، أي الناس أشد بلاء ؟ قال: { الأنبيـاء، ثم الأمثـل فالأمثل، فيبتلى الرجل على حسب دينه: فإن كان دينه صلبا اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض، ما عليه خطيئة }[4].

وتماشيا مع حتمية الابتلاء، فقد تعرض سيد الخلق للأذى، فأقدم عقبة بن أبي معيط أسفه القـوم وأشقاهم على خنقه، وألقى سلا الجزور عليه وهو ساجد يصلي، ولما توفي أبو طالب نالت قـريش

(١)- الغضبان: المنهج الحركي للسيرة النبوية، ص٥٧.

(٢)- أمحزون: منهج النبي ε في الدعوة، ص٧٩.

(٣)- محمد عبد القادر أبو فارس: الإبتلاء والمحن في الدعوات، دار الشهاب- باتنة، ط٢، (١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م)، ص (٩٥ ، ٩٦).

(٤)- الترمذي: ك. الزهد، باب: ما جاء في الصبر على البلاء، رقم: ٢٤٠٠، ص٣٤٥.

منه، ما لم تكن تطمع به في حياة عمه؛ إذ اعترضه السفهاء ونثروا على رأسـه التـراب، وتعـرض للضرب في الطائف، حيث استقبلته ثقيف شر استقبال، وآذوه إيذاء شديدا، فأغروا بـه صـبيا م وسفهاءهم، فراحوا يرمونه بالحجارة حتى دميت قدماه الشريفتان، ومع هذا فقد ظل صابرا محتسبا[1].

كما نال الصحابة ψ نصيبهم من الأذى الجسدي، والاضطهاد والتنكيل، (.. فأخذهم المشركون وألبسوهم أدراع الحديـد، وصهروهم في الشمس، فما منهم من أحد إلا وقد واتاهم على ما أرادوا؛ إلا بلالا فإنه هانت عليه نفسه في الله ، وهان على قومه، فأخذوه، فأعطوه الولدان، فجعلوا يطوفون به في شعاب مكة، وهو يقول: أحد أحد !)[2].

وحينما يتعرض سيد الخلق للبلاء، فهو في حس المؤمن أعظم من كل بلاء في الدنيا، فيهون علـى المؤمن، كل ما يمكن أن يصيبه من محاولات الإنقاص من قيمته، كيف لا! والرسول ε أكرم الخلق إلى الله، والمحترم في قومه، والمفدى في أهله. وهؤلاء الذين حاربوا الدعوة والـدعاة في مكـة، وعـذبوا المؤمنين بأشد صنوف العذاب، فقد لقوا حتفهم و ايتهم أمام صبر المؤمنين وثبا م، فسقطوا صرعى جميعا في بدر، وسحبوا إلى القليب، وشفى الله لاكهم صدر نبيه، وأذهب الله بقتلهم غيظ المؤمنين، بعد أن أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر[3].

وتذكرنا هذه المشاهد من الأذى والتعذيب، ما تعرفه الجاهلية المعاصرة المحتلة لبلاد المسلمين، مـن تطور في وسائل التعذيب، والتي تذهل العقول بشد ا ووحشيتها، كالصعق بالكهربـاء، واقـتلاع الأظافر، والحيلولة دون النوم أياما متتاليات، وتسليط الكلاب المسعورة على الأبرياء، ناهيـك عـن القتل بالجملة، وجرائم الحرب والإبادة الجماعية، التي استحدثها الأعداء في محاربة الأمـة، في دينـها وهويتها، وفي ملاحقة الدعاة وقتل العلماء، و ب خيرات البلاد؛ لكن كل هذه الأهوال ستنهار، إذا ما تمسك أبناء الأمة بدينهم، وواجهوا هذه التحديات بصبرهم وجهادهم، اقتداء بنبيهم[4]. وأصحاب الحق مهما طال عليهم أمد المواجهة مع الأعداء، فإن العاقبة تكون لهم، تماما كما كان القرآن يـ ل على الرسول وأصحابه، وقد طالت م المواجهة مع الكفر، فيطمئنهم بأ م على درب الحـق، وأن العاقبة للمتقين، [فَاصبِر إِن الْعاقبةَ للْمتقين] هود/٤٩.

---

(١)- أبو فارس: مصدر سابق، ص (٩٨ ، ١٠٠).

(٢)- ابن ماجة: باب: اتباع سنة الرسول ε، رقم: ١٥٠، ص٤٢.

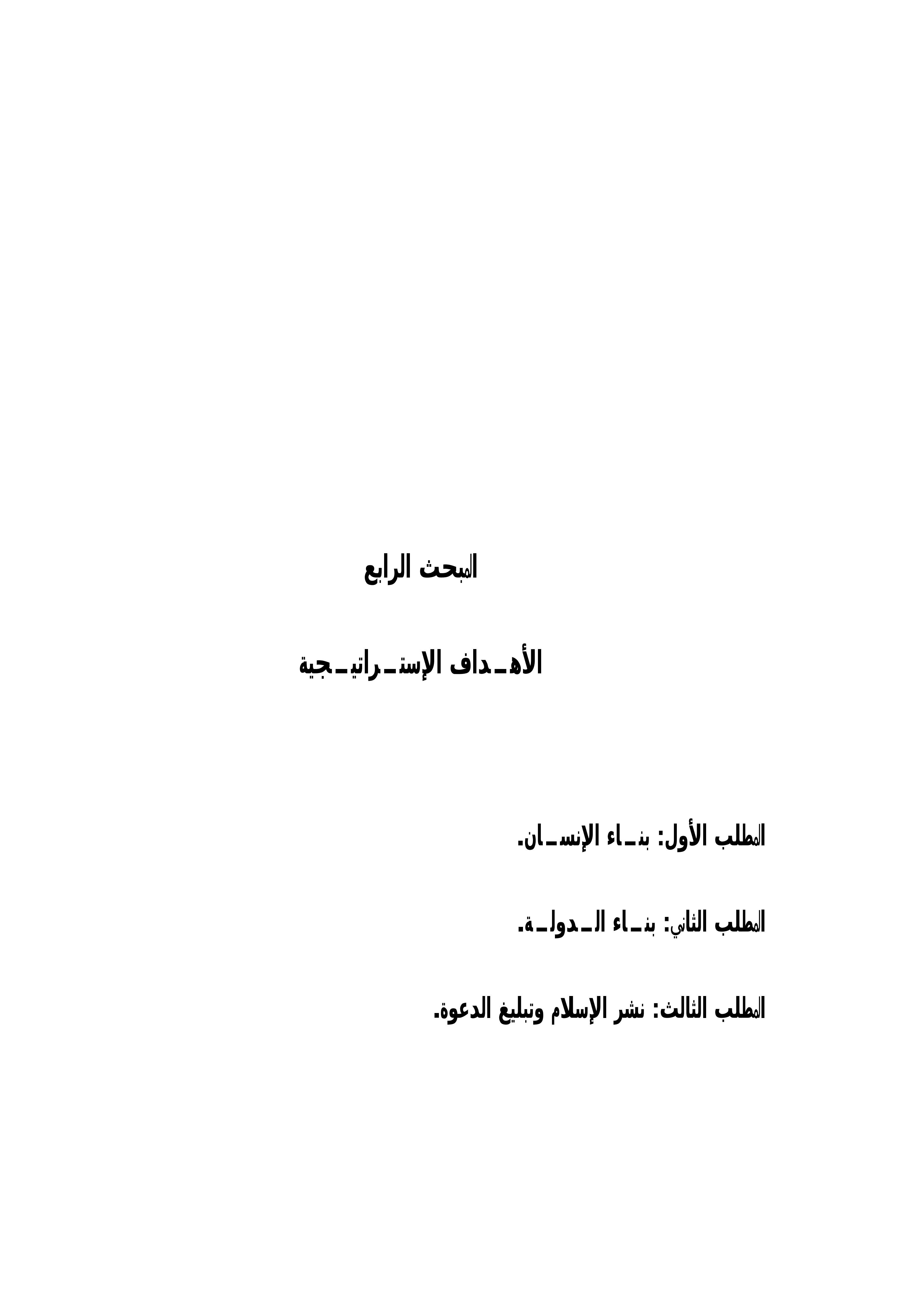
(٣)- الغضبان: فقه السيرة النبوية، ص١١١.

(٤)- المصدر نفسه، ص١١٢.

وهكذا ظهر خلق الصبر، كأحد المعالم البارزة التي ميزت منهج النبي ε في تربية القاعدة المؤمنـة، وفي تكوين شخصيتها الإسلامية النموذجية في ضوابطها الأخلاقية، والتزاما ا السلوكية، وحيويتـها الحركية، وصمودها أمام ضغوط الوثنية وتحديا ا، في فتنتها عن دينها، اضطهادا وتعـذيبا، ونفيـا وقتلا، مما مكنها من إيجاد واقع إسلامي بديل عن الواقع الجاهلي[1].

---

(1)- أمحزون: منهج النبي ε في الدعوة، ص٧٦.



المبحث الرابع

الأهــداف الإستــراتيــجية

المطلب الأول: بنــاء الإنســان.

المطلب الثاني: بنــاء الــدولــة.

المطلب الثالث: نشر الإسلام وتبليغ الدعوة.

المبحث الرابع
الأهـداف الإسـتراتيـجية

تمهيـد.

إن الإنسان لم يخلق في هذه الحياة لنفسه، فيستجيب لشهوا ا، ويلبي رغبا ا، ولم يخلق عبثا، ولم يترك سدى، ولم يوجد في هذه الحياة، ليكون عبدا لغيره من المخلوقات أو الكائنات، ولا ليأكل كما تأكل الأنعام؛ إنما خلق ليعرف الله ويعبده، [وما خلَقْت الْجِن والْإِنس إلا ليعبدون] الـذاريات/٥٦، ويكون خليفته في أرضه، [إني جاعلٌ في الْأَرضِ خليفَةً] البقرة/٣٠، وخلق ليحمل الأمانة الكبرى، أمانة التكليف والمسؤولية، [إنا عرضنا الْأَمانةَ علَى السماوات والْأَرضِ والْجِبالِ فَأَبين أَن يحملْنهـا وأَشفَقْن منها وحملَها الْإِنسانُ إِنه كَانَ ظَلُوما جهولًا] الأحزاب/٧٢، تلك المسؤولية الـتي ربطـت مصير الإنسان بيده، فإما إلى الجنة وإما إلى النار[1].

ولأداء هذه الوظيفة وحمل هذه الرسالة، كرم الله الإنسان، فأسجد له ملائكته، وسخر له مـا في السماوات والأرض، من بحار وأ ار، وخيرات وأرزاق، ومخلوقات وكائنات، وزوده بقدرات هائلة، وملكات عظيمة[2]؛ لقوله تعالى: [ولَقَد كَرمنا بنِي آدم وحملْناهم في الْبر والْبحرِ ورزقْنـاهم مـن الطيبات وفَضلْناهم علَى كَثيرٍ ممن خلَقْنا تفْضيلاً] الإسراء/٧٠، وشاءت حكمته Ψ، بأن لا يـدع

---

(١)- يوسف القرضاوي: الإيمان والحياة، ص٨٠، دار الشهاب، باتنة- الجزائر، دون طبعة ودون تاريخ.

(٢)- محمد بسام رشدي الزين: مدرسة الأنبياء – عبر وأضواء-، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق- سوريا، ط١، (١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م)، ص (٩ ، ١٠).

الإنسان عرضة لعداوة الشيطان، فكلما وقع له انحراف في عقيدته أو انصراف عن رسالته، إلا بعث له الأنبياء والرسل، فقاموا ببناء عقيدته وتقويم أخلاقه، وتوجيه طاقاته وقدراته، والحد من كبريائه وعنفوانه؛ ليقوم بواجب العمارة ويحسن أداء الأمانة. وما الجهد الذي بذله الرسول ε في الدعوة على مدار ثلاث وعشرين عاما، عبر المرحلتين المكية والمدنية، إلا جاء استكمالا لجهد الأنبياء والرسل لمواصلة عملية البناء، فما هي الأهداف الإستراتيجية التي أنجز ا الدعوة خلال هذه المدة ؟

المطلب الأول: بناء الإنسان.

ويعد بناء الإنسان، أحد الأهداف الإستراتيجية لدعوة الرسول ε، والذي تشرف بوضع آخر لبنة اكتمل ا بناؤه، فَحسن وجملَ، كما ثبت ذلك عن النبي ε حيث قال: { إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي، كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون له، ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؟ قال: فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين }[1]. وقد نجح الرسول ε في أن يكون اللبنة الأخيرة في هذا البناء، بما استجمع لديه من بناءات الأنبياء والرسل جميعا، ومن تجار م مع أقوامهم، وتعلمه من مناهج دعو م، ما ينبغي لبناء الإنسان، من جميع النواحي، مما مكنه من معرفة رسالته، والقيام بواجبه.

أ- عقائديا.

ظل الوحي ي ل بمكة ثلاثة عشر عاما، يغرس العقيدة الصحيحة، ويعمق الإيمان في النفوس، لتجتمع القلوب على التوحيد، مما مكن الإنسان من التحرر من مواريث الجاهلية، ومن عبودية التقاليد والأعراف الفاسدة إلى عبودية الواحد الأحد.

وقد حرص الإسلام بالتوحيد الخالص، أن يصل بالنفس البشرية إلى التحرر الكامل من الواقع الجاهلي في صورها المثالية الفريدة:

كتحريرها من ذل الخضوع وعبودية السيطرة، مبينا بأن الله وحده من يملك الإحياء والإماتة، والنفع والضر[2]، والعطاء والمنع، وكل ما في الكون مسخر له، وعلى العباد أن يتصلوا به فيدعونه مباشرة، فهو وحده من يجيب المضطر إذا دعاه، لقوله تعالى: [لَه ملْك السماوات والْأَرضِ يحيِي ويميت وهو علَى كُل شيءٍ قَدير] الحديد/٠٢. وقوله: [إن ربك يبسطُ الرزق لمن يشاء ويقْدر إنه كَانَ بِعباده خبِيرا بصيرا] الإسراء/٣٠، وقوله تعالى: [أَمن يجِيب الْمضطَر إِذَا دعاه ويكْشف السوءَ ويجعلُكُم خلَفَاء الْأَرضِ أَإِلَه مع الله قَليلًا ما تذَكَّرونَ] النمل/٦٢.

---

(١)- البخاري: ك. المناقب، باب: خاتم النبيين، رقم: ٣٥٣٥، ص٦٧٩.

(٢)- أمحزون: منهج النبي ε في الدعوة، ص٢١.

وتحريرها من الخوف والقلق والاضطراب، كالخوف على الحياة أو الرزق أو الم لة أو الوظيفة، وقد حاول الإسلام القضاء على هذه المخاوف بمعالجة أسبا ا، مبينا بأن هذا مما يتنافى مع عقيدة المـؤمن، ويتناقض مع مقتضيات الإيمان.

فإذا كان الخوف على الحياة، فالله وحده من يهبها ويسلبها، وقد جعل لكل إنسان أجلا محددا، لا يتأخر عنه ولا يتقدم، [وما كَانَ لنفْسٍ أَنْ تموت إلا بِإِذْن الله كتابا مؤجلاً] آل عمران/١٤٥. وإذا كان الخوف على الرزق ولقمة العيش، ف [إِن الله هو الرزاق ذُو الْقُوة الْمتين] الذاريات/٥٨. وإذا كان الخوف على المكانة أو الم لة الرفيعة أو الوظيفة حتى لا تنتزع، فإن مصير الأمور إلى الله، [وإِن يمسسك اللّه بِضر فَلاَ كَاشف لَه إِلا هو وإِن يرِدك بِخيرٍ فَلاَ رآد لفَضله يصيب بِه من يشاء من عباده وهو الْغفُور الرحيم] يونس/١٠٧[١].

وتحريرها من العبودية الزائفة، كتقديس الأنساب والأحساب، وإكبار الجاه والشهرة، وإجلال المال والثروة، وإعطاء هذه القيم أكثر مما تستحق من التوقير والإعزاز، فبين الإسلام بأن هذه القيم ليست قيما ذاتية، وأن الاتصاف ا لا يرفع من قدر الخسيس، وفقدها لا يحط من شـأن الرفيـع؛ فقيمـة الإنسان في مدى إيمانه بالله وقوة صلته به، وفي عمله النافع، وعمله الصالح، وأدبه الرفيـع؛ وخلقـه المتين، فتلك هي فضائل الإنسان الذاتية، والتي ترفع صاحبها إلى الذروة من الكمال النفسي، والسمو الروحي[٢]. لقوله تعالى: [إِن أَكْرمكُم عند الله أَتقَاكُم إِن الله عليم خبِير] الحجرات/١٣، وقوله ε: { ..ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه }[٣].

وهكذا نجحت الدعوة في تربية الجيل الأول على العقيدة الصحيحة، والإيمان الخالص، مما جعـل الصحابة ψ يتحررون من سلطان الماديات، ومن قوى الكون التي أصبحت في ذهنهم قوى مسـخرة لهم، مطوعة لخدمتهم، بعد أن كانوا مسخرين لها، مطوعين لخدمتها، سواء كانت هذه القوى بشـرا مثلهم، أو من مكونات الطبيعة من حولهم[٤]. و ذه التربية تمكنت القاعدة المؤمنـة مـن مواجهـة التحديات، والوقوف في وجه المحن والابتلاءات، والتضحية بالنفس، وهجرة الوطن، ومفارقة الأهـل والأولاد، والاستهانة بالثروة والمال، مقابل الهجرة في سبيل الله، ونصرة دينه؛ والتمكين لدولته.

ب- عقـليا.

---

(١)- السيد سابق: دعوة الإسلام، دار الفكر، بيروت- لبنان، دون طبعة، (١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م)، ص (٩٩ ، ١٠٤).

(٢)- المصدر نفسه، ص (١٠٤ ، ١٠٥).

(٣)- مصطفى ديب البغا: مختصر سنن أبي داود، ك. العلم، باب: الحث على طلب العلم، اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع، ط٢، (١٤١٩هـ / ١٩٩٨م)، رقم: ٣٦٤٣، ص٥١٩.

(٤)- برغوث: منهج النبي ε في حماية الدعوة، ص٤٥٦.

ونعني ببناء الإنسان من الناحية العقلية؛ تنمية قدراته على النظر والتأمل، والتفكير السليم، ليتسنى له الحكم على الأشياء بالصدق والعدل، وفهم البيئة التي تحيط به فيميز بنظرته الموضوعية بـين الحـق والباطل، والضار والنافع، والإفادة والاستفادة؛ استعداد لحمل أعباء الدعوة[١].

ولأهمية التأمل لمعرفة الخالق، فإن الإنسان يولد مزودا بالسمع والبصر والعقل، وهي أدوات مهمـة في العلم والمعرفة[٢]، لقوله تعالى: [واللّه أخرجكُم من بطُون أُمهاتكُم لاَ تعلَمونَ شيئًا وجعلَ لَكُـم الْسمع والأَبصار والأَفْئدةَ لَعلكُم تشكُرونَ] النحل/٧٨.

وقد حرص الإسلام أن يجعل الإنسان من هذه الأدوات، منافذ يطل ا على الكـون الفسـيح، فيعرف أسراره، ويدرك شؤونه، وينتفع بما أودع الله فيه من نعم وخيرات[٣]، لقوله تعالى: [فَلْينظُـر الْإنسانُ إِلَى طَعامه، أَنا صببنا الْماء صبا، ثُم شقَقْنا الْأَرض شقّا، فَأَنبتنا فيها حبـا، وعنبـا وقَضـبا، وزيتونا ونخلًا، وحدائق غُلْبا، وفَاكهةً وأَبا، متاعا لكُم ولأَنعامكُم] عبس (٢٤ ، ٣٢).

و ذا الإدراك الحي للعناية الإلهية، يصل الإنسان إلى الحقيقة الكبرى، حقيقة المعرفة بالله؛ مبـدع الكون، وخالقه، وصانعه، [أَمن يبدأُ الْخلْق ثُم يعيده ومن يرزقُكُم من السماء والْأَرضِ أَإِلَه مع اللـه قُلْ هاتوا برهانكُم إِن كُنتم صادقين] النمل/٦٤. وإذا لم يخضع العقل لهذا البرهان، ويـذْعن لهـذه الحجة؛ فإنه لا يخضع لبرهان، ولا يذعن لحجة قط[٤]، [ومن لم يجعلِ الله لَه نورا فَما لَه من نورٍ] النور/٤٠.

و ذا المنهج نجحت الدعوة في تربية العقل، بتجريده من المسلمات المبنية على الظـن والـتخمين، والتبعية والتقليد، وإبعاده من الانغماس في ميراث الآباء والأجداد، وإلزامه بالتحرر والتثبت، ودعوته إلى التدبر والتأمل، واكتشاف الحكم والمقاصد في العبادات والمعاملات والأخلاق، والتأمل في سـنن الكون وفي تاريخ الأمم والشعوب؛ للاعتبار، والتعود على التفكير المنطقي، والنظرة الموضوعية[٥].

ج- بـدنيا.

---

(١)- علي محمد الصلابي: فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة- القاهرة، ط١، (١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م)، ص٣٨٠.

(٢)- السيد سابق: دعوة الإسلام، ص٥١.

(٣)- الصلابي: مصدر سابق، ص٣٨٠.

(٤)- السيد سابق: العقائد الإسلامية، دار الكتاب العربي، بيروت- لبنان، دون طبعة ودون تاريخ، ص (٢٢ ، ٢٣).

(٥)- الصلابي: مصدر سابق، ص (٣٨١ ، ٣٨٣).

وقد حرص الإسلام على بناء الإنسان بدنيا، وتربيته جسديا، ليبقى قوي البنية، بعيدا عن الأمراض والعلل، ويكون عضوا نافعا لنفسه ولأهله ولأمته، قادرا على مواجهة الصعاب والتحديات أثناء قيامه بوظيفته، واضطلاعه بالأعباء المنوطة به.

ولكي يقوم الإنسان بوظيفته ويؤدي رسالته، شرع الإسلام المحافظة على نظافة البدن وسـلامته، فأوجب الطهارة عند القيام لأداء العبادات، وسن استدامتها في غير هذه الأوقات، يقول الله تعالى: [إن اللّه يحب التوابين ويحب الْمتطَهرين] البقرة/٢٢٢، ويقول: [وثيابك فَطَهر] المدثر/٠٤، ورغب الإسلام في النظافة والتزين، والتجمل عموما، لقوله ε : { الفطرة خمس، أو خمـس مـن الفطـرة: الختان، والإستحداد، ونتف الإبط، وتقليم الأظافر، وقص الشارب }[1]. وقوله ε: { إن الله جميـل يحب الجمال }[2].

وأباح الإسلام للإنسان الأكل من الطيبات والرزق، تغذية للبدن وتقويته، ليؤدي وظيفته، ويقـوم بنشاطه على أحسن وجه، لقوله تعالى: [يا أَيها الذين آمنواْ كُلُواْ من طَيبات ما رزقْناكُم واشـكُرواْ للّه إن كُنتم إِياه تعبدونَ] البقرة/١٧٢، ومنع الإسراف من تناول الطعام، وقاية للجسم مـن العلـل والأمراض، لقوله تعالى: [وكُلُواْ واشربواْ ولاَ تسرِفُواْ إِنه لاَ يحب الْمسرِفين] الأعراف/٣١، وقوله ε: { ما ملأ آدمي وعاءً شرا من بطن.. }[3]، وحرم تناول الخمور، وكل ما يضر البـدن ويعطـل العقل عن وظيفته، لقوله تعالى:[إِنما الْخمر والْميسِر والأَنصاب والأَزلاَم رِجس من عملِ الشـيطَان فَاجتنِبوه لَعلكُم تفْلحونَ] المائدة/٩٠.

وأرشد الإسلام إلى ممارسة الألعاب الرياضية، كالسباحة والرماية، وركوب الخيل، مع الإشارة أن في أداء العبادات، ما يتضمن ممارسة رياضية منظمة دون إجهاد أو إرهاق، كل ذلك لضمان سـلامة البدن؛ وللمحافظة على نشاطه وحيويته، لقوله تعالى: [وأَعدواْ لَهم ما استطَعتم من قُوة ومن ربـاط الْخيلِ] الأنفال/٦٠، وقوله ε: {.. ليس من اللهو إلا ثلاث: تأديب الرجل فرسه، وملاعبته أهلـه، ورميه بقوسه ونبله.. }[4]، وعن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ε: { نعمتـان مغبون فيهما كثير من الناس: الفراغ والصحة }[5].

([1])- البخاري: ك. اللباس، باب: قص الشارب، رقم: ٥٨٨٩، ص١١٤٨.

([2])- مسلم: ك. الإيمان، باب: تحريم الكبر وبيانه، رقم: ٢٦٥، ص٥٤.

([3])- الترمذي: ك. الزهد، باب: ما جاء في كراهية كثرة الأكل، رقم: ٢٣٨١، ص٣٤٢.

([4])- سنن أبي داود: ك. الجهاد، باب: في الرمي، رقم: ٢٥١٣، ص ٣٤٧.

([5])- رواه أحمد: رقم: ٣٢٠٧، ج٥، ص (٢٧٧ ، ٢٧٨).

وعند التعرض للمرض، حث الإسلام على التداوي والعلاج، لقوله ε: { ..تـداووا فـإن الله لم يضع داء إلا وضع له دواء؛ إلا داء واحدا }، قالوا: يا رسول الله، وما هو؟ قـال: { الهـرم }[1]؛ ضمانا لبقاء صحة المسلم، ودوام عافيته، واستمرار وظيفته[2].

كما ضبط الإسلام حاجة الإنسان إلى الملبس والمأوى، بما يوجب ستر العورة، ويحفظ الجسم مـن الحر والبرد، وحاجته إلى الزواج والأسرة، وحرم الزنا والمخادنة واللواط، لقوله تعالى: [والذين هـم لفُروجِهم حافظُونَ، إلا علَى أزواجِهم أو ما ملَكَت أيمانهم فَإِنهم غَير ملُومين، فَمن ابتغى وراء ذَلك فَأُولَئك هم الْعادونَ] المؤمنون (٥٠ ، ٧٠)، وحاجته إلى المال والتملك وفق الضـوابط الشـرعية، وحذره من الدعة والبطر، والاغترار بالنعمة[3].

و ـذا المنهج نجحت الدعوة الإسلامية في تحقيق أهدافها، في بناء الإنسان بدنيا، وتقويته جسـديا والمحافظة عليه، بتلبية متطلباته المادية، والاستجابة لرغباته، وفق الضوابط الشرعية، وبما يحفظ توازنـه بموضوعية، ليتمكن من مواجهة التحديات، ويتحمل أعباء الدعوة والجهاد.

د- أخـلاقيا.

ركز المنهج القرآني في العهد المكي على بناء الإنسان من الناحية الخلقية، بالعمـل علـى تنقيـة الداخلين في الإسلام من الأخلاق الرديئة، والصفات القبيحة، وتزكية نفوسهم بمكـارم الأخـلاق، والصفات الحميدة.

ولما كان الرسول ε هو المثل الأعلى، والقدوة الطيبة، والأنموذج الصالح للبشرية جمعاء، فقد أمـره الله أن يقتدي برسل الله الذين تقدموه، فقال: [أُولَئك الذين هدى اللّه فَبِهداهم اقْتده] الأنعام/٩٠، فكان أن جمع ما تفرق في غيره من الصدق، والوفاء، والشجاعة، والكرم، والإيثار؛ وسـائر خـلال الخير، حتى صار الأسوة الحسنة في الأخلاق الرفيعة[4]، لقوله تعالى: [لَقَد كَانَ لَكُم في رسولِ اللـه أُسوةٌ حسنةٌ لمن كَانَ يرجو الله والْيوم الْآخر وذَكَر الله كَثيرا] الأحزاب/٢١، وهو إعجاز أخلاقي كان كامنا في تكوينه وذاتيته، بارزا في سلوكه، وظاهرا في شخصيته؛ تحقيقا لغاية سامية، عبر عنـها بقوله ε: { بعثت لأتمم حسن الأخلاق }[5]، ولا نبالغ إذا قلنا: أن النبي ε قد مهد في المرحلة المكية، المكية، لإنشاء أول دولة في التاريخ تقوم على دعائم الأخلاق.

---

(١)- الترمذي: ك. الطب، باب: ما جاء في الدواء والحث عليه، رقم: ٢٠٣٩، ص٢٨٠.

(٢)- سابق: دعوة الإسلام، ص (٤٥ ، ٥٠).

(٣)- الصلابي: السيرة النبوية، ج١، ص (١٩٧ ، ١٩٩).

(٤)- سابق: مصدر سابق، ص٦٩.

(٥)- الموطأ: ك. حسن الخلق، باب: ما جاء في حسن الخلق، رقم: ١٦٧٧، ص٥٠٥.

ولما كان النبي ε منبعا للزاكيات من الأخلاق، والخلال والشمائل، فقد نجح في تربيـة أصـحابه، وفق المنهج القرآني الذي يدعوا إلى تزكية النفوس، بالإيمان الخالص، وإقامة العدل، والتحلي بمكـارم الأخلاق؛ كالإحسان للوالدين، وللأولاد، والجار، وصلة الرحم، وأكد في المقابل على التخلص مـن الأخلاق الرديئة؛ بتحريم الفواحش والمنكرات، ما ظهر منها وما بطن، والإثم والبغي، وقتـل الأولاد، ووأد البنات؛ وقتل النفس بغير حق[1]. وقد أشار القرآن إلى هذا في العديد من الآيات، في قوله تعالى: [إن اللّه يأمر بِالْعدلِ والإِحسان وإِيتاء ذي الْقُربى] النحل/٩٠، وفي قوله: [قُلْ تعالَواْ أَتلُ ما حـرم ربكُم علَيكُم أَلا تشرِكُواْ بِه شيئًا وبِالْوالدينِ إِحسانا ولاَ تقْتلُواْ أَولاَدكُم من إملاَقٍ نحـن نـرزقُكُم وإِياهم ولاَ تقْربواْ الْفَواحش ما ظَهر منها وما بطَن ولاَ تقْتلُواْ النفْس التي حرم اللّه إِلا بِالْحق ذَلكُـم وصاكُم بِه لَعلكُم تعقلُونَ] الأنعام/١٥١.

ولقد كان المنهج القرآني في المرحلة المكية يهتم ببناء النفس، بتربيتها على الخير ومكارم الأخلاق، وهو بمثابة جهاد داخل النفس لإصلاحها، والذي كان بحق توطئة للمواجهة الخارجية المفروضة على المؤمنين، كمعركة عقائدية، وسنة ربانية لا محيص عنها[2].

و ذا حققت الدعوة أهدافها في بناء الإنسان وإعداد القاعدة المؤمنة، على منهج تزكيـة الأرواح، وتنوير العقول، والمحافظة على الأجساد وتقويتها، بما يحفظ تواز ـا[3]، و ـذيب الـنفس بمكـارم الأخلاق؛ ليكون أهلا لمواجهة التحديات وتحمل الصعاب، في سبيل نشر دعوته، والقيام بوظيفته.

المطلب الثاني: بِـناء الـدولة.

شكل بناء الدولة في المدينة، أحد الأهداف الإستراتيجية للدعوة في المرحلـة المكيـة، فالمشـروع الإستخلافي الذي تجسد عمليا في بناء دولة الإسلام، والذي صار واقعا عمليا في المدينة المنورة؛ إنمـا كان نتاجا لعمل جاد ومخلص، ومحصلة هودات جبارة ومتواصلة، قامت ا الدعوة الإسـلامية في مكة، طيلة ثلاثة عشر عاما، من خلال بناء القاعدة المؤمنة، الواعية، المحتسبة، الجهادية، والتي ألقـت على عاتقها حمل مسؤولية تكاليف الدعوة، فما تم إنجازه في المدينة- والذي ظل محل أنظار الدارسين والباحثين عبر العصور- سيبقى مدين لما بذلته الدعوة، في تربية الجيل الأول، وتكوين القاعدة الصلبة، و يئة الأرضية الأساسية في مكة[4]. واستكمالا لاستمراريـة البناء التربوي والتعليمي الذي استهدف

([1])- أمحزون: منهج النبي ε في الدعوة، ص (٨٦ ، ٨٩).

([2])- المصدر نفسه، ص٩٤.

([3])- الصلابي: السيرة النبوية، ج١، ص١٩٩.

([4])- برغوث: منهج النبي ε في حماية الدعوة، ص (٤٦٠ ، ٤٦٢).

بناء الإنسان في مكـة، فقد كانت الجهـود منصبة في المدينة، نحو تنظيم شؤون الدولة في مجالا ـا المتعددة، للحفاظ على كيا ا، وضمانا لاستمرارية الدعوة، في تحقيق أهدافها وبلوغ غايا ا.

أ- اجـتماعيا.

شكلت المؤاخاة صدارة اهتمامات الرسول ε في مجال التنظيم الاجتماعي، داخل الدولة الإسلامية الناشئة؛ تحقيقا للترابط والتعاون بين المسلمين. ولم تتم هذه المؤاخاة تحت الضغط والإكراه، وإنما تمت برغبة جامحة، واندفاع قوي يعبر صراحة على قوة رابطة الأخوة في الله. ولم تكن هذه الخطوة مجـرد شعارات ترفع؛ إنما كانت خطوة عملية، أشرف النبي ε على تنفيذها، وقام بتجسيدها علـى أرض الواقع، بتحديد التآخي المباشر بين المهاجرين والأنصار، بقوله: { تآخوا في الله أخوين أخوين }[1].

وبلغ فقه الأنصار للأخوة في الله، أن عرضوا على المهاجرين، خير أراضيهم، وخير أموالهم، وخـير أهلهم، فضربوا ذا المستوى في الكرم، المثل الأعلى في الحب والإيثار، فكان أن أثـنى الله علـيهم، وعلى المهاجرين لعفتهم، في قوله تعالى: [والذين تبوؤوا الدار والْإيمانَ من قَبلهم يحبونَ من هـاجر إِلَيهم ولَا يجِدونَ في صدورِهم حاجةً مما أُوتوا ويؤثرونَ علَى أَنفُسِهِم ولَو كَانَ بِهِم خصاصةٌ ومن يوق شح نفْسِه فَأُولَئك هم الْمفْلحونَ] الحشر/٠٩. وكان قبول المهاجرين لهذا الأمر بشكل مؤقت، ريثما يتعرفون على سوق المدينة وطرق ممارسة التجارة فيها، فالعمل التجاري بطبيعته عمل مؤقـت، لا يتعارض- إذا لزم الأمر- مع الدعوة للجهاد، وقد ظهر عبد الرحمن بن عوف τ كمثال للحيويـة والحركية في النشاط التجاري، فاستطاع خلال أيام قلائل، أن يكسب، ويتطيب ويتزوج. والمتأمل في هذا الأفق العظيم، لمعالم ا تمع المدني من خلال المؤاخاة، وما رافقها من حـب وبـذل، وتضـحية وإيثار، وما يرى في عالمنا المعاصر من مبادئ ومثل، تقدم للناس على أ ا الحق، والأمـل والرجـاء؛ ولكن في حقيقتها تخفي القهر والتسلط، وقتل الخير في نفوس الناس، مما يكتشف عظمة هذا الدين في بناء الإنسان قبل بناء الدولة[2].

وكان المسجد صورة عملية للتآخي، والعدل والمساواة، والوحدة والتكافل الاجتماعي، عند اللقاء والاجتماع، وحين الإقامة للصلاة، والوقوف صفا واحدا، والاتجاه إلى قبلة واحدة؛ وعبـادة الإلـه الواحد، [إِن هذه أُمتكُم أُمةً واحدةً وأَنا ربكُم فَاعبدون] الأنبياء/٩٢.

ونظم النبي ε العلاقات بين سكان المدينة، فكتب وثيقة توضح التزامات جميع الأطـراف داخـل المدينة، وتحدد الحقوق والواجبات، ونصت على اعتبار اليهود من مواطني الدولة الإسلامية إلى جانب

---

(١)- ابن هشام: السيرة النبوية، ج٢، ص٣٧١.

(٢)- الغضبان: فقه السيرة النبوية، ص (٢٣٣ ، ٢٣٧).

المسلمين، وحددت مالهم من حقوق، وما عليهم من واجبات، وأن النبي ε يرجع إليه في كل خلاف، فهو الضابط والمنظم للعلاقات الاجتماعية في الدولة الناشئة(١).

وحرص الإسلام على تحقيق حاجات ا تمع، في إطار الحلال، وفي إطار لا ضرر ولا ضرار، فحث على التعاون والتكافل، [وتعاونواْ علَى الْبر والتقْوى ولاَ تعاونواْ علَى الإِثْمِ والْعدوان] المائـدة/٠٢، وعلى التناصر والتواصي بالحق والصبر؛ للقضاء على المنكرات، وإرساء المودة والعدالة، ورفع الظلم، [وتواصوا بِالْحق وتواصوا بِالصبرِ] العصر/٠٣، وعلى التراحم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واجتناب الإثم والفواحش، والتسامح والصفح.. وكل ما يحقق الخير والسعادة للمجتمع، [كُنتم خير أُمة أُخرِجت للناسِ تأْمرونَ بِالْمعروف وتنهونَ عنِ الْمنكَرِ وتؤمنونَ بِاللّه] آل عمران/١١٠، خيريـة أرادها الإسلام؛ أن تقوم على الإيمان والعمل الصالح، بعيدة عن الخيرية العرقية، والجنسية والقوميـة، والتي لا تجلب إلا الويلات والحروب للمجتمع.

وهذه الدعائم وغيرها، حرص عليها الإسلام، ويجب أن تسود ا تمع، سواء في مرحلـة التربيـة والإعداد، أو في مرحلة بناء الدولة(٢).

ب- سـياسيًا وإداريًـا.

كانت عبقرية الرسول ε السياسية واضحة، في صياغة بنود الصحيفة، وما تضمنته مـن مبـادئ، درجت عليها دساتير الدول الحديثة، وفي مقدمتها تحديد مفهوم الأمة الواحدة، والتي تضم المسـلمين جميعا، ومن تبعهم، ولحق م، وجاهد معهم، وهذا مفهوم جديد في تاريخ الحياة السياسية في جزيرة العرب، بعيدا عن شعار القبيلة والتبعية لها، لقوله تعالى: [إِن هذه أُمتكُم أُمةً واحـدةً وأَنـا ربكُـم فَاعبدون] الأنبياء/٩٢. كما حددت بنود الصحيفة حقوق وواجبات الأطراف المتواجدة في المدينـة، بما يحقق العدالة والمساواة بين جميع الناس، على اختلاف ألوا م وألسنتهم وأديـا م، وبمـا يضـمن الحقوق؛ كالحق في الأمن، والعيش بسلام، وبما يكفل الحريات، كحرية العقيدة والعبادة، للمسـلمين دينهم، ولليهود دينهم، لقوله تعالى: [لاَ إِكْراه في الدينِ قَد تبين الرشد من الْغـي] البقـرة/٢٥٦. ويرجع الأمر للرسول ε في حل الن اعات، وفك الخلافات، ومسؤولية إعلان الحرب والسلم؛ باعتباره الحاكم والقاضي(٣).

---

(١)- أمحزون: منهج النبي ε في الدعوة، ص (٢٩٩ ، ٣٠٤).

(٢)- الصلابي: فقه النصر والتمكين، ص (٣٨٦ ، ٣٨٨).

(٣)- الصلابي: السيرة النبوية، ج١، ص (٥٤٣ ، ٥٤٩).

ويعد المسجد الذي شيده الرسول ε اللبنة الأساسية، للتنظيم الإداري والسياسي للدولة الناشـئة، فلم تقتصر وظيفته في أداء العبادة؛ بل كان مجمعا للشورى، ومقرا للقيادة السياسية العليا، تتخذ فيـه القرارات المصيرية، وتعقد فيه الألوية؛ ونزلا لاستقبال الوفود[1].

واتسم أسلوب إدارة الرسول ε بالمركزية، فكانت جميع الأعمال والوظائف السياسية والإداريـة محصورة في يده. وباعتباره نبيا ورسولا، وحاكما وقاضيا، فقد فوض الله تعالى إليـه، إدارة أمـور السياسة العامة في تدبير شؤون الأمة ورعاية مصالحها؛ فكان يشرف على بعث الجيـوش، وقسـمة الغنائم، وعقد العهود، وإبرام الصلح، وصرف الأموال، وتوزيع الإقطاعيات، ويقيم الحدود، وينصب القضاة ويعين الولاة؛ وغيرها من شؤون الإمامة العظمى. وما إن توسع سلطان الدولة منـذ السـنة التاسعة للهجرة، حيث شرعت وفود القبائل تأتي تباعا معلنة دخولها في الإسـلام، بـدأت الدولـة الإسلامية تتجه نحو تحقيق اللامركزية؛ فكان الرسول ε يعين على كل قبيلة يأتيه وفدها مسلما، أميرا منها، وغالبا ما يكون هو شيخها في الجاهلية؛ تأليفا للقلوب على الإسلام، ومع اتساع رقعة الإسلام، فإن النبي ε كان من هديه إذا وجه عاملا إلى جهة من الجهات، عهد إليه- إما مشافهة أو كتابة- إن يأمر الناس بالصلاة، ويأخذ منهم الزكاة، ويعدل فيهم، ويفقههم ويعلمهم أمر دينهم، ويلين علـيهم في الحق؛ ويشتد عليهم في الظلم[2].

أما التقسيمات الإدارية في العهد المدني، فقد ضمت: المدن، (كمكة والطـائف)، والأقـاليم، (كاليمن، والبحرين، وعمان)؛ والقبائل والعشائر. وكانت الرقابة الذاتية تمثل خط الدفاع الأول قبل الرقابة الإدارية، في مواجهة الانحراف الإداري في شتى مظاهره وصوره، بتربية ضمير المسلم؛ ليكـون رقيبا على نفسه، وحارسا على تطبيق تعاليم الإسلام في كافة المجالات[3].

وما ذكرناه يعد إشارات خاطفة، لما تم الإسهام به في بناء الدولة سياسيا وإداريا، بإقامة العـدل، وإدارة سياسة الدفاع والحروب، وتنظيم موارد الدولة المالية، بتنظيم الزكاة وطرق جبايتها، وعقـد المعاهدات والصلح، وإنفاذ السفارات إلى العالم الخارجي، مما يؤسس للعلاقات الدولية..ونحوها، مما لم تعهد به الجزيرة العربية من قبل في هذا المجال، مما ساهم في نجاح الدعوة، وتوسيع كيـان الدولـة، وتعزيز مكانة الأمة في إطار مشروعها الحضاري.

ج- اقتصـاديًا ومـاليًا.

---

(1)- أمحزون: منهج النبي ε في الدعوة، ص٣٠٨.

(2)- المصدر نفسه، ص (٣١٢ ، ٣١٤).

(3)- المصدر نفسه، ص (٣١٥ ، ٣١٧).

وبعد أن وصل الرسول ε إلى المدينة، قام بدراسة الأوضاع الاقتصادية فيها، فلما رأى تمركز القوة الاقتصادية بيد اليهود، وصاروا يملكون السوق التجارية وأموالها، ويتحكمون في الأسعار، ويحتكرون السلع، ويستغلون حاجات الناس، رأى ضرورة إيجاد سوق إسلامية بديلة، لينافس المسـلمون فيهـا اليهود، على مصادر الثروة والاقتصاد في المدينة، وتظهر فيها آداب الإسلام، وأخلاقه الرفيعة في عالم التجارة والمال، محددا مكا ا غرب المسجد النبوي، وقال: { هذا سوقكم فلا ينتقَصن ولا يضـربن عليه خراج }[1]. وكانت السوق رحبة واسعة، وحظيت باهتمامه ورعايته، وتعهـدها الرسـول ε بالإشراف والمراقبة، فطهرها من بيوع الجاهلية المشتملة على الغبن، والغرر والغش والخداع، فكان لا يرى منكرا إلا غيره وأزاله، ولا معروفا إلا أقره، ورغب في المواظبة عليـه، والالتـزام بـه، وفقـا للتوجيهات الربانية، وإعطاء الحرية، وإتاحة الفرص المتكافئة فيها للبيع والشراء، ووضع لها ضـوابط وسن لها آدابا، كالذكر عند الدخول، وكراهية رفع الصوت بالخصام، والمحافظة على نظافتها وعـدم تلويثها بالأوساخ والأقذار، والاحتراز من حمل السلاح، ووجوب الوفاء بالعقود والعهود، والتحذير من نقضها أو الغدر فيها، واليسر والمسامحة في البيع والشراء، والصدق والبيـان وعـدم الكتمـان؛ والابتعاد عن الأيمان الكاذبة والتطفيف في الميزان..الخ، وكان لهذه الآداب والتوجيهات المتعلقة بأدب التعامل، الأثر العميق في تعمير أسواق المسلمين، وضعف أسواق اليهود، مما جعل المسلمين يسيطرون على الاقتصاد في المدينة، ويقهرون اليهود في أدق اختصاصا م[2].

كما كان الوحي يـ ل على الرسول ε بعد الهجرة، منظما الموارد المالية لبيت المـال، كالزكـاة، والجزية، والفيء، والغنيمة، والعشور..، وكان الوالي أو العامل في عصر النبوة، يقوم بجمـع الزكـاة والجزية من رعاياه، وأحيانا يتسلم الأموال ممن يليه من عمال الأقاليم، وأحيانا أخرى، يكلف الساعي بجمع مستحقات الدولة من الأموال، ويدفعها إلى بيت المال، ويسمى: المستوفي، ويقوم الكُتاب بكتابة أموال الصدقات التي تجبى إلى بيت المال، وكان الرسول ε يشرف على إنفاق هذه الأموال في أوجهها الشرعية[3]، كإنفاق الزكاة حسب المصارف الواردة في الآية الكريمة، [إنمـا الصـدقَات للْفُقَـراء والْمساكينِ والْعاملين علَيها والْمؤلَفَة قُلُوبهم وفي الرقَابِ والْغارِمين وفي سبِيلِ اللَّه وابـنِ السـبِيلِ فَرِيضةً من اللَّه واللَّه عليم حكيم] التوبة/٦٠.

---

(١)- ابن ماجة، كتاب التجارات، باب الأسواق ودخولها، رقم: ٢٢٣٣، ص (٣٨٣ ، ٣٨٤).

(٢)- الصلابي: السيرة النبوية، ج١، ص (٦٣٤ ، ٦٣٧).

(٣)- أمحزون: منهج النبي ε في الدعوة، ص (٣٣٦ ، ٣٣٧).

وجعل الرسول ε ملكية الثروات الطبيعية للأمة، كالعيون، والأنهار، والبحار، والكلأ البري، والغابات والمعادن، لقوله ε: { المسلمون شركاء في ثلاثة: الماء، والنار، والكلأ }[1]، ويؤول تنظيم استغلالها إلى الدولة؛ ضمانا للمصالح العامة، وحمى الرسول ε جهة البقيع ومساحتها: ستة أميال مربعة، لخيل المسلمين من المهاجرين والأنصار. ولا شك أن تدخل الدولة في مراقبة وتسيير الثروات، تحصل به منافع اجتماعية هامة؛ كتحقيق توزيع عادل للدخل والثروة، وتشغيل أمثل للموارد، وتكافؤ الفرص بين الجميع، وتشجيع المنافسة في الإنتاج، ومحاربة الاحتكار..ونحوها[2].

وقد اهتم النبي ε بالجانب الاقتصادي، للدلالة على أهميته في بناء الدولة، وأن القوة الاقتصادية تعزز من مكانة الأمة، إذا ما أحسنت استثمار قدراتها وإمكانياتها الذاتية، في توفير ما تحتاجه للاكتفاء الذاتي دون أن تمد يد الاستجداء، مما يوفر للدعوة حرية التحرك، وللأمة حق اتخاذ قراراتها، بعيدا عن الضغوطات الكابحة لنشاطها الإسلامي، خاصة وأن العالم الإسلامي يملك من الطاقات المادية، والثروات الطبيعية، والمؤهلات البشرية، ما يؤهله لبناء اقتصاد قوي، يمكنه من مواجهة التحديات المختلفة، وينقذ الأمة من التيارات الاقتصادية المتصارعة[3].

د- عسكريا.

بعد الهجرة المباركة إلى المدينة المنورة، وقيام دولة الإسلام، جاءت التوجيهات الإلهية تدعوا إلى ضرورة أخذ أعلى درجات الاستعداد؛ للدفاع عن الدولة وحماية الدعوة، ودفع الخطر الذي لم ينقطع يوما على المسلمين، فكان لا بد من الأخذ بزمام القوة، امتثالا لقوله تعالى: [وأعدواْ لَهم ما استطَعتم من قُوة ومن رباط الْخيلِ ترهبونَ بِه عدو اللّه وعدوكُم وآخرِين من دونِهِم لاَ تعلَمونهم اللّه يعلَمهم] الأنفال/٦٠. ولمواجهة تحديات المرحلة الجديدة، في محاربة الشرك والوثنية، وأن يعبد الله وحده في الأرض، تحتم على النبي ε تنمية القدرات العسكرية لرجاله، فكان يعمل دون هوادة على تعليم المسلمين فنون القتال، وتدريبهم على استعمال السلاح، معتمدا في تكوينه على عاملين متوازيين، هما:

١- **التوجيه المعنوي؛** ويهدف إلى رفع معنويات المقاتلين، بمنحهم الأمل اليقيني، بالنصر أو الجنة، خاصة وأن الجهاد في هذا الطريق، غرضه إعلاء كلمة الله، ولخدمة هذا الهدف، راحت الآيات والأحاديث الخاصة بالجهاد والاستشهاد تغذي في النفس، الرغبة العارمة في الاندفاع نحو الشهادة

---

(١)- أخرجه أحمد في المسند: ج٥، ص٣٦٤.

(٢)- أمحزون: مصدر سابق، ص (٣٤٠ ، ٣٤١).

(٣)- الصلابي: فقه النصر والتمكين، ص٣٠٠.

للفوز بالجنة، مما فجر طاقات هائلة؛ أذهلت العالم عبر التاريخ، كقوله تعالى: [إن اللّه اشترى مـن الْمؤمنِين أَنفُسهم وأَموالَهم بِأَن لَهم الجَنَةَ يقَاتلُونَ في سبِيلِ اللّه فَيقْتلُونَ ويقْتلُونَ وعدا علَيه حقّا فـي التوراة والإِنجيلِ والْقُرآن ومن أَوفَى بِعهده من اللّه فَاستبشروا بِبيعكُم الذي بايعتم بِه وذَلك هو الْفَوز الْعظيم] التوبة/١١١، وقوله ε: { ما أحد يدخل الجنة، يحب أن يرجع إلى الدنيا، وله ما على الأرض من شيء إلا الشهيد، يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات، لما يرى من الكرامة }[١].

٢- **التدريب العملي**؛ فيتمثل في إعداد القوة اللازمة، لمواجهة الأخطار والاستعداد لأي طـارئ، بالمواظبـة على التدريب المستمر على فنـون القتال، كالطعن بالرمح، والضرب بالسيف، والرمـي بالنبال، والتمرن على ركوب الخيل، وتعلم أساليب القتال في البر والبحر.. ونحوها، من المهارات التي تتطلبها تطورات الحرب، وطبيعة المواجهة، وقد أسهمت التوجيهات النبوية في تعزيز هذا الجانـب، لقوله ε: { وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي }[٢]، ولقوله ε: { الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة..}[٣] ، وقوله ε: { لا يركب البحر إلا حـاج أو معتمر أو غاز في سبيل الله، فإن تحت البحر نارا، وتحت النار بحرا }[٤]. وقد أسهمت التوجيهـات القرآنية، في تحقيق تحولات نوعية في أساليب القتال، كأسلوب التعبئة الذي يعتمد على نظام الصفوف المتراصة، والذي يتيح المناورة في القتال، عملا بقوله تعالى: [إن الله يحب الذين يقَاتلُونَ في سـبِيله صفّا كَأَنهم بنيانٌ مرصوص] الصف/٠٤، ويدعو إلى الاستماتة في المعركة، وإلحاق الهزائم بالأعداء، وطبقه النبي ε في بدر وأحد والخندق، وجاء بديلا عن أسلوب الكر والفر، الذي لم تعرف العـرب غيره أبدا[5]، وهو مدعاة للهزيمة والفشل. كما استعمل النبي ε نظام الخميس في حربه مع اليهـود في غزوة خيبر، حيث وزع الجيش على النحو الآتي: المقدمة، القلب، الميمنة، الميسرة، الساقة (المـؤخرة)[٦].

وما أشرنا إليه يعد جزءا يسيرا، مما أسهم به النبي ε في بناء الدولـة مـن الناحيـة العسـكرية، وتنظيما ا الحربية الدفاعية منها والهجومية، برزت ثمارها في تحقيق الانتصارات المتتاليـة في أغلـب الغزوات؛ لأن الجيش الذي أُعد في المدينة، كان جيش عقيدة، يقاتل لتكون كلمة الله هـي العليـا،

---

(١)- البخاري: ك. الجهاد والسير، باب تمني ا اهد أن يرجع الدنيا، رقم: ٢٨١٧، ص٥٤٤.

(٢)- مسلم: ك. الإمارة ، باب: فضل الرمي والحث عليه، وذم من علمه ثم نسيه، رقم: ٤٩٤٦، ص٧٤١.

(٣)- البخاري: ك. الجهاد والسير، باب: الجهاد ماض مع البر والفاجر، رقم: ٢٨٥٢، ص٥٤٩.

(٤)- أبو داود: ك. الجهاد، باب: في ركوب البحر في الغزو، رقم: ٢٤٨٩، ص٣٤٣.

(٥)- نوري: فقه السيرة النبوية، ص (٢٠٨ ، ٢١١).

(٦)- أمحزون: منهج النبي ε في الدعوة، ص (٣٢١ ، ٣٢٢).

وهذه الفكرة أو القضية، أسمى ما يقاتل لأجلها الإنسان، حتى وإن دافع عن وطنـه، أو كرامتـه، أو حكومته، فالعقيدة ينبغي أن تكون هي المحور الأساس في القتال[1].

وهكذا نجـح النبي ε في وضع الأسس الهامة لبناء الـدولة، وهو أنموذج فريد يبقى محل أنظـار الدارسين والباحثين؛ ليكتشفوا من خلاله عبقرية الرسول ε تنظيما وتخطيطا، وعظمة رسالته، في نشر الخير والعدل، ومحاربة الشر ومواجهة الظلم، وتوفير السعادة للبشرية في الدنيا والآخرة.

المطلب الثالث: نشر الإسلام وتبليغ الدعوة.

لعلنا لا نبالغ إذا قلنا: أن الهدف الإستراتيجي للدعوة، من وراء كل المجهودات التي بذلتها الدعوة، خلال المرحلتين المكية والمدنية، في بناء الإنسان وبناء الدولة وما صاحب هذا الإعداد من تحـديات جسيمة لا تعرف النهاية؛ إنما كان العمل على توفير كل الإمكانيات المعنويـة والماديـة والبشـرية؛ لتتحمل الأمة مسؤولية نشر الإسلام، وتبليغ الدعوة إلى البشرية جمعاء، " انطلاقـا مـن أن دعـوة الإسلام ليست دعوة محلية، أو وطنية، أو قومية؛ بل دعوة عالمية "[2]، ابتدأت منذ أن وقع أول اتصال بين السماء والأرض، وتشرفت الأرض بكلام الله تعالى يملأ وجودها، ويتلقاه النبي ε: [اقْرأْ بِاسـمِ ربك الذي خلَق، خلَق الْإنسانَ من علَقٍ، اقْرأْ وربك الْأَكْرم، الذي علم بِالْقَلَمِ، علم الْإنسانَ ما لَـم يعلَم] العلق (٠١ ، ٠٥).

واستمرت المعركة سنين طوالا، والمشركون يصورون الرسول ε ساحرا وشاعرا، وتـارة مجنونـا وطالب ملك.. ورسول الله ε يحاول إخراجهم من نتن اللات والعزى وهبل، إلى خالق عوالم الوجود كله، [الْحمد للّه رب الْعالَمين] الفاتحة/٠٢، والآيات القرآنية التي نزلت في مكة، تؤكد على عالمية الإسلام، وأن الرسول ε جاء للناس جميعا:

١- [وما أَرسلْناك إِلا رحمةً للْعالَمين] الأنبياء/١٠٧.

٢- [تبارك الذي نزلَ الْفُرقَانَ علَى عبده ليكُونَ للْعالَمين نذيرا] الفرقان/٠١.

٣- [قُل لا أَسأَلُكُم علَيه أَجرا إِنْ هو إِلا ذكْرى للْعالَمين] الأنعام/٩٠.

٤- [وما أَرسلْناك إِلا كَافَّةً للناسِ بشيرا ونذيرا] سبأ/٢٨.

٥- [قُلْ يا أَيها الناس إِني رسولُ اللّه إِلَيكُم جميعا] الأعراف/١٥٨.

وللدلالة على عالمية هذا الدين، وشمولية الدعوة؛ فقد جمع الإسلام في العهد المكي، بين صـهيب الرومي، وسلمان الفارسي، وأبو بكر القرشي، وبلال الحبشـي؛ وشـهد إسـلام وفـد نصـارى

---

(١)- سعيد حوى: الإسلام، شركة الشهاب للنشر والتوزيع، باب الواد- الجزائر، ط٢، (١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م)، ص٥٣٩.

(٢)- نوري: فقه السيرة النبوية، ص٣٤٥.

الحبشة[1].. فصاروا إخوة في الله، بفضل نعمة الإيمان، وكان الرسول ε يقول لوفد قريش عند أبي طالب، وهو يبشرهم بعالمية هذا الدين وانتصاره: { .. كلمة واحدة تعطونيها تملكون بها العرب، وتدين لكم بها العجم }[2]، وظهرت عالمية هذا الدين أيضا، أن انتقلت دعوته من عالم الإنس إلى عالم الجن، فقالوا: [إنا سمعنا قُرآنا عجبا، يهدي إِلَى الرشد فَآمنا بِه ولَن نشرِك بِربنا أَحدا] الجن (٠١ ، ٠٢)، وأحداث الهجرة إلى الحبشة وإلى المدينة، وبشريات أحداث حفر الخندق؛ بفتح اليمن والشام، والمغرب والمشرق، والتأسيس للانطلاق بالدعوة نحو الآفاق، عقب هزيمة الأحزاب، بقوله: { الآن نغزوهم ولا يغزوننا.. }[3]، وتجسدت هذه الانطلاقة عمليا، عقب التمكين للدعوة بعد صلح الحديبية، ومكاتبة الرسول ε للملوك والأمراء؛ يدعوهم إلى الإسلام،..الخ، وكل هذه الأحداث وغيرها، تدل بوضوح على عالمية الرسالة، وشمولية الدعوة[4].

ولقد فقه الجيل الأول من الصحابة ψ - والذي كان مثالا في التربية النبوية- ثقل المسؤولية وعظم الأمانة، فكان أن حقق الله على أيديهم، موعود نبيهم ε وبشرياته، فَفُتحت لهم الشام، وبلاد الروم، والعراق، وبلاد فارس، ومصر، واليمن؛ ودانت لهم الأرض في أقل من مائة عام[5]، فنالوا العزة والكرامة، بإخلاصهم وصدقهم، والخيرية بصالح أعمالهم، فكان أن أثنى الله عليهم من فوق سبع سماوات، في قوله تعالى: [كُنتم خير أُمة أُخرِجت للناسِ تأْمرونَ بِالْمعروف وتنهونَ عنِ الْمنكَرِ وتؤمنونَ بِاللّه] آل عمران/١١٠، وهل يفْقَه الخلف في عالمنا المعاصر، ما فَقهه السلف في عصر النبوة، وعصر الخلافة الراشدة ؟!.

هذه هي أهم المعالم البارزة التي ميزت منهجه ε في مواجهة التحديات والتي كانت تعترض طريقه في الدعوة إلى الله، والتي تمثل بحق، الأنموذج الحق، والمنهج الأمثل في الصبر والصمود؛ لإحقاق الحق وإزهاق الباطل، والمرجعية الحقة، لكل من تشرف للقيام بواجب الدعوة إلى الله، وتحمل مسؤولية التغيير والإصلاح، كل حسب موقعه؛ وقدرته أو استطاعته.

---

(١)- ابن هشام: السيرة النبوية، ج١، ص (٢٧١ ، ٢٧٢).
(٢)- المصدر نفسه، ج٢، ص٣٠٢. ورواه أحمد: رقم: ٣٤١٩، ج٥، ص٣٩٣.
(٣)- البخاري: ك. المغازي، باب: غزوة الخندق وهي الأحزاب، رقم: ٤١١٠، ص٧٨١.
(٤)- الغضبان: فقه السيرة النبوية، ص (٤٣٥ ، ٤٣٨).
(٥)- المصدر نفسه، ص٤٤٢.

الخـــاتمـــة

وبعد أن تم – بعون الله وتوفيقه – إ ا ء هذا البحث، يبقى من المفيد أن أبرز أهم النتـائج الـتي توصلت إليها من خلال ما تناولته بالبحث والدراسة لهذا الموضوع، والتي تتمثل فيما يلي:

١- رغم ما كان يتميز به الواقع الجاهلي من خصال نبيلة؛ كالكرم والسخاء، والشجاعة والمروءة، والذكاء والفطنة؛ إلا أن هذا الواقع عرف انحرافا خطيرا في العقيدة، كعبادة الأصـنام، والتـورط في مظاهر الشرك والوثنية، وسيادة النظام القبلي؛ بالخضوع لأعراف القبيلة، والإذعان لمشايخها، وكبراء القوم وأصحاب النفوذ فيها، إلى جانب انتشار وباء التعامل بالربا، والترف والبذخ، وامتهان المرأة في كرامتها؛ بإكراهها على البغاء، كما استحكم في ا تمع تعاطي الخمور، وممارسة الميسـر والقمـار، وكثرة مجالس اللهو التي يصحبها الشراب وهتك الأعراض، ومظاهر الفساد والظلم، وأكـل أمـوال الناس بالباطل، وغيرها كثير، مما يعكس مستوى الانحطاط الحضاري لإنسان عالم ما قبل الإسلام، مما استدعى الحاجة الماسة لنبي مرسل، ينقذ البشرية من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام.

٢- وما تعـرض له الرسول ε من حرب نفسية من طرف خصوم الدعـوة، يكشف بأن طبيعة الشر واحدة، لدى أعداء الإسلام، أينما كانوا ومتى وجدوا؛ فالأجهزة اليهودية، ومن ورائها الأجهزة الصليبية والشيوعية المعاصرة، تسعى جاهدة لتسليط أجهز ا، ووسائلها الإعلامية الحديثـة، لتشـويه

الإسلام، ومحاولة إلصاق مة الإرهاب برجاله، ومبادئه وتعاليمه، وما تنشره الصحف الدانمركية خير دليل على خبث نيتهم، وعظيم كيدهم في السعي لتنفير الناس من الإسلام؛ وإبعادهم عنه.

٣- إن ما لقيه الأنبياء عامة، وما لقيه الرسول ε من الأذى خاصة في سبيل نشر الإسلام، وإقامة ا تمع الإسلامي النظيف، يعد سنة إلهية في طريق الدعوة، تقتضيها صفة التكليف المتفرعة عن صـفة العبودية لله تعالى، والتي يجب أن يتحمل لأجلها المسلم كثيرا من الشدة والأذى؛ لإقامة شريعة الله في نفسه ثم في مجتمعه. وفي المقابل يدل اعتداء أهل الباطل في معاملة أهل الحق، تعبيرا واضحا عن درجة العداوة والحقد، والإفلاس في مجال الفكر والحجة البيانية، مما جعلهم يتصرفون بمقتضى عـواطفهم لا بمنطق عقولهم.

٤- سجل الرسول ε للبشرية، أعظم مثال في الرحمة والحلم والعفو، فرغم ما لقيه من أهل ثقيف؛ إلا أنه فضل أن لا يقبل عرض ملك الجبال، بأن يطبق عليهم الأخشبين، وتمـنى أن يخـرج الله مـن أصلا م من يعبد الله ولا يشرك به شيئا، فكان الأفق البعيد الذي يحمله في هدايـة قومـه، يفـوق إحساسه بالرغبة في الانتقام من أعدائه.

٥- إن سلاح الإغراء يعد أكبر سلاح يستعمله الأعداء في محاربة الدعوة، فقد يصادف الدعاة في طريق دعو م هذا التحدي، فيفتنون في دعو م بالمناصب العالية، وربما بالنساء والمال، فيبيعون دينهم؛ ويخسرون دنياهم وآخر م، ويحقق الأعداء بالإغراء ما عجزوا عنه بحد السلاح.

٦- وكما قد يتعرض الدعـاة لأسلوب الترغيب والإغراء، فقد يتعرضون لأسلـوب المسـاومة والتهديد، وهذا ما درج عليه الأنبياء في نزالهم مع دعاة الباطل، فلا يستغرب الدعاة في كل عصر أن يقعوا تحت طائلة المساومة والتهديد، سواء التهديد بالسجن، أو الفصل من المنصب، أو تجميد الأموال ومصـادرة الممتلكات، وقد تعرضت حركات إسلامية لهذا الابتزاز والتهـديد؛ بـل هنـاك دول وحكومات، وقعت تحت ضغط التهديد؛ بسبب مواقفها المخالفة لإيديولوجيات القوى المعادية، فإما أن تكون تابعة؛ وإلا هددت بالمقاطعة الاقتصادية، والعزلة السياسية.

٧- إن ما تعـرض له النبي ε من مطالب تعجيزية، والتي أريد ا قلب الحقائق، وخرق القـوانين الطبيعية والسنن الكونية؛ إنما تدل بوضوح على عجز المشركين، وفشلهم الذريع في مواجهة الدعوة، وعن تعنتهم وعنادهم، وهـرو م من الحق وتجنب الصواب. وما تعرض لـه النبي ε قد يتعرض له الدعاة في كل عصر، فنجد مثلا قيادات الفكر المادي، أو الفكر الشيوعي، يرفضون فكـرة الإيمـان باليوم الآخر؛ بدعوى عدم المشاهدة، ويرفضون فكرة الإيمان بالله؛ بدعوى أ م لا يرونه.

٨- ما تعرضت له الدعـوة من حصار اقتصادي واجتماعي، قد يتعـرض له الدعاة، وتتعرض له الأمة الإسلامية، بحكم تمسكها بدينها ومشروعها الحضاري، فتكون عرضة لأبشع جرائم التجويـع، ويكون الدعاة وقادة الأمة عرضة للحرمان من أبسط حقوقهم؛ كالطرد مـن الوظـائف، وتجميـد أرصد م، ومصادرة ممتلكا م، وحرما م من السفر؛ وحتى الحكم بالسجن على من تتحرك دوافعـه الإنسانية، بتقديم يد المساعدة، لعائلا م المنكوبة، والقصـد العمل على إفنائهم، وإباد م عن بكـرة أبيهم.

٩- انتهج التشريع الإسلامي سياسة التدرج في الإذن بالجهاد، مما يدل على أن الإسلام لا يبـادر بالحرب، ولا يقرها اعتداء، فالحرب في الإسلام حرب دفاعية؛ لا يعتدي المسلمون فيها على أحـد، ولا يقاتلون إلا مكرهين ومضطرين، يحدوهم أثناء خوضها تحقيق هدفين، هما:

أولا: حماية حرية نشر الدعوة، لا نشرها بالقوة، لقوله تعالى: [لاَ إِكْرَاه في الدينِ قَد تبين الرشد من الْغي] البقرة/٢٥٦.

ثانيا: توطيد أركان الدولة، بأن يكون للـدولة جيش قوي، يحترم العدو من خلاله إراد ا، ويهاب قو ا، فلا يراوده الاعتـداء عليها، ومن ثم يسود الأمـن والسلام، لقوله تعالى: [وأَعدواْ لَهم مـا استطَعتم من قُوة ومن رباط الْخيلِ ترهبونَ بِه عدو اللّه وعدوكُم وآخرِين من دونِهِم لاَ تعلَمونهم اللّه يعلَمهم] الأنفال/٦٠.

فالجهاد في الإسلام ذا المعنى، يعد مدرسة لتزكية النفس، يبذل المسلمون فيه أنفسهم وأمـوالهم؛ دفاعا عن دينهم وعقيد م.

١٠- إن النبي ε لم يكن يطلب الحرب لأجل الحرب؛ لكن إذا لزمته ودعته إليها الضرورة، كـان نعم القائد البصير؛ فنجده بجوار رسالته العظمى – مصدر الإلهام والهداية – تظهر عبقريته العسكرية، في حسن قيادته للجيش، وترسيم خططه؛ واستجماع الأسباب الحقيقية للنصر.

١١- حرص النبي ε خلال مسيرته على تطبيق مبدأ الشورى، امتثالا لقوله تعالى: [وشاوِرهم في الأَمرِ] آل عمران/١٥٩، وعملا بقوله أيضا: [وأَمرهم شورى بينهم] الشورى/٣٨؛ لمـا في هـذا المنهج من تربية للأمة، وحسن إعدادها، لتتحمل مسؤوليا ا، وتقرر مصيرها بنفسـها، بالمشـاركة الفاعلة في اتخاذ القرارات المناسبة، و ذا المنهج كان الرسول ε بحق أنموذجا لدعاة الأمة وقاد ـا، في مجال السياسة الشرعية.

١٢- برزت عبقرية الرسول ε السياسية بجانب عبقريته العسكرية؛ في حسن إدارته لاتفاق صـلح الحديبية، وما نتج عنه من مكاسب عظيمة للـدعوة، بحيث لم ينحسر نشاطها داخل الجزيرة العربية فقط؛ بل أمست دعـوة عالمية بمكاتبته للملوك والأمراء يدعوهم إلى الإسـلام، مما زاد في تثبيـت أصحابه، وانتشار دعوته؛ وإعزاز دينه.

١٣- لم تكن سياسة الرسول ε مع اليهود في بداية الأمر، تعتمد على المعـاداة أو المصـادرة أو الخصام؛ بل سارع أثناء حلوله بالمـدينة إلى عقد معاهدة معهم، يتمتع بموجبها اليهـ ـود، بكامـل حقوقهم، كالحرية في الدين والمال، دف توفير الأمن والسلام، وجلب الخير والرفاهية للجميـع؛ إلا أن اليهود اختاروا النقض على الوفاء، والخيانة على الالتزام، وصاروا عونا للأعداء في محاربة الإسلام وأهله، فتأكـد ذا لدى كل مسلم، عدم الركون إليهم، أو الاطمئنان إلى عهـودهم ومـواثيقهم، فميز م أ م لا عهد لهم ولا ميثاق.

١٤- شكل المنافقون دورا خطيرا، يفوق دور المشركين واليهود في محاربة الدعوة، بحكم طبيعـة شخصيتهم وازدواجية معاييرهم، لقوله تعالى: [وَإِذَا لَقُواْ الذين آمنواْ قَالُواْ آمنـا وَإِذَا خَلَـواْ إِلَـى شياطِينِهِم قَالُواْ إِنا معكُم إِنما نحن مستهزِؤونَ] البقرة/١٤؛ لذلك تولى القرآن فضـحهم، وتعريـة نفاقهم؛ بكشف مخططا م، في نشر الفتن وبث القـلاقل؛ لتفريق وحدة المسلمين، وإثارة الشائعات لتشويه شخصية الرسول ε ومحاربة دعوته. وصاروا مع اليهود يتربصون بالإسلام الدوائر، ويحيكون ضده المؤامرات والدسائس؛ لإلحاق الهزائم به، والقضاء على دعـوته. ولم يعد النفاق أمرا تاريخيـا فحسب؛ بل صار واقعا مريرا، ينخر جسد الأمة، ويوهن عزيمتها، ويحارب عقيد ا، فقد تجـد مـن المحسوبين على الإسـلام، قد تسلموا راية النفاق مقابل مغنم أو منصب، وتراهم يتكلمون باسمـه؛ ليحرفوا الكلم عن مواضعه، فضلوا وأضلوا.

١٥- كانت مكاتبة الرسول ε للملوك والأمراء، تعبيرا عمليا على أن دعوة الإسلام ليست دعوة محلية، أو قومية، أو إقليمية؛ بل دعوة عالمية، وجب على الجميع القيام ا، أفـرادا أو جماعـات أو هيئات، كل حسب موقعه وقدرته.

١٦- عكست قيمة الـتربية النبوية لجيل الصـحابة ψ، حقيقة التناغم الذي ينبغي أن يكون بين الأمة وقائدها، والذي يعد ضـروريا ولازما؛ لتحقيق ضة الأمـة في إطار مشروعها الحضـاري، فشكلت هذه الفئة أنموذجا لكل جيل، صار يحكي قصصهم الأسطـورية؛ في الشجاعة، والرغبة في

الجـهاد والاستشهاد، وتحمل الجوع والعطش، والحـرارة الشديدة؛ هدفهم من كل هذا أن يضفروا بالجنة، ويتجنبوا نار جهنم.

١٧- لقد نجحـت استراتيجية الدعوة في تحقيق أهـدافها، بما تميزت به من ثبات على المبدأ وفق مقررات الشرع، ومن مرونة حركية في تغيير واقع الإنسان الجاهلي إلى واقع إسلامي بـديل، وما وظفته من إمكانيات مختلفة ومتاحة، بفـعالية وإيجابية في مواجهة التحـديات، وكيفية التعامل مـع الحوادث والمشكلات، وتذليل كل العقبات؛ لضمان استمرارية الدعوة، والعمل على توسيع كيـان الدولة، دون كلل ولا ملل، وبثقة عالية في توفيق الله ونصره، وحسن التوكل عليه، والاستعانة به.

١٨- لقد برهن الإسلام باعتماده سياسة التدرج في الدعوة أو في التشريع الإسلامي، لمعالجة الواقع الجاهلي المريض، مراعيا في ذلك الجانب العقلي والنفسي؛ بأنه أبعد نظرا، وأهدى سـبيلا، وأنجـح تشريعا، وأنجع سياسة من الأمم التي تدعي التحضر، والتي أفلست وفشلت في إبعاد شـعوبها عـن الفسـاد وأمهات الخـبائث، مما يدل بوضوح، على إعجاز الإسلام وصـلاح شريعته، في سياسـة الشعوب، وتهذيب أخلاقها وسلوكها.

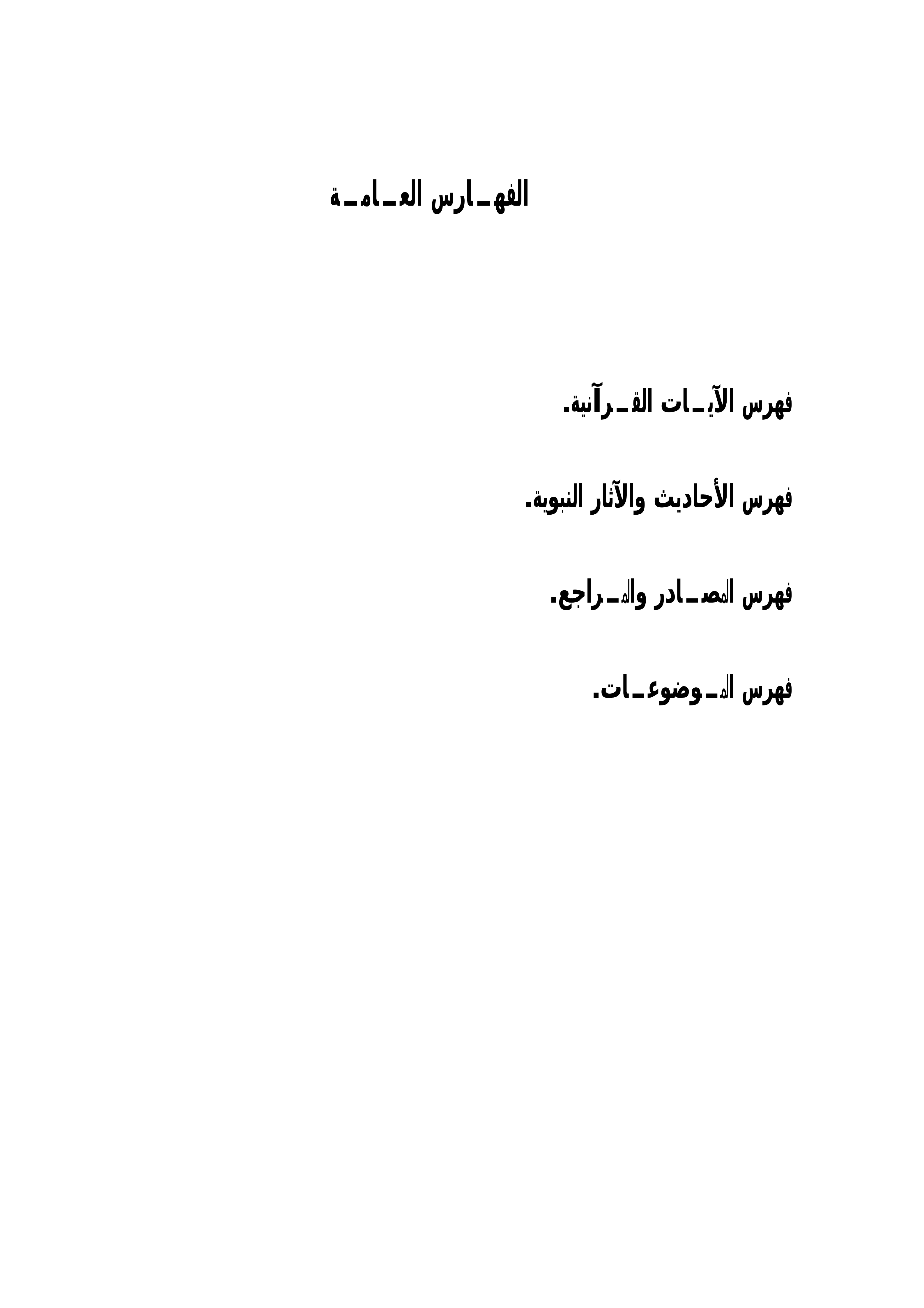
١٩- يعد غياب فقه الأولويات في أبجديات العمل الإسـلامي، من المعـوقات الرئيسية للدعوة، وأحد التحديات البارزة التي تواجه مسيرتها، وتعرقل تقدمـها نحو تحقيق أهدافها، ويرجع غياب هذا الأمر إلى ضعف البصيرة بالدين، وبالواقع؛ وبالحياة.

٢٠- لقد نجحت الدعوة في تحقيق أهدافها في بناء الإنسان، وإعداد القاعدة المؤمنة، على منـهج تزكية الأرواح، وتنوير العقول، والمحافظة على الأجساد، وتقويتها بما يحفظ توازنها، وتهذيب الـنفس بمكارم الأخلاق؛ استعدادا لمواجهة التحديات، وتحمل الصعاب في سبيل نشر دعوته، والقيام بوظيفته وواجبه.

٢١- إن نجاح النبي ε في وضع الأسس الهامة في بناء الدولة، يعد الأنموذج الفريد، والذي بقي محل أنظار الدارسين والباحثين، ليكتشفوا من خلاله عبقرية الرسول ε تنظيما وتخطيطا، وعظمة رسالته، في نشر الخير، وإقامة العدل، وهداية البشر، ومحاربة الشر ومواجهة الظلم؛ وتوفير السعادة للبشـرية جمعاء.

هذه أهم النتائج التي توصلت إليها من خلال هذه الدراسة، فإن أصبت فذلك من الله وحده، وإن أخطأت فمن نفسي ومن الشيطان.

وأسأل الله أن ينفعني بما تعلمت وقدمت، وينفع به سائر المسلمين، والحمد لله رب العالمين.



الفهـارس العـامـة

فهرس الآيـات القـرآنية.

فهرس الأحاديث والآثار النبوية.

فهرس المصـادر والمـراجع.

فهرس المـوضوعـات.

١- فهرس الآيات القرآنية.

الآية الكريمة ورقمها	الصفحة

[سورة الفاتحة]

[سورة البقرة]

[سورة النساء]

[سورة المائدة]

[سورة الأنعام]

[سورة الأعراف]

[سورة الأنفال]

[سورة التوبة]

[سورة يونس]

[سورة هود]

[سورة يوسف]

[سورة الرعد]

[سورة إبراهيم]

[سورة الحجر]

[سورة النحل]

[سورة الإسراء]

[سورة مريم]

[سورة طه]

[سورة الأنبياء]

[سورة الحج]

[سورة المؤمنون]

[سورة النور]

[سورة الفرقان]

[سورة الشعراء]

[سورة النمل]

[سورة القصص]

[سورة العنكبوت]

[سورة الروم]

[سورة لقمان]

[سورة الأحزاب]

[سورة سبأ]

[سورة فاطر]

[سورة الصافات]

[سورة ص]

[سورة الزمر]

[سورة غافر]

[سورة فصلت]

[سورة الشورى]

[سورة الزخرف]

[سورة الجاثية]

[سورة الأحقاف]

[سورة الفتح]

[سورة الحجرات]

[سورة ق]

[سورة الذاريات]

[سورة الطور]

[سورة المنافقون]

[سورة القلم]

[سورة الحاقة]

[سورة الجن]

[سورة المزمل]

[سورة المدثر]

[سورة الإنسان]

[سورة عبسى]

[سورة التكوير]

[سورة المطففين]

[سورة الفجر]

[سورة اليل]

[سورة الشرح]

[سورة العلق]

[سورة العصر]

[سورة قريش]

[سورة الكافرون]

[سورة المسد]

٢- فهرس الأحاديث والآثار النبوية.

طرف الحديث	الصفحة

أ

ب

ت

ذ

ن

ع

ف

ق

هـ

و

لا

ي

٣- فهرس المصادر والمراجع

أ

٠١- أحمد محمد جمال: **مفتريات على الإسلام**، مكتبة رحاب- الجزائر، ط٥، (١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م).

٠٢- أكرم ضياء العمري: **السيرة النبوية الصحيحة،** الجزء الثاني، مكتبة العبيكان- الرياض، ط١، (١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م).

٠٣- الأصبهاني أبو نعيم: **دلائل النبوة**، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان- ط١، (١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م).

٠٤- أحمد العايد: **المعجم العربي الأساسي**، وآخرون، توزيع لاروس، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم دون طبعة ودون تاريخ.

٠٥- أحمد بن حنبل الإمام: **المسند**، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه، شعيب الأرنؤوط، وعادل مرشد، الجزء الخامس، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، ط٢، (١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م).

٠٦- إبراهيم العلى: **صحيح السيرة النبوية**، دار النفائس للنشر والتوزيع- الأردن، ط٧، (١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م).

٠٧- إبراهيم علي محمد أحمد: في **السيرة النبوية " قراءة لجوانب الحذر والحماية "**، سلسلة كتاب الأمة، العدد: ٥٤، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدوحة- قطر، ط١، (١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م).

ت

٠٨- اتيين دينيه- سليمان ابرهيم: **محمد رسول الله** ε، ترجمة د/ عبد الحليم محمود، و د/ محمد عبد الحليم، منشورات المكتبة العصرية، صيدا- بيروت. بدون طبعة وبدون تاريخ.

ج

٠٩- جمعة أمين عبد العزيز : **الدعوة قواعد وأصول**، دار الصديقية للنشر، حسين داي- الجزائر، ط٢، بدون تاريخ.

١٠- جميل أبو نصري وآخرون: **المعجم العربي المصور، عربي عربي**، دار الراتب الجامعية، بيروت- لبنان، بدون طبعة وبدون تاريخ.

١١- الجيلاني بن الحاج يحي وآخرون: **القاموس الجديد للطلاب**، معجم مدرسي ألفبائي، المؤسسة الوطنية للكتاب- الجزائر، ط٧، (١٤١١هـ/ ١٩٩١م).

ح

١٢- حسين مؤنس: **دراسات في السيرة النبوية**، ص١٢٣، ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائر، بدون طبعة وبدون تاريخ.

١٣- حسن البنا: **مجموعة رسائل**، شركة الشهاب للنشر والتوزيع، ط٢، بدون تاريخ.

ر

١٤- رؤوف شلبي: **الدعوة الإسلامية** في **عهدها المكي- مناهجها وغايا ا-**، دار القلم ، الكويت، ط٥، (١٤٠٧هـ/١٩٨٧م).

ط

١٥- الطيب برغوث: **منهج النبي** ε في حماية **الدعوة والمحافظة على منجزا ا خلال الفترة المكية**، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا- أمريكا، ط١، (١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م).

١٦- الطيب برغوث: **معالم هادية على طريق الدعوة** إلى **الإسلام**، دروس مختارة، القسم الأول، دار الشهاب ، باتنة- الجزائر ، دون طبعة ودون تاريخ.

١٧- الطيب برغوث: **الواقعية** في **الدعوة** إلى **الإسلام " ضرور ا- السبيل إليها "**، دار الشهاب للطباعة والنشر، باتنة- الجزائر، ط١، (١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م).

م

١٨- محمد عبد الحكيم خيال: **الأصول العشرين للإمام الشهيد حسن البنا- شرح وتحليل-**، مكتبة رحاب، بور سعيد- الجزائر، بدون طبعة وبدون تاريخ.

١٩- محمد عبد القادر أبو فارس: **الإبتلاء والمحن** في **الدعوات**، دار الشهاب للطباعة والنشر- باتنة، ط٢، (١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م).

٢٠- محمد علي الصابوني: **التبيان** في **علوم القرآن**، مكتبة رحاب، بور سعيد- الجزائر، ط٣، (١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م).

٢١- محمد بن أحمد أبو عبد الله الأنصاري القرطبي: **الجامع لأحكام القرآن**، دار إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان، بدون طبعة، ١٩٦٧م.

٢٢- محمد عبد المنعم خفاجي: **الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام**، دار الجيل- بيروت، بدون طبعة، (١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م).

٢٣- محمد حسين هيكل: **حياة محمد** ε، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت- لبنان، ط١، (١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م).

٢٤- محمد علي الصابوني: **روائع البيان تفسير آيات الأحكام**، ج٢، مكتبة رحاب، بور سعيد- الجزائر، ط٤، (١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م).

٢٥- محمود شيت خطاب اللواء الركن: **الرسول القائد**، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، ط٦، (١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م).

٢٦- **المصحف الإلكتروني:** cd-rom، المصمم، ب ، ع.

٢٧- محمد أمحزون: **منهج النبي** ε في **الدعوة من خلال السيرة الصحيحة**، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ، القاهرة – مصر ، ط٣ ، (١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م).

٢٨- مصطفى ديب البغا: **مختصر سنن الترمذي**، اختصره وشرح جمله وألفاظه وعلق عليه، اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق- بيروت، ط٢، (١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م).

٢٩- مصطفى ديب البغا: **مختصر سنن أبي داود**، اختصره وشرح جمله وألفاظه وعلق عليه، اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع، ط٢، (١٤١٩هـ / ١٩٩٨م).

٣٠- محمد بسام رشدي الزين: **مدرسة الأنبياء – عبر وأضواء-**، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق- سوريا، ط١، (١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م).

٣١- منير الغضبان: **المنهج الحركي للسيرة النبوية**، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع- ج م ع- المنصورة، ط١٥، (١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م).

٣٢- محمد فؤاد عبد الباقي: **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، (١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م).

٣٣- مالك بن أنس الإمام: **الموطأ**، برواية يحي بن يحي بن كثير الليثي الأندلسي القرطبي، صيدا- بيروت، خرج أحاديثه وعلق عليه نجيب ماجدي، ط١، (١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م).

٣٤- محمد علي الصابوني: **صفوة التفاسير**، دار الضياء- قسنطينة، ط٥، (١٤١١هـ/ ١٩٩٠م).

٣٥- محمد بن إسماعيل البخاري أبو عبد الله: **صحيح البخاري**، بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع، الرياض- العربية السعودية، بدون طبعة، بتاريخ: (١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م).

٣٦- مسلم بن الحجاج بن مسلم أبو الحسين القشيري النيسابوري: **صحيح مسلم المسمى: الجامع الصحيح**، المكتبة العصرية، صيدا- بيروت، ط١، (١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م).

٣٧- منير محمد الغضبان: **فقه السيرة النبوية**، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع- المنصورة، ش م م، ط١، (١٤١٧هـ/١٩٩٧م).

٣٨- موفق سالم نوري: **فقه السيرة النبوية " قراءة سياسية دعوية حركية "**، دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق- بيروت، ط١، (١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م).

٣٩- محمد الغزالي: **فقه السيرة**، مكتبة رحاب- الجزائر، (١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م).
٤٠- محمد سعيد رمضان البوطي: **فقه السـيرة**، دار الشهاب للطباعة والنشر- باتنة، طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، وحدة الرغاية، ١٩٨٨م- الجزائر.
٤١- محمد بن محمد أبو شهبة: **السيرة النـبوية** في **ضوء القرآن والسنة**، الجزء الثاني، دار القلـم- دمشق، ط٥، (١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م).
٤٢- مصطفى السباعي: **السـيرة النبوية – دروس وعبر-**، دار الزهراء للنشر والتوزيع- الجزائر، ط٢، ١٩٩٣م.
٤٣- محمود المصري أبو عمار: **سـيرة الرسول** ع، جمع وترتيب، المكتبة التوفيقية، بـدون طبعـة وبدون تاريخ.
٤٤- محمد متولي الشعراوي: **السيرة النبوية**، المكتبة التوفيقية، القاهرة- مصر، بدون طبعة وبـدون تاريخ.
٤٥- محمد بن محمد بن محمد سيد الناس أبو الفتح اليعمري: **السيرة النبوية " عيون الأثر** في **فنـون المغازي والشمائل والسير "**، مكتبة دار التراث- المدينة المنورة، ودار ابن كثير، دمشق- بـيروت، ط١، (١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م).
٤٦- محمد بن يزيد أبو عبد الله القزويني الشهير ب (ابن ماجة): **سنن ابن ماجة**، مكتبة المعـارف للنشر والتوزيع- الرياض، ط١، وبدون تاريخ.
٤٧- محمد أبو زيد: **هدي الرسول** ع، مطبعة الاستقامة- القاهرة، ط٥، بدون تاريخ.
٤٨- محمد عفيف الزغبي: **مختصر سيرة ابن هشام**، دار النهضة، بدون طبعة، بيروت، (١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م).

ن

٤٩- نديم مرعشيلي، أسامة مرعشيلي: **الصحاح** في **اللغة والعلوم**، دار الحضارة العربية – بيروت، ط١، ١٩٧٤م.
٥٠- نعماني المكي: **السـيرة النـبوية " محـمد** ع **"**: الجزء الأول، مطبعة دحلب، حسين داي- الجزائر، بدون طبعة وبدون تاريخ.

ص

٥١-صلاح محمد زكي: **الدعوة إلى الله بالحكمة، نموذج الإخوان المسلمين (رسالة ماجستير)**، دارالتوزيع والنشر الإسلامية، مصر- القاهرة، ط١، (١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م).

٥٢- صفي الرحمن المباركفوري: **الرحيق المختوم**، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع- بيروت، ط١، (١٤٢٥- ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٦م).

٥٣- صلاح عبد الفتاح الخالدي: **الشخصية اليهودية من خلال القرآن**، شركة الشهاب للنشر والتوزيع، باب الواد- الجزائر، ط١، (١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م).

ع

٥٤- عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان- بدون رقم الطبعة وبدون تاريخ.

٥٥- عمر سليمان الأشقر: **تاريخ الفقه الإسلامي**، قصر الكتاب البليدة – الجزائر، تصوير وسحب دار البعث، قسنطينة– الجزائر، رقم الإيداع القانوني: ٤٥١٦٣/.١٩٩٠

٥٦-عبد العزيز بن عبد الله الحميدي: **التاريخ الإسلامي**، دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع- الإسكندرية، ط١، (١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م).

٥٧- عبد الحليم الكناني: **الدعوة الفردية- قواعد وأصول-**، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة- مصر، ط١، (١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م).

٥٨- علي محمد جماز: **دراسات** في **السيرة النبوية**، دار القلم- الكويت، ط١، (١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م).

٥٩- عماد الدين خليل: **دراسة** في **السيرة**، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع- بيروت، ط١٠، (١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م).

٦٠- عبد العزيز كامل: **دروس من غزوة أحد**، دار المعارف- القاهرة، ط٣، (١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م).

٦١- عبد الحليم محمود: **الرسول** ε، المكتبة العصرية- بيروت، بدون طبعة وبدون تاريخ.

٦٢- علي الحسني الندوي أبو الحسن: **ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين**، دارالشهاب، باتنة- الجزائر، ط١، (١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م).

٦٣- علي الحسني الندوي أبو الحسن: **مقالات إسلامية** في **الفكر والدعوة**، ج٢، إعداد سيد عبد الماجد الغوري، دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، (١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م).

٦٤- عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير ، تحقيق الدكتور/ أحمد عبد الوهاب فتيح: **البـــداية والنهاية**، دار الحديث- القاهرة، ط٦، (١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م).
٦٥- عبد الحليم محمد الرمحي: **مفاهيم** في **فقه الدعوة وأساليبها**، دار مكتبة الحامد للنشر والتوزيع، عمان- الأردن ، ط١ ، (١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م).
٦٦- علي جريشة: **مناهج الدعوة وأساليبها**: مكتبة رحاب– الجزائر، ط٢، (١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م).
٦٧- علي مرحوم: **من مدرسة النبوة**، دار البعث للطباعة والنشر، قسنطينة- الجزائر، ط١، (١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م).
٦٨- عمر سليمان الأشقر: **العقيدة** في **الله**، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، وحدة الرغاية- الجزائر، بدون طبعة، (١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م).
٦٩- عباس محمود العقاد: **عبقرية محمد** ε، المكتبة العصرية، الرويبة- الجزائر.
٧٠- علي محمد الصلابي: **فقه النصر والتمكين** في **القرآن الكريم**، مؤسسة اقرأ للنشـــر والتوزيـــع والترجمة- القاهرة، ط١، (١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م).
٧١- علي محمد محمد الصـــلابي: **السيرة النبوية**، دار الفجر للتراث- القاهرة، ط١، (١٤٢٤هـــ/ ٢٠٠٣م).
٧٢- علي الحسني أبو الحسن النـــدوي: **الســـيرة النبوية**، دار القلم- دمشق، ط٣، (١٤٢٧هـــ/ ٢٠٠٦م).
٧٣- عبـــد الملك بن هشام أبو محمد المعافـــري: **السيرة النبوية**، المعروفـــة بسيرة ابن هشـــام، دار الحديث- القاهرة،بدون طبعة، (١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م).
٧٤- عبد الله أبو محمد بن رام الدارمي: **ســـنن الدارمي**، ا لد الثاني، دار الفكر للطباعة والنشـــر والتوزيع، بدون طبعة وبدون تاريخ.

س

٧٥- السيد سابق: **إسلامنا**، طبع بترخيص من وزارة الشؤون الدينية، تحت رقم: ٨٨/٢٠٤، بتاريخ: ١٤٠٨/٠٨/٠٢هـ/ الموافق ل: ١٩٨٨/٠٣/٢٠م. ومطابع دار البعث بقسنطينة، رقم الإيداع القانوني: ٣٩٦٩٦/ ١٩٨٨م.
٧٦- السيد سابق: **دعوة الإسلام**، دار الفكر، بيروت- لبنان، دون طبعة، (١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م).

٧٧- سعيد حوى: **الرسـول** ε، شركة الشهاب للنشر والتوزيع، باب الواد – الجزائر، دون طبعة ودون تاريخ. شركة الشهاب للنشر والتوزيع، باب الواد – الجزائر، دون طبعة ودون تاريخ.
٧٨- سعيد حوى: **الإسـلام**، شركة الشهاب للنشر والتوزيع، بـاب الـواد- الجزائـر، ط٢، (١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م).
٧٩- السيد سابق: **العقائد الإسلامية**، دار الكتاب العربي، بيروت- لبنان، دون طبعة ودون تاريخ.
٨٠- سيد قطب: في **ظلال القرآن**، دار الشروق- بيروت، ط١١، (١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م).
٨١- سيد قطب: **فقه الدعـوة " موضوعات** في **الدعـوة والحركة"، مؤسسة الرسالة، ط**١ **،** (١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م **).**

ش

٨٢- شمس الدين أبو عبد الله ابن القيم الجوزية: **فقه السيرة**، جمع وإعداد، عماد زكي البـارودي، المكتبة التوفيقية، بدون طبعة وبدون تاريخ.
٨٣- شمس الدين أبو عبد الله ابن القيم الجوزية: **زاد الميعاد** في هدي خير العباد، المجلـد الأول، دار الكتاب العربي، بيروت- لبنان، بدون طبعة وبدون تاريخ.

ي

٨٤- يوسف القرضاوي: **أولويات الحركة الإسلامية** في **المرحلة القادمة**، من سلسـلة الصـحوة الإسلامية، رقم الإيداع بدار الكتاب: ٧٣٢٦ / ١٩٩٠م.
٨٥- يوسف القرضاوي: **الإيمـان والحياة**، دار الشهاب، باتنة- الجزائر، دون طبعة ودون تاريخ.
٨٦- يوسف القرضاوي: **الصـحوة الإسـلامية بين الجحـود والتطـرف**، من سلسلة الصحوة الإسلامية بدون طبعة وبدون تاريخ.
٨٧- يحي بن شرف أبو زكريا النووي: **رياض الصـالحين**، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، وحدة الرغاية، ١٩٨٨م، شركة الشهاب- الجزائر.

بالإضافة إلى:

٨٨- أحمد عيساوي: **دراسات وأبحاث** في **تاريخ الدعوة والدعاة**، ج١، بحوث علمية خاصة بالسنة الثانية، قسم أصول الدين (الجذع المشترك)، كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية-جامعة باتنة.
٨٩- **جـريدة " الشـروق اليومي " الجـزائرية:** مقال: تزايد عدد الدنمـركيين الذين يعتنقـون الإسلام،العدد: ١٥٧٢، ص٢٢، نقلا عن صحيفة: " البوليتكن " الدنماركية.

٤- فهرس الموضوعات.

الفصل الثاني

ملخص البحث

لقد تناولت بالدراسة في هذا البحث، منهج النبي ε في مواجهة التحديات المختلفة، والتي كانت تعترض دعوته.

وجاء هذا البحث في مقدمة، وفصل تمهيدي، وثلاثة فصول محورية، وخاتمة.

وقد خصصت الفصل التمهيدي، للحديث عن الدعوة وواقع البيئة الجاهلية، وتحديد المفاهيم المفتاحية للبحث.

وتحدثت في الفصل الأول عن تحديات الدعوة في العهد المكي، والمتمثلة في: تحدي الحرب النفسية (الإعلامية)، وتحدي الأذى الجسدي، وتحدي الترغيب والترهيب، وتحدي التعنت والتعجيز، ثم تحدي المقاطعة والحصار الاقتصادي والاجتماعي؛ ومنهجه ε في مواجهتها.

وتحدثت في الفصل الثاني عن تحديات الدعوة في العهد المدني، والمتمثلة في: تحدي المشركين، الذين كانوا يشكلون القوة الإقليمية الكبرى لتهديد المسلمين، وتحدي اليهود الحاقدين الماكرين، وتحدي المنافقين بحكم شخصيتهم، وازدواجية معاييرهم، ثم تحدي الفرس والروم، الذين كانا يعتبران أن الخطر يكمن في صاحب هذا الدين الجديد؛ ومنهجه ε في مواجهتها.

كما وقفت في الفصل الثالث على أهم المعالم البارزة التي ميزت منهجه ε في مواجهة التحديات، كثباته على المبدأ، وواقعيته ومرونته في تعامله مع الأحداث، ومعالجته للمشكلات، وما امتاز به من فعالية في توظيف الإمكانات المتاحة، وحسن استثمارها لصالح الدعوة، وباستمرارية وتواصل دون كلل ولا ملل، وما اتصف به من أخلاق عالية ونبيلة، شكلت المنهج الأمثل في جذب الناس إلى الإسلام، والتمسك به عقيدة، والعمل به شريعة، مما يدل على إخلاصه العميق، وحسن توكله على الله؛ والاستعانة به.

كما انتهج الرسول ε مبدأ التدرج في الدعوة وفي التشريع؛ تماشيا مع السنن الجارية، وطبيعة النفس البشرية، التي لا تقبل التغيير الحاد؛ بل تتجاوب مع التغيير التدريجي، مراعيا في ذلك سلم الأولويات دون إفراط ولا تفريط، عاقدا العزم بثبات وصبر على إعادة بناء الإنسان؛ ليكون إنسانا صالحا، مؤهلا لحمل أمانة الله في الأرض؛ بعمارتها وعبادته، ويقيم دولة الإسلام في نفسه قبل إقامتها على أرضه، فيحقق بها الخير والعدل، ويحارب بها الفساد والظلم، ويخدم بها دينه؛ ويبلغ بها دعوته.

The research summary

I have dealt in my modest research, the methodology, our prophet (p b u h) he used to face the different challenges which faced his prophetic way.

This research is presented under the following forms, An introduction and a preumble, three main parts and a con conclusion.

I have focused on the first part on the prophet is DAAWA the invitation of the korichi people to the religion of Islam and to the pre Islamic sowetry ALJAHILIA the Ignorance era. I have also specified the key points of my research.

In the first part, I talked about the challenges that faced the daawa (the prophet call for Islam) in the mekki era; this consisted facing and challenging the psychological war (media war), also facing the physical torture and facing also the terror, obstacles then challenging the social and economical boy cott and how did he manage to face this.

In the second chapter, I dealt with the challenges that faced the daawa in the madani era; this consisted on facing the monmoslums who formed a big forces that was threatening meslems. Also this challenge against the disgraceful lenis and hypocrites with then double role they played. There people believed that they should fight this man (the prophet p b u h) and his way.

In the third chapter, I focused on the most important facts that characterized his methodology of Daawa in facing the different obstacles and problems, his realistic and flexibility in dealing with different events, and how he solved the problems, and how he mad in use the possibilities he had at that time and how he used there later successfully in Daawa, without getting bored or giving up. In addition to there, I dealt with his high and distinguished moral values he had and which shaped the best way to attract people to Hein to embrace Islam; and to get stacked to this faith and practice this religion, this shows his deep devotion and his complete reliance on ALLAH.

The prophet has also followed the step by step way to ret his call DAAWA with people along with the environment at that tune and people is way of life, thinky and believing he wanted to change a way of life but this was in a slow and progressively, with a strong will and great patient he started to build up a new man, citizen, a useful one able to carry out ALLAH is order is on earth to people and to establish the nation of Islam in himself before setting it on the ground of reality, thus benefits and justice will be realized and fight corruption, serve his religion and transmit the call to ALLAH Daawa.

Résumé

Dans cette recherche, j'ai abordé par l'étude de la ligne de conduite du prophète Mohammed (que la bénédiction et le salut de Dieu soient sur lui) dans la confrontat-ion des différents défis et qui entravaient sa prédication.

Cette recherche comprend un préambule, un chapitre introductif et trois chapitres asociales et une concussion.

Dans le chapitre introductif j'ai évoque la prédication et la réalité de l'environne-ment de la djàriliya et la définition dés notions dés de la recherche.

Dans le premier chapitre j'ai abordé les défis durant la période mecquoise qui concernent : le défi de la guerre psychologique (médiatique) le défi du tort physique le défi de la terreur et la tentation, le défi de l'obstination et le défi du boycott économique et social et sa conduite pour y faire face.

Dans le deuxième chapitre, j'ai abordé les défis de la prédication durant la période médinoise qui concernent le défi des mécréants qui constituaient la plus grande force régionale menaçant les musulmans, le défi des juifs rancuniers et insidieux, le défi des hypocrites vu leur personnalité et la duplicité de leur critères puis le défi des perses et les romains qui considéraient que le danger consistaient en cette nouvelle religion et la ligne de conduite du prophète (que la bénédiction et le salut de Dieu soient sur lui) pour y faire face.

Dans la troisième chapitre, j'ai évidence les principaux points de repères qui ont caractérisé la ligne de conduite de notre prophète Mohammed (que la bénédiction et le salut de Dieu soient sur lui) pour confronter les défis tels que sa résolution pour le principe, son réalisme et sa souplesse pour faire affaire avec les événements et son traitement des problèmes. Il s'est distingué par son effication dans l'emploi des potentialités disponibles et son bon investissement au profit de la prédication continuellement et régularité sans fatigue et ennui. Il s'est distingué aussi par sa moralité élève et noble qui constituaient la ligne de conduite idéale qui a attiré les gens à l'islam et leur attachement à cette religion entant que croyance et sa mise en application entant que loi ce qui démontre son dévouement profond et sa bonne confiance en Dieu.

Le prophète (que la bénédiction et le salut de Dieu soient sur lui) a adapté le principe de progression dans la prédication et la législation conformément aux normes encours et la nature humaine qui ne tolère pas le changement progressif en tenant en compte la grille des priorités sans excès ni laxisme, en ayant la ferme intention à reconstituer l'homme avec fermeté et patience pour qu'il soit un homme vertueux, qualifié à porter la bonne foi de Dieu dans la terre par sa construction et l'adoration de Dieu, Il fonda l'état islamique on lui même avant qui il ne le fonde sa sur sa terre, il concrétisa ainsi cette bonne foi le bien et la justice et lutta contre la corruption et l'injustice et servit sa religion et transmit sa prédication.